

الموسوعة الشامية

في

ناريخ الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

المجلد التاسع والأربعون

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

«رجل عنيد، حتى في الموت لم يمكن قهره (*)»، وكان هذا الشهيد الرائع قريباً لللايرل وولتر الذي تقدم ذكره أعلاه، ونحن نعتقد أنها يحكمان معاً بمثابة أتباع للشهداء، وحدثني بالرواية عن أمير أنطاكية هذا واحد كان حاضراً، وشاهد الواقعة بعينه، واسمه المعلم رالف بيزاس Bezace، وكان وقتها طبيب الملك رتشارد، وصار بعد ذلك كاهناً في كنيسة القديس بولص، لأنه كان قد بعث إلى صلاح الدين من أجل اطلاق سراح ذلك الأمير، لكنه لم ينجح.

كيف جرى قطع أشجار رئيس أساقفة كانتربري

وفي حوالي الوقت نفسه، جرى قطع أشجار رئاسة الأسقفية، وبذلك نزل الناس الذين كانوا في تلك الأحراش إلى الفقر، وجرى توزيع موارد الكنائس الشاغرة، وفق رغبات الأجانب، الذين لم يكن الموزع يعرف شيئاً عن أخلاقهم وعلمهم، وهكذا بما أن الراعي كان غائباً كانت الشياه عرضة للذئاب.

حول الحرب بين أبناء وولدمار ملك الدانمارك

وتفجرت في هذا العام نفسه حرباً مقيمة بين أبناء وولدمار Waldemar، ملك الدانمارك، الذين كانوا يتصارعون من أجل تملك المملكة، وفي الوقت الذي كان فيه العالم كله يشجب مثل هذه الخلافات الأخوية، وكانت الممالك قد تمزقت بمثل هذه العداوات القذرة، قام آبل Abel الذي كان الابن الأكبر (والذي بالحري ينبغي دعوته باسم قابيل) بالتخطيط لعمل خياني ضد هنري، وعندما كان هنري - هذا على وشك الاستحمام، بعد لعبه بالنرد، انقض فجأة عليه، وذبح أخاه بشكل خياني، وبعد ذلك رمى بجسده في البحر، الذي

* — هذه حكاية مخترعة، فيها أصداء لقتل أرناط صاحب الكرك، وأمير أنطاكية من قبل، إثر أسره في معركة حطين، ولعلاقة للملك رتشارد بالموضوع.

قام ثلاث مرات بقذف الجسد الميت على الشاطئ، لكن آبل اللانسانى لم يرغب بدفن هذا الجسد، فأمر به فنقل إلى مسافة بعيدة، وأغرقه بالأعماق، لكن الرب لم يكن راضياً بذلك، لهذا جرى قذف جسد الملك البريء على الشاطئ، فوق البقعة نفسها، كما كان الأمر من قبل، ولهذا قامت جماعة من الرهبان الفرنسيسكان بأخذ الجسد، وأودعوه بشكل مشرف في قبر في كنيستهم، حيث استجاب الرب لصلواتهم، فمنحهم منافع المعجزات، وللبرهنة على أن الخيانة لا تلقى الحماية من قبل أي شخص، أدان نبلاء داشيا آبل هذا القاتل لأخيه، الذي لم يسمح حتى بدفن أخيه المقتول، وحكموا عليه بالنفي الدائم، وبما أنه حاول التحرك ضدهم وتحديهم، هو نفسه قتل من قبلهم، وبموافقة عامة وضع في مكانه الأخ الثالث الأصغر، ورفع إلى العرش، وهو الآن يحكم بشكل مزدهر، وينبغي أن يكون معلوماً، أن ملوك داشيا جرى منذ القدم مسحهم، وتكريسهم، وتتويجهم، وتلقى هاكو ملك النروج منفعة التكريس، وكذلك الشرعية، من البابا، وجاء ذلك بناء على دفعه إلى البابا انوسنت الرابع مبلغ ثلاثين ألف مارك من الفضة، وتم تكريسه بوساطة لورانس، الذي كان انكليزياً من حيث المولد، وكان من طائفة السسترشيان، وهو الذي صار فيما بعد راعي دير كيركستد Kirkstead في لنكولنشاير Lincalashire، وهو الذي ذهب إلى روما، وجعل القضية كلها تصل إلى محصلة فاعلة.

عودة سيمون إيرل ليستر إلى غسكوني

في العام نفسه، ومع اقتراب الربيع، عاد الايرل سيمون صاحب ليستر إلى غسكوني، مع قوة كبيرة، ومبلغ كبير من المال، وهناك وجد تقريباً جميع الرجال ذوي المراتب من أهل المنطقة قد تحالفوا في مؤامرة عامة ضده، وكانوا جاهزين للعصيان، ولذلك تجددت الحرب مع شدة مضاعفة، وحصل الغسكونيون على السوء من القضية.

حول البارلمان الذي عقد في لندن

وفي السابع عشر من شباط في هذا العام، عقد بارلمان عظيم في لندن، وذلك حسبما جرى الإعداد له من قبل، وفيه ظهر هنري أوف باث، لأن الملك كان يضطهده، وكان مهاجماً ومتهماً من كل جانب من قبل خصومه، وكان الملك غاضباً منه إلى أعلى الدرجات، لأنه قدم إلى هناك وهو محاط بكتلة كبيرة من الفرسان، وبأسرة زوجته والأصدقاء، وبأصدقاءه الخاصين، وقدم الملك ضده تهماً أعظم ثقلاً من الآخرين جميعاً، من أنه سبب الاضطراب إلى المملكة كلها، وأثار جميع جماعة البارونات ضده، ونتيجة لذلك بات حدوث تمرد عام قريب الوقوع، وبناء عليه أمر بإعلان نداء عام بوساطة المنادين في لندن، وفي البلاط من أن أي إنسان له قضية عمل، أو شكوى ضد هنري أوف باث، عليه القدوم إلى البلاط، حيث ستعرض قضيته بحضور الملك، وبناء عليه قام عدد كبير من المتهمين ضده، حتى أن واحداً من زملائه من مسؤولي العدالة، ذهب إلى القول أنه بناء على تلقيه رشوة مؤلفة من هدايا ثمينة، قام بالسماح لرجل كان قد أدين باقتراف جريمة، وسجن من أجلها، بالمغادرة دون التعرض للعقوبة، وهذا إجراء فيه إلحاق للأذى بالملك، وتعريض للخطر ومخاطرة بزملائه المسؤولين عن العدالة، ولذلك ازداد غضب الملك التهايباً، ونهض وهو يقول: «إذا ما قام أي واحد بقتل هنري أوف باث، سوف يكون محلاً من قتله، وأنا سأعلن عنه أنه محلل من ذلك»، ثم إنه غادر مسرعاً، ولقد كان هنالك بين الموجودين عدداً كبيراً ممن ودوا الانقضاض على هنري المذكور، ومهاجمته، لولا أن حكمة جون مونسيل Maunsell واعتداله قد ضبطت عنفهم، ذلك أنه قال: «سادتي وأصدقائي ليس من الضروري أن نتصرف بناء على ما قيل بتسرع وغضب، ومن المحتمل أنه عندما تزول لحظة الغضب، سوف يكون مولانا أسفاً لأنه تفوه بمثل ذلك الكلام الغاضب، وبالإضافة إلى هذا إنكم إذا ما أقدمتم على اقتراح أي

عنف ضد هنري هذا، هاهنا أسقف لندن، مع أصدقائه الآخرين، وهؤلاء الفرسان، فالقئة الأولى سوف تتولى الانتقام روحياً، والقئة الأخيرة سوف تتولى الانتقام دنيوياً»، وهكذا، استطاع إلى حد بعيد إيقاف غضبهم، وجرى منذ ذلك الوقت فصاعداً التعامل معه بلطف أكبر، وجاء ذلك بفضل وساطة الايرل رتشارد، والأسقف المذكور، ولأنه أيضاً جرى اخبار الملك، إنه سوف يكون مدهشاً إذا ما اهتم أي إنسان بخدمته، لأنه يسعى إلى قتلهم بعد تقديمهم الخدمات إليه، وبناء على وعد بدفع مبلغ من المال، تحرر هنري المذكور من جميع المخاطر على حياته، وقام بالمغادرة.

تثبيت إيثيلمار في كرسي وينكستر

وجرى في حوالي الوقت نفسه تثبيت أخي الملك لأمه إيثيلمار في كرسي وينكستر من قبل البابا، دون التقيد بصغر سنه، وبجهله بالمعرفة، وعدم كفاءته بشكل مطلق لتسلم مثل هذا المنصب الرفيع، وأن يتولى شفاء الأعداد الكبيرة من الأرواح، وقد نال رعاية كبيرة من البابا، بأنه احتفظ بالموارد التي كانت بين يديه من قبل، وقد تحقق هذا بوساطة المتابعة اليقظة للملك، ولكي يبرهن البابا أنه لم يبذر البذور على ساحل قاحل، من دون أمل من نيل منفعة من الموسم، طلب على الفور، بتجهيز ابن كونت بيرغندي، وكان مايزال طفلاً، بمنحة تخصص له بشكل مورداً له مقداره خمسمائة مارك.

وفاة وليم دي كانتيلوب

ومات في حوالي الوقت نفسه وليم دي كانتيلوب Cantelupe، وكان رجلاً صاحب مرتبة واستقامة، وصديقاً مخلصاً للملك، وقد خلفه في ميراثه ابنه وليم، الذي أبدى الملك نحوه خشونة وقسوة، قبل أن يتمكن من استحواذ ميراثه بشكل كامل، مع أن والده كان صديقاً كبيراً له، أي إلى الملك، وكان القهرمان للبيت الملكي.

اجتماع أساقفة إنكلترا في دنستيل

مع أن رئيس الأساقفة كان في هذه الآونة يبذل قصارى جهده بكل متابعة، وبقدر ما أوتي من قوة، لابل أكثر مما أوتي من قدرة، وذلك في البلاط الروماني، ليحقق مقاصده، أي الحصول على سلطة القيام بزيارات تفقدية لجميع رجال الدين، في جميع أرجاء منطقتة، وكان أساقفة إنكلترا، غاضبين تجاه هذا، (بسبب أنه كان من الواضح لهم بأنه لم يكن يستهدف من وراء هذا اصلاح السلوك والدين)، ولذلك اجتمعوا في دنستيل Dunstable، في يوم عيد القديس ماثياس Matthias، للتداول حول عمل الأذى والظلم، الأمر الذي يعينهم جميعاً ويمجنهم، ووجوب أن يقوموا بالتجهز ضد ذلك من قبلهم جميعاً، وكان هناك بين الحضور أساقفة: لنكولن، ولندن، ونورويك، وسالسبري، وإيلاي، وووركستر، ولأن أسقف شيلستر لم يكن بوضع صحي جيد، لم يستطع الحضور، وبعد نقاش وتداول دقيق، أرسلوا مندوباً عنهم المعلم ج. ل إلى البلاط الروماني، ليتقدم بشكواهم حول هذه القضية ويضعها أمام البابا، ذلك أنهم عزموا على تحرير أنفسهم من عنف رئيس الأساقفة، لابل حتى إذا كان ضرورياً أن ينفقوا أربعة آلاف مارك (لأن البلاط الروماني كان جاهزاً بالعادة لمنح الخطوة إلى الذين يقدمون الهدايا)، وبناء عليه ذهب المندوب المذكور إلى ذلك البلاط، وانطلق يعمل بكل نشاط ومتابعة حول القضية التي أسندت إليه، وفي ذلك الوقت أمكن جعل البابا يفهم — ربما من قبل المندوب المذكور، أو من قبل واحد من الأعداء الآخرين لرئيس الأساقفة — لأن مظالمه قد تضاعفت يومياً، وأن رئيس الأساقفة المذكور قام في سبيل إلحاق الأذى العظيم بالكنيسة الانكليزية، فجمع سراً أكثر من أحد عشر ألف مارك، قيل كانت قد منحت إليه من قبل البابا، وبناء عليه كتب البابا جواباً لهم،

بأن عليهم أن يقدموا معلومات وافية حول التجاوز المذكور، وتمّ تجاوز اعتداءاته الهائلة في لندن، ولم يشر إليها، إما بسبب جبن المتشكين، الذين لم يتجرأوا على متابعة دعاويهم، أو أنهم كانوا غير قادرين على انفاق المال، ثم قام البابا بالاعتراف أخيراً، بأنه كان مسروراً لانتقاله من ليون، وأنه تجنب قيود الشافويين، ووعد الطرفين اللذان تشكيا، بكل لطف ممكن، بأنها سوف يحصلان على ما هو عدل، ولكن بما أن البلاط كان يسمّن يومياً على أظافهم، ظل يؤخر إعطاء القرار المحدد، لأنه غالباً ماتشكى، بأنه عندما كان مقيماً في ليون، كان مرغماً على تنفيذ رغبات رئيس أساقفة كانتربري، مع الأسقف المنتخب للنكولن، إلى حد أنه عندما جرى تعيين أحد الأشخاص في أوقاف تلك الكنيسة بموجب سلطاته، وظهر هناك، جعل طعاماً للأسماك، حيث أغرق أثناء الليل، ولم يتجرأ هو، أي البابا، على التذمر، ولذلك بات أساقفة انكلترا أكثر هدوءاً في قرارة أنفسهم، بسبب النوايا الصالحة للبابا، ولم يخبروه عن أي شيء من تجاوزات رئيس الأساقفة، خشية من أن تعطي حشود الشكاوي مظهر الكراهية، بل تابعوا بثبات العمل في سبيل القضية الرئيسية.

الزيارة التفقدية لأسقف لنكولن

وقام في حوالي الوقت نفسه، أسقف لنكولن بزيارة تفقدية للدير المؤسسة في أسقفيته، وإذا ما أراد إنسان أن يروي أخبار جميع أعمال الطغيان التي اقترفت من قبله أثناء تلك الزيارة التفقدية، سوف يرى به ليس قاسياً فقط بل مترمناً وغير إنساني، لأنه بين الإجراءات التي قام بها، عندما جاء إلى رامسي Ramsey، يرافقه أعوانه المدنيين، ذهب يتجول في كل مكان من الموقع، حيث تولى شخصياً فحص الأسرة في مهجع نوم الرهبان، ودقق في كل شيء، إذا ما وجد أي شيء مغلقاً، قام بتدميره، وتولى فتح صناديقهم مثل لص، وداس

محطاً الكؤوس المزينة بأطر، والتي لها في أسفلها أقدام من الفضة، ولو أنه تصرف بشكل حكيم لأعطاهما إلى الفقراء وهي سليمة، والذي هو غير مناسب ذكره، أنه ذهب أيضاً إلى ديرة النساء، وأمر بعصر أئدائهن، ليحاول أن يرى مثل طبيب، إذا كانت هناك ممارسة للفسوق فيما بينهن، كما أنه كدس شتائم مرعبة عليهن، مثلما كتب موسى على رؤوس الذين خرقوا مراسيمه، وكتبت مباركة النبي نفسه على رؤوس الذين التزموا بها، وحدث على كل حال أنه جرى في الصوم الكبير التالي تعليقه من ممارسة وظيفته الأسقفية، لأنه لم يقبل أحد الايطاليين الذي كان جاهلاً باللغة الانكليزية، لأن يتسلم إحدى المنافع الغنية في أسقفيته، لكن من المعتقد أنه فعل كل شيء ليمنع الذين كانوا رعيته من اقتراف الذنوب، ذلك أنه كان مسؤولاً عن أرواحهم.

كيف جرى اخضاع ويلز للقوانين الإنكليزية

وجرى في تلك الآونة اخضاع ويلز، التي غالباً ما ثارت ضد مملكة انكلترا، وجعلها مذعنة للقوانين الانكليزية، وعهد بالجزء المجاور لشيستر إلى ألبان دي لي زوكي Zouche، وحل هذا الرجل محل جون دي غري Grey، الذي كان قد دفع خمسمائة مارك من أجل ذلك، وجاء ذلك بدفعه ألف ومائة مارك من أجلها، وهكذا عرضت ويلز البائسة للإيجار من قبل الذين هم على استعداد لدفع المورد الأكبر.

تثبيت الأسقفين المنتخبين لوينكستر وروكستر

وجرى في الوقت نفسه أيضاً تثبيت أسقفين منتخبين هما: إيثيلمار، أخو الملك لأمه، في كرسي وينكستر، والمعلم لورانس دي سينت مارتين إلى كرسي روكستر، وقد منحا الاذن بالمحافظة لبعض السنوات المقبلة على الموارد التي كانت بين أيديهم من قبل، وهكذا

صارت المخالفة أمراً مطبقاً وعادة، أي أن أي واحد يجري ترشيحه لتسلم أسقفية، يمكنه الاستمرار بمثابة أسقف منتخب، عوضاً عن أن يكون أسقفًا، وبناء على هذا لم يعد الراعي هو الذي يتولى الاطعام، بل هو الذي يطعم، ويضاف إلى ذلك أيضاً أنه يستطيع الاحتفاظ بموارده الماضية، عندما يجري تعيينه أسقفًا، وبناء عليه ظهر التنين المرعب بعدة أشكال، وأن أي أسقف جرى ترشيحه لتسلم كرسي غني، يتوجب انتقاله إليه، وبذلك صارت كنيسة ما متكئاً لكنيسة أخرى.

كيف عبر راعي دير ويستمنستر البحر

وفي هذه الآونة أيضاً، أي في الصوم الكبير، عبر راعي دير ويستمنستر البحر بشكل سري، بناء على رغبة الملك، وأوامره، وفي الحقيقة كان هناك بعض الذين قالوا بأن الملك توفرت لديه النية بالسفر بنفسه، في سبيل أن يقوم بالحج إلى بونتغناك، من أجل أن يتصالح هناك مع القديس ادموند، لأنه اقتنع بأنه أساء إليه في كثير من الجوانب، وذلك بالالتزام وقتها بمشورة النائب البابوي أوتو، وبناء عليه أذى رئيس الأساقفة المذكور وأثاره، مع أنه كان المتلقي لاعترافاته، وأوصله إلى حد المرارة في الروح، وساقه إلى المنفى، لكن الايرل رتشارد لم يقدم موافقته على مثل ذلك الحج المريب، ولم يستطع راعي الدير تأمين طريق آمن من أجل حج الملك، ولذلك شغل نفسه بقضايا تتعلق به، أي محاولة الحصول على الوسائل التي يمكنه بها ارغام رهبانه الديرين على الرضوخ له، ومن ثم الحصول على لقب قسيس البابا، وعندما سمع الملك بذلك سعى لتسبب الاخفاق له في مسعاه، وفقد من ذلك الوقت حظوة الملك، التي عليها اعتمد وبها وثق، وذلك حسبما سترهن النتيجة بشكل كامل، وهو الذي سوف تظهره الرواية التالية في النهاية.

حول الأوضاع البائسة لأنطاكية

وفي تلك الأونة (يؤسفني أن أكتب ذلك) باتت مدينة أنطاكية الجليلة، التي تم الحصول عليها مقابل ثمن سفك الكثير من الدماء النبيلة، عرضة لمخاوف غزية، ومرد ذلك إلى تزايد قوة الأتراك والتركان، وتضاعف أعدادهم، ولذلك ارتاب كثير من سكان المدينة بسلامتهم، فأخذوا يهربون، وباتت أوضاع الحكومة كلها مع الإدارة البطركية في حالة من الفوضى، لأن ذكريات انتصار السلطان، واضطراب أوضاع الملك الفرنسي، شجعت المسلمين كثيراً، وأرعبت الصليبيين إلى أعلى الدرجات.

كيف ذهب عمدة لندن إلى البلاط الروماني

وحوالي هذا الوقت نفسه، قام عمدة لندن، الذي غالباً ما تعرض للمضايقة في الدفاع عن امتيازات كنيسته، بالذهاب إلى البلاط الروماني، مع أنه كان متقدماً بالسن، وذلك في سبيل الدفاع عن حقوق كنيسته المذكورة، نتيجة للفضائح المضاعفة التي نشأت من خلال رئيس الأساقفة، ولوجود الذين أمر البابا بتحليلهم، فقام أعداؤهم، فأمرؤا باسم البابا بحرمانهم كنسياً لأسباب أخرى، ولذلك كان كفاحهم مصدر سخرية لدى العلمانيين، ولاعجب في ذلك.

كيف أغنى الملك الأجانب وأمطر

التقدير عليهم أكثر فأكثر في كل يوم

وفي هذا الوقت فقد الملك يوماً إثر يوم عاطفته نحو رعاياه الطبيعيين، حتى أنه لم يبق الآن لديه ولادرجة، ذلك أنه اتبع بشكل مكشوف سيرة أبيه، وأثار الأجانب وجذبهم بقدر ما استطاع إلى جانبه، وأغناهم، وحرّم رعاياه الانكليز الطبيعيين، وأقحم الغرباء ووضعهم مكانهم، ففي البداية كان هناك الايرل رتشارد، وبعد ذلك رئيس

الأساقفة، والآن أسقف وينكستر وإخوانه الآخرين، ثم جاء أسقف هيرفورد، وجاء أيضاً بطرس أوف سافوي، مع آخرين هو استدعاهم من جميع الجهات، وصحيح أن كثيراً من الملوك قاموا في انكلترا بالاستيلاء على العربات وعلى الخيول، وعلى المؤن، وعلى الأقمشة، وعلى كل ما هو ضروري بالفعل، فإن البواتين أيضاً، شغلوا أنفسهم في ظلم نبلاء البلاد، وخاصة الرهبان، بآلاف الطرق، وإذا ما أراد أي واحد أن يحصي فقط الأضرار التي أنزلها وليم دي بلنسية على راعي دير القديس ألبان، ورئيس رهبان التاينهاوث، سوف يبكي بدموع من قلبه، هذا وجرى تقديم رواية حول هذه القضايا في كتاب Additaments، في سبيل اختصار مادة هذا الكتاب.

وفاة الكاردينال وليم أسقف ساينا

وفي حوالي الوقت نفسه من العام، شاهد وليم، أسقف ساينا، وكان رجلاً مقدساً، كما كان كاردينالاً للكنيسة الرومانية، وهو الذي كان قبل سنوات قليلة مضت النائب البابوي في السويد والنرويج، وقد تولى تنويع هاكو ملكاً على تلك البلاد، شاهد وهو نائب في إحدى الليالي سالماً ومعافى في فراشه، رؤيا ظهر فيها الكاردينال أوتو، الذي كان قد مات قبل وقت قصير مضى، وهو جالس في نوع من أنواع المؤتمرات الذي كان فيه حشد كثيف من الناس، وذهب وليم المذكور إلى هناك، لكن ما من أحد قام لدى دخوله، أو قدم إليه مقعداً، باستثناء أوتو المذكور فقط، الذي أنهضه من كرسیه، وقال له بصوت مرتفع «تعال يا صديقي إلى الأعلى، لقد احتفظت بمكان لك لتجلس عليه»، وعندما كان أوتو حياً، كان هذان الرجلان في الحقيقة أعظم الأصدقاء، وعندما استيقظ وليم انزعج كثيراً، وأوحى إليه من عليين، بأنه سوف يغادر هذه الحياة في غضون ثلاثة أيام، ولذلك ذهب مباشرة إلى البابا، وبعدما حصل على اذنه ومباركته قال له: «وداعاً يامولاي، لأن الرب قد

استدعاني من هذه الحياة، وبعدما ودع إخوانه وأصدقائه وفق الطريقة نفسها، عاد بشكل تقوي إلى بيته، ودهش جميع الناس تجاه إجراءاته هذه، وسخر بعض الأشخاص منه قائلين بأنه صار متقدماً بالسن ومجنوناً، لأنهم رأوه يتمتع بصحة جيدة، ولم يصب بأي جرح جسدي، لكن وليم عمل جميع الترتيبات الضرورية في بيته، باتقان وكما ينبغي، وبعدما أباح خبر الرؤيا المذكورة أعلاه إلى كثيرين، عبر في اليوم التالي من مناطق هذا العام بوساطة موت مضمون.

ومات في حوالي الوقت نفسه أيضاً المعلم جون أوف أوفنغتون Uffington، وكان كاهن كنيسة سالسبري، وهو لم يكن هناك من هو أشهر منه بين الكهنة في انكلترا.

حول الخلافات بين راعي دير

ويستمستر وبين التجمع الرهباني هناك

وفي هذه الآونة تفجرت فضيحة في دير ويستمستر الفاخر، لنشوب خلاف بين الفتيين فيه، وهو خلاف لم يكن هناك مؤذياً مثله ومضراً وغير طبيعي، لأن راعي الدير كان رجلاً متعلماً وحكيماً، وكان يسعى إلى إلغاء إجراءات عمله سلفه، الذي كان قد قسم ممتلكات الدير إلى قسمين، الحصّة الأولى لاستخداماته، والحصّة الثانية لاستخدامات رهبانه، وكان ذلك في سبيل العيش متمتعين في أعظم سلام، غير أن راعي الدير هذا كان يسعى باذلاً كل جهد ممكن له لتوحيد القسمين، وأن يرضخ كل شيء ويضعه تحت تصرفه، وبناء عليه بادر مسرعاً نحو البابا، وتبعه خطوة خطوة، وأطال إقامته كثيراً في بلاطه، ولم يكن ذلك من دون انفاق مبلغ كبير من المال، ونتيجة لحكمته، وفصاحته، وبراعته خصيصاً، عدّ بين الأصدقاء المقربين من البابا، وشرفه بلقب قسيسه، وحصل على أشياء كثيرة رغب بالحصول عليها وخطط لها، ولدى سماع

رهبان الدير بهذا كله، باتوا مرعوبين كثيراً، وصاروا يخشون من أن ما رسمه بتقوى راعي الدير المتقدم، أي راعي الدير رتشارد، سوف يصبح لاغياً، وبالتالي سوف تصبح أحوالهم أسوأ، وبناء عليه أرسلوا بعض الرهبان المتفوقين في ديرهم، إلى الملك، حيث تقدموا إليه بشكوى مخزنة، وخاطبوه كما يلي: «ياصاحب الجلالة، إن راعي الدير الذي عينته علينا يسعى لاشاعة الفوضى في ديرنا، لابلحري في الدير الخاص بك شخصياً، وإلى إلغاء الذي تقرر تقويًا لسلامنا وراحتنا، وإن واجبك هو أن تحمي ديرك، لابل منزلك الملكي من الانحدار والسقوط، من خلال اعتداءات وتجاوزات أعدائه»، وعلى هذا رد الملك مرفقاً كلامه بيمين عظيم، قائلاً: «من المؤكد أنه لن يحقق غرضه»، وفي غضب وسخط، وكرهية، شعروا بأنه قد قال: «أنا آسف بأنني جعلته رجلاً».

رسالة من ألفونسو ملك قشتالة إلى ملك إنكلترا

وفي حوالي الوقت نفسه، أرسل ألفونسو [اقرأ: فرناند الثالث] الملك المنتصر لقشتالة، صدوراً عن عاطفة التقدير والاحترام للملك إنكلترا، فارساً وسيماً وفصيحاً إليه، بمثابة رسول خاص، ومن خلاله نصح ملك إنكلترا بحكم أنه كان قريبه، وبناء عليه محبوباً كثيراً لديه، بأن لايتبع خطى الملك الفرنسي، عندما سيذهب ويسافر إلى حجه، أو أن يقلد رعونة الفرنسيين، بل بالبحري أن يرتحل بشكل مضمون من خلال أراضيه، أي أراضي الملك ألفونسو، وهو شخصياً سوف يرافقه، وسوف يكون صاحبه الذي لن يفترق عنه، ومعاونه الذي لن يتخلى عنه، ولسوف يزوده بالمؤن، والسلاح وبأسطول، وعلمنا مما ذكره هذا الرسول أنه بعد الاستيلاء على مدينة اشبيلية الغنية، خضعت جميع اسبانيا كلها تقريباً حتى شاطئ البحر إلى سلطة الملك نفسه أي ألفونسو، ولقد ذكر أيضاً أن مدينة اشبيلية مع المقاطعة المجاورة لها، اعتادت أن تدفع إلى ملك المغرب (الذي ندعوه أمير المؤمنين) مورداً

ثابتاً كل أسبوع، هو أن تقول أحد عشر ألف مارك، وكان هذا المبلغ يجري دفعه في اليوم السادس من الأسبوع، ويكاد هذا مما لا يمكن تصديقه بالنسبة لنا شعب الغرب، وكان ملك انكلترا مسروراً تجاه هذه الرسالة، وفرحنا نحن أيضاً بجوهر هذه الرسالة، وكنا سنحصل على التشريف بموجبها، لولا أن ألفونسو الملك النبيل قد انتزع من بيننا بموت مبكر، ذلك أنه أذعن للموت في العام نفسه، ومات مبكياً عليه من قبل جميع المسيحيين، وعلى كل حال، حدث بقدر من الرب، أنه عندما مات حتى لا يظهر أنه فقد تماماً، ترك وراءه بعض الأولاد الشجعان ليتولوا حكم مملكته.

رسالة بدون قيمة من البابا

وفي حوالي الوقت نفسه، أرسل البابا رسالة إلى راعي دير القديس ألبان، جاء محتواها كما يلي:

«من أنوسنت، أسقف، إلخ، إلخ، إلى أبنائه المحبوبين، راعي دير القديس ألبان ورهبانه في أسقفية لنكولن، تمنيات الصحة، ومباركات رسولية:

بما أن ولدنا المحبوب كثيراً جون دي كيمكيف Camecave، الذي هو حفيدنا وقسيسنا مستحوذ على كنيسة وينغريف Wengrave بموجب حق التقديم الذي هو — كما نفهم — عائد إليكم، نحن نرجوكم بموجب العاطفة الأبوية، وبهذه الرسائل الرسولية نأمركم بتبديل الكنيسة المذكورة بأول كنيسة عائدة إليكم سوف تصبح شاغرة، والتي سوف يرى القسيس المذكور أو نائبه المنتدب بأنها موافقة للقبول، مع الاحتفاظ بوينغريف لتكون أعطينا، دون التقيد بأي منع، أو تحفظ مهما كان، ودون التقيد أيضاً حتى بالغفرانات التي يقال بأنها ممنوحة إلى الانكليز، والمتعلقة بمنافع الكهنة الايطاليين الذين يتخلون عنهم أو

يموتون، وفي أن لاتعطى على الفور إلى واحد آخر من الكهنة الايطاليين. صدر في ليون في الثاني عشر من كانون الأول».

ولقد أقحمنا هذه الرسالة في كتابنا في سبيل أن تعرفوا مدى الآلام والأذى الذي أنزله البلاط الروماني على الانكليز التعساء، لأن كل من يتولى تقدير مقاصدها، يمكنه أن يجد فيها التحدي، والأذى، والظلم، وأن كلمات شجب الرسول تطبق عليها وهو قوله: «ما لم يتم الفصل أولاً، فإن ابن الظلم لن يظهر»، فها هنا القضية، وهاهي الأسباب التي تبين لماذا ينسحب الناس من الكنيسة بالقلب، وليس بالجسد، وذلك بسبب أبينا البابا، الذي أثير ليتصرف بعناد مثل زوج الأم، الذي ينفس عن غضبه بالتنكيل بزوجة الأب.

وصول الملك إلى سينت ألبان

ذهب الملك في هذا العام، في أحد أسبوع الآلام إلى سينت ألبان، وبقي هناك ثلاثة أيام، قدم خلالها ثلاثة طيلسانات إلى القديس ألبان عند المذبح الكبير، وقدم طيلساناً إلى القديس أمفيبالوس Amphibalus، وأعطى بعض التقدييات من الذهب إلى مزار القديس ألبان، ولقد كان على كل حال معاق كثيراً في تنفيذ العدل بالنسبة لقضيتنا، التي كانت مؤذية كثيراً لنا، وهي القضية التي كانت قائمة بين كنيسة القديس ألبان وغيوفري دي تشايلدويك Childe-wick الذي اقترف تجاوزات كثيرة جداً حتى نتمكن من روايتها، وخرق بعنف سلام المملكة، وكرامة التاج الملكي، وفعل ذلك بالقوة، وتصرف مثل قاطع طريق، فاستولى على حصان كان محملاً بالهدايا من واحد من خدم كنيسة القديس ألبان، ونتيجة لذلك جرى اتهامه من قبل الخادم بخرق السلام، وتم الحصول على مذكرة من الملك، فيها جرى اتهام هذا الفارس بالجريمة، وألصقت به، إذا ما كان بإمكاننا استخدام هذه الكلمة المأخوذة من مفردات العدالة، ولكن عندما شاهد راعي

الدير الفتور في العدالة، واعفاء الملك وتراخيه، ومعه جون مونسيل Maunsell، الذي كان مستشاره الخاص، والذي كان أيضاً زوج أخت الفارس المذكور، وصدوراً عن حظوته لدى الملك، وأنه سيقف منحازاً إلى الفارس، عندما شاهد هذا كله أهمل الترافع بالقضية، ومع ذلك فإن هذا الفارس العاق، لم يتقيد بهذا، وسعى بشكل دنيء وخياني إلى إيذاء الكنيسة، وراعي الدير، ورهبان القديس ألبان، مع أنه كان تابعاً لهذه الكنيسة، وتولى جون المذكور حضه وتشجيعه، وحشه على الاستمرار، وساعده.

حول اعتقال فارس اسمه روبرت وموته

وجرى في هذه الآونة اعتقال أحد الفرسان واسمه روبرت كاندوس Chandos، وكان رجلاً قوياً وجريئاً، وكان تابعاً لحاشية بيت جون أوف مونهاوث Monmouth، وكان هذا الرجل لسبب ما قد تخلص من خدمة مولاه جون وهو غاضب، وانخرط بصحبة عدد من المتعاونين معه، وشغل نفسه سرّاً وعلناً، مثل حشيشي شرير في أعمال السرقة والقتل، وعندما كان الملك مقيماً في كنيسة القديس ألبان، حسبما ذكرنا أعلاه، وصل إليه تقرير بأن أعوان إيرل غلوستر قد اعتقلوه، وألقوا به في السجن، حيث بقي مغلولاً بشدة لأن سجانیه كانوا خائفين منه، وقد مات هناك ميتة تعيسة.

وفاة العقيلة التقية سيسيليا دي ساندفورد

وفي الثالث والعشرين من تموز في هذا العام، وعلى بعد حوالي التسعة أميال عن سينت ألبان ماتت امرأة مقدسة كثيراً اسمها سيسيليا أوف ساندفورد Cecilia of Sanford، وكانت أرملة من أصل نبيل، وكانت أكثر نبلاً بأخلاقها، وكانت أرملة وليم دي غورهام Gorham، وكان فارساً، وأم وليم دي غورهام الأصغر، والذي

كان أيضاً فارساً، وبعدما مكثت لسنين طويلة أرملة، ولأنها كانت متعلمة وفصيحة، انتخبت لتكون معلمة وموجهة لجوهانا Johanna أخت الملك، والتي كانت أرملة وليم مارشال الأصغر، وفيما بعد صارت جوهانا زوجة و. W دي بلنسية، وقامت هذه السيدة سيسيليا مع جوهانا، كونتيسة بمبروك Pembroke، وكانت آنذاك أرملة، بحضور القديس ادموند، وكان آنذاك رئيساً لأساقفة كانتربري، فقطعت على نفسها عهداً مهيباً بالالتزام بعفة دائمة والبقاء أرملة، ومع خاتم الاقتران ارتدت الثوب الخمري اللون، الذي كان يرتدى بمثابة علامة على العذوية الدائمة، ومثلما فعلت، فعلت تلميذتها الكونتيسة جوهانا، لكن جوهانا هذه رغبت فيما بعد بأن تصبح أمّاً، فحصلت على تحليل من البابا، وتزوجت من إيرل أوف ليستر، وحافظت سيسيليا —على كل حال— في كل من العقل والسلوك، من دون احباط على عهدها الذي قطعت للرب حتى وفاتها، وعندما شعرت بدنو منيتها، استدعت بسرعة المتلقي لاعتراقاتها، الراهب وولتر دي سينت مارتين، الذي كان من طائفة الدومينيكان، والذي كان رجلاً متعلماً وفصيحاً، وبعدما عملت اعترافاً كاملاً، وتمتنت بقربان جسد ربنا للموت، وتلقت مسحاً أقصى، تمددت تنتظر الموت، وعندما شاهد الراهب وولتر الخاتم الذهبي على اصبعها، قال لخدمها الذين كانوا يرعونها: «انزعوا هذا الخاتم على الفور، حتى لا تموت وهي مزينة»، لكن سيسيليا، مع أنها كانت شبه ميتة، سمعت هذه الكلمات، فاستردت أنفاسها وسعت لأن تتكلم، وقالت مايلي: «بعيداً هذا عني، أيها الأب العزيز، أن يتركني هذا الخاتم مادمت حية، فأنا سوف أقدمه أمام محكمة الرب، الذي هو قريني، شهادة على الطهارة الدائمة التي أنا وعدته بها بوساطة هذا الخاتم، في سبيل أن أتمكن من تلقي الجائزة الموائمة، وأنا أعرف الذي أثق به، لأنني لهذا السبب رفضت معانقة النبلاء والمهور الثمينة التي عرضت علي»، وما أن أكملت قولها حتى سحبت يدها،

وحنّت اصبعها، وحافظت بثبات على الخاتم، مع أن الخدم حاولوا انتزاعه، ومع الانتهاء من كلامها أنهت حياتها، وبما أن الراهب وولتر كان رجلاً مستقيماً أطرى على كلامها التقوي، وعلى غايتها التقية، وروى ذلك لي، أنا كاتب هذه الصفحات، وأخبرني أيضاً بأمثلة أخرى عن قداستها، وتمّ جلب جسدتها والخاتم ما يزال في اصبعها، إلى كنيسة القديس ألبان، وبسبب الامتياز الذي منح لعزوبيتها، ولنبالة أسرتها، دفنت بشكل مشرف في قبو حجري أمام مذبح القديس أندرو في تلك الكنيسة، وأثناء القيام بالمراسيم المهيبة للدفن، كان حاضراً راعي الدير والرهبان، وعدد كبير من الفرسان والنبلاء من أسرة السيدة المتوفاة، وكان من بين هؤلاء نيقولا أوف ساندفورد، أخوها، ونتيجة للحزن الذي شعر به لوفاة أخته النبيلة، لم يتقدم صحياً بعد ذلك، فهو قد كان شاباً، ووسيماً في شخصه، وكان الفارس الأول في انكلترا في الشجاعة، لكن بعد مرور بعض الوقت، في الحزن، دفع في العشرين من كانون الثاني من العام نفسه دين الطبيعة.

مغادرة البابا لمدينة ليون

وفي العام نفسه، في موسم الاحتفالات، غادر البابا مدينة ليون، مرافقاً بكرادلتة، وبعدد كبير من النبلاء، وكان دليله فيليب الأسقف المنتخب لليون، وكان محاطاً بحاشية كبيرة من الرجال المسلحين، خوفاً من اعتداء من أصدقاء فردريك، وعندما بات كل شيء جاهزاً للمغادرة، تولى الراهب هوغ، وكان كاردينالاً، باسم البابا، توديع سكان ليون، ووعظ بشكل علني بقداس إلى الناس، وبعدما أعطاهم توجيهات صالحة، وودعهم بشكل أديب، وأستأذنهم باسم البابا والبلاط كله، أضاف إلى ذلك خطاباً، نعتقد أنه من الموائم ادخاله في هذا الكتاب بسبب التوبيخ الشديد الذي ورد فيه، حيث قال: «أيها الأصدقاء، عملنا منذ وصولنا إلى هذه المدينة كثيراً من الأعمال الصالحة،

ووزعنا الصدقات بشكل واسع، لأننا عندما قدمنا إلى هنا وجدنا ثلاثة أو أربعة بيوت دعارة، والآن عند مغادرتنا خلفنا وراءنا بيتاً واحداً فقط، لكن هذا البيت ممتد من الباب الشرقي للمدينة إلى الباب الغربي، وأساء هذا الخطاب إلى جميع النساء وأزعجهن، ذلك أنه كان هناك منهن عدداً كبيراً جداً لسباع هذا القديس والخطاب، لأنه جرى جمع سكان المدينة بواسطة صوت المنادي، باسم البابا، لأنه كان على وشك مغادرتهم، وجرى تناقل هذا الكلام الحاد من فم إلى فم بين كثيرين، لأن سخريته أصابت الجميع سواء.

كيف وصل البابا دونما أذى إلى ميلانو

وبعد كثير من المخاطر والمصاعب، وصل البابا دونما أذى إلى ميلانو، في يوم عيد ميلاد القديسة مريم، وعند وصوله جرى استقباله من قبل السكان، الذين رحبوا به بتشريف عظيم، لكنه بعدما أمضى شهراً بينهم، طالبوه بدفع مبلغ كبير من المال، قالوا بأنهم أنفقوه في التصدي إلى الامبراطور فردريك، في سبيل كرامة الكنيسة، وهو شخصياً، وعلى هذا الطلب، يقال بأن البابا أجابهم بهدوء كما يلي:

«أصدقاء الرب والكنيسة، نحن نعرف معرفة جيدة بأنكم عرضتم أنفسكم إلى كثير من المخاطر والخسائر، في سبيل كرامة الرب، وكنيسته، ونحن أنفسنا، لكنكم تعرفون جيداً بأنني طردت من المدينة (روما) وكنت متفياً، وعانيت من كثير من الخسائر، بالاضافة إلى كرامتي، وإنه على كل حال عندما يتسم الحظ لنا وللناس كما أمل، وأثق أن يكون ذلك بفضل جهودكم، سوف أنفقكم بكثير من الكرامات»، وبهذا الخطاب وخطابات مشابهة له، وبتقديم الهدايا، التي قدم منها البابا كثيراً بيدين مفتوحتين، ومع كثير من الوعود والأمان، تمكن بحكمة من تهدئة غضب سكان المدينة، لأنه كان يعلم بأن يده محبوسة بشدة في فم الأسد، وعلاوة على ذلك حصل على وعد منهم، بأن جميع سكان

المدينة، سوف يرافقونه وهم مسلحين بشكل جيد، ويوصلونه سالماً دون أذى وبدون خسارة إلى حدود ممتلكاته، وذلك بهدف حمايته من جميع مؤيدي فردريك، ثم إنه انطلق، إنما ليس من دون نفقات كبيرة نحو بيروجيا Perugia، ولم يرغب بدخول أية مدينة كبيرة، خشية الوقوع مثل سمكة في شبكة الصيد، وأن لا يتمكن من الخروج ثانية، ولذلك لم يوفر جنبي فرسه وأسرع بقدر ما استطاع في سفره حتى وصل إلى بيروجيا، حيث استقبله السكان بكل اخلاص مستحق، وذلك صدوراً عن التقدير للريح الذي سوف يحصلون عليه من الناس الذين سوف يتدفقون على هناك.

وصول راعي دير ويستمنستر عائداً من البلاط الروماني

ووصل في حوالي الوقت نفسه، راعي دير ويستمنستر، وقسيس البابا، عائداً من البلاط الروماني، وهو متورط بعمق بالديون، وبالمسؤوليات القانونية، لأنه أقام طويلاً في ذلك البلاط، ونال لنفسه عواطف كثيرين كانوا هناك، إلى حد أنه اعتقد بأنه كان الرجل الذي كان بإمكانه تحمل القضايا الصعبة، وأنه سوف يبقى كلية مع البابا، وقد وصل الآن مسلحاً بكثير من السلطات المضاعفة ليرغم الرهبان في ديريه على الخضوع لإرادته، وتوجه على الفور إلى عند الملك في ويندسور Windsor، حيث رتل قداساً أمامه وكأنه كان البابا، لأنه كان مدهشاً ومتميزاً بصوته وكذلك بوساطة شخصيته، ثم إنه اقترب واثقاً من الملك، وأراه رسائل من كثير من الأمراء، والتمس منه اذنه، أن يتولى الإدارة الكلية لدير وينكستر، الذي عهد الملك بولايته إليه، وأن يدمج الحصتين المفصولتين للممتلكات في كنيسة في حصّة واحدة، وتجاه هذا الطلب، نظر الملك، الذي كانت عواطفه قد نأت عن راعي الدير، وصدق به شزراً، وتفوه بكثير من عبارات الملامة والتوبيخ التي لا يمكن ذكرها، ووجه الاهانات إليه، وكان من بين مقالته توبيخاً أنه أعلن بأنه قد رماه — أي راعي

الدير — دون أن يستحق ذلك، وأنه تصرف بشكل غير حكيم بدعوته إلى استشارة سرية، وقال له: «كيف يمكنني أن أضع أية ثقة بك وبإخلاصك، وأنت الذي سعيت إلى ظلم ومضايقة رهبانك مع الذين كانوا أصحابك والضيوف على المائدة لوقت طويل مضى؟»، وقام عدد كبير من أصدقاء راعي الدير، كان منهم جون مونسيل مع كثيرين آخرين عددهم كبير جداً حتى نقوم بذكرهم بالاسم، فتوسطوا من أجله، ومع ذلك قام الملك وهو غاضب بطرده من مجلسه الاستشاري، وأبعده عن حظوته، وبعد لأي وافق راعي الدير — الذي كان بإمكانه إثارة غضب الملك بسهولة — على الالتزام بقرار يصدر عن لجنة تحكيم مؤلفة من جون المتقدم ذكره أعلاه، ومن الايرل رتشارد، إذا كان ذلك يرضي الملك، ووعد بأنه سوف يصادق على الذي سوف يقرانه ويوافق عليه، وقد وافق على هذا بالرضا المجمع الديري، مع أن المحكمين كانا صديقين حميمين لراعي الدير، ومثل هذا أعطى الملك موافقته، وبعد كثير من المناقشات، وافق الحكمان على رغبات الرهبان ومطالبهم، ورفضاً لطلبات راعي الدير، لأنها علماً بأنهما سوف يرضيان الملك بهذا القرار، ومع ذلك فإن هذا الخلاف لم يصل إلى نهاية في هذا العام.

فقدان الملك الفرنسي للمال في البحر

وفي الوقت نفسه أرسلت أم الملك الفرنسي مع أخويه مبلغاً كبيراً من المال من أجل فديته، ولكن عندما كانت السفينة الحاملة للمال تسير في البحر، هبت عاصفة، وغرقت السفينة مع كل شيء كان على ظهرها، وعندما سمع الملك الفرنسي التقي بهذه الحادثة قال: «لا هذه الكارثة ولا أية كارثة أخرى سوف تنأى بي وبعاطفتي عن المسيح»، وهكذا اطمأن هذا الملك النبل وواسى ومتن الذين رأى أن قلوبهم ضعيفة، وبذلك بدا وكأنه الثاني ليعقوب، حتى أن المسلمين أشفقوا عليه وأعجبوا بمثابرته وبشباته العقلي.

الفيضان غير الاعتيادي في فريزلاند

وتدفقت في العام نفسه بعض المياه، كما هو معتقد، من صدر البحر، وسببت فيضانا غير عادي في فريزلاند، غطى وجه تلك البلاد لمسافة سفر حوالي السبعة أيام، وبهذه الزيارة التفقدية للانتقام الرباني، وفي تلك الأثناء، جرى دمار جميع القطعان، لكن بعد مضي أربعين يوماً عادت كتلة المياه المدمرة هذه إلى مكانها المعتاد، ثم قام الناس من أهل الجوار الذين بقيوا أحياء بالتفتيش في كهوف الصخور، والقلاع شبه المدمرة، حيث تمكنت الأمواج المدمرة من قهر السكان، ووجدوا هناك أعداداً كبيرة جداً من الأجساد المرتدية، حول أذرعتها، ورقابها، وأصابعها، والأجزاء المتبقية من أجسامها سلاسل زينة، وعقوداً، وخواتم، وأحزمة ثمينة، ومشابك ذهبية، مع أثواب ثمينة، تساوي جميعها مبلغاً هائلاً، فقد قام هؤلاء الناس، وهم على وشك الهلاك، بربطها حول أجسامهم، من أجل أنه لدى العثور عليهم فيما بعد، أن يجري دفنهم بجاهزية، وأن يمنحوا طقوس الدفن بكرم زائد، وهكذا حدث أن الذين بقيوا أحياء صاروا الآن أغنياء بوساطة أسلاب هذه الأجساد، ومضى كثير منهم إلى سوق القديس بوتولف Boutlph، وباعوا ذهبهم، وفضتهم، وجواهرهم، وفق شروط جيدة إلى التجار الذين كانوا على استعداد لشراهم.

عودة هنري أوف باث إلى البلاط

وفي حوالي يوم عيد القديسة مريم المجدلية، عاد هنري أوف باث، الذي تقدم ذكره أعلاه، إلى البلاط، واسترد حظوة الملك بوعده إياه بألفي مارك، ونسي بذلك جميع المصائد التي نصبت له، ونجا منها من قبل.

وصول الأسقف المنتخب لوينكستر

إلى إنكلترا قادماً من البلاط الروماني

وقدم في هذه الآونة أيضاً ايشيلمار، أسقف وينكستر، من القارة، ونزل في إنكلترا، تحيط به حاشية كبيرة وبأبهة عظيمة، ولدى وصوله، مضى الملك وهو مسرور لاستقباله، يرافقه عدد كبير من النبلاء، خاصة من البواتيين، وكان من بينهم أخويه: وليم دي بلنسية، وغيوфри دي لوزنغان، الذي كان الأخ الثالث للملك، وبعد التعبير عن سرورهم فيما بينهم، ذهبوا إلى وينكستر، وفي اليوم التالي لعيد القديسة مريم المجدلية، الذي كان يوم أحد، اشتركوا مع بعضهم بالعيد هناك، وهكذا طارت جميع عظمة إنكلترا ونبالتها، وذهبت إلى الأجانب، لأن الانكليز المحليين قد أبعادوا كلياً، وكان لدى الأسقف المنتخب المتقدم ذكره، سبباً إضافياً للسرور، لحصوله على حظوة البابا، وعلى حظوة الملك التي نالها بموجب علاقة الأخوة بينهما، وبموجب ذلك احتفظ بالممتلكات وبالموارد التي كانت بين يديه من قبل، والتي وصلت إلى أكثر من ألف مارك، وهي التي، مع أنه أسقف منتخب مسكين، قد حصل عليها من استخراجات أخيه الملك، لأن من المعتقد أنه لم يكن هناك كنيسة مفردة في إنكلترا، هي مشهورة، لم يتم امتصاص الحليب من صدرها حتى جف، ولقد رأينا أنه من المناسب أن نقحم في هذا الكتاب رواية لا بد من أن تسبب جريان الدموع من عيون قرائي، فقد أرغم راعي دير كنيسة القديس ألبان، من خلال الاستخراجات الهائلة والتي بلاحياء، للملك، على دفع مائة شلنغ من خزائنه، لصالح سيمون الذي كان كاهناً من نورويك، مع أن سيمون هذا المذكور كان قد مات في العشرين من عمره، ولقد طالب الملك قبل دفنه تقريباً، بأن يجري تحويل المورد ليسمن به شخص آخر، كان أيضاً من الأجانب، وهذا ماجرى تنفيذه، مع أن ذلك كله كان ضد رغبة راعي الدير، وسبباً لحزنه،

وعلاوة على ذلك طلب الملك بوجوب منح عشرة ماركات سنوياً من خزائنه، إلى أخيه ايثيلمار، الذي هو الآن الأسقف المنتخب لوينكستر، وبناء عليه، عندما جرى انتخاب ايثيلمار إلى ذلك الكرسي، طالب على الفور بتحويل هذه العشرة ماركات، التي كان ايثيلمار قد تسلمها لعدة سنوات، ودفعها إلى كاهن بواقي صغير، الأمر الذي سبب الخطر للكنيسة، وكذلك الخسارة، وبذلك توفرت الظروف لأن يلحق بالكنيسة ضرر لا يمكن تعويضه، وأن تصبح عرضة للعبودية، وبالإضافة إلى هذا لم يتردد الملك بطغيانه عن إنزال أضرار كثيرة متكررة ومضاعفة، ووضع أعباء ثقيلة على كنيسة القديس ألبان، الذي كان رائد الشهداء الانكليز، وهذا كله مزعج لأن يقوم الكاتب بوصفه، ومرهق للسامع حتى يصغي إليه.

موت بوينتز بيبر

وفي الخامس من حزيران من هذا العام، غادر طريق الجسد، فارس متعلم، أو بالحري كاهن فارس اسمه بوينتز بيبر Poyntz Piper، وجاءت وفاته في لندن، ولقد كان ساقى الملك، وواحداً من مستشاريه الرئيسيين، وكان عندما بدأ يدور حول بلاط الملك ويتردد عليه بالكاد يمتلك فدانين من الأرض، وذلك كما هو معروف بشكل جيد، لكنه تمكن خلال مدة وجيزة، بوسائط قانونية وكذلك غير قانونية، من الحصول على كثير من الأراضي والموارد، حتى أنه امتلك أكثر من خمسين فداناً من الأراضي الجيدة، وباتت لديه ثروة إيرل، لابل حتى إنه ادعى لنفسه فخار حمل هذا اللقب، وكان شاربياً للأرض لا يعرف القناعة، ولا مثيل له في بناء العزب، ومن دون أن نذكر أعماله الأخرى الكثيرة، تولى تزيين عربة تيدنغتون Tedington، ببناء قصر فيها، وبيعة، وغرف نوم، وبيوتاً أخرى من الحجارة مغطاة بالرصاص، وشيد حدائق ومطارد هناك، كانت محط إعجاب كل الذين شاهدوها، وقد

ذكر العاملون في أبنيته أنهم بقيوا عدة سنوات، يتلقى أحدهم مائة شلن في كل أسبوع، وغالباً ما كان أجر كل واحد منهم عشرة ماركات، وبعدما جرى فتح جسده، جرى دفنه في لندن، لكن قلبه جرى حمله إلى تيدنغتون، وهو القلب الذي بقي في حالة عدم استقرار خلال حياته، وتزوج جون دي غري Gray، الذي كان فارساً شجاعاً ووسياً من أرملة بويترز المذكور، وصار خليفة غير متوقع له، وبذلك سكن الأبنية الفخمة، التي بالكاد كانت قد كملت، وهكذا فإن جسده قد قسّم، وممتلكاته أيضاً قسّمت وتفرقت:

ليس لنفسك أيتها النحلات تصنعين العسل

تأين بولينوس Paulinus بيبر

أنت يابولين بيبر حماك الرب

وعندما تقوم من قبرك أمل

أن تمنح بفضل نعمة ادوارد

حياة أبدية مباركة في السماء

تأين آخر للشخص نفسه

هنا يرقد تحت الأرض رماد بويترز بيبر

تفكروا، أنتم يا أبناء الفناء:

أنا ماستكونون أنتم، وما أنتم عليه الآن

قد كتته.. وأن يرتفع إلى السماء النذر التقي

والدعاء إلى الرب الذي أحججه في وقت عوزي هذا

في أن لاتتغذى الديدان على جسدي

وصول راعي دير كلوني إلى إنكلترا

وفي حوالي الوقت نفسه، قدم راعي دير كلوني إلى إنكلترا، ليزور رهبانه، وليصلح طائفتهم، وليتولى فحص كمية أموالهم، لكنه عندما كان مقيماً في إنكلترا، ناوياً الحصول على بعض المرباح، قام بعض جيرانه في القارة بالاستيلاء بالقوة على بعض قلاعه مع متعلقاتهم، وبناء عليه أرغم على العودة على الفور.

كيف تم العثور على بعض الرهبان

الموتى في كنيسة القديس ألبان

جرى في هذا العام، أثناء عمارة بعض الأبنية الحجرية قرب المذبح الكبير، في الجانب الجنوبي من كنيسة القديس ألبان، العثور على عظام بعض الرهبان الموتى، بلغ تعدادهم حوالي الثلاثين، وقد جرى جمعهم بكل عناية، ووضعوا في قبوين حجريين، تحت قنطرة عملت في الجدار، وقد عمل هذا لسبب جيد، لأنه كان من المعتقد وجود كنز ثمين مخفي هناك، وكانت عظام بعض الأجسام بيضاء مثل العاج، لابل أكثر بياضاً عندما جرى تفتيتها، وأعطت رائحة كأنها قد دهنت كلها بزيت معطر، وكانت أحذية هذه الأجساد —علاوة على ذلك— سليمة بنعالها، ومن الواضح أنها كانت مناسبة لاستخدامات الفقراء، وكانت النعال نفسها مستديرة، لذلك كانت مناسبة لأي قدم من القدمين، من دون تمييز، وكانت الأحذية مربوطة بخيوط، وكانت بعض هذه الخيوط مائتال سليمة، وهذه واقعة سببت العجب والدهشة لجميع مشاهديها، خاصة وأن القبور عدت بأن عمرها مائة سنة على الأقل، وبحكمة وتقوى اعتقد بأن هذه علامة على قداستهم، ولدى تفكير بعض الرهبان الأحياء الآن حول هذه المسائل، انفعلوا وحزنوا، وقالوا فيما بين أنفسهم، مع تنهدات عميقة: كم كان أسلافنا وآباءنا مبجلين، حتى أنهم استخدموا

مثل هذه الأشياء، التي فيها اشارات إلى قداستهم، آه أيها الرب، كم هي موثوقة البينات التي عملتها، وكم هي واضحة البراهين على صلاحهم وسعادتهم، خاصة في بياض عظام وطيب رائحة هؤلاء الرجال المتواضعين، ثم إنه بلا شك، كانت كنائس هؤلاء الرهبان قد تلقت السعادة مضاعفة في الأمور الدنيوية، وفي القضايا الروحية، وهي الكنائس نفسها، التي من خلال انتقام الرب، لضلالها وابتعادها عن طرق آبائها، معاقة ومتضررة من قبل الأساقفة وكذلك من قبل النبلاء، اخجلوا أنتم يارهبان أيامنا، الذين ترتدون، لبالحري تترينون بالأنواب الناعمة، والرفيعة والثمينة، وماالذي يمكن قوله عن القمصان التي ترتدونها، وعن القبعات التي تلبسونها أيها الناس؟ آه، لو أن القديس بندكت يعود إلى الحياة — وهو الذي كان قد شاهد في بعض الأحيان العالم كله قد تجمع تحت أشعة الشمس — ويرى هذه الأشياء (وفي الحقيقة لابد بالفعل أن يراهم) إلى أي حد سوف يشعر بالانزعاج والغضب، ولو أن القديس برنارد، تمكن من رؤية هذه الأشياء، كيف كان سيتأوه أسفاً، لأنه كان قد قال وكتب: «مامن شيء أكثر اغضباً للرب، من راهب أكل طعاماً لطيفاً، وارتنى ثياباً ثمينة، ولبس حذاء ناعماً خفيفاً».

وفاة غيوفري قهرمان الملك

وفي العام نفسه، وفي الوقت نفسه، الذي غادر فيه بويتز هذه الحياة، كما تقدم الذكر أعلاه، مات غيوفري الفارس النبيل، قهرمان قصر الملك، والمستشار الخاص له.

كيف جرى استدعاء السماسرة إلى العدالة

أصبح في حوالي الوقت نفسه المرابون من وراء الألب الذين ندعوهم باسم السماسرة Causins كثيري العدد، وصاروا أغنياء إلى حد

أنهم شيدوا قصوراً فخمة لأنفسهم في لندن، وقرروا أن يقيموا هناك بشكل أبدي، مثل السكان المحليين المولودين هناك، ولم يتجرأ الأساقفة على التذمر لأن السماسرة قد أكدوا أنهم كانوا وكلاء البابا، كما لم يتجرأ سكان المدينة على التعبير عن عدم رضاهم، لأن هؤلاء كانوا محميين من قبل بعض النبلاء، وينالون حظوتهم، الذين قيل بأن أموالهم قد وضعوها لديهم في سبيل جمع الفائدة، وفق طريقة البلاط الروماني، وحدث على كل حال أنه تم بناء على رغبة الملك وبتوجيه منه، أن وجهت إليهم تهماً ثقيلة عرضت ضدهم في المحاكم المدنية، وجلبوا إلى المحاكمة أمام القاضي، وجلس أحد القضاة في لندن، ممثلاً للملك، وقد اتهمهم، ووجه إليهم تهماً بأنهم كانوا منشقين، وهراطقة، ومجرمين بالخيانة ضد الملك، ذلك أنه مع أنهم أعلنوا عن أنفسهم بأنهم كانوا يؤمنون بالمسيحية، كان من الواضح تماماً أنهم لوثوا مملكة انكلترا بتجارتهن الدنيئة في ممارسة الربا، وتجاه ذلك تشكى الملك المسيحي، لأنه تأثر كثيراً وجرح في ضميره، بحكم أنه كان قد أقسم على الحفاظ على مؤسسات الكنيسة دونما أذى، وبما أن السماسرة لم يكن بإمكانهم إنكار التهمة، جرى اعتقال بعضهم، وعهد بهم إلى السجن، وأخفى آخرون أنفسهم في أماكن نائية، وفرح اليهود لاتخاذ هذه الإجراءات، لأنهم أصبحوا الآن شركاء لهم في حالة العبودية، وعلى كل حال أمكن أخيراً عن طريق دفع مبلغ كبير من المال، فسمح لهؤلاء السماسرة —المنافسين لليهود— بالعيش بسلام لبعض الوقت، وأخبرني واحد منهم، أنا كاتب هذا العمل حول هذه القضايا، وأعلن لي مؤيداً لإعلانه يمينه، أنهم لولا عمارتهم هذه البيوت الثمينة في لندن، بالكاد لم يبق أحد منهم في انكلترا.

وفي هذا العام أيضاً، تولى البابا صياغة بعض الفتاوى، التي يمكن للمقاريء الحريص أن يجدها في كتاب Additaments.

حول اجتماع الرعاة في فرنسا من أجل الاستيلاء على الأرض المقدسة

وفي حوالي هذا الوقت، تصور عدو الجنس البشري بعض الآمال المطمئنة، بأن نهر الأردن سوف يتدفق على فمه، مثلما هو يشرب الآن منه بوسائط سلطان مصر، ولدى مشاهدتهم أنه في فرنسا الحلوة الإيمان المسيحي كان يترنح، وبات جاهزاً للسقوط، فشغل نفسه في تأسيس نوع جديد من العقيدة الزائفة، وكان هناك أحد الأشخاص من أصل هنغاري، كان قد بلغ الآن الستين من عمره، ولقد كان منذ صباه مرتداً عن الديانة المسيحية، وقد تقمص بشكل جشع الزيف والمكر الصادر عن الجحيم، وأصبح خادماً وتلميذاً لمحمد (صلى الله عليه وسلم)، وعلى هذا وعد مخلصاً سلطان مصر، الذي أصبح أيضاً عبداً له، بأنه سوف يقدم إليه عدداً كبيراً جداً من الأسرى المسيحيين، حتى تصبح فرنسا مهجورة من الناس، ومحرومة من ملكها، وبذلك تغدو إمكانية الدخول إلى تلك البلاد المسيحية أكثر سهولة بالنسبة للمسلمين، ثم إن هذا الدعي، الذي عرف اللغة الفرنسية، واللغة الألمانية، واللغة اللاتينية، قام من دون تفويض من البابا، أو ضمانة من أي أسقف، فتجول هنا وهناك، وأخذ يبشر، ويؤكد كاذباً بأنه تلقى أوامر من القديسة مريم، أم ربنا، بأن يجمع الرعاة والذين يتولون حفظ الحيوانات الأخرى، فهؤلاء، حسبما أعلن، قد منحوا من السماء السلطة، بحكم تواضعهم وبساطتهم، بأن يتولوا انقاذ الأرض المقدسة، مع جميع الأسرى من بين أيدي المسلمين، ذلك أنه قال بأن فخار فرنسا من الجند كانوا غير مرضين للرب، ودعمت فصاحة خطبه، مثلما فعل حين أمسك بيديه المضمومتين إلى بعضهما ورقة — ادعى كاذباً — بأنها تحتوي على أمر العذراء المباركة، واستدعى جميع الرعاة للالتحاق به، فتخلوا عن قطعانهم، ومواشيهم، وخيولهم، وقاموا من دون التشاور مع مواليتهم أو أقربائهم، باللاحاق به

على أقدامهم، دون الاهتمام مطلقاً بالطعام، لأن هذا الرجل قد مارس البدع الرئيسية التي كان قد تنبأها من ذلك الشاب الأمرد في فرنسا، والذي فتن الشعب الفرنسي، وجمع حشداً كبيراً جداً من الأطفال، الذين ساروا وراء خطاه، وهم يغنون، والذي كان مدهشاً، أنه كان من غير الممكن منعهم لابلغاليق ولا بالحواجز، كما لم يكن من الممكن اعادتهم بوساطة الأوامر والالتماسات أو بوساطة هدايا آبائهم وأمهاتهم.

وبوساطة البدع نفسها، يحكى بأن روبرت بوغري Bugre، الذي كان راهباً مزيفاً من رهبان الدومينيكان، قد فتن عدداً لا يحصى من الناس، وأودع هؤلاء الناس المخدوعين الأبرياء وعهد بهم إلى النيران، وتمت مساعدته بوساطة السلطة الدنيوية للملك الفرنسي، الذي مال إلى توجهاته، فقام بتسييب دمار هائل، هذا وجرت حكاية هذه المسائل بشكل كامل في مكان آخر.

وحمل هذا الدعي الكذاب، وكذلك جميع الذين تبعوه، علامة الصليب، وكان هناك الكثير من الناس الذين تعاطفوا معهم، وأبدوا نحوهم الاحسان، وأعطوهم المساعدة، قائلين بأن «الرب غالباً ما يختار الأجزاء الضعيفة في العالم ليخزي بها الأجزاء الأقوى، فالرب القدير ليس راضياً أو مسروراً بأرجل الانسان، كما أنه ليس مقبولاً لديه الذين يدعون البراعة والشجاعة في الحرب»، وقامت السيدة بلانشي أيضاً، التي كانت ملكة فرنسا ونائبة الملك، وهي آملة بأنهم سوف يستحوذون على الأرض المقدسة، ويتقممون لأولادها، فمنحتهم احسانها، وأظهرت نحوهم اللطف، ولذلك تضاعفت أعدادهم إلى درجة، أنه جرى تقدير عددهم بأنه قد بلغ مائة ألف وأكثر، وعملوا أعلاماً لأنفسهم، حتى يقاتلوا تحتها، وفي ظل قائدهم، ورسموا عليها صورة حمل، واتخذ هذا الشعار رمزاً على تواضعهم وبرائتهم، وعدّوا الراية التي عليها الصليب رمزاً للنصر.

وصول رئيس أساقفة كانتربري إلى إنكلترا

وفي حوالي عيد القديس برنابا، وصل رئيس أساقفة كانتربري إلى إنكلترا، فشهد على صدق القضايا المذكورة أعلاه، وذكر أن هذه المشكلة قد بدأت في المملكة المتقدمة الذكر، بعد عيد الفصح، وعلاوة على هذا، أضاف بأن البابا، بعدما قام بانزال عقوبة الحرمان الكنسي بكونراد بن فردريك وبجميع أعوانه في يوم العشاء الأخير، انطلق في يوم الجمعة في أسبوع الفصح تحت حماية، ويتوجيه، وقيادة من فيليب الأسقف المنتخب لليون، الذي تحمل نفقات ثلاثة آلاف مارك، مقابل تزويده بالأمان، وشجعت مغادرة البابا وغيابه هؤلاء الرعاة الذين تضاعفت أعدادهم في فرنسا، وزودتهم بالثقة والجرأة، وقد ازدادوا في القوة والعدد.

كيف تزايدت أعداد هؤلاء الرعاة كثيراً في فرنسا

وتدقق الآن لالتحاق بعصابتهم: لصوص، ومنفين، ولاجثين، وأشخاص محرومين كنسياً، (الذين هم جميعاً يدعون بشكل عام في فرنسا باسم السفهاء)، وبذلك فإنهم جمعوا جيشاً كبير العدد كثيراً، وكان لديهم خمسمائة راية، مشابهة لرايات سيدهم ومقدمهم، وحملوا سيوفاً، وفؤوساً، وحراباً، وخناجر، وسكاكين طويلة، وعلى ذلك ظهروا أنهم يرفعون فكرة الحرب، أكثر من اهتمامهم بالمسيح، وتكلموا هائجين بشكل مجنون، وعقدوا زيجات غير قانونية، وتولى قادتهم والموجهون لهم الوعظ والتبشير، مع أنهم كانوا مسدنيين، وضلوا كثيراً في وعظهم وابتعدوا عن أركان الايمان المسيحي، والأحكام الواضحة والصدق، وكان إذا ما حاول انسان مخالفتهم أو معارضتهم، هاجموا بالسلاح، وليس بالمنطق أو بقوة الحجة، وعندما كان قائدهم الرئيسي يتولى الوعظ، كان يحاط بالأتباع المسلحين، ويتولى إدانة جميع الطوائف باستثناء جماعاتهم، وركز لعناته بشكل خاص على الدومينيكان

والفرنسيسكان، الذين سباهم الزائغين والمنافقين، وأعلن بأن رهبان السسترشيان كانوا الجشعين والأكثر حبا للقطعان وللأراضي، أما رهبان الطائفة السوداء فقد أكد بأنهم كانوا شرهين ومتجبرين، وقال عن الكهنة بأنهم كانوا شبه مدنيين ومفترسين أكلة لحوم، وأن الأساقفة وموظفيهم كانوا فقط صيادين للمال، يتمتعون بفيض من جميع أنواع المباهج، وذكر عن البلاط الروماني أشياء كثيرة لا يمكن ذكرها، وعلى هذا ظهروا جميعاً من خلال ماصرح به، هراطقة ومنشقين مرتدين، وصدوراً عن الكراهية والمقت لرجال الدين حيا الناس هذه الشتائم التي صدرت عنه، وأصغوا باهتمام ورعاية إلى عقائده الخطيرة.

وصول أولئك الرعاة إلى مدينة أورلين

ووصل هؤلاء الرعاة في يوم عيد القديس برنابا إلى مدينة أورلين Orleans في أبهة كبيرة، وقوة عظيمة، ودخلوا إلى المدينة على الرغم من عدم رضا الأسقف وجميع رجال الدين، مع أن سكان المدينة كانوا مسرورين كثيراً بوصولهم، وبعد دخولهم، أعلن مقدمهم مثل نبي بمعجزاته، بصوت المنادي، وأعطى ملاحظة، لابل بالحري أصدر مرسوماً مثلما يفعل الملك، وبين أنه سوف يلقي موعظة، وبناء عليه تدفق الناس عليه بأعداد لا تحصى.

وكان أسقف المدينة في حالة خوف كبيرة، وشعور برعب مدمر، لذلك منع كل رجل دين، تحت طائلة عقوبة التكفير، من الاصغاء لخطاباتهم، ومن اتباع خطواتهم، وأعلن بأن جميع هذه الإجراءات كانت مصائد للشيطان، لأن الرجال المدنيين استخفوا بتهديداته وبأوامره، أما بعض الباحثين اللاهوتيين، فقد خرقوا حظر الأسقف، ولم يتمكنوا من حبس أنفسهم ومنعها من إعارة مسامعهم المتشوقة لهذه العقائد الجديدة غير الاعتيادية، وطبعاً لم تكن لديهم نية باتباع أخطائهم، بل أرادوا فقط رؤية وقاحتهم، وغريب حقاً، وكان أمراً متناقضاً، أن يقوم رجلاً

علمانياً، لابل بالفعل رجلاً عامياً، مستخفاً بسلطات البابا، بامتلاك الجراءة على الوعظ علينا في مدينة فيها الجماعة العلمية في أوج نشاطها، وأن تميل آذان وقلوب مثل هذه الأعداد من الناس إلى سماع دجله! وقد حملوا معهم خمسمائة راية، وتجاه ذلك قام الكهنة ذوي الفهم السليم، فأغلقوا أبوابهم بقوة ووضعوا حواجز لها، وأخفوا أنفسهم بقلق وخوف في بيوتهم.

ثم قام المقدم المذكور ليعظ الناس، وبدأ دون أن يقدم لكلامه بنص مقدس، ثم اندفع متدفقاً يتحدث بصوت مرتفع بكلام وشتائم لا يمكن ذكرها، وحدث وقتها فجأة أن قام واحد من الباحثين، وكان واقفاً على مسافة منه، فشق طريقه بالقوة، واقترب منه، وانفجر يقول الخطاب التالي:

«دنيء، وهرطقي، وعدو للحقيقة، وانك تكذب، وكذبك محقق برأسك، وإنك تخدع هؤلاء الناس الأبرياء بحججك الزائفة والمراوغة»، وما كاد يتفوه بهذه الكلمات، حتى قام — على كل حال — واحد من هؤلاء السفلة وانقض عليه، رافعاً فأساً له رأس مدبب، فشطر رأسه إلى قسمين، وبذلك لم يتفوه الرجل المصاب بأية كلمة أخرى، وتفجر هياج واضطراب، والناس الذين سميناهم رعاة، والذين يستحقون الآن أن نسميهم أفاقين، ورواد للمسيح الدجال، قاموا بحمل أسلحتهم ضد رجال الدين في أورلين بشكل عام، وانقضوا على سكان المدينة غير المسلحين، وهم حاملين لأولادهم المحبوسين، وحطموا جميع أبواب ونوافذ البيوت، وألقوا النيران بأنفسهم في البيوت في الثالث عشر من كانون الثاني.

وبرضا سكان المدينة، أو بالأصح بموافقتهم (الذين من خلال موافقتهم تم ادخال مجموعة هذه الكلاب استحقوا مانالوه) مزقوا كثيراً من مواطني المدينة، وأغرقوا عدداً كبيراً في نهر اللوار Loire.

والذين نجوا من الموت أصيبوا بالجراحات، وسلبوا من ممتلكاتهم، وأما الذين مكثوا متخفين في بيوتهم، فعندما شاهدوا هذه الأعمال، هربوا على شكل حشود من المدينة أثناء الليل، وعمت الفوضى بين جميع الناس وساد الاضطراب، واكتشف فيما بعد أن خمسة وعشرين كاهناً قد هلكوا، وذلك بالإضافة إلى أعداد الذين جرحوا، ونالهم الأذى بطرائق مختلفة، وأيضاً تعرض الأسقف وأتباعه الذين أخفوا أنفسهم ليتجنبوا التورط بمأساة مشابهة، إلى كثير من الإهانات، وعانى من كثير من الأضرار.

وبعد هذا قام الرعاة بالمغادرة، خوفاً منهم، أن يثور سكان المدينة ضدهم ويهاجمونهم، وقام الأسقف، حتى لا يبدو مثل كلب غير قادر على العواء، فوضع المدينة تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، لأن سكان المدينة جعلوا من أنفسهم ملومين ومتلبسين بالعار، بسماحهم بمثل هذه الإجراءات، لابل وصل بهم الأمر إلى حد الموافقة، والتعاون معهم، وأخيراً وصلت صرخات الشكوى إلى مسامع السيدة بلانشي، وإلى النبلاء والأساقفة، وإثر سماع الملكة بما حدث أجابت باعتدال: «إنه كما يعلم الرب، كنت قد اعتقدت أنهم بسذاجتهم، سوف ينالون ملكية جميع الأرض المقدسة، لكن بما أنهم مخادعين، يتوجب حرمانهم كنسياً، واعتقالهم، وتدميرهم»، وبناء عليه جرى حرمان جميع هؤلاء الأشرار كنسياً، والدعوة إلى التشهير بهم على هذا الأساس، ولكن قبل أن يجري نشر هذا القرار، ذهبوا مع نوايا إجرامية إلى مدينة بورجي *Bourges*، ففتحت أبواب المدينة لهم، بموافقة من سكان المدينة، الذين رفضوا الاصغاء إلى أوامر الحظر الصادرة عن رئيس أساقفتهم، ودخل الشطر الأكبر منهم إلى المدينة، وأما البقية فمكثوا في الكروم خارج المدينة، لأن أعدادهم كانت كبيرة جداً إلى درجة أن مامن مدينة كان بإمكانها استيعابهم جميعاً بسهولة، ولذلك توزعت حشودهم على عدة مدن،

حتى أن باريس عانت من أذى محسوس منهم، وأعلن مقدم هؤلاء القوم الضالين عن نيته إلقاء موعظة قداس عام، ووعد بعمل بعض المعجزات المدهشة، ولذلك تدفقت أحشاد هائلة من الناس مع بعضهم من جميع الجهات، لسماع أشياء لم يسمعوها بمثلها من قبل، ولرؤية أشياء لم يروا مثيلاً لها من قبل، وبعدما تفوه هذا المخادع ببعض الخطابات التي كانت كلها هذيان، وبعدما تبين أن المعجزات التي وعد بها كانت خداعاً، قام واحد من الناس، وكان جذاراً، يحمل فأساً، بتوجيه ضربة له على الرأس، فأرسل به من دون دماغ إلى جهنم، وألقى بجسده على مفترق طرق، وترك من دون دفن حتى يهترى، وعندما انتشرت التقارير وعمت بأن هؤلاء الرعاة مع محرضيهم، وكذلك كل الذين أصغوا إليهم، قد حرموا كنسياً، تفرقوا، وتشرذموا مثل كلاب مسعورة، وأيضاً حدث في بوردو عندما وصلت مجموعة من هؤلاء، واقتربت من المدينة، أغلقت الأبواب، بناء على أوامر سيمون ايرل ليستر، ولم يسمح لهم بالدخول، وبناء على طلبهم الدخول أجابهم ايرل بسؤالهم: «بسلطة من تفعلون هذا؟»، وعلى هذا أجابوه: «نحن لانلتمس سلطة البابا أو الأسقف، بل سلطة الرب القدير، ومريم المباركة، أمه، التي هي سلطة أعظم من سلطتهم»، وعندما سمع ايرل هذا الجواب، عدّ مثل هذا الكلام كلاماً عابثاً، فأرسل إليهم الرسالة التالية: «غادروا جميعاً، بأقصى سرعة ممكنة، أو إنني سوف أحشد جميع عساكري، وكذلك الكتائب المدرية، وسكان هذه المدينة، وسوف نهاجمكم ونمزقكم إلى أشلاء».

حول نهاية الواعظ الثاني لهؤلاء الرعاة

واعترت الدهشة هؤلاء التعساء الضالين لدى سماع هذه الكلمات، وأصبحوا مثل رمل من دون كلس، وتفرقوا في جميع الاتجاهات، وبما أن كل واحد منهم فكر فقط بسلامته شخصياً بوساطة الفرار، فقد تعرضوا

إلى كثير من المخاطر بأشكال متعددة، وهرب مقدمهم ورئيسهم بشكل سري، وركب سفينة، وسعى لأن يأخذ طريقه بكل سرعة إلى بلاد المسلمين، التي كان قد جاء منها، ولكن تبين للملاحين أنه خائن، ورفيق للهنگار المتقدم ذكرهم، الذين كانوا قد قتلوا شعب مدينة بورجي، لذلك غلوه بيديه ورجليه، وألقوا بهذا المتشرد التعيس في الزنزانة، وهكذا حين حاول النجاة من خطر وقع في خطر أشد، ووجدوا في حقائبه، بالإضافة إلى مبلغ كبير من المال، عدة أوراق مكتوبة بالأحرف العربية والكلدانية، وكذلك ببعض الأحرف الأخرى غير المعروفة، ووجدوا أيضاً بعض المساحيق الضاربة، من أجل صنع عدة أنواع من السموم، وقد جاء في بعض الرسائل التي كانت معه، كما تبين من بعد أن «السلطان شجعه كثيراً على الاستمرار بمهمته، مقابل نيل جوائز كبيرة»، وورد في الرسائل الأخرى بأن الواعظ المذكور «سوف يعطي إلى السلطان عدداً كبيراً من الناس»، وهكذا فإن ساحرين وقعا في مصائد الشيطان وهلكا.

نهاية الواعظ الثالث

وحاول الواعظ الثالث الدخول إلى انكلترا، ونزل في شورهام Shoreham، وأقنع أكثر من خمسمائة إنسان باتباعه، وقد تألفوا من: رعاة، وفلاحين، ورعاة خنازير، ورعاة قطعان، ومثل هؤلاء الناس، ولكن عندما انتشر بين الناس بأنهم محرومين كنسياً، وأن الهنگاري هو أستاذهم الرئيسي، وأن رفيقه قد قتل، وأن أصحابها قد تفرقوا، تغيرت أوضاعهم نحو الأسوأ كثيراً، وحاول مقدمهم لدى أوصوله إلى مونترويل Montreuil أن يعظ هناك، ولكنه ما أن شرع بإلقاء خطابه المجنون، لابل بالحري شرع يؤكد هذيانه، حتى قام مستمعوه ضده، ولدى حملهم للسلاح هرب إلى الغابة، لكن مالبث أن اعتقل وقتل، ولم يتعرض فقط إلى تقطيع أطرافه، بل جرى تمزيقه إلى

أشلاء وقطع صغيرة، وترك جسده طعاماً للطيور الجارحة.

كيف تابت الحشود الساذجة لأنها ضللت

ثم حدث في الحقيقة، أن وجد كثير من أتباعهم أنهم قد ضلّوا، واكتشفوا أوضاعهم التعيسة، فقبلوا بالتوبة التي فرضت عليهم، وألقوا بالصلبان التي تسلموها من أيدي أولئك المخادعين، وأعادوا حمل شارة الصليب من أيدي الرجال الصالحين، في سبيل القيام بحجهم بشكل صحيح، وفي سبيل الانطلاق نحو الأرض المقدسة، دخلوا في خدمة الملك الفرنسي، بعد اطلاق سراحه من أيدي المسلمين، حسبما سنوضح في الرواية التالية، لأنهم قالوا بأنهم قد تعلموا من معلمهم، بأنهم سوف يحررون الملك الفرنسي، ولذلك تنافس أحدهم مع الآخر في حمل شارة الصليب، وكان معلم اسمه توماس، من أهالي نورماندي، كما كان راهباً من شيربورن Sherborne، وكان أيضاً رجلاً مستقيماً وفصيحاً، وقد أرسل في تلك الآونة إلى القارة في سبيل قضاء بعض الأعمال لصالح الملك، وقد اعتقل من قبل الرعاة الذين تقدم ذكرهم أعلاه، وسجن لديهم لمدة ثمانية أيام، ولأنه رفض الإصغاء إلى حججهم، تعرض للضرب بحدة، وأخيراً تمكن بعد بعض المصاعب، من النجاة أثناء الليل، وأخذ طريقه إلى الملك في وينكستر، فقدم رواية كاملة عن إجراءاتهم، وعن أعمالهم المخادعة إلى الملك، وكان ذلك على مسمع من كاتب هذا العمل، الذي قام بصدق وبشكل كامل بكتابة كل الذي سمعه من فم الراوي، بحكم أنه كان رجلاً موثقاً.

وقال رجال أصحاب نفوذ، ومتسمين بالاخلاص، وأساقفة ذوي تفكير عميق، أنه منذ أيام محمد (صلى الله عليه وسلم) لم يتسلل مثل هذا الطاعون المخيف إلى كنيسة المسيح، خاصة بسبب الكارثة التي حدثت للملك الفرنسي، فبذلك بدأ الايمان بالترنح في مملكة فرنسا.

كيف جرى تدمير دمياط وتسويتها بالأرض

وأمر في الوقت نفسه، سلطان مصر، بهدم مدينة دمياط، وتسويتها مع الأرض، لأنه وجد أنها كانت فريسة للصليبيين مرتين.

ظهور بعض الطيور الغريبة في إنكلترا

خلال هذا العام، وفي حوالي موسم الفواكه، ظهر في الحدائق بشكل رئيسي، بعض الطيور الغريبة، التي لم تشاهد قط من قبل في إنكلترا، وكانت أكبر بعض الشيء من القنابر، التي تأكل لب الفواكه، ولا تأكل شيئاً آخر، ولذلك أصبحت الأشجار من دون فواكه، مما سبب الخسارة لكثيرين، وكانت مناقير هذه الطيور مصلبة، ولذلك تمكنت بهذه الوسيلة من فتح الفاكهة، مثل فتحها بوساطة الكماشة أو السكين، وكان الجزء من الفاكهة الذي تركوه، كأنه قد تأثر بسم.

كيف حلل البابا كثيراً من النبلاء كان قد حرمهم كنسياً من قبل

في الثامن والعشرين من حزيران، عندما كان البابا على وشك مغادرة جنوى، بعث برسائل خاصين مع رسائل سلم، وسعى إلى دعوة بعض النبلاء، الذين كان قد حرمهم كنسياً بشجب رهيب، يوم عيد العشاء الأخير، ورغب في أن يعودوا إلى وضع الوئام السالف مع الكنيسة، وكان واحداً من هؤلاء توماس أوف سافوي، الذي كان يسعى لتزويجه من حفيده، وهو على كل حال لم يظهر أية رحمة تجاه كونراد، فيما يتعلق بذلك القرار، ولكي يمتن حبه، أعطى واحدة من حفيداته بالزواج إلى صاحب تور دو بين Tour du Pin، وكان نبلاً قوياً، وقد قبلها هذا النبيل، ليس بسبب جمالها النسائي، بل من أجل المال الذي أعطي معها، لأن البابا أعطى مع السيدة عشرين ألف مارك من الفضة، وإلى توماس أوف سافوي، الذي كان من قبل كونت فلاندرز، أعطى

البابا واحدة أخرى من حفيداته لتكون زوجة له، وذلك بعدما حلله من قرار العقوبة الذي كان قد صدر ضده، وأنعم عليه بكثير جداً من الموارد، وذلك بالإضافة إلى المال الذي دفع لدى الزواج، كما أنه أصدر أوامر دقيقة، تتعلق بالموارد السنوي المتوجب تسلمه من فلاندرز، بأن يجري دفع ذلك من دون تقاعس ومصاعب من ذلك التاريخ فصاعداً، ولأنهم كانوا، بسبب تحريم البابا، قد قاموا بالاحتفاظ بالموارد لعدة سنوات منذ أن جرى حرمانه كنسياً، أمر مولانا البابا، بأن يدفع له منذ ذلك التاريخ فصاعداً، جميع المستحقات المتأخرة، طالما أنه قد تصالح الآن مع الكنيسة، وبفضل هذه النعمة، لابل بالحقيقة بفضل هذه الزيجات المقدسة، تحول من كونه ابناً للغضب إلى ابن للنعمة، وتابعاً للانتخاب، وكان قد بقي على كل حال، تحت حكم الحرمان الكنسي، الذي كان البابا قد أصدره: عظام فردريك، وابنه كونراد، الذي تمكن بفضل عطية والده، من الاستيلاء بالقوة على الشطر الأكبر من الامبراطورية، مع الذي انتزعه لنفسه بالقوة، من دون موافقة كنيسة روما: ممالك سردينيا، وصقلية، وأبوليا، وكاليريا (قلورية)، وعلاوة على ذلك فإن جيرارد صاحب مرسيليا مع سكان مرسيليا، وكريمونا، وبافيا، وأجاثهم، وكثيرين أيضاً، من الذين كان قد حرّمهم كنسياً بالاسم، وبعضهم باسم الأسرة، في يوم عيد العشاء الأخير، أبقاهم مشمولين بذلك الحرمان، وبناء على هذا تضاعفت أعداد أعداء الكنيسة، وأضيفت الشرور إلى الشرور، فازدادت.

الاستيلاء على كاستيلون في غسكوني

وفي حوالي هذا الوقت نفسه أيضاً، حقق سيمون إيرل ليستر انتصاراً على كثير من الغسكونيين، أعداء الملك في القارة، واستولى على كاستيلون Castillon، وهي قلعة كانت مكان اللجوء لهم جميعاً.

كيف عاقب أسقف لنكولن أناساً انغمسوا بالشهوات الجسدية وجعل كثيرين كهنة

وفي هذه الآونة أيضاً، عمل أسقف لنكولن جولة تفقدية في جميع أسقفياته، وبعد بحث دقيق، أرغم الذين كانت بين أيديهم منافع على التخلي عنها على أساس انغماسهم بالشهوات الجسدية، وأمر بأبعاد بعض النسوة عنهم، ممن كن موضع ريبة، لأنهن كن مرعيات من قبلهم، وعاقب المذنبين بحرمانهم من منافعهم، ذلك أنه سعى إلى تنقية أسقفياته من الآثام والشرور، وتمكن باستخدام توسلات لطيفة، وبوسائل تنكيل حادة، من الارتقاء بكثيرين إلى مراتب الكهانة، والوظائف اللاهوتية، وبالإضافة إلى هذا غالباً ما ألقى محاضرات وخطب على الناس، وجمع الناس مع الكهنة، الذين كانوا يسكنون في الجوار، وأرغمهم على الإصغاء له، وكان يكره الرومان الأشرار، الذين كان بين أيديهم الرسالة البابوية، التي أوجبت عليهم القيام بوظيفة الوعظ، ومقتهم وكأنهم كانوا سم أفاعي، وقال بأنه لو عهد إليهم بعلاج الأرواح، لكان تصرف مثل الشيطان، ولذلك فإنه بما أصدره من أوامر، عمل بشكل مكشوف ضد الرسائل البابوية الصادرة عنه والمختومة بختمه.

حول تقارير من الأرض المقدسة

وفي هذه الآونة أيضاً، عندما كانت الهيئة الرهبانية العامة للسسترشيان عاقدة لاجتماع عام، قرأ رسول من عند الملك الفرنسي، وكان راعي دير من الطائفة نفسها، رسالة من ذلك الملك، وتلاها أثناء الاجتماع، وكان فحوى هذه الرسالة هو كما يلي: كان الملك الفرنسي وزوجته، والكتلة الصغيرة من الأتباع الذين كانوا معه، في وضع صحي جسدي سيء، وكانوا ينتظرون رحمة الرب بعد الذي نزل

بهم، وجرى تزويدهم بشعاع من الأمل، بوساطة العداوة، والشحناء، والحرب بين المسلمين، أي بين سلطان مصر، وسلطان حلب، وكان هو —الملك— مقيماً في قيسارية، وقد قام بتحسينها بناء على مشورة الداوية والاستبارية.

وصول الملك إلى سينت ألبان وأعطياته هناك

وفي هذا العام نفسه، في ثمانية عيد ميلاد العذراء المباركة، وصل الملك إلى سينت ألبان، وذهب إلى الكنيسة كما كانت عادته، فقدم هناك ثلاث قطع من الحرير، وقد لوحظ أنه بتعداد القطع اللاتي كان قد قدمهن من قبل، أصبح العدد ثلاثين قطعة، وبالإضافة إلى ذلك، قدم بهذه المناسبة عقدين ثمينين جداً، وأمر بهما، حفظاً لذكراه، بأن يجري حفظهما بقوة في المزار، بتثبيتهما بالمسامير، وبعدما أقام هناك لمدة ثلاثة أيام، قام بالمغادرة.

سقوط غزير جداً للمطر

وفي ليلة يوم عيد القديس لامبرت Lambert، الذي كان يوم أحد، كان الظلام مخيفاً، وكان هناك تساقط غزير من الأمطار، حتى بدا وكأن أبواب السماء قد فتحت، وتصببت الغيوم نفسها على الأرض، وكأنها تريد أن تدمرها.

حول الزيارة التفقدية التي عقدت في سينت ألبان

وفي حوالي عيد القديس ميكائيل من العام نفسه، أرسل ثيوبولد رئيس رهبان هيرلي Hurley، وجيمس نائب رئيس رهبان القديس أوغسطين في كانتربري، وقسيس البابا، رسالة مكتوبة إلى رهبان القديس ألبان، بأنها على وشك القدوم إلى سينت ألبان، للقيام بزيارة تفقدية هناك، وذلك حسبما كان قد تقرر في عيد القديس المخلص في لندن، وجرى طلب تأخير ذلك لصالح الدير في كنيسة القديسة مريم في

ساوثورك Southwark حتى يوم الأحد التالي لما قبل عيد جميع القديسين، وتمت الموافقة من الزائرين المتقدم ذكرهما، وقالوا بأنها سوف يقدمان في يوم عيد القديس داينيسيوس Dionysius، ووعدا في الوقت نفسه راعي دير القديس ألبان بأنه سوف يقوم بقدر ما يمكنه من اصلاحات، وأعلن قبل وصولهما، بأنه لن يتوانى عن القيام بأي اصلاح ينبغي عمله في سياق الأيام، ووعدا أيضاً بأنه لن يكون هناك ماسيثير شكوى مشكوك بها، وقدما في اليوم الذي تقدم ذكره، وفي اليوم التالي ألقى نائب رئيس الرهبان محاضرة في مجمع الرهبان، ثم أمر بقراءة نص اجازته، وبعد ذلك البنود التي حصل عليها في مجمع رهباني اقليمي عقد في لندن، فهناك جرى تقرير ذلك، بحكم أن ذلك كان صحيحاً وضرورياً جداً للنظام الرهباني، وهذا كله موجود في كتاب Additaments، حيث جرت كتابة ذلك بالكامل، وبما أنها لم يجدا أي شيء غير صحيح، مع أنها قاما بعملية فحص دقيقة، واستجواب لكل راهب من الرهبان على انفراد، خلال إقامة استمرت أربعة أيام، غادرا بسلام.

وكان قد جرى ارسال بعض رهبان القديس ألبان، للقيام بزيارة تفقدية في دير القديس ادموند، وفي أماكن أخرى، وبالنسبة لجون، الراعي الثاني لدير القديس ألبان، فقد أعطى ترصية إلى الدير، فيما يتعلق بجميع الاصلاحات التي كان قد وعد بها قبل الزيارة التفقدية، وأنه سوف يقوم بها فيما بعد، وفق الطريقة نفسها، التي قام بها سلفه، راعي الدير وليم، عندما جرت زيارته زيارة تفقدية بموجب تفويض من البابا، وذلك من قبل راعي دير بوكسلي Boxley، وراعي دير بيغهام Begeham، ويمكن القول أن أياً منهما لم يعمل بشكل جيد كما كان قد وعد، ذلك أنه كان قد وعد الدير، ضمن أشياء أخرى، بأنه سوف يسقط تماماً عمومياته والخصص الصغيرة، التي كان هو أول

واحد بين رعاة الدير، قد أقدم على أخذها إلى غرفته الخاصة، وذلك مالم يتناول طعام الافطار مع أصحابه في مطعم الدير أو في مصلاه، وأنه سوف يسترد جميع الحصص الصغيرة، التي كان سلفه وليم قد انتزعها من الرهبان المرضى، والتمن الذي كان يحصل عليه ليزود نفسه بالخمرة لاستخداماته الشخصية، لكن بعد انتهاء الزيارة التفقدية، ومع أنه لم يُقل له أي شيء حول الإجراءات المتقدم ذكرها، هو لم يقوم بتنفيذ أي من وعوده مطلقاً.

رسالة الملك الفرنسي

ومع مرور الأيام، ربح كونراد الخطوة، والمكانة الطيبة لدى كثير من شخصيات الامبراطورية، لأنه جاء من الدم النبيل لجون، ملك القدس، ذلك أنه كان ابن ابنته، وتمتع أخوه هنري، ابن أخت الملك بالمحبة والاحترام لدى جميع النبلاء المخلصين لأبيه، وأيضاً بسبب براءته، وسمو أخلاقه، ورفعة أسرته، ولم يكن البابا على كل حال مسروراً بهذا، وتسبب بإعلان بلاغ مهيب عام في مقاطعتي برابانت وفلاندرز، بأنه يتوجب على الأتباع المخلصين للمسيح القيام بحصار قلاع كونراد، واعداء إياهم بمكافأة مجزية، هي الغفران من جميع ذنوبهم، وكان هذا أعظم مما منح من أجل الحج إلى الأرض المقدسة، على أساس أن كل من سوف يحمل شارة الصليب ضد كونراد، ويفعل ذلك باسم أبيه وأمه، سوف يحصل على الغفران لذنوبها.

وفي هذه الآونة أيضاً، قام الملك الفرنسي الذي عانى كثيراً من الاضطراب، وتآلم بسبب الحاجة إلى الضروريات في قيسارية، بارسال رسالة كثيبة وحزينة إلى أمه، وإلى أخويه، وإلى رعاياه المخلصين، رجاهم فيها بحرارة بأن يرسلوا بكل سرعة إليه العساكر، وأن يزودوه بالموث والمال، ذلك أنه كان يعاني من كثير من النوازل في سبيل الكنيسة العالمية، ولدى سماع الملكة بلانشي بهذه الأخبار، وهي التي

أمسكت بين يديها مقاليد الحكم في المملكة الفرنسية، تصرفت ليس كما تتصرف النساء، فجمعت جميع نبلاء المملكة للتشاور حول القضية، وأثناء بحث المسألة بدأ النبلاء يتذمرون بغضب شديد قائلين: «بما أن البابا قد أثار حرباً داخلية جديدة، وبقيامه بإذاعة إعلان جديد للناس الخاضعين للرب، قد شحذ سيف المسيحيين ضد المسيحيين، للقتال في أراضي المسيحيين أنفسهم، تاركاً ملكنا الذي يعاني من كثير من الإهانات والانتكاسات للقتال في سبيل الإيمان المسيحي، عرضة للاهمال وللنسيان»، لأن الاعلان الذي تقدم ذكره، كان قد عمّ انتشاره في جميع أرجاء المناطق الفرنسية، وبناء عليه شعرت بلانشي بالسخط، لأن الشكوى التي انبعثت لم تكن من دون سبب مسوغ، فأمرت بمصادرة جميع أراضي وممتلكات الذين حملوا شارة الصليب، وأن توضع تحت تصرفها قائلة: «على هؤلاء الذين يقاتلون من أجل البابا أن ينالوا التمويل من ممتلكات البابا، وليذهبوا دون أن يعودوا مطلقاً، وعلاوة على هذا تصرف النبلاء المجاورين، وعملوا وفق الطريقة نفسها في أراضيهم، ضد الذين حملوا الصليب نتيجة لذلك الاعلان، وهكذا مات هذا الاعلان وتلاشى، وتراجع الذين حملوا الصليب، وتعرض رهبان الدومينيكان والفرنسيسكان أيضاً للامامة، لأنهم أثاروا هذه الفوضى والاضطراب، وجرى توبيخهم لما قاموا به من إجراء، من قبل النبلاء، الذين قالوا: «نحن بنينا الكنائس والديرة لكم، ونحن علمناكم، واستقبلناكم، وأطعمناكم، فأأي منفعة أضفها البابا عليكم؟، فهو قد ضيق عليكم وأثاركم، وفرض ضرائب جباها منكم، وجعلكم مكروهين من قبل الذين يقدمون المنافع إليكم!»، وأجابوا على هذا كله قائلين: «الطاعة ترغمننا»، ومنذ ذلك الحين فصاعداً، خجل البابا، وسعى في سبيل الحصول على السلام.

حول الاتهام الجاد الذي أثير ضد فيليب لوفل

وخلال العام نفسه أيضاً، وفي حوالي عيد القديس ميكايل، جرى اتهام فيليب لوفل Lovel بشكل جاد أمام الملك، وكان فيليب هذا محاسباً، جرى نقله من وكالة إيرل وينكستر إلى خدمة الملك، وعهد إليه بالوصاية على اليهود، وقد أكد أعداؤه، بأنه عندما جرى إرساله هو ونيقولا الكاهن من كنيسة القديس ألبان، إلى المقاطعات الشمالية لفرض ضرائب على اليهود، استلم بشكل سري بعض الكؤوس الثمينة جداً، من يهودي غني كثيراً، ليستثنيه من دفع الضريبة الملكية، ومثل هذا تلقى أعطيات خاصة من آخرين لاقناعه حتى يستثني بعضهم، ويلقي بالأعباء على آخرين، مما ألحق الأذى بالملك، وجعله يخرق أمانته، ولذلك غضب الملك غضباً شديداً، وأمر بتعريض فيليب المذكور إلى الإهانة، حتى يكفر عن هذا الإثم العظيم، وبما أن فيليب هذا كان رجلاً ذاهية وعاقلاً، نشد في حاله المضطرب كثيراً المشورة والعون من جون مونسيل، الذي كان المستشار الرئيسي للملك، وأشفق جون عليه، لأنه كان هو الذي استدعاه شخصياً إلى خدمة الملك حتى يرفعه إلى مرتبة أعلى، فقام بترتيب القضية بشكل فعال، فاسترد حظوة الملك، وجاء ذلك بعدما دفع مبلغاً كبيراً من المال، مقداره كما قيل ألف مارك، وجرى على كل حال طرده من مكتب الوكالة، وتعرض للإهانة بدرجة عالية.

تكريس كنيسة هيل

وفي التاسع عشر من تشرين الثاني، من العام نفسه، وهو يوم عيد القديس ليونارد، قام الايرل رتشارد بشكل مهيب، ولقاء نفقات كبيرة، بتكريس كنيسة هيل Hales، وهي التي كان قد أسسها وأشادها مقابل نفقة كبيرة، وفعل ذلك وفاء للنذر التي عمله عندما كان في البحر، أثناء عودته من غسكوني، حيث كان في خطر، نتيجة لعاصفة

كانت قد ثارت، ولذلك وصل وقتها بصعوبة إلى كورنول، وكان الملك والملكة حاضرين أثناء التكريس المذكور، وتقريباً جميع نبلاء وأساقفة انكلترا، وقد كان هناك ثلاثة عشر أسقفاً، كل واحد منهم عمل قداساً في يوم التكريس، كل واحد منهم على مذبحه الخاص به، أما أسقف لنكولن فقد رتل قداساً عند المذبح الكبير، وكان هذا في يوم أحد، واحتفل النبلاء بشكل فخم وسخي برفقة الأساقفة والآخرين، فأكلوا اللحوم، في حين جلس الرهبان في أماكنهم، وأنعشوا أنفسهم بكميات كبيرة من السمك من مختلف الأنواع، وكان موجوداً هناك أيضاً أكثر من ثلاثمائة جندي، وفي الحقيقة إنني إذا ما رغبت في وصف عظمة ذلك الاحتفال وفخامته، وذلك الاجتماع الاحتفالي، لقليل بأنني تجاوزت حدود الحقيقة، وعندما رغبتُ أنا متى باريس، أن أحصل على المعلومات حول هذه القضية، في سبيل أن لا أدخل أخباراً زائفة في هذا الكتاب، أخبرني الإيرل بكل تأكيد ومن دون تردد، أنه عندما جرى احصاء النفقات تبين أنه أنفق عشرة آلاف مارك على تلك الكنيسة، مضيفاً الكلام الرائع والمستحق للثناء وهو التالي: «لو أن ذلك يرضي الرب لكنت أنفقت هنا مثلاً أنفقت على بناء قلعة وولنغفورد Wallingford بطريقة معقولة ومرضية».

وصول إيرل ليستر مع الأخ الثالث للملك

وفي حوالي ذلك الوقت نفسه صعد إلى ظهر سفينة في ويساند Wissand سيمون إيرل ليستر مع زوجته، وجلب معه كونت غي أوف لوزنغان الأخ الثالث للملك من أمه، وقد أرادوا العبور إلى انكلترا، وبعد رحلة موفقة، وعندما كانوا على وشك الوصول إلى الميناء، هبت فجأة ريح، فغيرت الاتجاه، ودفعت بالسفينة مع خطر عظيم إلى ويساند، وعلى هذا كان هناك من علّق حول ابعادهم عن هناك، والعودة إلى مأواهم السالف بقوله: «امتلاً إخوة ملك انكلترا بوفرة فوق

الحدود، وقد قدموا إلى انكلترا خاليي الوفاض، واحتشدوا هناك من أجل ملء أنفسهم، ولقد أعاد البحر الممتلئين كثيراً، وقد قيل هذا مزاحاً وفقاً لعادة الفرنسيين، ثم انتظر الايرلان حتى هبوب ريح أكثر مواءمة، ثم أقبلوا فوصلاً إلى ميناء دوفر، وكان سيمون إيرل ليستر قد ترك أتباعه يتابعون الحرب بشجاعة لصالحه، وبصمود صدوا هجمات الغسكونيين، وبعدما علم الملك بوصولهما، ذهب مسروراً لاستقبالهما، وجاء خروجه في الحقيقة لأن الكونت كان أخاه، ولم يخرج لاستقبال إيرل ليستر، كما أنه أصدر تعليماته إلى كثير من النبلاء وسكان لندن، لاستقبال أخيه، والترحيب به بهتافات فرح، وبعدما ملأ الكونت حافظة نقوده الفارغة، عاد إلى أراضيه رجلاً غنياً.

حول عاصفة مدمرة

وفي صيف العام نفسه، وفي يوم عيد القديس دنستان Dunstan، ارتفعت غيوم كثيفة في الصباح الباكر، وقد جعلت العالم كله مظلماً في كل من الشمال والجنوب، والشرق والغرب، وسمعت الرعود، وكأنها قادمة من مسافة بعيدة، وتقدم عليها البرق، وفي حوالي الساعة الأولى من النهار، أصبح الرعد والبرق أكثر قرباً، وزجرت رعود إحدى الغيوم أكثر من سواها بشكل مرعب، وكأنها أرادت أن تحمل السموات وتلقي بها على الأرض، فأرعبت قلوب الذين سمعوها وأصمّت آذانهم بقرعها المفاجيء، وأثناء ذلك التصادم سقطت صاعقة على غرفة نوم الملكة، حيث كانت مقيمة وقتئذ مع أولادها وأسرتها، وألقت بالفراش إلى الأرض وحولته إلى رماد، وهزت البيت كله، وفي غابة ويندسور المجاورة، رمت بثلاثين شجرة من أشجار البلوط أو حولتها إلى شظايا، وعلاوة على ذلك، دمرت بعض الطواحين مع متعلقاتها، وبعض حظائر المواشي مع رعاتهم، وسببت الرضوض لبعض الفلاحين والمسافرين، وألحقت كثيراً من الأضرار ببني البشر، مثل ذلك لم يسمع

به كاتب هذه الرواية، أو شاهده من قبل، وعلاوة على ذلك، سقط البرق في سينت ألبان على الحمام، فأشعل النيران فيه، وسقط في أماكن أخرى على الدير نفسه، لكن لم يسبب كثيراً من الأذى، لكن آثاره ظلت ظاهرة على الجدران لسنين طويلة كثيرة فيما بعد، لكن ماهو مدهش، وجدير بالرواية، هو أن بعض الرهبان من طائفة الدومينيكان أو الفرنسيكان، جرى استقبالهم في اليوم نفسه، من أجل المأوى والطعام في دير القديس ألبان، حسبما كانت عليه العادة في كل يوم، ولم يمكن منعهم من متابعة سفرهم، على الرغم من الالتباسات الملحة من الرهبان، الذين — كما هي العادة — استقبلوهم وزودوهم بما لزم، فغادروا مع أن العاصفة لم تكن قد توقفت بعد، وبعدما خرجوا من المدينة، شاهدوا على الطريق الذي هو الطريق العام، والذي هو مطروق كثيراً من قبل الناس ومن قبل العربات، مشعلاً متصدياً لهم، مع مظهر وكأنه سيف مصلت، غير أنه كان يلوح به، فيتبعه رعد غير متوقف، وأنين مرعب، فتحولوا جانباً، ورسموا على أنفسهم علامة الصليب، وشرعوا في خوف واخلاص بالتوجه بالدعاء إلى الروح القدس، وينشدون *Veni Creator Spiritus* والذي أعقب ذلك، هو أنه عند هذا توقفت الرعود وخذت البروق، وعبرت، وانتهت، في حين بقيوا هم من دون أذى.

فيضان غير اعتيادي للبحر

وفي حوالي الوقت نفسه من السنة، وبالتحديد أيام الاعتدال الخريفي، فاض البحر وتجاوز حدوده الطبيعية المعتادة، فسبب أضراراً عظيمة في المقاطعات الانكليزية القائمة قرب الشاطئ، وتغطي الشاطئ لمسافة ستة أقدام، أكثر مما رؤي قط من قبل.

كيف عادت ملكة سكوتلندا إلى بلادها

وفي حوالي عيد القديس ميكائيل، قامت ملكة سكوتلندا، أرملة الملك الاسكندر، وابنة انغلام أوف كوسى Engelram of Coucy بعدما جرى تعيين الحصنة العائدة إليها من مملكة سكوتلندا مع مورد مقداره سبعة آلاف مارك، فتركت سكوتلندا للعودة إلى الوطن، من أجل زيارة بلادها، ووالديها، وتوقفت وسط رحلتها، وجاءت لتقدم احتراماتها إلى الملك، الذي كان من عادته معاملة جميع الأجانب بالهدايا والموارد، لذلك حملها بانعاماته وهداياها، ورجاها أيضاً بالراح بالعودة من دون تأخير، عندما تجري دعوتها إلى زفاف ولدها الاسكندر الثاني، الذي رفعه النبلاء في سكوتلندا إلى العرش.

حول مبارزة عقدت في روكستر

وفي العام نفسه، في يوم عيد حمل العذراء المباركة، عقدت مبارزة حادة في روكستر فيما بين الانكليز، والأجانب، فيها جرت هزيمة الأجانب بشكل مهين، وقد هربوا مع الخزي إلى المدينة للالتجاء، لكن لأنهم جرى اعتراضهم من قبل فرسان جاءوا من الاتجاه المعاكس، هوجموا ثانية، وسلبوا، وضربوا بشدة بالعصي والهراوات، وهكذا استرد الانكليز مع كثير من الفائدة الضربات والأضرار التي كانوا قد تعرضوا لها في المبارزة التي عقدت في بريكلي، ونتيجة لهذا ازدادت الكراهية، وتعاضم الغضب بين الانكليز والأجانب، وأصبح يوماً أكثر إخافة.

خاتمة العام

كان هذا العام كله خصباً في انتاج الحبوب والفواكه بكميات كافية، لابل بكميات وافرة، مع أنه كان عاماً عاصفياً، ومضطرباً ومرعباً بالبرق، وكان عاماً متعباً وعالي النفقات بالنسبة للبابا، وللبلاط الروماني، وخطيراً بسبب العودة إلى ايطاليا، أما بالنسبة لفرنسا وانكلترا

فكان مليئاً بالشكوك في ظل السلام المتأرجح، أما بالنسبة للرومان، والايطاليين، والألمان، والصقليين، والأبوليين، والكليبيين، الذين كانوا بلا رأس ولامقدم، فكان عاماً قلقاً، أما بالنسبة لداشيا، فكان عاماً دمويّاً، أما بالنسبة لسكوتلندا، التي كان ملكها طفلاً، فكان عام متقللاً ومهدداً، كما قال لوكان Lucan في قضية بومبي الكبير:

سني عمر شبابه يمكن أن تثير الشكوك

لأنه حتى يكون ثابتاً، يحتاج الإنسان إلى أيام طويلة.

ويين الصمت والتعرض للخطر كان ملك سكوتلندا، مع الحظ المتقلب.

كيف أقام الملك عيد الميلاد في يورك

في عام ألف ومائتين واثنين وخمسين لتجسيد رينا، وهو العام الخامس والثلاثين لحكم الملك هنري، كان الملك المذكور في يورك في عيد الميلاد، من أجل ابنته مرغريت، التي وصلت الآن إلى سن الزواج، حتى يمكن أن تتزوج من الاسكندر، ملك سكوتلندا، ومن أجل أن يجري الاحتفال بالزفاف بشكل لائق بين مثل هاتين الشخصيتين الرفيعتين، وقد اجتمع هناك حشد كبير من رجال الدين، وكذلك من الفرسان، من أجل أن تشع عظمة الاحتفال بالزفاف الكبير بالطول وبالعرض، ولقد كان موجوداً هناك ملك وملكة انكلترا، مع نبلاّتهما، الذين سوف نحتاج إلى وقت طويل حتى نأتي على ذكر أسمائهم، وكان أيضاً موجوداً ملك سكوتلندا، والملكة أمه، التي استدعيت من القارة من أجل المناسبة، وكان بصحبتهما كثير من النبلاء، ليس فقط من سكوتلندا، بل أيضاً من فرنسا، حيث كانت قد ولدت، وقد جلبتهم معها، لأنها كانت تمتلك حسيباً كانت العادة مع الأرامل، ثلث موارد مملكة سكوتلندا، الذي وصل إلى خمسة آلاف مارك، وأكثر، بالاضافة إلى امتلاكها مقتنيات

أخرى، كانت قد تسلمتها بمشابة هدية من أبيها انغلرام، وقد ظهرت في الخارج وهي قادمة مع قطار فخم وكبير العدد من الأتباع والخدم، وعندما وصل الجميع إلى يورك، أقام الذين قدموا مع ملك السكوتلنديين في شارع واحد، دون الاختلاط بأي من الآخرين من باب الحيلة، لكن عندما كان بعض موظفي النبلاء، الذين ندعوهم المارشالية، يعدون أماكن إقامة إلى مواليتهم، اشتبكوا بشجار فيما بينهم أنفسهم، أولاً بقبضات أيديهم، وبعد ذلك بالعصي، وأخيراً بسيوفهم، وقد أصيب بعضهم بجراحات بالغة، وقتل رجل واحد، والذين أصيبوا بالجراحات لم يتعافوا قط بعد ذلك، وتمكن الملك بالحكمة وبوساطة الحرس الذي كان موجوداً هناك، ببراعة من منع قيام صراع بين السادة، وكذلك من إيقاف القتال بين الخدم، وقام أيضاً أعوان رئاسة الأساقفة، حتى لا تسبب رداءة أماكن الإقامة سبباً للصراعات، بتزويد الناس بأمكان كافية للرعاية والضيافة، وذلك حسب الوقت، وتأمين ذلك للجميع، مع أنهم تجاوزوا أعدادهم.

كيف جرى منح مرتبة الفروسية إلى

ملك سكوتلندا من قبل ملك انكلترا

وفي يوم عيد الميلاد، قلد ملك انكلترا ملك سكوتلندا نطاق الفروسية، ومنح ذلك إلى عشرين آخرين معه، الذين كانوا جميعاً مزينين بملابس جميلة وثمينة، وكانت مناسبة لحفلة الترقية تلك.

حول زواج ملك سكوتلندا من ابنة ملك إنكلترا

وفي اليوم التالي ليوم عيد الميلاد، الذي كان يوم عيد القديس اسطفان، اقترن ملك سكوتلندا بابنة ملك انكلترا، وبسبب أن حشد الناس اندفع وضغط مع بعضه بطريقة غير نظامية، حتى يكون حاضراً، ويشاهد عظمة مثل ذلك الزواج، تم إجراء الاحتفال في الصباح الباكر،

وبشكل سري، وقبل أن يكون ذلك متوقعاً، فلقد احتشد هناك كثير من الناس من مختلف الأنواع، ولقد شكلوا حشوداً عظيمة من النبلاء الانكليز، والفرنسيين، والسكوتلنديين، ولقد كان هناك حشوداً كبيرة من الفرسان، لبسوا بشكل أنيق باللبسة فاخرة، وتباهوا بزييتهم الحريرية وبالألوان الأخرى، حتى أننا إذا ما أردنا وصف الترف الدنيوي والخيلاء وبهجة المشهد بالكامل، سوف نشر العجب، ونتعب الذين سوف يسمعون بذلك، لأن ألفاً من الفرسان، لابل أكثر، كانوا يرتدون الملابس الحريرية التي تعرف بشكل عام باسم Cointises، ظهروا أثناء الزفاف عن جانب ملك انكلترا، وخلعوا في اليوم التالي جميع هذه الملابس، وعرضوا أنفسهم ثانية في البلاط بأثواب جديدة، أما من جانب ملك سكوتلندا، فكان هناك ستين فارساً، وأكثر في ملابس لائقة، وكان هناك أعداداً كبيرة من المراتب نفسها المساوية لمراتب الفرسان، قد لبسوا وفق الطريقة نفسها، وقد عرضوا أنفسهم أمام جميع الناس الذين احتشدوا.

كيف قدم ملك سكوتلندا الولاء إلى ملك إنكلترا

ثم قدم ملك سكوتلندا الولاء إلى ملك انكلترا، عن الاقطاع الذي بين يديه من ملك انكلترا، ومن أجل حصّة من مملكة انكلترا اسمها لوثيان Lothian، ومن أجل بقية أراضيه، لكن عندما استدعي سكوتلندا ليقدم الولاء عن مملكته السكوتلندية، وليقدم الطاعة والتابعة إلى مولاه ملك انكلترا، مثلما فعل أسلافه، وذلك حسبما جرى تدوينه في التواريخ، في كثير من الأجزاء، أجاب ملك سكوتلندا بأنه قدم إلى هناك بسلام وفي سبيل كرامة ملك انكلترا، وبناء على أوامره، وأنه بوساطة رابط الزواج يمكنه التحالف معه، وليس أن يقدم له جواباً على مثل ذلك السؤال الصعب، لأنه — كما قال — لم يتباحث بما فيه كفاية حول هذه القضية مع نبلائه، أو عمل مشاورة موثمة حول مثل تلك القضية

الصعبة، وحسبما تتطلبه، ولدى سماع الملك بهذا، لم يكن راغباً بأن يقوم أي معيق بإلقاء أية ظلال على الاحتفال السلمي، أو أن يثير أية متاعب لذلك الملك الذي ما يزال شاباً، وزوجته التي ما تزال أيضاً شابة، خاصة وأنه جاء بناء على استدعائه، بسرور عارم، لإعطائه ابنته في الزواج، ولذلك ضبط مشاعره، وعبر بجميع الأشياء بصمت.

حول إمتياز الإيرل مارشال في هذه المناسبة

وأثناء هذه الترقية، واحتفالات الزواج، طالب الإيرل مارشال بوجوب منحه امتياز الذي هو امتياز وصل إليه من أجداده، وهو أن المهر العائد للملك سكوتلندا، والذي ادعى أنه امتياز له، ينبغي أن يعطى إليه، مع غطاء سرجه المزركش، وذلك ليس بسبب قيمته، ولا صدوراً عن أي شره، ولكن تماشياً مع عادة قديمة تتعلق بمثل هذه القضايا، وأنها ينبغي أن لا تموت، أو أن تتلاشى من خلال أي إهمال من جانبه، وفي جواب على هذا المطلب تم إخباره بأن ملك سكوتلندا سوف لن يخضع لمثل هذا المطلب، بسبب أنه لو أراد الاختيار، يمكنه الحصول على هذه التجهيزات من أي أمير كاثوليكي، أو من بعض من نبلائه، وهو صدوراً عن احترامه وتقديره للملك الذي هو أمير عظيم، وجاره وختنه، هو يفضل أن يصبح فارساً على يدي ملك انكلترا، وليس على يدي أي واحد آخر، وبناء عليه قضت تعليمات الملك، بوجوب تهدئة كل نوع من أنواع الخلاف أثناء يوم الاحتفال.

وصف لاحتفال الزواج

ثم بدأ المحتفلون بتمتع أنفسهم مع بعضهم، ومع الملكين ونبلائهما، ومع أسرهم، وهكذا أمضوا عيد الميلاد في أعظم بهجة، ولو أنني أردت أن أصف بشكل كامل وفرة الموائد وتنوعها، واختلاف الملابس، والحركات المرحية والقصف والصياح، وعدد الضيوف في هذه

الاحتفالات، سوف تبدو الرواية فيها مبالغة غير معقولة لمسامح الذين لم يكونوا حاضرين، وسوف تكون سبباً لملاحظات قاسية، ولكن في سبيل تقديم مثل مستخلص من البقية، ولفهم ما حدث من خلال حقيقة واحدة، نجد أن أكثر من ستين رأساً من ماشية المراعي شكلت الوجبة الرئيسية على المائدة، وكانت هذه مقدمة من رئيس الأساقفة، واحتفل الضيوف على التوالي مرة مع الملك الأول، ثم مرة أخرى مع الملك الثاني، في إعداد وجبات ثمينة، حتى أن عبث الدنيا قد أظهر نفسه لبني البشر بقدر ما يمكنه في لحظات عابرة من البهجة، ولقد تناولوا جميعاً أطعمتهم لعدة أيام مع رئيس الأساقفة، الذي ظهر وكأنه أمير الشمال تولى إضافة الجميع، وقدم المشورة إلى الجميع في كل قضية نقص أو حاجة مستعجلة، وزود بشكل فعال حاجات الجميع، أحياناً بتقديم أماكن الإقامة للمسافرين، وأحياناً أخرى بتقديم الأعلاف لخيولهم، ومرات كثيرة أخرى بتقديم الأدوات المنزلية، والوقود للنيران، وهدايا من المال، وهكذا فإنه بموجب هذه الزيارة لمولاه، وفي تقديمه الهدايا من الذهب، والفضة، والملابس الحريرية، بذر على أرض قاحلة أربعة آلاف مارك، لم يحصد منها فيما بعد أية ثمار، إنما كان من الضروري بالنسبة له القيام بهذه الأشياء في ذلك الوقت، حتى يكون من الممكن الحفاظ على سمعته سليمة متماسكة، وأيضاً في سبيل اغلاق أفواه الذين يتكلمون بالشرور.

الاحتفال بعيد القديس إدوارد في لندن

في الوقت الذي كانت تجري فيه هذه الاحتفالات في المقاطعات الشمالية من انكلترا، بناء على مبادرة من الملك، الذي لم يكن ناسياً للقديس ادوارد، قام أسقف ايلاي، ورعاة ديرة ويستمنستر، ووولتهام، عوضاً عن الملك، وبناء على أمره، بالاحتفال بعيد القديس ادوارد، في ويستمنستر بكل أبهة، وذلك بوساطة القداسات في الكنيسة، والاحتفال في القصر.

كيف استرد فيليب لوفل الحظوة لدى ملك إنكلترا

وبينما كانت احتفالات الزفاف ماتزال مستمرة، وكانت أفكار وآراء الجميع متركزة حول هذه الأيام الاحتفالية، أقدم ذلك الرجل الماهر والداهية، فيليب لوفل، المحاسب، بتقديم الرجاء بتواضع إلى ملك سكوتلندا وإلى زوجته الجديدة، بأن يستخدم التماساتها لصالحه، لتهدئة غضب الملك ضده، وأن يستردا من أجله رضاه وطيب نواياه، وكان فيليب المذكور معروفاً من قبل لدى ملك سكوتلندا، كما كان صديقاً حميماً لأبيه ولأمه، لأنه أثناء عمله قهرماناً لايرل وينكستر في غالووي Galloway، العائدة للملكية ذلك الايرل، مكث لبعض الوقت في تلك المقاطعة، وغالباً ماقدم هدايا تشريفية إلى الملك المذكور، وإلى ملكة سكوتلندا، وأصدقائهما، ولذلك أصغى الملك الجديد باهتمام لشكوى فيليب، وعندما وجد وقتاً مناسباً، ذهب ليمثل أمام ملك إنكلترا، وجثا على ركبته، ويبدن متشابكتين مهّد لطلبه بالخطاب التالي، الذي امتلك قدرة تحريك قلب ملك إنكلترا، الذي رغب في انهاضه، مع أن ذلك جاء ضد الراجي الجاثي، وبدا أنه قادر على إسالة دموع التأثر والسرور من أعين كثيرين ممن جلسوا هناك، ثم إنه تكلم كما يلي: «مولاي الملك، يعلم جلالتكم أنه مع أنني ملك، وأنني بفضل احسانك صرت فارساً، إنني مجرد طفل، من دون سن أو معرفة، علاوة على ذلك إنني يتيم، بسبب موت أبي، وعودة أمي إلى بلادها، البعيدة، فيما وراء البحر، تاركة إياي في عمر غض، فهي ماكانت لتأتي إلى هنا، لولا أنها دعيت من قبلكم، وإنني منذ الآن فصاعداً قد تبنيتمكم بمثابة أب لي، أنت الذي يمكنك أن تعوض عليّ الخسارة في قضية كل من أبي وأمي، ويمكنك أن تزودني بما أحججه من مشورة أبوية كافية وحماية»، ولم يستطع الملك حبس نفسه عن البكاء، فأجاب وهو يتنهد بعمق: «أنا على استعداد»، وبناء عليه أضاف الصبي، لكن ليس متحدثاً مثل صبي:

«بناء عليه سأحاول في هذه القضية، وبالتجربة سوف أعلم (بما أنك بمعروفك أصغيت إليّ) فيما إذا كنت سوف تلبي أول طلب لي، ورغبة، اعف عن جميع ذنوب فيليب لوفل كلها، الذي أضفى في أحد الأوقات كثيراً من التشريفات على أبي وأمي، وعليّ شخصياً، بأن تعيده إلى خدمته السالفة، لأنني علمت من أشخاص جديرين بالتصديق، بأنه قد اهتم بشكل غير عادل، وهو شخص قديم الاخلاص، وكان لا يمكن الاستغناء عنه في معالجة المسائل الصعبة لايرل وينكستر، وعلاوة على ذلك كان موائماً في مشورته لك وتأدية واجبه نحوك»، وكان الذين كانوا آنذاك جلوساً هناك أثناء هذا الخطاب مبالغين لصالح هذا الطلب، ولذلك تفضل الملك فاستجاب، وكانت هناك أيضاً مساعدة فعالة في هذه القضية من خلال دور جون مانسيل، الذي فاق الجميع قوة.

وعند انتهاء احتفالات الزواج، غادر ملك سكوتلندا وسافر إلى بلاده مع زوجته التي اقترن بها حديثاً، وجرى أيضاً تعيين حارس موثوق ليتولى العناية بالعروس، وليزودها بجميع أنواع المعلومات، وكان هذا هو روبرت أوف نورويك، الذي كان مارشال بيت الملك وحاشيته، وستيفن بوزان Bauzan، وكانا معاً فارسين، وبالإضافة لهما ماتيلدا أرملة وليم الثاني أوف كانتلوب Cantelupe، وكانت سيّدة تتمتع بجميع مشاعر الشرف، مع بعض الرجال الآخرين المستقيمين والجديدين، ووعد ملك انكلترا ملك سكوتلندا بأن يرسل إليه بعض المستشارين الحكماء والمخلصين للتشاور مع نبلاء مملكته حول جميع القضايا المتعلقة به وبالمملكة.

حول عاصفة ريح حادة جداً

وفي هذا العام نفسه، في ثمانية عيد الغطاس، هبت ريح شرقية حتى حركت الريح الجنوبية الغربية على الهبوب أيضاً، وقد عانى كثيرون من المؤثرات، وهبت الريح الجنوبية الغربية مع زجاجة مرعبة، وعنف شديد،

وردت الأمواج عن الشاطئ، وكشفت أسقف البيوت أو دمرتها، واقتلعت بعض أشجار البلوط من الجذور، أو فتتها إلى شظايا صغيرة، وجردتها من أوراقها، واقتلعت رصاص أسقف الكنائس، وأغرقت أقوى السفن وأكبرها في الأعماق، وسيبت أضراراً لا يمكن تعويضها لكثيرين، هذا وكانت الأضرار أعظم على الياسة، ومن الواضح أنها كانت أكبر بعشرة أضعاف من الأضرار على البحر، ودون أن نذكر الأضرار الأخرى والخسائر، أعتقد أنه من المفيد أن تأتي على ذكر بعضها مما عرفناه، وكنا شهوداً عليه، ففي وينكلسي Winchelsea، التي كانت ميناء له فوائد عظيمة للانكليز، وخاصة إلى سكان لندن، فقد قامت أمواج البحر، وكأنها كانت غاضبة وساخطة لإبعادها في اليوم الماضي، بتغطية أماكن مصابقة للشواطئ، واستحوذت على طواحين وبيوت، وأغرقت وجرفت عدداً كبيراً من السكان، ولكي نكون أكثر علماً وإحاطة بالوقائع الأخرى التي لم تكن متوقعة، وحدثت في كل مكان، اقتلعت الريح من الجذور ثلاثة بلوطات في مقبرة كنيسة القديس ألبان، كل واحدة منهن لا يمكن لثلاثة رجال الإحاطة بها بأذرعهم، واقتلعت أثناء ثورتها أوراق أشجار أخرى.

وفي يوم عيد القديس فالتاين، وصل الملك إلى لندن.

كيف جمع أسقف روكستر حصّة الخمس

من موارد رعاياه من رجال الدين

وفي هذه السنة نفسها أيضاً قام أسقف روكستر، الذي كان قد تسلم منصبه منذ وقت قصير، بالحصول من بلاط روما، على سلطة استخراج حصّة الخمس من منافع رجال الدين في أسقفيته، ومن مواردهم لمدة خمس سنوات، مما أثار دهشة الكثيرين، ولاعجب في ذلك فهو كان معروفاً من قبل ذلك البلاط، نتيجة إقامته فيه لمدة

طويلة نائباً للملك هناك، وجاء هذا على الرغم من أن الأسقف المذكور، كان قد احتفظ، بموجب ترخيص من البابا، بموارده السالفة، التي كانت بحودته، قبل ترقيته إلى أسقفيته، وقد عدّ ذلك ضرورياً — كما أعلن — لتخليص أسقفيته القاحلة من حالة الفقر، لأنه بدا إليه أنه أمراً مخجلاً أن يقال بأن أسقفيته هي الأفقر بين جميع الأسقفيات في إنكلترا، وقد تفوقت الآن على أسقفية كارايل، وبناء عليه طالب بوجوب دفع ذلك المبلغ إليه، ليس حسب التقدير اللاهوتي للممتلكات الذي عمله رجاله، بل وفق جمعه من الممتلكات اللاهوتية بأية طريقة من الطرق.

موت نيقولا أوف ساندفورد

وفي تلك الآونة، في العشرين من كانون الثاني، مات نيقولا أوف ساندفورد، الذي كان فارساً، ولقد أتيينا على ذكر موته في هذا المجلد، ليس بسبب ثروته، بل بسبب شجاعته، وكان سبب موته الأسى الذي شعر به، نتيجة موت اخته سيسيليا، كما تقدم الذكر من قبل.

كيف حث البابا ملك إنكلترا على القيام بالحج

وفي هذه الآونة أيضاً، أرسل البابا رسالة لاقتناع ملك إنكلترا، وحثه على القيام باستعدادات فعالة، من أجل انجاد الأرض المقدسة، وليقدم مساعدة مؤثرة إلى ملك فرنسا، الذي كان ينتظر المساعدة، وإذا لم يكن راغباً بفعل ذلك، بأي حال من الأحوال، عليه عدم إلقاء أية عقبات في طريق الآخرين، الذين كانوا جاهزين وراغبين في عبور البحر، والقيام بالحج، وقد أضيفت هذه الفقرة الأخيرة، لأنه أصر بعض النبلاء، الذين كانوا مستعدين للذهاب إلى الأرض المقدسة، مما سبب لهم ضرراً كبيراً وخسارة، وبناء عليه، قام الملك، في سبيل التجاوب مع رغبة البابا الملحة، فاستخرج من اليهود، كل ملكية

ظاهرة امتلكها هؤلاء القوم التعساء، فهو لم يكتف بسلخ جلودهم، بل استخرج أيضاً ما كان في أجوافهم، وهكذا فإن هذا المتعطش الساعي وراء الذهب خدع المسيحيين، وكذلك اليهود، واستخرج منهم أموالهم، وأطعمتهم، وجواهرهم، بجشع كبير بلغ حداً، ظهر فيه وكأن الساسرة قد قاموا من الموت.

كيف متن البابا نفسه بزيادة عدد كرادلته

ومع اقتراب الربيع، وفي سبيل أن تتمكن الكنيسة من التنفس بحرية بالتوافق مع صفاء الفصل، أوجد البابا سبعة كرادلة في بيروجيا، المدينة التي استقبل من قبل سكانها بالتكريم، لأنهم عرفوا أنهم سوف يحصلون على المنافع من قدومه، وبعدما كان قد زوج حفيده بأبنة عظيمة ونفقات عالية، زاد على ذلك، في سبيل زيادة قوة حزبه، بأن اقترح تزويج إحدى حفيداته إلى هنري بن فردريك، وابن أخت ملك انكلترا، واستهدف من وراء ذلك أن يصبح هنري الابن المتبنى من قبل البابا، وأن يصير محمياً تحت جناحي الكنيسة، ومن ثم تحليله من الحرمان الذي فرض عليه، ووقت ذلك يمكنه —البابا— أن يتمتع بسلام كامل، لكن عندما سمع نبلاء الامبراطورية بهذا، شعروا بسخط عظيم، من محاولة البابا بالاقدام على الخط من شأن مثل ذلك الشاب النبيل والرفيع الأصل.

وحدث في هذه الآونة أيضاً، أن وليم كونت هولاندا، الذي حزن للخسائر التي عانى منها، من خلال اقدمه على ادعاء المنصب الامبراطوري، وذلك بوساطة المساعدة المالية للبابا، تخلى عن جميع ما ادعاه حتى الآن، مفضلاً —مع أن ذلك جاء متأخراً— أن يتمتع بأمن السلام، على الرغم من أنه نزل إلى منزلة منخفضة، مؤثراً ذلك على مواجهة مخاطر الحرب المتقلبة، والعيش في منصب رفيع.

الظهور الأول للجواميس في إنكلترا

وفي أيام الصوم الكبير من هذا العام نفسه، جرى إرسال بعض الجواميس إلى الايرل رتشارد من القارة، وكان بعضهم ذكوراً، وبعضهم الآخر من نوع الإناث، في سبيل أن تزداد هذه الحيوانات، التي لم تشاهد من قبل في هذه البلدان الغربية، وتتكاثر، والجاموس هو نوع مشابه للشور، ومتأقلم بشكل جيد لحمل الأثقال أو جرّها، وهو عدو كبير للتمساح، ومغرم بالماء، ومزود بقرنين كبيرين للدفاع عن نفسه، وعن هذا الحيوان قال الفيلسوف برنارد:

للفيل أنياب، والسنام يزين ظهر الجمل

ويتنفخ جبين الجاموس بشموخ بقرنيه

حول رفض الرهبان الفرنسيين قبول

هدية من ملك إنكلترا من بضائع مسلوكة

وفي هذه الآونة نفسها، أرسل الملك صدقاته إلى الرهبان الفرنسيين، عبارة عن عربة محملة بالأقمشة الصوفية والأقمشة الرمادية، المناسبة لتكون ملابس للرهبان المذكورين، لكن لدى سماعهم بأن الملك استخرجهم من التجار، وفق الطريقة التي يأخذ بها، لابل يستولي بها، على الأشياء الأخرى، واحتفظ بثمانهم، ودفع فقط الضريبة الاقطاعية عنهم، رفضوا تسلم مثل هذه الهدية، وأعادوا العربة، مع جميع محتوياتها، قائلين إنه لا يجوز قانونياً إعطاء الصدقات من أسلاب الفقراء، وهم لن يتسلموا مثل هذه الأعطية الملوثة، وجعل هذا العمل الرهبان جديرين بالمدح، واستحق الملك الملامة، لابل بالحري العار، فالملك ينبغي أن يعدّ مرآة للعدل وأساساً له، وأن يكون مثل الشمس، التي أشعتها مستقيمة، تخرق الظلمات، وأن تكون كلماته صادقة، وغير متقلبة، تمنح الضوء والمعرفة إلى الذين هم في الظلام، لكن الآن، بما أن

الذي يسمى ملكاً مليئاً بالظلمات في ذاته، فكيف يمكن له أن يضيء الذين حجبهم الظلام؟ وحول هذه المسألة قال ستاتيسوس Statius: أنت يمكنك أن تضع كل شيء تحت سلطانك القضائي؛ عندما تكون ملكاً على نفسك، ولقد عانى الاغريق جميعاً من أجل هذه الأشياء».

حول الاتهامات الجادة التي وجهت

ضد سيمون إيرل أوف ليستر

وفي العام نفسه، عندما كان سيمون، إيرل ليستر، مقيماً إقامة قصيرة في انكلترا، تحرك شعب غسكوني ضد السلطة الملكية، وتخلوا عن الموائيق التي دخلوا بها، وشنوا الحرب ضد الملك، وتجروا على مهاجمة الذين وضعهم الايرل، وأنابهم عنه لحماية قلاعه والممتلكات الأخرى، وأرسلوا رسالة إلى الملك، بأن الايرل المذكور، هو أكثر الخونة انحطاطاً، وأنه كان يتولى جمع مبلغ لا حدود له من المال، قام باستخراجه من النبلاء، ومن المواطنين، ومن العوام، فهو لم يوفر أحداً، وأنه أخبرهم بأن الملك هو الذي بحاجة لذلك لأنه على وشك الذهاب للحج، فهو على هذا سوف يتسلم جميع الأموال، غير أنه احتفظ بذلك كله لنفسه، وعلاوة على هذا تقدموا ضده بشكوى جادة، هي أن دعا إلى مجلسه الاستشاري بشكل سلمي بعض الرعايا المخلصين كثيراً إلى الملك، وبعدما دعاهم، تصرف مثل سينون Sinon وليس مثل سيمون، حيث سجنهم بشكل غادر، وأبقاهم في السجن، وأجاعهم حتى الموت، وبهذه الشكاوى وبأمثالها، وبالهمس بالشكاوى، حولوا الايرل إلى هدف للشك من قبل الملك، وتأرجع الملك وقتها في حالة من الشك، فأرسل فجأة وبشكل سري إلى غسكوني محاسبه هنري أوف وينغهام Wengham، وكان رجلاً بارعاً وحكيماً، ليقوم ببحث جاد، حول ماتعلق بالشكاوى المتقدم ذكرها، وذلك في سبيل أن يحصل الملك على معلومات موثوقة حول المسألة، وذلك وفق الطريقة التي

كان قد أرسل بها من قبل غيوفري أوف لانغلي Langley, للبحث في إجراءات روبرت باسليف Passeleve, عندما كان موضع شك، وللتقصي حتى يكتشف الذي كان هو السر في المسألة، وليتعرف إلى العقدة في القصة الناعمة، وإلى الزاوية في اطار الدائرة، لكن كل واحد من المفتشين أخفق في فحصه، وعندما سمع الايرل بهذه الإجراءات، غضب غضباً عظيماً، لسبب مضاعف، وأعلن عن براءته إلى الملك قائلاً: «كيف حدث يامولاي أن ملت بأذنك وقلبك نحو رسائل هؤلاء الخونة لك، وصدقت أولئك الذين غالباً ما أدينوا بالخيانة، بدلاً مني، أنا الذي خاضع لك ومخلص، وهكذا أقمت بحثاً حول أعمالي؟»، وعلى هذا أجابه الملك، الذي أصبح هادئاً تماماً: «إذا كان كل شيء واضحاً، ما هو الأذى الذي سيلحقه بك التدقيق؟ في الحقيقة سوف تصبح سمعتك أكثر وضوحاً وإشراقاً بذلك»، ثم تواضع الايرل، واستعد للمغادرة إلى غسكوني، وبناء على التماساته، زوده الملك بمبلغ كبير من المال، لكن من دون استقرار في الفكر، لأنه فكر بالقيام بانتقام موائم، بسبب الأذى الذي لحق به من خلال هذه التهم الجادة، وحشد جيشاً كبيراً من الفرسان الفرنسيين مع أتباعهم المستأجرين، ودعا ملك نافار لتقديم المساعدة إليه، وكذلك كونت بيغوري Bigorre, مع كثير آخرين، ومتن حزبه إلى درجة عالية، وهكذا أخذ تجبر الغسكونيين، الذين لولا أن انكلترا مفيدة لهم من أجل بيع خمرهم، لقاموا جميعاً بالتخلي عن ولائهم للملك انكلترا، ولأقدموا على اختيار سيد آخر، وعلى كل حال بما أن الغسكونيين صار لديهم الآن مكاناً للجوء إليه في اسبانيا من أجل بيع خمرهم — التي من حاصلاتها هم يعيشون — في قرطبة، واشبيلية، وبلنسية الكبيرة، وهي أماكن خضعت الآن للإدارة المسيحية، لكان من المخشي أنهم سوف يتركون الأراضي الانكليزية، التي فيها تعرضوا للاضطراب ولكثير من المظالم، والأذى، خاصة من خلال الأتاوات الملكية، ولأخذوا أنفسهم من أجل

المستقبل إلى مناطق أكثر بعداً، ولقد رأينا بأن هذه الملاحظات مناسبة لأن يجري ذكرها كاملة في هذه الصفحات، لأن جميع سمعة مملكة انكلترا، التي اعتادت على القيام بالتفاخر بالمقاطعات الموجودة في القارة والخاضعة لها، أخذت الآن بالتناقص والتشتت بسبب كسل ملك انكلترا وزيفه، لذلك لم يبق إلا النادر في مقاطعة غسكوني، من هو خاضع للانكليز، وهي المقاطعة المكروهة من الملك الفرنسي، والتي —علاوة على ذلك— كانت في حالة تأرجح، وإذا ما فقد الانكليز تلك المقاطعة، حسبها هو معلن من قبل الغسكونيين، لن ترسو بعد الآن فصاعداً أية سفينة انكليزية في المقاطعات القارية، ولن تتوقف فيها.

الحالة المدهشة للهواء والمناخ

وفي حوالي هذا الوقت نفسه، وبالتحديد في اليوم التالي لعيد القديس غريغوري، في اليوم الرابع من الأسبوع، عندما صار تغير القمر وشيكاً، ظهر قبل أربعة أيام من يوم ظهوره، كما كان متوقعاً من قبل، لأن اليوم التالي قبل السبت، كان في الترتيب الصحيح للأشياء، وكان اليوم الأول لظهوره، وبعد ذلك، خلال خمسة عشر يوماً متواليات، ظهرت الشمس، وظهر القمر، وكذلك النجوم بلون أحمر، وظهر أحد الأيام غائماً، أو كأنه مغطى بالدخان الذي ملأ محيط العالم كله، وكانت الرياح آنذاك تهب من الشمال، أو من الشرق، وخلال الجزء الأكبر من شهر آذار، وأثناء نيسان كله وأيار، من هذا العام نفسه، جفت الأرض، وعطشت بوساطة حرارة الشمس المحرقة، واستمرت الرياح بالهبوب من الشرق، والشمال، أو الشمال الشرقي، ونتيجة لتزايد الحرارة، وبسببها وبسبب الجفاف، ولانعدام الندى المنعش، تساقطت ثمار التفاح والفواكه الأخرى، فبعدما كانت قد ظهرت بكثرة مثل حبات الفستق، ذبلت وسقطت لافائدة منها، ولم يبق أي جزء من هذه الثمار حياً، مع أن الأغصان كانت قد وعدت بوفرة عظيمة من الفواكه، واستمر

تناقص الفواكه بازدياد، ولا سيما عندما وصلوا إلى حجم البلوط، فعندما وصلت الفواكه إلى حجم البلوط، أصيبت بجليد مفاجيء في الصباح، وترافق ذلك مع أشعة ضوئية غير اعتيادية (كما يسميه الفلاسفة الطبيعيين لفحات الضوء والحرارة)، أحرقت التفاح الناضج، والبلوط، والدراق، وجميع أنواع الفواكه، والكلأ، إلى درجة أن الذي بقي لم يتجاوز العشر، وعلى كل حال إنه بسبب الوفرة الأولية للمواسم، بقيت الحدائق مليئة بالتفاح، والحقول بالقمح، وفي الحقيقة لو أن جميع الأزهار بقيت، لما استطاعت الأشجار أن تحمل الفواكه التي أنتجتها، وارتفعت الشمس إلى العلو الانقلابي في السماء، وأحرقت حرارتها العالية والتي لا يمكن تحملها، وجه الأرض، حتى أن جميع الأعشاب قد ذبلت، ولم تعد المروج قادرة على تقديم الطعام للمواشي، واستمرت الحرارة أثناء الليل، وسببت كثرة الذباب والبعوض، مع الحشرات الأخرى المؤذية، وهكذا صار جميع الأحياء متعبين من الحياة.

حول رفض رجال الدين ذوي

المنافع الترقية إلى المراتب الكهنوتية

وفي هذه الآونة جبرت محاولة لاقتناع رجال الدين من ذوي المنافع في أسقفية لنكولن بإلحاح، ومن ثم حثهم من قبل أسقف تلك الأسقفية، بإرادتهم، أو بدون إرادتهم، على السماح لأنفسهم بالترقية إلى المراتب الكهنوتية، وقد رفض كثير منهم، إخضاع رقابهم إلى نير المولى بهذه الطريقة، وتم بموافقة عامة جمع مبلغ من بينهم أنفسهم، وبعدما جمعوا مبلغاً كبيراً، بعثوا إلى البلاط الروماني، وتمكنوا عن طريق الانفاق الكبير للمال، الذي له سلطة قوية في ذلك البلاط، من الحصول على السلطة من البابا، وقاوموا هذا المرسوم الأسقفي، وحصلوا على إذن لعدة سنوات، بامتلاك مدارس دون الدخول في الكهانة، وهكذا استطاعوا بمظهر الأمانة، وبمكر يشبه مكر الثعلب إزالة نير المولى من على رقابهم.

كيف رفض الفرنسيون إطاعة أوامر ملكهم

وفي العام نفسه، ومع اقتراب حلول موعد عيد الفصح، دعا الملك جميع نبلاء انكلترا الذين حملوا شارة الصليب، إلى الاجتماع في لندن خلال اسبوعي الفصح، لعقد مشاورات حول شؤون الأرض المقدسة، التي كرامتها كانت في حالة تآرجح وتردي كبيرة.

وفي هذه الآونة أيضاً، بدأ اسم الملك الفرنسي يقدر تقديراً متديناً كثيراً في تلك المملكة، وأصبح مكروهاً، وغير محترم بين كل من النبلاء وعامة الناس، وذلك لسبيين، كان أولهما، أنه قد تعرض لهزيمة مهينة على أيدي المسلمين في مصر، وعانت النبالة الفرنسية كلها معه من عار لايزول، ولأنه عزم، من دون موافقتهم، على منح نورماندي، والأراضي الأخرى في القارة، التي تملكها الملك الفرنسي واستحوذ عليها، إلى ملك انكلترا، على شرط أن يمدّه بمساعدة قوية وفعالة، خاصة وأنه كان ملزماً بأن يفعل ذلك، على أساس أنه قد حمل الصليب.

وعلاوة على ذلك ازداد تجبر الفرنسيين، بوساطة الخزي والمرارة التي أخرجوها من أفواههم أثناء المحادثات، من ذلك أنه عندما كان النبيل روبرت، كونت أرتوي، وأخو الملك الفرنسي، فاراً خلفه، كان هناك شاب انكليزي، اسمه وليم صاحب السيف الطويل، وكان منحدرًا بأصله من الأسرة الملكية لانكلترا، وقد وقف هذا بثقة وبشجاعة، وثبت في مكانه، يقاتل حتى الموت، وبما أن الفرنسيين أنفسهم، لم يكن بإمكانهم انكار، بأنه سوف يشع مطوقاً ومتوجاً بتاج الشهادة، وأنه جدير بأن يكون مفضلاً لدى القديس ادموند، وأن هذا يمكن تأكيده شرعياً، فادموند هو المعترف الجيد، وهو الذي اشتهر باستقامته، وبمعجزاته المتوالية، أما الآخر، فكان فارساً شجاعاً، ومن أصل نبيل، وقد تبرهن بشكل مكشوف بأنه شهيد، وكان هذا كله شوكة جارحة في أعين الفرنسيين، لأن كل رجل متجبر يحزن كثيراً عندما يشاركه أحد

بالثناء عليه، ويزداد حزنه وأساه إذا مات فوق أي واحد عليه، وحول هذا قال الشاعر:

كل قدرة

أو

كل تجبر

يغار من الشريك

وبالنسبة لمحاولة الملك الفرنسي إعادة الممتلكات في القارة إلى ملك انكلترا، ردّ الفرنسيون برعونة على الشكل التالي: «لاسمح الرب أن تتعرض فرنسا في أيامنا إلى البتر، وأن تهان وتدنّى سمعتها — مع أن ذلك أصبح أكثر شراً وسوءاً مما هو ممكن من خلال تقاعس وغلبة الملك الصغير — بإعطاء ملك انكلترا الضعيف، وتلبية مطالبه، بالتخلي عن الأراضي، فلقد عانينا من الإهانة بما فيه الكفاية، وأسيء إلى سمعتنا كثيراً، وأفقرنا بما فيه الكفاية، وإذا كانت ملكتنا بلانشي، تريد ذلك، صدوراً عن عاطفة الأمومة، وعن الرغبة النسائية، وعلى استعداد لأن تفعل هذا، في سبيل تحرير ابنها وفائدته، فإن جماعة الملكة الفرنسية كلها لن تسمح مطلقاً بذلك، وإننا لن نسمح مطلقاً بخرق قرار النظراء الاثني عشر، الذي قضى بتجريد الملك الانكليزي من نورماندي، أو عدّه لاغياً أو طائشاً، ولن يتمكن ملك انكلترا، عدونا المميت، بأي حال من الأحوال ومهما كان، بالحصول على مطالبه الأخرى مادامنا أحياء».

وهكذا تفجر التذمر والرفض بين النبلاء الفرنسيين، تجاه عزم الملك على القيام بهذه الأعمال من دون موافقة البارونات جميعاً، وشرع أخواه أيضاً: كونت بواتو، وكونت بروفانس بإزدرائه وكراهيته، والنظر إليه بقلّة احترام، ومع أنه كان متوقّعا مساعدهما الأخوية الموعودة،

وحايتها، لقد رفضا تزويده بذلك، وكان الوحيد الذي وقف إلى جانبه، وعمل لصالحه هو أمه بلانشي، التي لم تسمح لها رحمتها، وعاطفتها الطبيعية، ومشاعرها الدينية بالوقوف ضده.

وعندما سمع ملك انكلترا بهذا، ماتت جميع أماله في استرداد حقوقه في القارة، وتلاشت، ولقد جرى إخباره أيضاً، بأن النبلاء الفرنسيين، قد أقسموا قسماً عظيماً، بأنه، أي ملك انكلترا قبل أن يحصل على مايتطلع إليه، سوف يرغم على شق طريقه خلال أسنة ألف رمح، وبعد قصصهم وتكسيرهم، سوف يرغم أيضاً على شق طريقه خلال العدد نفسه من السيوف التي كانت جاهزة لتغطس في دمه، ولقد خاف ملك انكلترا من هذا كثيراً، ولاعجب تجاه ذلك.

كيف أقسم الملك بأنه سوف يقوم بالحج إلى الأرض المقدسة

وأثناء هذا العام، في يوم الاثنين التالي قبل اليوم الذي ندعوه بالعادة وبشكل عام باسم Hokeday، دعا الملك بوساطة صوت المنادي جميع سكان لندن، من أدناهم إلى أعلاهم، أمراً إليهم بوساطة مرسوم ملكي بالاجتماع جميعاً في ويستمنستر، لسماع مارغب به، وعندهما اجتمعوا جميعاً مع بعضهم، أمر الملك أسقفَي: ووركستر، وشيستر، وراعي دير ويستمنستر، بإلقاء خطابات مهيبة وعاجلة، على الناس، حول موضوع حمل الصليب، لكن بسبب الاستخراجات المالية المتنوعة، وأعمال الخداع، لبلاط روما، قليل من سكان لندن وأتباعهم من سكان الريف، كانوا هم الذين فعلوا ذلك، بناء على تبشيرهم، وقام على كل حال الذين كانوا حول البلاط، ورتشارد دي غري، وأخوه جون، وج. ل دي بليست Plesssets، بحماس بحمل الصليب، وبأدب الملك على الفور بالتوجه نحوهم، وعانقهم، وقبلهم في ذلك المكان، ودعاهم باسم إخوانه، ووجه في الوقت نفسه اللوم إلى سكان لندن، ودعاهم مرتزقة منحطين، لأن قليلاً منهم كانوا هم الذين حملوا

الصليب، وكان هذا التمسك بالتهور بعناد، سببه روما، لأن الملك كان لتوه قد حصل على تفويض من البابا بأن يجبي العشر لمدة ثلاثة أعوام من رجال الدين، ومن شعب المملكة، ولو أن هذا كله جمع وأحصي لوصل إلى مبلغ يزيد على ستائة ألف [مارك]، مما كان سيلحق الضرر الدائم بالمملكة، ولهذا قد قيل بشكل سري، بأن أصحاب العقول الثقية، صعب عليهم تصديق بأن الملك قد حمل الصليب، إلا لغرض واحد، هو أن يتمكن بهذه الوسائط من تجريد المملكة من ثروتها، وهو على كل حال قد أقسم بأنه سوف يقوم بعبوره خلال السنوات الثلاث المقبلة، شروعا من عيد القديس يوحنا المعمدان، ما لم يمنعه عن ذلك الموت، أو مرض شديد، أو سبب آخر معقول، ولدى تأديته لهذا القسم، وضع يده اليمنى على صدره، مثلما يفعل الكهنة، ثم وضعها على الأناجيل، ثم قبلهم وفق طريقة العلمانيين، وهذا على كل حال لم يجعل الذين كانوا من حوله أكثر قناعة، لأنهم تذكروا الخروقات الماضية، لذلك شعروا بالريبة الآن.

كيف طلب سلطان مصر السلام من الملك الفرنسي

وفي هذه الآونة، عندما كان الملك الفرنسي، مايزال باقياً في قيسارية، شنّ أهل قونية ودمشق حرباً دموية متواصلة ضد السلطات المصرية، وأوقفوا أنفسهم، على السلب والنهب، والحرق والقتل، لأن سلطان مصر كان هدفاً للكراهية لدى جميع الشرقيين، وذلك لسبيين: أولهما لأن الملك الفرنسي جرى السماح له بالنجاة من دون أذى، من بين أيدي المصريين، وذلك من خلال إثارة الشره، وأيضاً بسبب أنه قد قيل بأنه قتل بشكل غادر، مولاه سلطان مصر، وسلفه، في سبيل إغناء نفسه بأمواله، وفي الحقيقة استهدف جميع المشاركة التشهير بالملك الفرنسي، وعرضه ليكون هدفاً للاستهزاء من قبل جميع المسلمين، وذلك في سبيل محق العقيدة المسيحية وشريعته، وإلحاق عار أبدي بها، وكانوا يريدون بعد هذا كله تقديمه أخيراً إلى خليفته حتى يسجن طوال أيام حياته،

أو أن يجري التضحية به، وتقديمه أضحية محرقة إلى محمد (صلى الله عليه وسلم) من أجل رفع شأن شريعتهم، ولم يكن الغضب الرباني مشتعلًا على كل حال إلى مثل هذه الدرجة ضد عبيده، مع أنهم استحقوا بوساطة ذنوبهم مثل ذلك العقاب من انتقام الرب، لكن مع أنه كان غاضباً، لقد تذكر رحمته.

ولقد أرسل سلطان مصر المتقدم ذكره، منذ ذلك الوقت فصاعداً الهدايا، والرسائل المسالمة إلى الملك الفرنسي، أخبره بها حول كم من الاضطرابات قد تحمل بسببه، لأنه أبقاه حياً، كما أنه بدأ يفكر بتقديم عروض للسلام معه، أو هدنة، يمكن منحها إلى الملك المذكور، ولذلك شعر هذا الملك بالطمأنينة، وتشجع على الشعور بآمال أفضل.

حول قسوة الملك نحو رعيته وسخائه تجاه الأجانب

قبل انتهاء اجتماع البارلمان المتقدم ذكره، صار الملك جافياً ليس لديه مرحمة نحو أي واحد، وهو لم يكتف بعدم منح أي تأخير، ولو كان قصيراً، إلى المديونين له، بل شدد بقسوته على رعاياه الطبيعيين من دون شفقة، ومن دون أي تقدير للحكمة، وفي سبيل سحب المزيد من الدم من قلوب رعيته، أنعم بقطعة من الأرض تساوي قيمتها خمسمائة مارك على واحد من البواتيين اسمه الياس دي راباني Rabani. وكان رجلاً غير جدير تماماً بهذا التشفير العظيم، وهكذا كان الملك من الجانب الأول شراً ولا يعرف الشعب، وبرهن من جهة أخرى عن نفسه أنه مبذر، ومبدد لثروات المملكة.

كيف نُظر إلى كونراد بن فردريك

بعين التقدير من قبل جميع الفئات

وفي هذه الآونة، كان كونراد بن فردريك، الذي حظي بتأييد ورضا: تقريباً جميع الايطاليين، والكالبريين والصقليين، والرومان، والألمان، قد

جرى تسميمه بشكل غادر، بوساطة مشروب مميّت (يارب لا تجعل هذه الجريمة تقع على عاتق بلاط روما)، وبصعوبة بالغة جرى انقاذه من بوابات الموت، بفضل العناية الكبيرة جداً به من قبل أطبائه، وقد كان هناك من قال بأن بعضاً من مؤيدي البابا وأعوانه — لكن من دون معرفة البابا — قد فعلوا ذلك، لأن حزب البابا كان خائفاً كثيراً، وخشيته من أن يقوم كونراد باتباع خطى والده، وأن يتذكر مآثله من اضطهاد، فينزل جزاءه الانتقامي على أعدائه، ومن هذا، وبناء عليه، أخذ الجميع ينظرون إلى كونراد بعين التقدير، لأن الرب قد حفظه دون أذى، في مثل تلك الظروف الخطرة جداً، والتمس كثيرون من البابا، وحثّوه بالحاج على القيام بترقية كونراد إلى المرتبة الامبراطورية، باذلاً ما لديهم من قوة، لكن البابا كان خائفاً، ويخشى من أن يتبع كونراد خطى فردريك خطوة خطوة، ويسير على طريقه في اضطهاد الكنيسة.

حول مصاعب سيمون إيرل ليستر

وصل في هذا العام، سيمون دي مونتفرات، إيرل ليستر، الذي عانى من كثير من المشاكل، إلى بوردو، حيث وجد بأن مؤامرة سرية قد حيكت ضده، وأن كثيراً من سكان المدينة شرعوا بإبداء العداء ضد سلطته، وبإحياء الخطط القديمة، وبحك خطط أعمال خيانية جديدة، ولذلك وجد أنه من الضروري الدخول بمخاطر الحرب من جديد، ومواجهة حظوظ الموت، حسبما سوف يظهر في الصفحات المقبلة.

وفاة المعلم جون أوف بيزنغستوك

وفي هذا الوقت نفسه أيضاً، حتى لاتأتي الشرور منفردة، بل مصاحبة، غادر طريق الجسد كله المعلم جون أوف بيزنغستوك Basingstoke، رئيس شامسة ليستر، وكان رجلاً له كفاءة عالية، وخبرة في ثلاثة مناهج اختصاصات، لابل في أربعة مناهج

اختصاصات، في مجالات الدراسة، وكان متعلماً تماماً وعارفاً بالآغريقية، وبالأدب اللاتيني، وبذلك ازدادت أحزان وأسى الايرل المتقدم ذكره، وكان المعلم جون هذا قد أخبر روبرت، أسقف لنكولن، بأنه عندما كان يتابع دراساته في أثينا قد شاهد، وأيضاً سمع من بعض العلماء الإغريق، عن بعض الأشياء غير المعروفة باللاتينية، وكان من بينها أنه اكتشف أسفار البطارقة الاثني عشر، أبناء يعقوب، الذين من الواضح أنهم كانوا جزءاً من الكتابات المقدسة، كان قد جرى إخفائه من خلال مكر اليهود، وذلك بسبب وضوح النبوءات المتعلقة بالمسيح، والظاهرة فيهم، وبناء على ذلك، بعث الأسقف المذكور إلى بلاد الآغريق، وتمكن من الاستحواذ عليهم، وقد ترجمهم من الآغريقية إلى اللغة اللاتينية، ومعهم بعض الكتابات الأخرى، وعلاوة على ذلك أدخل المعلم جون الأرقام الآغريقية إلى انكلترا، وعلم رفاقه الأقربين استخدامهم، وبيّن أهميتهم، وبهذه الأرقام جرى تقديم الأحرف أيضاً، وماهو مدهش بشكل رئيسي فيهم هو أنه بوساطة حرف واحد فقط، يمكن تقديم أي رقم، الأمر الذي ليس موجوداً في اللاتينية أو في النظام العددي، كما أن المعلم جون المتقدم ذكره، قد ترجم أيضاً عملاً من الآغريقية إلى اللاتينية فيه جميع قواعد النحو قد عرضت بشكل محكم، وهو مادعاها المعلم المذكور بـ Donatus of the Greeks.

كما أنه صنف عملاً آخر، فيه جرى شرح أدوات الجمل بوساطة التمييز الذي يبدأ هكذا «هيكل الرب»، والذي هو مفيد كثيراً.

وترجم هو أيضاً عملاً آخر، حصل عليه من أثينا، لأن الأناس المتعلمين من الآغريق كانوا يتابعون هناك دراساتهم، وأن الحكمة خالدة، وحسبما يقول الكتاب المتعلمون عنها: «أنا خلقتُ من البداية، وقبل جميع العصور، وسأبقى حتى النهاية من دون اخفاق»، واسم أثينا هذا مشتق من حرف الألف، الذي يعني «من دون»، ومن كلمة

(Thanatos)، التي معناها «موت»، وبالمحصلة إن المعنى هو «خالد»، وقد برهن في هذا العمل ترتيب الأناجيل، كما أنني ينبغي ألا يفوتني ذكر أن ذلك المعلم المذكور، كان بالعادة هو صديق لي، أنا كاتب هذه الصفحات، وقد أخبرني بأنه: كانت هناك امرأة شابة، هي ابنة رئيس أساقفة أثينا، وكان اسمها قسطنطينا، ولم يكن عمرها يزيد على العشرين عاماً، وكانت تتمتع بكل الفضائل، وقد تعلمت كل مصاعب المنهاج الثلاثي والرابعي، ونظراً لما تمتعت به من علم ومعرفة مدهشة، كان المعلم جون يدعوها بشكل مسوغ باسم كاترين أخرى، أو ببساطة كاترين، وقد كانت هي معلمة المعلم جون، وكل الأشياء الجيدة التي حصل عليها عن طريق العلم، كان قد التمسها منها، فهذا ما قد أكدته مراراً، مع أنه درس لمدة طويلة في باريس، وكانت هذه المرأة الشابة تتنبأ، بالأوبئة، وبالعواصف، وبالحسوف والكسوف، وما هو مدهش أكثر، بالهزات الأرضية، ولذلك كانت تقدم انذارات مبكرة لا تخطيء إلى جميع المستمعين إليها، ولكن دعونا نعود من هذا الاستطراد إلى صلب موضوع روايتنا، ونتابع حكاية مشاكل وهموم سيمون، إيرل ليستر.

كيف أن الإتهام الأول ضدّ الإيرل

سيمون قد تبعه إتهام آخر أكثر جدية

انتشر في هذا العام نفسه تقرير شرير ضد سيمون إيرل ليستر، وجرى تقديم شكوى فيها تهمة جادة ضده، عرضت أمام نبلاء مقاطعات ماوراء البحر، من أنه عمل بشكل غادر ضد الرعايا المخلصين لمولاه ملك انكلترا، وأنه سجنهم، وقتلهم بصورة لا إنسانية بالسيف، أو أنه أجاعهم حتى الموت، وأنه استولى على ممتلكات قلاعهم وأراضيهم، وبذلك أظهر نفسه أنه كان مغتصباً متوحشاً للبلدات والمدن، ومدمراً للإنساني للإنسان، وليس محافظاً على أتباع مولاه، الذين سعى إلى تجريدهم من مواريتهم، وبناء عليه تقرر بموافقة عامة من قبل جماعة غسكوني كلها،

إرسال رسل خاصين إلى مولا هم ملك انكلترا، عليهم أن يأخذوا معهم، بمثابة برهان على هذا الاتهام، رسائل من جماعات مدن غسكوني، ومن النبلاء، ومن شحن القلاع، والنواب، وأن يقدموهم إلى الملك مع شكاويهم، وتقرر أيضاً باتفاق عام، بأنه يتوجب على جميع الشخصيات الرفيعة في تلك المقاطعة أي رئيس الأساقفة في بوردو مع بعض النبلاء الآخرين المشهورين، الذهاب إلى انكلترا، إلى الملك بكل سرعة، لأنه من الممكن تصديقهم أكثر من سواهم، وبذلك يسببون الاضطراب للإيرل، وعندما جرى اخبار الإيرل بهذا، بذل قصارى جهده لكي يعود بكل سرعة إلى انكلترا، حتى يتمكن من إجابة الملك بشكل مقنع عن جميع قضايا الشكاوي التي رفعت ضده من قبل متهميه.

حول إخضاع ويلز إلى القوانين الإنكليزية

وفي هذا الوقت نفسه، عبر اللورد ألان دي زوك Alan de Zouch المسؤول عن العدالة في مقاطعات ويلز المجاوزة لشيستر، بدير القديس ألبان، في عشية يوم عيد أحد الشعانين، جالباً معه في عربات، إلى خزانة لندن، مبلغاً كبيراً من المال، جمعه من الموارد الملكية، وأعلن بشكل مكشوف أمام جميع مستمعيه بأن ويلز خاضعة ومستقرة بشكل سلمي في ظل القوانين الإنكليزية، وأعطى أسقف بانغور Bangor، الذي قدم أيضاً إلى دير القديس ألبان الرواية نفسها أيضاً، وجرى أيضاً في الوقت نفسه انتخاب المعلم رالف، الكاهن في كنيسة لنكولن أسقفاً لموري Murray، في سكوثلندا.

كيف قدم نبلاء غسكوني إلى إنكلترا للكسوى ضد طغيان الإيرل سيمون

قبل عدة أيام من أحد الشعانين من العام نفسه، قدم إلى انكلترا من غسكوني رئيس أساقفة بوردو، وبعض النبلاء من راؤل Reole،

ومن مدن غسكوني الأخرى، وقد جاءوا عبر الماء حتى لندن، حيث وجدوا الملك قد وصل قبلهم، وقدموا شكوى مخزنة حول طغيان إيرل ليستر، بعدما أرسل ليكون المتولي عليهم، وإتهموه بأعظم غدر يستحق التحقيق به، ولم يثق الملك — على كل حال — فوراً بكلامهم، لأنه وجدهم من قبل غدارين عندما كان في غسكوني، فأرسل إلى هناك نيقولا دي مولي Molis، وكان فارساً، ودرو دي فالنيس Dreux de Valence، ليتقصيا لمعرفة فيما إذا كان الغسكونيين مجرمين أم أبرياء، وفيما إذا كان هنري دي وينغهام Wengham، على وفاق وعلاقة صداقة معهم أم لا، وعما إذا كانوا يرفقون صراخهم بأفعالهم أم لا، وأنه ينبغي إيضاح جميع هذه النقاط ببيانات أحسن العارفين بهم، الأمر الذي أزعج الإيرل سيمون كثيراً، ولاعجب في أنه فعل ذلك، وتصرف هكذا.

بنود الاتهامات ضد الإيرل سيمون

وبناء عليه، عندما عاد المفتشان، أخبرا الملك بأن الإيرل سيمون، قد عامل بعض الغسكونيين بشكل غير إنساني كبير، لكن وفقاً لما اعتقدها، كانوا يستحقون ذلك، وهو ما لم — على كل حال — يستطيعا برهنته، بسبب غياب الإيرل، ولدى سماع هذا قال رئيس أساقفة بوردو والغسكونيون الذين كانوا معه بحضور الملك، بغضب شديد: «إن برهان الحقيقة سوف يجري ذكره من دون انخفاق، وبعد البرهان نطالب بالحكم»، وأعلنوا مقسمين أنهم سوف لن يطيعوا مطلقاً، أو يخدموا ذلك الإيرل المييد، وأنهم بدلاً عن ذلك، سوف يختارون سيّداً آخر لهم، غير ملك انكلترا، وبما أن الإيرل جرى التشهير به إلى هذا الحد في بلاط الملك، وأخذت البراهين على سوء سلوكه تكسب الثبوت، بزيادة عدد الشهود، قدم مسرعاً تماماً إلى انكلترا، ولدى وصوله عرف اليوم الذي حدد له للرد على تهم خصومه، ولأنه شعر أنه بات في وضع ضئيل،

رتب هذا الايرل، أن يكون في ذلك اليوم موجوداً الايرل رتشارد، الذي كان مسروراً كثيراً للاضطراب الذي لحق بالغسكونيين، وايرل غلوستر، وكان صديقاً للايرل سيمون في هذه القضية، وايرل هيرفورد، وعدد كبير آخر من النبلاء، ورجال من المرتبة العليا، الذين كانوا لن يسمحوا بتعرض الايرل للخطر، بأي حال من الأحوال حول هذه القضية، لأنه كان يخشى كثيراً من الملك بتسارعه المفطور عليه، ولا يشاره المعروف للأجانب، من أن يأمر بالايرل، الذي كان من أصل نبيل، وكان من رعاياه الطبيعيين، فيعتقل، ويوضع بالسجن، إذا ما أدين بأنه خائن، وهذا أمر لن يسمح به بشكل مطلق، وعندما أعطى الايرل براهين كافية على براءته، وتم اسكات الفريق المخاصم ورفضه، تابع الملك الكلام ضده، لكنه عندما شعر بأن الايرل رتشارد والبقية كانوا مؤثرين للايرل سيمون، ولأنهم كانوا يدارون بالحكمة، لم يعد يتجراً — مع أنه أثير لأن يفعل ذلك — على وضع القسوة الملكية موضع التنفيذ ضده، ومع ذلك استمررا يتراشقان الكلام، فأثارا غضب بعضهما بعضاً، وبسرعة استعدادا ذكريات ماقع منذ زمن طويل مضى، فقد ذكر الايرل — على سبيل المثال — كيف أنقذ الملك في سانتاغيو من مصائد الفرنسيين، وكيف أنه عندما كان على وشك الانطلاق إلى غسكوني للمرة الأولى، نصحه الملك بسحق الخونة، وكيف أنه أعطاه صكاً بتولي الوصاية على تلك البلاد لمدة ستة أعوام، وكيف أنه وعده بمساعدة فعالة وبالمشورة، الأمر الذي لم ينفذه، ثم أضاف قائلاً: «ولولا أنه كان مغطى باسمه الملكي وبمكانته، لكانت ساعة سيئة تلك الساعة التي تفوه بها بمثل ذلك الخطاب»، وهنا وجد الملك صعوبة في حبس نفسه ومنعها من الغضب، ومن ثم الأمر باعتقاله في مكانه، لولا أنه كان متأكداً تماماً بأن مثل هذا الإجراء سوف لن يسمح له به من قبل النبلاء، وعلاوة على ذلك أضاف الايرل قائلاً: «من الذي يمكنه أن يعتقد أنك مسيحي؟ أולם تعترف قط؟» فأجاب الملك: «لقد فعلت»، فاستأنف

الاييرل يقول: «لكن ماهي منفعة الاعتراف من دون توبة وتكفير؟»، وكأنه قصد أن يقول: «إذا كنت قد مارست قط الاعتراف، إنك لم تتب قط، ولم تقم مطلقاً بالتكفير الصحيح، وعلى هذا الكلام ردّ الملك الذي ازداد غضبه أكثر فأكثر اشتعلاً قائلاً: «إنني لم أندم قط على أي عمل مثل ندمي الآن على السماح لك بدخول انكلترا، أو بتركك تضع بين يديك أية أرض أو مراتب شرفية في تلك البلاد، التي سمت بها إلى أحد أنك تمردت على سلطتي»، وهنا قطع أصدقاء الطرفين هذا الخلاف، وهكذا افترقا.

سبب الشر المتقدم ذكره أعلاه

ووقعت هذا الأشياء كلها بسبب عدم استقامة الملك وعدم استقراره، إنها حتى تتمكن من متابعة هذا الموضوع، علينا أن نعود بروايتنا بعض الشيء إلى الوراء لوقت قصير، في سبيل إيضاح السبب، فمنذ سبعة وعشرين عاماً انقضت، قام الملك، بناء على نصيحة نبلائه، عن طواعية وبارادته بمفرده، بالتنازل عن غسكوني إلى الايرل رتشارد، وأبحر الايرل إلى هناك، وبعدما جعل الغسكونيين يرون الصك المثبت لدعواه، والذي تسلمه من الملك، تلقى الولاء منهم، الأمر الذي قاموا به عن طواعية، من قبل أنفسهم، وأدوا يمين التبعية له، في ذلك الوقت نفسه، لأنه كان آنذاك شاباً، وصاحب مظهر جيد، وجديراً بكل التشريفات والاكرام، وبعد مضي عدة سنوات، أنعم الملك ثانية بالبلاد نفسها على الايرل نفسه، وأعطاه صكاً بذلك، لكي يكون التملك لها أكثر ثباتاً وضماناً بالنسبة له، وبعد مرور عدة سنوات، كانت الملكة قد أنجبت للملك أول ولد كان منتظراً منذ وقت طويل، وبناء على إثارة الملكة وتحريضها، انتزع الملك غسكوني من أخيه الايرل رتشارد، من أجل أن ينعم بها على ابنه البكر ادوارد، فألغى صكيه الماضيين ومنحته، لكن الايرل رتشارد رفض القيام بالتنازل، معتمداً على امتيازته، في أنه

لا يجوز تجريدته من ممتلكاته، وبناء عليه، عندما كان الملك أخيراً في
عسكوني، وكان بعض العسكونيين يتأرجحون، وفي حالة شك،
لا يدرون إلى أي من الاثنين يتوجب عليهم تقديم الطاعة، قام الملك
وهو في حالة غضب شديد، فأمر الأيرل بشكل قاطع بالتخلي عن
صكية، وأن يعلن على الملأ تنازله عن دعواه في عسكوني، ولأن الأيرل
رفض بثبات أن يفعل ذلك، أمر الملك رجال شعب بوردو بأن يعتقلوه
ليلاً، وأن يودعوه في السجن، وعلى هذا أجابه العسكونيون من دون
تردد، لكن بشكل سري، بأنهم لن يفعلوا ذلك مهما كان الأمر، أولاً
بسبب شهرته، وأصله الملكي، وبسبب الولاء الذي كانوا قد أدوه إليه،
وأيضاً بسبب ضعف الملك وتقلبه، أي خشية من أن يقوم فيما بعد
بالندم لإقدامه على هذا العمل، ويعاقبهم جميعاً، ولم يعط الملك هذا
الأمر إلى نبلاء انكلترا، لأنه كان متأكداً من أنهم لن يفعلوا ذلك من
دون تداول كبير، وبما أنه أصبح ساخطاً مليئاً بالغضب، سعى إلى رشوة
العسكونيين بوساطة الهدايا، لأنه لم يستطيع جعلهم يطيعون أوامرهم
باعتقال الأيرل بمثابة متمردين، وأن يضعوه في السجن، وكان الأيرل قد
أنذر مقدماً في الليلة نفسها، فأخفى نفسه في دير الصليب المقدس،
ومكراً عند الفجر، قام بشكل سري ومفاجيء بالصعود على ظهر
سفينة والعبور إلى انكلترا، وبما أنه لم يكن مجهزاً من قبل بالمؤن
وبال أشياء الضرورية الأخرى، عانى من عوز كبير في البحر، ومن
العواصف أيضاً، التي ثارت، وأبعدته عن طريقه الصحيح، وجعلت
الرياح المضادة تنقادفه، وتعرض إلى مخاطر عظيمة، إلى حد أنه نجح
بصعوبة من بين فكي الموت، ونتيجة لذلك عمل نذراً في وقت تعرضه
للخطر، بأن يبني لعبادة الرب، ديراً لطائفة السسترشيان، وقد وفي بنذره
هذا بالشكل الصحيح، حسبما تقدم ذكر ذلك في الصفحات الماضية،
وألقي الأيرل باللوم نتيجة لكل ما عانى منه على الملك، وشعر بالفعل
بأعظم الغضب ضده، كما أنه لم يتعامل بعد ذلك هو والملك بموجب

العلاقات الأخوية والمشاعر المتبادلة، كما كانا من قبل، وعندما وجد الملك بأن الايرل قد نجح هكذا من سخطه، جمع وهو حائق في قرارة نفسه نبلاء غسكوني، ولاسيما نبلاء بوردو، وبعدما ألقى خطاباً فيهم نأى بقلوبهم عن المحبة وعن الولاء والاخلاص للايرل، وجاء ذلك بوساطة عدد لا يحصى من الخطابات الناعمة، والوعود السخية، وأعلن بأنه — أي الايرل — كان رجلاً شراً، وظالماً للرعية التي كانت تحت حكمه، وأنه كان الأكثر سخاء بوعوده، لكنه الأعظم شحاً في تنفيذهم، كما أنه أضاف أنه ألغى صكيه، وأزال منحة غسكوني، وبذلك أزال ولاءهم له، وجرد الايرل تماماً من دعواه ومن حقه بالتملك، وفضلاً عن هذا وعدهم بسيد أفضل، وبحاكم أكثر رأفة، وأنهم إذا مافعلوا كما يرغب ويريد، فلسوف يتسلمون منه مبلغاً كبيراً من المال بمثابة مكافأة، وتقرر السعر أيضاً، وتحدد المبلغ بثلاثين ألف مارك، وهكذا أمكن إلزام الغسكونيين بالتنازل عن خضوعهم وعن ولائهم للايرل رتشارد.

وعندما أخيراً، كان الملك على وشك مغادرة غسكوني، هكذا بشكل مهين، أعطاهم ضماناً بوساطة صك على الالتزام بدفع المال والوفاء به، وتعهده بيمينه وبشرفه بأن يفي بهذه الصفقة، لأنه اعتقد أنه يمكنه خداعهم بمثل هذه الوعود الكبيرة، لكن المخادع وجد نفسه أخيراً قد وقع بالفخ، لأن الغسكونيين، احتفظوا بالورقة المختومة من قبل الملك في حوزتهم، بمثابة برهان على الصفقة، وهكذا وبالأسف، إن العار والخداع واضح على الجانبين، وكان من المتوجب على مثل هذا الأمير العظيم عدم ممارسة الخداع، وكذلك لا يجوز تعرضه للغش.

أما بالنسبة للايرل رتشارد، فإنه في الوقت نفسه، بعدما جرى تقاذفه بين الأمواج الكبيرة، مما ألحق به ضرراً مستمراً بصحته البدنية، وصل أخيراً بكل صعوبة كبيرة إلى ميناء في كورنويل، وهو مجرد لامال لديه ولاخيل، وطلب في ذلك المكان، وهو حزين وكثير، تزويده بما هو

ضروري، من أتباعه في ذلك الجزء من أراضيه.

ولدى الفراغ من هذه القضايا، عاد الملك إلى انكلترا، بعدما عانى من جميع أنواع الخسائر، وعلى الفور استخرج المال من كل واحد من الأساقفة، في سبيل تلبية المطالب الوقحة للغسكونيين، وبما أنه ظل غاضباً على هؤلاء القوم، وكارهاً لهم، عين الايرل سيمون حاكماً عليهم، من أجل أن يقوم، وهو الرجل المشهور، والواسع التجربة في مسائل الحروب، بسحق عصيانهم المتجبر، كما أنه أعطاه صكاً، بأن يستحوذ على الولاية لمدة ستة أعوام، وأنعم عليه بعشرة آلاف مارك من خزانته الملكية، والتمس منه بالوقت نفسه، لابل فرض عليه أن يدوس عليهم، ويضعهم تحت قدميه، وأن يعاملهم بخشونة وقسوة، خصوصاً الذين هربوا من ظل سلطته، طلباً لحماية أنفسهم، والذين استخرجوا المال منه، ليس فقط بالطريقة التي تقدم ذكرها، بل بطرائق أخرى كثيرة، وبشكل خاص غاستون دي بيارد وأمه، التي كانت امرأة ضخمة، أو بالحري مثل التين، مع عدد كبير آخر، وبناء عليه قام الايرل سيمون، الذي كان رجلاً مقاتلاً، وقوياً، وصاحب خبرة، بإطاعة أوامر الملك، وبفعله ذلك عرض نفسه، وممتلكاته، وأتباعه إلى شاطر البحر والحرب، وأنفق كل الذي استطاع أن يستخرجه من ممتلكاته بوساطة الضرائب، أو بيع الخشب الذي كان فيهم، أن ينفق على الضروريات لذلك المقصد، وفي نهاية جهوده هذه، كانت جائزته تلك التي تلقاها من الملك، ومن هذا الاستطراد المختصر لأخبار الوقائع، بات واضحاً لماذا لم يحزن الايرل رتشارد، أو لم يهتم، حول خسائر الملك، أو اضطراباته في هذه القضية، وعلى كل حال، إنه مهما تفاوتت وجهات النظر والتفاسير، يمكن القول فقط بأن الملك قد تغير، وأصبح مؤثراً للغسكونيين، الذين كان قد عانى من مكرهم، وأبعد عن حظوته الايرل سيمون، الذي خدمه باخلاص في كثير من قضايا الريبة والأزمات.

لكن دعونا نعود من هذا الاستطراد إلى موضوع روايتنا.

كيف جرى اتهام الايرل سيمون بعنف شديد من قبل الغسكونيين

عندما جاء الايرل سيمون بكل سرعة من غسكوني، وجد الملك في لندن، لكنه لم يلق التحية كما ينبغي، ولم يستقبل بالتشريف من قبله، بل على العكس وقف خصومه، رئيس أساقفة بوردو ورفاقه ثابتين ضده، وكأنهم كانوا متحالفين مع الملك، ونظروا إليه نظرات مسمومة، واتهموه بالكلمات التالية: «في المقام الأول، يامولانا الملك، والايرل رتشارد، سوف نريكما أنتما مع بقية النبلاء، الذين هم حاضرون هنا، لصالح الملك، التواكيل المعتمدة، التي جلبناها معنا من جميع نبلاء غسكوني، الذين هم رعايا مخلصين للملك، ومن الفرسان، ومن المواطنين، ومن العقائل العفيفات، ومن السكان الذين أنابونا بشكل عام بالتحدث وطرح شكاويهم، وإننا بناء عليه نحن جميعاً نتقدم بالشكوى بالإجماع ضد سيمون دي مونتفورت، ايرل أوف ليستر، الذي تولى حكومة غسكوني، لكن الذي بحدّة عدو، وشدته، يقوم باجتياحها، وايقصها إلى الدمار.

وعلاوة على ذلك، إنه بالنسبة إلى الذين منحهم الايرل رتشارد (الذي كان ومابرح متفوقاً كثيراً على الايرل سيمون) لمدة طويلة حياة سلام، والذين جرت معاملتهم في الأزمان المتأخرة بلطف ويسلام، لابل حتى بوّد وصداقة من قبل هنري دي تروبيفل Trubeville الذي كان بموجب تفويضك قهرمان غسكوني، والذي كان وصياً متعاطفاً وعادلاً علينا، والذين أيضاً عوملوا بطريقة لطيفة مماثلة من قبل ويلران Waleran الألماني، الذي كان رجلاً مستقيماً وحكيماً، هؤلاء أنفسهم هم الرجال الذين يتولى الايرل سيمون التضييق عليهم،

ودفعهم إلى الدمار مما سوف يسبب خسارة كبيرة، وأذى عظيماً إلى صاحب الجلالة الملك.

فضلاً عن هذا، لقد ألغى الأحكام والمراسيم المكتوبة، العائدة لكثير من النبلاء، وأرسل رجالاً من ذوي المراتب العالية في بلادنا، ومن الرعايا المخلصين للملك، بمثابة أسرى إلى فرنسا، حتى يسجنوا هناك، وذلك تحدياً لنا، ولإلحاق الأذى بالملك، وقد هلك بعض هؤلاء النبلاء بالسجن، من الجوع ومن وزن سلاسل قيودهم، كما أنه استخرج من النبلاء المذكورين مبالغ كبيرة من المال، مما ألحق أضراراً لا يمكن جبرها بالملك، وهو لم يخبره بها، أو يسمح له بالمشاركة بالمال، وقام أيضاً بشكل غادر باستدعاء كثير من الرعايا المخلصين للملك، وذلك تحت مظهر عقد مقابلات سلمية، فصاروا مثل بائسين تعساء، لأنه اعتقلهم، ومن ثم أعدمهم، وبالإضافة إلى هذا كله، طالب بتسليم القلاع من أجل استخدامات الملك، لكنه قام بشكل غادر ودنيء بالاحتفاظ بملكيتهم، وكأنهم كانوا قلاعهم، وألقى بالسجون ولاتهم، الذين سلموه إياهم عن حسن نية، وبإرادة طيبة».

رد الإيرل سيمون على الاتهامات

ورد الإيرل سيمون على الاتهامات المذكورة أعلاه من دون تردد، بأنهم، أي الذين اتهموه، ليسوا موضع ثقة، ولا يجوز تصديقهم، لأنه عندما كان الملك، في حالة طوارئ كبيرة، فكر أن يجد فيهم رعايا مخلصين وأصدقاء، فاكشف أنهم دجالين، وأعداء دمويين، وقال: «لقد برهنتم في الحقيقة، أنه لاشهادتكم ولاحكمتمكم مما يتوجب الاعتماد عليه، ومن الممكن أن يكون قد حدث أنه وجد في مقاطعتكم، بعض الذين، قد منبهم الإيرل رتشارد، والنبلاء الآخرون الذين جرى تعيينهم ولاية عليكم، قد جرى منحهم السلام والحياة، لأنهم تظاهروا لبعض الوقت أنهم أبناء السلام، لكنهم عندما قامت الفرصة، ثاروا، وأصبحوا فيما بعد

أبناء جهنم، واستحقوا فقدان حق الادعاء بالسلام والحياة، فلماذا كان علي أن أفعل غير الذي فعلته؟ وصدقاً، لقد كان ذلك واجبي، فالرب عمل هكذا، وهو الذي أكثر عدلاً من أي إنسان، فالذين حافظوا على السير في طريق العدل توجههم، وعاقب الذين عادوا إلى ذنوبهم، وهكذا إنني لم ألحق، بأي طريق من الطرق، الأذى بأسلافي، ولاتكم المعينين، ولا بالملك نفسه، في هذه القضية، وفي سبيل البرهنة على صدق هذه التأكيدات، أنا جاهز، في الوقت المناسب، لتقديم شهود أكثر عدداً، وأعظم جدارة بالتصديق منكم، لكن هل تريدون شهوداً حول هذه المسائل؟ فالملك نفسه، إذا ما اعترف بالصدق، سوف يكشف نواياكم الشريرة، فهو قد نظر خلال زيفكم، وفيما يتعلق بقضايا الاتهامات الأخرى، التي تقدمتم بها ضدي، إنه ليس بوساطتكم، بل بوساطة أشخاص أكثر ثقة، سوف يتم جلاء الحقيقة، لأنه لا يمكن وضع الثقة في القوم الخونة»، ثم إن الايرل رتشارد والنبلاء الآخرين، الذين تعلموا بالخبرة في غسكوني، وتعرفوا إلى مكر الغسكونيين، صادقوا على كلام الايرل سيمون، ولم يضعوا أدنى ثقة بالغسكونيين، ولم يصدقوهم.

الأذى الذي أنزل براعي دير رامسي من قبل الملك

وفي هذه الآونة أيضاً، قام الملك الذي كان مهتماً بالحصول على المال بمختلف الطرق، أكثر من اهتمامه بأن يصبح إما موثماً، أو موافقاً، بالعمل، بناء على نصيحة روبرت باسليف *Passeleve*، بازعاج راعي دير رامسي *Ramsey*، في امتلاكه لسوق القديسة حواء *Ives*، مع أن راعي الدير المذكور كان ممتلكاً لهذا السوق، من دون أية اعتراضات على ادعائه وحقه، منذ عصور سحيقة، ومع أن راعي الدير المذكور قد عرض صكوكاً أصيلة، من القديس ادوارد، الذي يبدي الملك نحوه عاطفة خاصة، وأيضاً من قبل القديس أولستان *Ulstan* تأييداً لادعائه وحقه، إنه مع هذا كله لم يخف الملك من إلغائهم، وفي

الحقيقة، كان هذان القديسان قد تفوها، بالاتفاق مع عدد كبير من الأساقفة المقدسين الآخرين، بقرارات وأحكام مرعبة بالحرمان الكنسي، ضد جميع الذين يخرقون حرمة صكوك امتيازات دير رامسي (وبشكل خاص مايتعلق بالسوق المتقدم ذكره أعلاه)، لكن الملك أعلن، بناء على مشورة شريرة، ويّسن لصالح نفسه، أنه تبعاً لصكوك راعي الدير، كان من الممكن الحفاظ على السوق، وابقائه بشكل قانوني، حتى أيام القديسة حواء، وليس بعد ذلك، كما ادعى ملكية الطريق القائم بين الشارع والنهر، مع أن راعي الدير، قد تملكها بسلام بموجب امتياز قديم، وكان أي تأخير لاجتماع التجار هناك بعد ذلك اليوم، لن يعزى إلى الملك، ذلك أنه رغب بالإبقاء على ذلك السوق وعلى أجوره من أجل منفعته الخاصة من دون أية معارضة، مما كان سيتحول كله بشكل واضح لأذى وخسارة راعي الدير، وكان ذلك لايتوافق مع المنطق ومع النوايا الطيبة للمعطين، الذين رغبوا بوجوب استقبال الكنيسة حشوداً كبيرة، وأعطيات غير مادية، وهكذا حدث أن عانى دير رامسي النويل من مثل ذلك الأذى الكبير، وكان أفضل بالنسبة له لو أنه فقد أياً من عزبه.

حول الخطر الذي أحاق بكنيسة القديس إدموند

ووفق الطريقة نفسها، تهددت خسائر كبيرة الكنيسة النيلة للقديس ادموند الملك والشهيد، حيث نشب خلاف، تعلق بعزبة مايلدهول Mildenhall، ولكي نعرض ماحدث باختصار، لقد بات العالم الآن يميل إلى السلب والاعتصاب، حتى أن أي واحد كان يارس أي عمل من الاستخراج، على الرهبان، ظهر وكأنه يستحق المكافأة وليس الملامة.

حول الخلاف الذي نشب حول كنيسة فليمستد

وفي حوالي أيام عيد الفصح من العام نفسه، مات رتشارد، الذي كنيته دي ثوني Thony، وكان خازن أنجو، ورجلاً مشهوراً

بأصله وبفضائله، وكان قريباً للملك سكوتلندا، وأخاً من جانب الوالدين معاً للفارس النبيل رالف دي ثوني، ولأنه كان بحوزته كثيراً من الموارد في مملكتي فرنسا وانكلترا، أصبحت كنائسه عند وفاته شاغرة، وكان من بين الكنائس التي شغرت كنيسة فليمستد Flamstead، التي لم تكن بعيدة عن كنيسة القديسة ألبان، وقامت الملكة بناء عليه، بحكم الوصاية التي أعطتها إياها الملك، على أراضي رالف دي ثوني، الذي كان في أعطيته الكنيسة المذكورة، بالإنعام بالكنيسة نفسها على قسيسه وليم، الذي كان كاهناً من كنيسة القديس ألبان، وذلك بسبب أن كنيسة كنبل Kennebell قد أنعم بها عليه من قبل راعي دير القديس ألبان، وقد فعلت الملكة هذا، اعتياداً على حقها، لأنها تولت لسنين طويلة تعليم — وهذا قد حصلت عليه بمثابة عطية من الملك اعترافاً بالفضل — وريث رالف دي ثوني المذكور، الذي كان آنذاك طفلاً، والذي إليه يعود حق ولاية النعمة، وهكذا فإن حق العطية آل إلى الملكة، وعندما سمع الملك بهذا، انفجر غاضباً غضباً عظيماً قائلاً: «إلى أي مدى يمكن لتجبر المرأة أن يصل بها، فقط إذا سمح لها بأخذ سبيلها»، وبناء عليه قام بشكل غير لائق، وكذلك غير عادل، فألغى عمل الملكة وأبطله، وأنعم بالكنيسة المذكورة، التي بلغت مواردها مائة مارك، على كاهن خاص به، ومستشار، اسمه هيرتولد Hurtold، وكان من أصل بيرغندي، وقام هذا على الفور بطرد وليم المذكور، واغتصب الكنيسة، واستولى عليها على الفور، وعلى كل حال لم تتحمل الملكة هذا بسهولة، بسبب الأذى والإهانة التي لحقت بها، وعلاوة على ذلك، عندما وصل خبر هذا الإجراء إلى علم أسقف لنكولن، الذي وقعت في أسقفيته الكنيسة المذكورة، قام بانزال عقوبة الحرمان الكنسي بحق هيرتولد المذكور، وتولى بعد ذلك تعليق الكنيسة، وحرمانها من شراكة المؤمنين، وبذلك لم يعد من الممكن دفن الموتى هناك.

موت روبرت باسليف

وفي السادس من حزيران لهذا العام، مات في وولتهام روبرت باسليف، رئيس شمامسة ليوي Lewes، الذي عنه كتب كثيراً في الصفحات الماضية، ومع أن روبرت هذا كان كاهناً، ورجل لاهوت، لم يتردد في وقوفه إلى جانب الملك، في العمل على إفقار كثير من الناس بطرق كثيرة ومتنوعة، في سبيل إغناء سيدهم، لكن أفاعيله لحقت به.

وفاة رتشارد دي ويندوفر

وفي حوالي الوقت نفسه، مات المعلم رتشارد دي ويندوفر Wendover، وكان كاهناً في كنيسة القديس بولص في لندن، وطبيباً صاحب شهرة واسعة، وأخذ هذا الرجل احتياطات لنفسه، بشكل أكثر حكمة، وبطرق أكثر عقلانية من روبرت المتقدم الذكر، ذلك أنه جهز الوسائل الضرورية لتسعة من الكهنة لتقديم أعطيات مفيدة للمسيح إلى الأبد، من أجل الحفاظ على الأرواح، ولقد رأينا من المناسب أن نعمل ذكر خاص له في هذا الكتاب، فبسبب إخلاصه الواضح وتقواه أهدى إلى كنيسة القديس ألبان صليباً، احتوى في داخله على عدد كبير من الآثار المقدسة، كما تبرهن على ذلك كتاباتهم المقدسة، وكان التمثال على الصليب من العاج، وكان جذع الصليب والذراعين، الذين يدعون معاً باسم Furcae، مغطيين بغطاء من العساج، وكان هذا الصليب عائداً من قبل إلى البابا غريغوري، الذي قدره تقديراً عالياً جداً، وبما أن المعلم روبرت المتقدم الذكر كان طبيبه، فقد قام هذا البابا عندما كان على حافة الموت، فأعطاه الشيء الذي كان موضع تقدير كبير لديه، أي الصليب نفسه، أعطاه إلى صديقه العزيز، المعلم رتشارد.

كيف حصل أسقف لنكولن من البابا على سلطة إقامة قساوسة خلال هذا العام، قام روبرت أسقف لنكولن، في سبيل التجاوز والتدخل بموارد الرهبان، ولكي يزيد من فئة القساوسة، فحصل من الكرسي الرسولي على الولاية التالية والتفويض الذي كان متوقعا منذ زمن طويل:

«من أنوسنت، أسقف النسخ، إلى أسقف لنكولن المحترم: بما أنه يوجد في مدينتكم وأسقفيتكم، كما سمعنا، بعض الرهبان مبالغ آخرين يشككون جماعات وبين أيديهم ممتلكات الكنائس الأبرشية، من أجل منافعهم الخاصة، وهي ليس فيها قساوسة معينين، أو إذا كان هناك بعض القساوسة، فعددهم قليل جداً، إننا نأمركم بموجب هذه الإجازة الرسولية، يا أخانا، العامل، عوضاً عنا، وفي مكائنا، أن تعين قساوسة في الكنائس نفسها، اعتماداً على مواردها، وبعدما تتولى تعيينهم، أن تتولى زيادة إمكانات الذين هم فقراء، جلسياً، تجد الأمر موافقاً ومتوافقاً مع إرادة الرب، وأعراف البلاد، دون التقييد بأن تكون تلك الفئات معفية، أو أنها محمية بوساطة أي امتياز رسولي، أو غفران وإعفاء، يمكن أن يشكل إعاقة لهذه الولاية، أو يؤخرها، والتي يتوجب عمل ذكر خاص لها في هذه العروض، وأن تضع جانباً جميع الالتباسات والمرافعات، وأن تضبط جميع المعارضين بالروادع اللاهوتية. صدر في ليون في هذا اليوم الخامس والعشرين من أيلول، في العام الثامن لبابويتنا»

وبناء عليه، تسبب الأسقف المذكور (كما قيل وكما هو واضح، صدوراً عن كراهيته للرهبان، أكثر من عاطفته نحو القساوسة، والإرتقاء بهم) بموجب هذه الولاية بكثير من الخسارة والأذى إلى تلك الفئة من الناس.

كيف جرت إعاقة مشروع السلام بين البابا وبين شيعة فردريك

وفي هذا العام نفسه أيضاً، في حوالي أيام عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، عندما كان البابا مقيماً في بيروجيا، جرى إخباره بشكل سري، وبمثابة نصيحة تحذيرية، من قبل جميع الكرادلة، مع أصدقائه، أنه إذا لم تتم بسرعة تسوية الخلاف بينه وبين شيعة فردريك، الذين يتمتعون الآن بالخطوة لدى الشطر الأكبر من الامبراطورية، وإنهائه كلياً، فإن الكنيسة كلها، لابل في الحقيقة العالم المسيحي كله، سوف يتعرض للخطر، وللدمار، لأن كونراد بن فردريك محبوب، ويحتل مكانة حظوة عظيمة لدى جميع النبلاء، وكذلك بسبب سمو مكانة أصله، وللطيفه الكبير، ولشجاعته التي لا تقهر في الفروسية، ولجراته وبراعته في الحرب، وكان هنري، الابن الآخر لفردريك، وابن أخت ملك انكلترا، أيضاً مثله استحق عن جدارة نيل الخطوة، وحسن المكانة والعاطفة لدى جميع الحزب الامبراطوري، وذلك بسبب براءته، ومظهره الوسيم، ولحبه [الحزب الامبراطوري] للامبراطورة ايزابيلا، التي برهنت عن لطفها نحو الجميع.

وبناء عليه أخذ البابا بفكرة محاولة نيل حظوتهم ورضاهم وأن يجعلهم يتحالفون معه بوسائل الزواج من إحدى الاناث من قريباته، حسبما بدأ يفعل في قضية النبلاء الآخرين، الذين أعطاهم حفيداته بالزواج، ولكن هذه الخطة أعيقت بسبب مرض كونراد، الذي — كما سلف القول — نجا بصعوبة بالغة من آثار السم الذي قدم إليه، وأيضاً بسبب مشاعر الرفض والغضب والمعارضة، التي قدمها أصدقاء الامبراطور، لهذه القضية، وعندما نجا كونراد من عتبات الموت، واسترد صحته، اتهم شيعة البابا بأنهم هم الذين خططوا لهذه الفعلة، وجلبوا ذلك الخطر العظيم إليه، وأسقط هذا إلى أعلى الدرجات الثقة باسم البابا، على أساس التأكيد بأن ذلك السم المميت قد أعطي له ليشر به بناء

على تحريضه (البابا)، كما تقدم بالمحاولة الغادرة التي عملت لأبيه (لاسمح الرب أن يكون ذلك صحيحاً)، ولهذا وبها أن قوة أذى البابا قد غدت أشد، بات واضحاً بأنه قد فقد الحظوة لدى كثيرين جداً.

وسلف أن قام توماس أوف سافوي، وهو قريب للبابا وصديق له، أن مهّد بحكمة السبيل ووفر الوسائل لترتيب سلام، لكن هذا المسعى أعيق بسبب الواقعة غير السعيدة، ونتيجة لذلك حدث هياج ممت، في كثير من أجزاء الامبراطورية، إلى درجة أن الذين كانت لديهم قضايا أعمال تتوجب عليهم ملاحقتها في بلاط روما، لم يعد بإمكانهم الذهاب إلى هناك من دون التعرض للنهب، وتمزيق أوراقهم، وتحطيم أختامهم، في تحد للبابا، وللحاق الأذى به، لأن أصدقاء فردريك، وبشكل خاص أصدقاء كونراد، قالوا بأن كونراد قد حرم كنسياً بشكل غير عادل، وهو بالتالي يمتلك الحق المسوغ بالتكيل بالبابا، الذي حرّمه كنسياً، وأن يكون ذلك بالنار والسيف، وبناء عليه صرف عدد كبير من الناس أنفسهم للنهب، وللحرق، وللقتل، ولهذا السبب فإن الذين أرادوا الذهاب إلى بلاط روما، أثروا السفر بحرراً، للنجاة من المصائب التي نصبت إليهم، مع أنهم باختيارهم لهذا الطريق عرضوا أنفسهم للخسارة، وهكذا فإن أبانا البابا الذي اتبع خطوات قسطنطين، وآثرها على خطوات بطرس، سبب كثيراً من المصائب في العالم.

كيف جرى منح حق القيام بزيارة

تفقدية جزئية إلى رئيس أساقفة كانتربري

قام الآن توماس أوف سافوي الذي تقدم ذكره أعلاه، والذي كان البابا مطيعاً لجميع ترتيباته، وبسبب محبته — أي توماس — لابنة أخيه [ملكة انكلترا]، ببذل قصارى جهوده لعمل ترتيبات فعالة، ليحول دون احباط أخيه رئيس أساقفة كانتربري، وليحقق رغبته بالقيام بزيارات

تفقدية في انكلترا، وهكذا جرى منح رئيس الأساقفة المذكور الاذن بالقيام بزيارات تفقدية، لكن الفوائد المالية التي كان سيحصل عليها بوساطة هذه الزيارات التفقدية جاءت محدودة، حيث اشترط من قبل بلاط روما صاحب الدهاء الكبير، أن يكون البابا هو المنتفع بوساطة أموال رئيس الأساقفة، وأنه ينبغي أيضاً أن لا ينخر شيئاً مطلقاً، من الذي سيتمكن من جرفه من الفئة المضادة، وجرت كتابة الرسائل الأصلية حول هذه القضية في كتاب Additaments.

كيف شفى طفل عدداً كبيراً من الناس المرضى

في هذا العام، كان قد عاش في بلدة في كنت اسمها ستون Stone، على مقربة من دارتفورد Dartford، طفل وصل إلى سن عامين في عيد تمجيد الصليب المقدس، وقد تمكن من عمل معجزات، (مع أنه غير معروف بقوة أية فضيلة تمكن من فعل ذلك)، وكان اسم والد الطفل وليم كبرول Crul، واسم أمه يوستاتيا Eustatia، وكان اسم الطفل نفسه وليم حسب اسم أبيه، وكان هذا الطفل قد تمكن من شفاء جميع الذين كانوا مرضى، وذلك بعد رسم علامة الصليب من قبل أي واحد كان واقفاً هناك لمسبأعده، وشمل الشفاء كل مرض مهما كان جاداً، وكانوا يعانون منه، وبسبب السمعة التي نالها عن طريق الذين شفوا، فقد تدفق عليه جميع الذين كانوا يعانون من عجز أو مرض، في سنبل استرداد صحتهم، ورائع أن نذكر أنهم لم يحددوا في الحصول على تلبية كاملة لجميع الذين رغبوا به، ولدى سؤال أم الطفل كيف جرى اشفاء هذه المنحة على مثل ذلك الطفل الصغير، أجابت بأنها أخبرت سلفاً من قبل الرب بهذه الحقيقة، عندما كانت حاملاً، وكذلك بعد ميلاد الطفل، وعلى كل حال بما أن هذه القوة الأعجازية لم تدم لمزيد من الوقت، بل تناقصت في فعاليتها يومياً، ولم تعد تلاحظ بعد وقت قصير، ونسيت.

كيف تم صنع سلام بين راعي دير ويستمنستر والرهبان هناك

وفي هذه الآونة من العام، أي أن تقول في حوالي عيد صعود العذراء المباركة، انتهت الخلاف الذي استمر لعدة سنوات بين راعي دير ويستمنستر وبين رهبانه، والذي مضى يزداد يوماً بعد يوم، وجرى تسويته بسعادة، وجاء ذلك بوساطة تدخل الملك، الذي كان لديه احترام خاص إلى ذلك الدير وإلى كنيسته، وأثناء هذا الخلاف نال راعي الدير غضب الملك، ولذلك نال راعي الدير الخسارة في هذه القضية، فقد كانت هناك ثلاث عزب، كان راعي الدير، قد استحوذ عليها من قبل لمدة طويلة، على الرغم من معارضة الرهبان، وشكاويهم، وقد جرى أخيراً تعيينهم لصالح الرهبان، في سبيل أن تزداد موارد الضيافة والإحسان لدير ويستمنستر، وعلى هذه الصورة جرى ترتيب القضية، بعد مداوولات مستفيضة بين الايرل رتشارد، وجون مانسيل، ذلك أن الفريقين المتنازعين كانا قد وعدا بالالتزام بقرارهما، ولأن راعي الدير امتلك النية بالانسحاب من وعده، وتقدم بالتماس دعوى استئناف ضد القرار، أصبح الملك ساخطاً كثيراً، وكدس على راعي الدير بطريقة غير لائقة الملامات والاهانات، مما هو غير موائم لذكره، ولم يتنازل بعد ذلك لاستقباله وفق شروط الصداقة الماضية، مع أن راعي الدير المذكور كان من قبل مستشاراً مقرباً كثيراً لديه، كما كان صديقاً كبيراً لجون مانسيل المذكور، وجاء ذلك على الرغم من أنه (الملك) كان هو الذي عمله راعي دير، لأنه أعلن أنه قد أفقر إلى أبعد الحدود دير ويستمنستر، وأذى الرهبان وظلمهم.

حول الإمتياز الملكي الذي منح إلى دير ويستمنستر

ثم قام الملك الآن صدوراً عن عاطفته نحو دير ويستمنستر، الذي عانى لعدة سنوات من كثير من الأذى والخسائر، فمنح إلى رهبان هذا الدير نفسه بكرم منه حرية التصرف، عندما يصبح منصب راعي دير

ويستمنستر شاغراً، وتدبير الممتلكات العائدة إلى ذلك الدير، إلى أن يجري تعيين راعي دير إليه، وكانت تلك الممتلكات يجري بالعادة الاحتفاظ بها من قبل الملك، ضمن ممتلكاته الخاصة، مما كان قد سبب خسارة كبيرة وأذى للدير، وفي سبيل الوفاء بهذا أعطى الصك التالي نصه إلى الرهبان:

صك ملك إنكلترا

«من هنري الذي هو بنعمة الرب، إلخ، إلى جميع الذين سوف تصلهم هذه العروض، تحيات: بما أن ممتلكات راعي دير ويستمنستر، وممتلكات رئيس الرهبان، مع ممتلكات المجمع الرهباني للمكان نفسه، منفصلة عن بعضها بعضاً، ورغبة منا بتزويدهم بالوقاية والهدوء، وبتزويد رئيس الرهبان المذكور مع الرهبان، بإسمنا نحن أنفسنا وبإسم ورثتنا، ومنحهم، أنه كما يحدث في الغالب، أن تصبح رعاية الدير شاغرة بسبب تحلي الرعاة أو استقالتهم أو وفاتهم، منحهم حرية إدارة ممتلكاتهم المنفصلة، مبقيين لنا ولورثتنا، خلال وقت شغور ذلك الدير، العناية بالممتلكات العائدة للرعاة المتقدم ذكرهم، وشهادة على ماتقدم، إلخ، شهدت أنا نفسي في ويستمنستر، في العام السادس والثلاثين من حكمي».

وعملت هذه الوثيقة في دير القديس ادموند، حيث بقي الملك في وضع صحي سيء لقراءة ثلاثة أسابيع، مما سبب احراجاً كبيراً إلى ذلك الدير.

غضب الملك ضد راعي دير ويستمنستر

ثم إن الملك، خوفاً منه أن يسبب راعي ويستمنستر له سخط بلاط روما، بحكم أنه كان قسيس البابا، صار الآن واقفاً تماماً ضده، خاصة وأن راعي الدير المذكور قد ترفع بدعوى استئناف إلى البلاط المذكور، وكان هذا يعني توريط دير ويستمنستر بديون لا يمكن سدادها، ولذلك كدس عليه الاهانات وإنهال عليه بالشتائم والالتهامات، التي كانت

بشكل واضح غير مدعومة بأية أرضية صحيحة، وكانت فقط صادرة عن الغضب، كما أنه أصدر إعلاناً، تولى نشره المنادون في جميع أرجاء مدينة لندن، قضى أنه لا يجوز لأحد، بأي حال من الأحوال، تقديم أي مال إلى راعي دير ويستمنستر، ولا أن يبدي أية طاعة لمراسيمه وختمه، بما كان واضحاً أنه إهانة كبيرة إلى راعي الدير.

واعترت الدهشة إلى أقصى الحدود، جميع الذين سمعوا هذا الاعلان، وعجبوا كيف تحول راعي الدير من كونه أعظم أصدقاء الملك، فأصبح الآن هدفاً للكراهية والمقت، وفق الطريقة نفسها عندما تحدث الشاعر بلسان سيدة اشتكت من حببها:

كل نظرة على الآخر، بدت تسأل

بصمت: هل سافر حبنا وغادر؟

حول أخبار تتعلق بأحوال الأرض المقدسة

وانتشرت في الوقت نفسه بعض التقارير المتعلقة بأحوال الأرض المقدسة، إثر وصول الرسالة التالية، إلى راهب من طائفة الدومينيكان، كان اسمه وولتر أوف سينت مارتين، وكان قد نال من قبل شهرة كبيرة في الأرض المقدسة:

«إلى أخيه المحترم والمحبوب في المسيح وولتر أوف سينت مارتين، يرسل الراهب يوسف دي كانسي Cancy، الخازن المتواضع للدير المقدس للاستباتية في القدس وعكا، التحيات (انظره في كتاب Additaments)، وكان مجمل محتوى هذه الرسالة هو كما يلي: «إن الهدنة التي طلبت من الملك الفرنسي من قبل المصريين الذين ضغط عليهم بشدة من قبل سلطان حلب، لم يتم إبرامها بعد، كما لا يبدو أنها معروضة وفق شروط موائمة، لأن المصريين قد ألقوا بمعوقات على الطريق، ومجدداً إن كامل المنطقة المحيطة بأنطاكية قد تعرضت للسلب

والنهب من قبل التركمان، وسكان تلك المدينة يفرون بحشود من خلال الخوف، ولهذا يقوم كثير من المسلمين، الآن بالتجول في المنطقة كما يريدون وفي أرجاء المناطق الخاضعة للصليبيين، ويحتاجون البلاد كلها بالنار والسيف، وقد اتخذوا مكان لجوء في موضع يدعى قيصرية الكبرى، وإن جميع هذه الشرور، قد تسبب بها سلطان حلب، ولقد انتشرت هذه الأخبار في الخارج في بلدان ما وراء الجبال الألب في الخريف.

أخبار أكثر قبولاً من الأرض المقدسة نفسها

وفي هذا العام أيضاً، قام بعض الرهبان من طائفة البسترشيان الذين كانوا عائدين من اجتماع الهيئة الرهبانية العام لطائفهم، بنشر بعض التقارير الأكثر سروراً، حيث حصلوا على معلوماتهم من الكاردينال جون، الذي كان رجلاً إنكليزياً، وكان يعرف بشكل عام باسم الكاردينال الأبيض، لأنه كان راهباً من طائفة البسترشيان، وكان قد أرسل رسالة إلى هيئته الرهبانية العامة، بوساطة راهب من الطائفة نفسها، كان فحواها هو كما يلي: «بما أن الكراهية والعداوة القائمة بين سلطان مصر وسلطان حلب ازدادت يومياً، وبناء عليه تولى الذين ظهرُوا بأنهم المقدمين والرجال الرئيسيين بين المصريين، فأرسلوا رسالة مستعجلة وضاغطة إلى الرجل الذي كان إما هو سلطان مصر، أو بين يديه سلطات ذلك السلطان، وأعلنوا أنه بات من الضروري تماماً بالنسبة لهم إقامة سلام، أو ترتيب هدنة مع الملك الفرنسي، لأن جيشه ازداد بشكل كبير جداً، ولقد تضخم مثل جدول في الوادي عندما ذابت ثلوج الجبال، وقالوا له: إننا إذا لم نفعل ذلك، سوف نهجم ونقهر، إما من الجهة الأولى من قبل سلطان حلب، أو من الجهة الثانية من قبل الصليبيين».

وبناء عليه جرى ترتيب المسائل، بناء على موافقة عامة، بعقد هدنة مرضية إلى كلا الفئتين، وهكذا تمت الموافقة على هدنة لمدة خمسة عشر

عاماً، وجرى الاتفاق في هذه الهدنة على وجوب أن يصبح الملك الفرنسي صديقاً لسلطان مصر، وحليفاً ومستشاراً أثناء تعرضه للاضطرابات، خاصة ضد سلطان حلب الذي كان يستهدف تدميره، مبقياً إلى الملك الفرنسي وإلى الذين هم رعية له من الصليبيين التقدير والاحترام كله، وعلاوة على ذلك ينبغي عليهم اقتسام كل شيء سوف يربحونه من سلطان حلب، إذا مادخلوا بحرب ناجحة ضده، وكذلك ماسوف يربحونه من حربهم ضد أي أعداء آخرين لهم، وجميع أنواع الغنائم والأسلاب التي سيحصلون عليها، وأيضاً اسقاط أي مبلغ بقي وتوجب دفعه من أجل فدية الملك الفرنسي، وأن يمررونه منه تماماً.

وكانت كمية المبالغ المطلوبة لفدية الملك المذكور، تقريباً لايمكن تعدادها، وكانت في الحقيقة عشرة أضعاف الذي اعتقد أنها كانته، وقد أبقيت سرية، خشية أن يكون هناك يأس من دفعها، كما تمّ الاتفاق على أن كل الذي يمتلكه سلطان مصر في الأرض المقدسة، تتوجب إعادته إلى الملك الفرنسي مع العبيد الصليبيين (لأن الأسرى الصليبيين هكذا جرى عدّهم من قبل أسريهم).

عدم ثقة الكثيرين بخصوص شروط الهدنة

عندما جرى اقتراح هذه الشروط من أجل الهدنة أو السلام، كان هناك بعض الذين ترددوا في قبولهم والموافقة عليهم، بناء على تحريض من الشيطان، وشعروا بسخط عظيم في قلوبهم، قائلين: «العلي الأعلى يمنع ملك فرنسا، أعظم الملوك وأكثرهم نبلاً على الأرض، وخليفة شارلمان الذي لا يقهر، والذي مسح بالميرون السماوي، يمنعه من أن يصبح مرتزقاً، أو رجلاً مثل كلب، لابل كلباً لإنساني»، لكن هذا التجديف كان مجرد غمغة وهياج التجبر والتفاخر الفطري لدى الفرنسيين.

كيف وافق الملك الفرنسي على شروط الهدنة المعروضة

وكان الملك الفرنسي، مدركاً على كل حال، بأن أخويه الباقين قد تخلوا عنه، ولم يكن خافياً عليه أن نبلاءه الفرنسيين قد استخفوا به، ولذلك تواضع في روحه، وأعطى موافقته على الهدنة التي طلبت منه، ووافق أيضاً على الشروط المقترحة، وبناء عليه أزيح كل الغضب وجميع العداء بين الفئتين، ووضع جانباً، وتمت إعادة جميع مناطق مملكة القدس من على هذا الجانب من الأردن، التي كانت موضوعة تحت سلطة المصريين إلى الملك الفرنسي، من دون إعاقة، وذلك مع جميع الأسرى الصليبيين، الذين يطلق عليهم بشكل عام اسم عبيد، وجرى أيضاً عقد حلف منيع بموجب الموافقة العامة للفئتين، بأن عليهما مضايقة سلطان حلب بالنار والسيف، ومن دون رحمة، على أساس أنه عدوهما المشترك، والمضي بالعمل حتى تدميره، وأن عليهما أن يقتسما بالتساوي بينهما أية غنائم سوف يحصلون عليها، وبناء عليه قام هذان الأميران: ملك فرنسا من هذا الجانب، وسلطان مصر من الجانب الآخر، بشن الحرب على سلطان حلب، ومحاربتة، وبمقاتلته من اتجاهين، بمثل ذلك النشاط، كان سلطان حلب، غير قادر تماماً على مقاومتها، وكان جيش الملك الفرنسي قد ازداد الآن زيادة كبيرة جداً وتقوى بوساطة ملك قبرص مع آخرين كثر قدموا في الوقت المناسب إلى مساعدته، وهكذا حدث أنه بفضل الرب «الذي يقاوم المتجبر، لكن يظهر الخطوة نحو المتواضع»، أن تقدمت الحرب بين يدي الملك، وكنا قد جمعنا بعضاً من هذه المعلومات، إن لم يكن كلها، من الرسالة المختصرة التالية.

الرسالة المتعلقة بالهدنة المذكورة أعلاه

«إلى الأب المبجل في الرب، رتشارد أسقف شيلستر، يرسل وليم الذي هو بالنعمة الربانية نفسها، القسيس الحقيق لأورلين، تحياته مع جميل التبجيل والتشريف، وهو على استعداد لأن يفعل كل مايرضيه بحكم أنه

مولاه وأباه: نقدم إليكم فيما يلي باختصار، وبشكل مكتوب الأخبار القادمة من بلاد ماوراء البحر، والتي هي كما يلي: عمل صاحب الجلالة ملك فرنسا الأعظم نبلاً هدنة لمدة خمسة عشر عاماً مع المسلمين، وتمت إعادة جميع مناطق مملكة القدس الموجودة على هذا الجانب من الأردن إلى الملك، مع جميع الأسرى الصليبيين، الذين يعرفون بشكل عام باسم العبيد، كما جرى إلغاء رصيد المبلغ المتبقي للمسلمين من فديته من أسره، وكان مبلغ الفدية خمسين ألف مارك من الفضة.

حول الاجتماع بين الملك الفرنسي والسلطان

وحدث في أحد الأيام بعد تثبيت الهدنة المذكورة أعلاه، أن تمتع الملك الفرنسي وسلطان مصر باجتماع كان منتظراً منذ وقت طويل، وعبر كل واحد منها، بوساطة مترجمين موثقين عن رغباتها المتبادلة، وجعلها معروفة فيما بينهما، وجاء ذلك عندما بدأ السلطان بهدوء وبملامح مشرقة القول: «كيف أنت يا مولاي الملك؟» وعلى ذلك رد الملك وهو حزين وبملامح كئيبة: «أنا حسن ومريض أيضاً»، فسأله السلطان: «لماذا، ألتعرف الجواب؟ حسناً ما هو سبب حزنك؟» وعلى هذا أجاب الملك: «إنني لم أحصل على الذي كان رغبتني الرئيسية، والتي من أجلها تركت أُمِّي الحبيبة، التي تبكي الآن بصوت مرتفع من أجلي، ولقد عرضت نفسي أيضاً إلى مخاطر البحار والحرب»، وتساءل السلطان عما يمكن أن يكون الهدف الذي تشوق إليه كثيراً وإلى هذه الدرجة، ثم إنه قال: «وما الذي كائنته، أيها الملك، رغبتك التي تشوقت إليها إلى هذه الدرجة؟» فأجابه الملك: «إنها نفسك التي ادعى الشيطان أنها عائدة له حتى يلقي بها في قعر جهنم، لكن أبداً، بعون يسوع المسيح، الذي يرغب بانقاذ جميع الأرواح، سوف لن يتفاخر الشيطان بالحصول على مثل تلك الغنيمة الكبيرة» وأضاف قائلاً: «إن العلي الأعلى، الذي لا يجهل شيئاً، يعرف لو أن العالم المرئي هو كله ملكي، إنني سوف أتخلى

عنه جميعه من أجل انقاذ الأرواح»، ثم قال السلطان: «وهل كانت هذه نيتك يا ملكي الصالح في اقدامك على القيام بحجك الكبير؟ إن جميع الشرقيين يعتقدون أن ذلك كان صدوراً عن رغبة الشره والطمع في الاستيلاء على بلادنا والاستحواذ عليها، وأن ذلك لم يكن من أجل انقاذ النفوس، فكل الذي طمع به جميع صليبيوك وتشوقوا للانتصار علينا، في سبيل الاستحواذ على تملك هذه البلاد والتحكم بها»، وعلى هذا أجاب الملك: «إنني أدعو الرب القدير، ليكون شاهداً بأنني لم أهتم مطلقاً بالعودة إلى مملكتي في فرنسا، إذا ما تمكنت من نيل روحك وأرواح جميع بقية الكفار لصالح الرب، حتى يمكن أن يتمجدوا فيه»، وعندما سمع السلطان هذا قال: «إن هذا مانأمل به باتباع شرائع محمد صلى الله عليه وسلم، وبالحصول على التمتع بالسرور الأعظم في الحياة المقبلة»، وعلى هذا الكلام رد الملك الأعظم تقوى قائلاً: «أنا لا يمكنني أن أعجب بما فيه الكفاية، كيف يمكن لأناس حكماء ووعاة مثلكم أن يؤمنوا بالدعي محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي علم وسمح بكثير من الأعمال غير الطاهرة وغير الأمانة، لأنني قد رأيت قسراً أنكم وتفحصته، الذي هو غير طاهر مطلقاً وغير نقي، ذلك أنه بالنسبة لجميع الرجال الحكماء للأزمان الغابرة، لا بل حتى بين الكفار، الاستقامة هي أعظم الأشياء الجيدة في هذه الحياة».

وعندما سمع السلطان بهذه الكلمات انهمرت الدموع من عينيه، فتبللت لحيته، ولم يقدم جواباً على هذه الاعتراضات، بل تأوه وتنهد بعمق، وتوقف عن الكلام، وبعد هذا الاجتماع الودي لم يعد يميل نحو أوهامه أو لم يعد مخلصاً لها كما كان من قبل.

وهكذا من الممكن أن نستخلص من الأقوال والأفعال المتقدمة الذكر، أنه توفرت هناك أرضيات جيدة لأمال قد انبعثت، بأن هذا السلطان نفسه سوف يتحول إلى الإيمان المسيحي، ويغدو مسيحي

الديانة، ولقد أعلن الملك الفرنسي بأنه سوف لن يعود إلى فرنسا، بل سيظل يقاتل في الأرض المقدسة بقية حياته لنيل أرواح المسلمين لصالح الرب، تاركاً مملكته لعناية أمه، ووثاقاً بشجاعة الفرنسيين في حمايتها ضد هجمات جيرانها الأمراء، ونحن نترك هذا إلى المقادير الربانية (١).

موت ألفونسو ملك إسبانيا

حتى لا يكون ازدهار هذا العالم صافياً بل ممزوجاً بالانتكاسات، فقد أصبح الملك الفرنسي الآن حزينا جداً، لدى تلقيه أخباراً بأن ألفونسو، الملك المشهور لقشتالة، الذي لصفاته العالية أطلق عليه اسم ملك إسبانيا كلها، قد غادر طريق الجسد كله، وجاء ذلك بعدما جعل نفسه مشهوراً بأعماله، وبعدها نال انتصارات كبيرة على المسلمين في إسبانيا، الحديث عنها، ورواية أخبارها سوف يحتاج إلى رسالة خاصة، وكان ألفونسو المذكور قد وعد الملك لويس بأن يقدم إليه مساعدة سريعة وفعالة، وذلك بعدما أقنعه بذلك بلانشي، بوساطة الالتماسات الملحة والهدايا، وقد وعدّها بذلك لأنه كان قريباً لها، وقد ترك وراءه أسرة نبيلة، وفرساناً مشهورين ووسيمين، وهم قد قاوموا المسلمين بشجاعة في تجبرهم وجراتهم، وبمشابة تعويض من الرب وتسكين لأحزانه، منح الرب إلى الملك الفرنسي أولاداً نبلاء، ولدتهم له الملكة في الأرض المقدسة، وهم صبي وابنة، وكان قد تشوق كثيراً إلى الابنة ورغب بها كثيراً.

كيف أصيب ألفونسو أخو الملك الفرنسي بداء غير قابل للشفاء

وفي هذه الآونة أصيب ألفونسو، أخو الملك الفرنسي، بالشلل، مما سبب حزناً كبيراً لأخيه الملك، وكذلك لأمه، وأخذ يتلاشى ويسير نحو

(١) - واضح أن هذه حكاية دعائية مخترعة، لم يرد ذكرها في أي مصدر آخر، ولاسيا لدى جوافيل الذي بقي بصحبة الملك لويس حتى عودته، وفائدتها في التدليل على العقلية الأوروبية، ولاسيا عقلية رجال اللاهوت، الذين كما يبدو اخترعوها وروجوا لها.

الموت، تحت هذا الداء غير القابل للشفاء، ولعله أصيب بانتقام رباني، لأنه عندما كان أخوه في وضع حرج جداً، لم يساعده حسبها كان قد وعده وأقسم أنه سيفعل ذلك.

حزن الملكة الفرنسية بلانشي

ولدى سماع الأعظم بين السيدات، الملكة الفرنسية بلانشي بهذه الأخبار، لم تستطع ضبط عواطف الأمومة لديها، بل نفست عن أحزانها بالآهات والتهنيدات، وكأنها كانت قد أصيبت بجرح عميق، لأنها تذكرت أن أكبر أولادها وأعزهم لديها قد تعهد بالبقاء في الأرض المقدسة كل حياته، وتذكرت كيف أن روبرت كونت أرتوي، الذي كان ولداً آخر من أولادها قد مات ميتة شنيعة، وهاهو ولدها الثالث، ألفونسو، كونت أوف بواتو، ممدد الآن وهو مصاب بداء غير قابل للشفاء، وأخذت منذ ذلك الحين تتلاشى، مثل واحدة قد حرمت من أغلى الذين عطف عليهم، وهكذا قهرها الأسى، وباتت تتوقع موتها في حال من التعاسة، ولم تستطع العودة إلى حال الشعور بالسعادة، ولم تعد قادرة على تقبل المواساة.

كيف عبر الراهب وليم من دير القديس إدموند الألب

وفي هذا العام أيضاً جرى إرسال وليم الراهب من دير القديس ادموند، ووليم الكاهن من كنيسة القديس ادوارد، إلى بلاط روما، الذي كان معقوداً آنذاك في بيروجيا، من أجل بعض الأعمال الضاغطة، المتعلقة بكنيسة القديس ميكائيل في كنغبرن Kingsbern، وبعد إرسال الكاهن عائداً إلى الوطن، اختفى الراهب، وتعذر معرفة إلى أين قد ذهب، مع أن بحثاً دقيقاً جرى عنه في جميع البلدان من قبل ناظر دير القديس ألبان، وبعد مضي وقت طويل عاد أخيراً إلى الوطن مشوشاً وفي صحة سيئة، بعدما قام بترتيب أعماله بطريقة ما من الطرق،

وبعدما مضى على غيابه في حجه عاماً وزيادة، وبعدما —أيضاً— ورط دير القديس ألبان بدين مقداره ثلاثمائة مارك، وبعد وصوله ذهب بشكل سري إلى المصححة، وبعدما أقام هناك لبضعة أيام، أبحر، مخالفاً لأوامر وأعراف دير القديس ألبان، وذهب إلى دير القديس جايلز، وجرى ادخال رسائل مناظراته في كتاب Additaments.

كيف أرسل ملك إنكلترا الايرل سيمون إلى غسكوني

وفي هذه الآونة، قام ملك انكلترا، مقلداً لداود الذي بعث أوريا إلى وسط مخاطر الحرب، في سبيل أن يظهر أن المعكر للسلام هو الواحد القادر على إعادة تأسيس السلام، وعلى هذا قال لسيمون ايرل أوف ليستر: «ارجع إلى غسكوني، حتى تتمكن، أنت الخبير كثيراً بالحرب والمغرم بها، من أن تجد مايكفي من الحروب هناك، واجلب معك من هناك جائزتك المستحقة، كما فعل أبوك قديماً»، وربح الملك بهذا الكلام القصير قبول الغسكونيين ورضاهم، وقام الايرل وهو مسرور وغير هباب بالاجابة على الفور حيث قال للملك: «سوف أذهب إلى هناك برضاى، وأعتقد أنني لن أعود من هناك —وإن كنت غير ممتن وشاكر— حتى أعيد هؤلاء العصاة إلى طاعتك، وأجعل أعداءك تحت قدميك»، وبناء عليه غادر انكلترا على الفور، وحمل نفسه إلى فرنسا، التي كان على علاقة طيبة معها، وتمكن هناك بمساعدة أقربائه وأصدقائه، على الفور من جمع جيش كبير وقوي من المرتزقة، وبعدما عبأهم وعدهم، بأنهم سوف يحصلون من الأسلاب والغنائم، على مكافآت موائمة وكافية، وكان أولئك الجنود شرهين أكثر منهم متعطشين إلى الدماء، وقد تبعوه بحماس وجرأة، وكان الايرل نفسه يتحرق رغبة للانتقام للنيل من سمعته.

وقام الملك بالوقت نفسه إما بالتظاهر —أو أنه نسي— أنه قد منح من قبل غسكوني مرتين إلى أخيه الايرل رتشارد، وأعطاه إياها بموجب

صكوك، فعزم على منحها إلى ولده ادوارد الأول ولادة، وجاء ذلك بشكل رئيسي بناء على تحريض من زوجته الملكة واقناعها، وعندما توصل الايرل رتشارد إلى معرفة هذه النية، غضب غضباً شديداً وسخط، وسحب نفسه على الفور عقلياً وجسدياً من بلاط الملك، وتخلّى من صميم قلبه عن تقلبات هذا البلاط وعدم استقراره.

كيف أعطيت غسكوني إلى إدوارد الابن البكر للملك

ثم أمر الملك، بموجب مرسوم ملكي، جميع الغسكونيين الذين كانوا مقيمين في لندن: رئيس أساقفة بوردو والآخرين الذين قدموا معه، بوجوب الاجتماع على الفور، وعندما أعلن، وبيّن بشكل عام بأنه قد أعطى غسكوني إلى ادوارد، ولده البكر، وذكر بأن أخاه الايرل رتشارد لم يحرص على تملك غسكوني، لابل في الحقيقة هو لم يرغب قط في رؤيتها، لأن تلك العاصفة في البحر قد ضايقته بما فيه الكفاية، وأفرغت غسكوني، في كثير من الأحيان حافظة نقوده، وكانت هذه الخطة مقبولة كثيراً من قبل الغسكونيين، وقدم الذين كانوا هناك جميعاً الولاء وأقسموا على الاخلاص إلى ادوارد الأمير الشاب، الذي تولى، بناء على ذلك تقديم بعض الهدايا الجميلة والتمينة إليهم، من الذهب، والفضة، والأطواق، والأحزمة، والملابس الحريرية، ووعدهم بهدايا أعظم، واحتفظ الملك — على كل حال — لنفسه، بالسيادة الرئيسية، أي بولائهم، ثم إنهم شاركوا جميعاً باحتفال كبير، وعبروا عن مشاعر سرورهم وتفاخرهم، ولم يخف التهديد خلال أحاديثهم، من أن الايرل سيمون، الذي تصور آمالاً، بأن نهر الأردن كله سوف يصب في فمه، سوف يجري إما تقطيعه إلى قطع، أو أنه سوف يطرد إلى المنفى من بلاده، ثم ركب الغسكونيون سفينة، وتمكنوا بأشعة منشورة من العودة ثانية إلى بلادهم، ولدى وصولهم إلى هناك، وقبل أن يتعافوا من متاعب رحلتهم، وقبل أن يجدوا الوقت للإعلان عما حدث في انكلترا، وجدوا

الاييرل سيمون، الذي تردد ذكره كثيراً من قبل، قد تحصن ضدهم مع جيش كبير، كان جيد التسليح والتجهيز، وقاموا — على كل حال — بدعوة كثيرين من أعداء الايرل وحشدوهم، وبعثوا الحماسة في نفوسهم، بإخبارهم بأنه قد بات لديهم سيّداً جديداً، كان الآن مستعداً لإبطال مفعول قرني الايرل رتشارد وكسرهما، فحشدوا جيشاً كبيراً وقوياً، اعتقدوا أنه سيكون قادراً على سحق الايرل المذكور، وبدأوا على الفور بالأعمال العدوانية ضده، ولأنهم كانوا محترسين، وصلوا إلى كمين كان الايرل سيمون قد نصبه في موضع حتى يتمكن منه من أخذ الغسكونيين على حين غرة، وبعد معركة دموية أسروا فارساً شجاعاً، كان الايرل سيمون قد عهد إليه بقيادة ذلك الكمين، وحملوه معهم أسيراً، وبعدهما فرقوا بقية تلك الكتلة، عبّروا عن بهجتهم بصرخات النصر.

حول المعركة الدموية بين الغسكونيين والاييرل سيمون

ولم يكن الايرل معسكراً على بعد كبير عن المكان الذي وقعت فيه الحوادث الأخيرة، وكان متوقعاً مواجهة أعدائه على حد السيف، وكان يأمل كما كان قد خطط بشكل سري، بأن يتمكن الجنود الذين وضعهم في الكمين من الانقضاض عليهم من اتجاه آخر، وكان ينتظر وصول بعض الشارات التي تخبره ببداية القتال، ووقتها وصل إليه واحد من الفارين من القتال الأخير، وكان يمتطي على فرس سريع، وقد قدم إليه ليخبره بالذي حدث، وكان مجروحاً ملطخاً بالدم، ومشوهاً ويتنفس بصعوبة، فأخبره بالذي وقع، وأضاف بأن قائدهم الفارس الشجاع، قد حل أسيراً، ولدى سماع الايرل بهذا، بدا مندهشاً، ومثل واحد أفاق من نوم عميق سأل: «نحن تأخرنا كثيراً، هل العدو بعيد عنا؟» فأجابه الفار: «لا، إن الأعداء قريبين جداً، وهم يتقدمون مسرعين للاشتباك بالقتال معكم على الفور، وهم أيضاً مسرورين، ويتمتعون بروح عالية،

لأنهم واجهوا النجاح في المعركة، وسببوا لنا الاضطراب وأرغمونا على الفرار»، وما كاد الرجل ينهي كلامه حتى ساق اليرل مسرعاً، متشوقاً لانقاذ الفارس، الذي تقدم الحديث عنه أعلاه، وبصعوبة انتظر أتباعه، وأخذ الرسول معه ليكون دليلاً، ولم يوفر جنبي فرسه، وطار مسرعاً مثل صاعقة نحو الأعداء، وعلى الفور جاء إلى مواجهتهم، وشرب سيفه اللامع من دماء عدد كبير منهم، وبقوة تمكن من انقاذ الأسرى، وقطع أغلالهم وحطم قيودهم، وحيث أنهم كانوا متشوقين للقتال، وبعدهما وجدوا أنفسهم قد أنقذوا، انقضوا حائقيين على العدو، ثم أعقب ذلك صراع دموي ومشكوك بنتائجه، وكان الغسكونيون واثقين من أعدادهم، فاندفعوا منقضين كتلة واحدة على اليرل، الذي تشوقوا إلى أسره أو قتله قبل سواه، وهكذا صار ثقل المعركة كله واقعاً عليه، وتابع العدو بإلقاء رجاله عليه بجدة وبشكل جماعي، وقد ألقى به من على حصانه، وبات في خطر عظيم بأن يفقد حياته، ووقتها راه واحد من الفرسان، كان قد أنقذه قبل وقت قصير، ولدى مشاهدة هذا الفارس مأجاق به من خطر، صرخ بصوت مرتفع: «أيها اليرل الشجاع كثيراً، إن من العدل والواجب عليّ إنقاذ الذي حفظني»، وتمكن بقوة جبارة من خرق صفوف الأعداء الكثيفة، وبعدهما تمكن من إعادة اليرل إلى ظهر حصانه، أصاب بشكل قاتل بعض الذين تصدوا له، أو ألقى بهم إلى الأرض حتى يواجهوا الموت، واستمرت المعركة حتى قرابة منتصف النهار، عندما أخيراً انهزم الغسكونيون، وأرغموا على الفرار، وجرى أسر العديد منهم، وتم في هذه المعركة أسر خمسة من أعلى نبلاء الغسكونيين مكانة، كان من بينهم روستين Rustein، الذي جرى تقديمه إلى الملك، وحصل اليرل في ذلك اليوم على نصر رائع، ولم يواجه قط النجاة بصعوبة من المخاطر كما حدث له الآن، ولم يعد أعداؤه الآن يتجرأون على الشكوى ضده.

حول الاجتياح المخيف الذي عمله الأجانب في إنكلترا

خلال تلك الآونة، وعن طريق عدة أشكال من خدع الشيطان، بات شعب انكلترا بشكل عام من بارونات، وفرسان، ومواطنين، وتجار، وعمال، وبشكل خاص الرهبان، يعملون في ظل وباء جارف بعدواه، لأن ذوي المراتب العليا من الأجانب، فرضوا على الطبقات الدنيا كثيراً من الخدمات الشاقة، وأذوهم بوساطة كثير من السرقات والأضرار، إلى حد أن جميع الشعوب المقيمة في انكلترا ظهرت في أدنى الأحوال، ففي المقام الأول جرى الاستيلاء على بيوت التجار، وفي مقام آخر تم الاستيلاء على عرباتهم، وعلى ممتلكاتهم الصغيرة، وتمت مصادرتها بالقوة، وما من شيء ترك لهم غير عرضة للخطر، وذلك باستثناء الريبة والسخرية، ولدى مشاهدة هذه الإجراءات، قال بعض الأكثر نبالة من الانكليز، الذين أستحي من ذكر أسمائهم، قالوا في حالة تجبر، وأصبحوا الذي قالوه بالأيان: «هناك الآن كثير من الملوك والطغاة في انكلترا، ونحن علينا أن نكون ملوكاً وطغاة مثل الآخرين»، وهكذا صاروا أسوأ من البقية، وكان إذا مات عرض إنسان إلى الأذى الشديد، وتقدم بشكوى أمام البواتين الذين انقلبت رؤوسهم وتحولت بوساطة الثروات الواسعة والممتلكات، وطالب بتقديم العدالة إليه، وفقاً لقانون البلاد، كانوا يجيبونه: «نحن لانقيم وزناً لقانون البلاد، بل لما هو قانوني وعرفي بالنسبة لنا»، وهكذا بات السكان المحليين للبلاد، خاصة الرهبان مثل الوسخ في أعين الأجانب، الذين لم يخجل بعض الانكليز من اتباع خطواتهم، ففي إحدى المناسبات، كان الراهب متى باريس، كاتب هذا الكتاب، وروجر دي ثيركباي Thurkeby، الذي كان فارساً ورجل ثقافة، يتناولان الطعام معاً على مائدة واحدة، وقتها قام الراهب متى بذكر المظالم المتقدمة الذكر، فبادر الفارس المسمى أعلاه مجيباً له بشكل

جاد قائلاً: «سوف يأتي الوقت أيها الرهبان، لابل في الحقيقة قد جاء، عندما سيعتقد كل واحد يتولى ظلمكم بأنه يؤدي خدمة إلى الرب، وأنا أعتقد أن هذه الأضرار والمظالم لن تتأخر كثيراً عن تدميركم كلياً»، وعندما سمع متى المذكور هذا الكلام، أعاد إلى ذاكرته القول بأنه «في الأيام الأخيرة للدينيا، سوف يكون هناك أناس يحبون أنفسهم، وليس لديهم أدنى تقدير لمنافع جيرانهم».

حول الحر والجفاف خلال هذا الصيف

كان هناك خلال أشهر نيسان، وأيار، وحزيران، وتموز من هذا العام، حراوة لا تحتل جفاف عام، استمر طوال ذلك الوقت من دون سقوط للمطر، أو للندى، لإنعاش الأرض، ونتيجة لذلك فإن الأغصان المورقة على الأشجار، التي وعدت بكميات وافرة من الفواكه، ذبلت وتساقطت، وتجردت الحقول من أعشابها، وذبلت أوراق النباتات، ولم تقدم المراعي الطعام إلى القطعان الجائعة، وأصبحت الأرض قاسية، وتشققت وتفتت، وبسبب الحاجة إلى الرطوبة لم تعد قادرة على تغذية القمح، وتطايرت الحشرات مع أزيز أصواتها، أما الطيور فخفضت أجنحتها وفتحت أفواهها، وتوقفت عن التغريد الممتع، وبشر التعرق المحرق الصادر بسبب هذه الأنواء بني البشر وتوعدهم بأمراض شديدة، وبمحيطات قاسية خلال خريف هذا العام.

حول رسائل إصلاح صدرت عن البابا

وفي هذه الآونة قدّم البابا تنازلاً إلى الذين شغلوا مناصب لاهوتية رفيعة، والذين تعرضوا للظلم إلى أبعد الحدود، خاصة في مناطق ما وراء الألب: «بأن على الذين يعود إليهم أمر الانتخاب أن يضعوا الرب أمام أعينهم، وأن يتولوا بشكل صحيح توزيع هذه المناصب»، وجرى تقديم الرسائل حول هذه القضية في كتاب Additaments.

حول الاحتفال في دير وولندن بنوع

من المبارزات دعيت باسم المائدة المستديرة

وفي هذا العام قرر فرسان انكلترا بالاجماع، من أجل البرهنة على براعتهم وعلى ممارستهم لأعمال الفروسية الشجاعة، ولكي يجربوا قواهم، التباري حول مايعرف بشكل عام باسم المبارزات، بل التباري بنوع الفروسية الذي أطلق عليه اسم «المائدة المستديرة»، ففي ثمانية عيد ميلاد العذراء المباركة، احتشدوا بناء عليه بأعداد كبيرة في دير وولندن Wallenden وتقاطروا مع بعضهم من الشمال ومن الجنوب، وكذلك من القارة، وتبعاً لأحكام هذه الرياضة التي تشبه الأعمال القتالية جرى في ذلك اليوم وفي اليوم الذي تلاه أن قام بعض الفرسان الانكليز بعرض أنفسهم مع براعة عظيمة وشجاعة مما بعث البهجة والاعجاب لدى جميع الأجانب الذين كانوا حاضرين هناك، وفي اليوم الرابع التالي، دخل فارسان مشهوران بالشجاعة العظيمة في قائمة المتبارين وهما أرنولد دي مونتني Montigny، وروجـر دي ليمبيرن Lemburn، وجاءا إلى التباري وهما مسلحان تماماً وفق طرائق الفرسان، وكانا يمتطيان على فرسين مختارين ورشيقين، وقد اندفعا ليتصدى أحدهما للآخر برماحهما، وسدد روجر سلاحه الذي كان سنانه مشحوداً، مع أنه توجب أن يكون غير ذلك، ولذلك خرق تحت خوذة أرنولد، ونفذ في حلقومه، وقطع قصبته وشرائينه، لأنه لم يتول تغطية ذلك الجزء من جسمه، وكان من دون ياقة، وبعدما أصيب هكذا بشكل قاتل، وقع أرضاً من على ظهر حصانه، ومات على الفور، مما سبب حزناً عظيماً، كما حكى عن روجر، وكان أرنولد هذا، واحداً من أبرع الفرسان في استخدام السلاح، ولم يترك بعده نظيراً له، ولا حتى أي واحد يعدّ ثانياً له في ذلك المجال، وانبعث حزن كبير ونواح وبكاء بين الفرسان الذين كانوا موجودين هناك، وهكذا فإن أولئك الذين

قدموا إلى هناك فرحين مسرورين تفرقوا فجأة وسط حزن وبكاء، وجرى دفن جسده في جوار دير وولندن، وسط كثير من الحزن والأسف، أمام النبلاء الذين كانوا هناك قبل أن يغادروا، وما من فارس بكى لموت المتوفى بقدر الذي تسبب بوفاته، أي روجر المتقدم ذكره، وقد نذر على الفور أن يحمل الصليب وأن يقوم بالحج لتحرير نفسه من أرنولد، وحسبما ظهر واضحاً أنه قتل أرنولد المذكور دون قصد، لابل حتى دون أن يعرف بأنه قتل أرنولد دي مونتلي المتقدم ذكره، لهذا لم يتهم لذلك، ولم يوجه إليه اللوم، وكان بين ذلك التجمع الفرساني الكثير من نبلاء انكلترا وسواهم، وكان من بين هؤلاء إيرل غلوستر، الذي حاول لدى إصابة الفارس المذكور أرنولد وجرحه أن يسحب بقية الرمح من رقبة الرجل المجروح، وعندما نجح في سحب القطعة الخشبية بقي السنان الحديدي في الجرح، وبعد قطع العنق وانتزاعه، وفحصه من قبل الفرسان الذين كانوا موجودين هناك، وجدوا هذا السنان حاداً في رأسه مثل مدية، مع أنه توجب أن يكون كليلاً غير مشحوذ، وأن يكون عريضاً بقدر سكين صغير، وقد بدا شكل هذا السنان مثل سكة المحراث لكن على مستوى صغير، ولذلك كان هذا النوع يعرف باسم المحراث الصغير، وفي الفرنسية Soket، ولقوة هذه البيئات، بات روجر دي ليمبيرن الذي تقدم ذكره هدفاً للشك، مع أنه أعلن عن نفسه أنه كان بريئاً، وجرت ملامته بحدّة بأنه اقترف غدرًا جريمة قتل، خاصة وأن أرنولد المذكور، قد سلف له في مبارزة ماضية أن كسر رجل روجر دي ليمبيرن هذا، لكن الرب هو وحده الذي يعلم حقيقة هذا الأمر، فهو وحده يبحث في أسرار قلوب الناس:

متشوق للشهرة، بناء على صرخة الشرف الدنيوي
وهكذا جرت هزيمة أناس، وهكذا مات المهزوم.

كيف ذهب الملك إلى سينت ألبان وقدم كثيراً من الهدايا

وخلال هذا العام، وعشية عيد القديس بارثلميو، ذهب الملك إلى سينت ألبان، وتوجه على الفور إلى المذبح الكبير، حيث قام بعد صلاته، وحسبما كانت عادته، بتقديم منحة إلى الشهيد، وكان ذلك عبارة عن طيلسان أنيق وثمانين، وعقدين، وخاتمين ذهبيين، واثنى عشر طالن، أمر بأن يجري تكريسهم بشكل خاص لتزيين الأضرحة، وفي اليوم نفسه، قام ابنه البكر ادوارد بتقديم طيلسان عند المذبح نفسه، وقدم طيلساناً آخر، وعقدين عند مذبح القديس أمفبالوس Amphibalus. وهؤلاء جميعاً كان الملك قد أمر بشرائهم، مع هدايا أخرى ثمينة، وأمر بتغطية الضريح بزينة شريت مع المشتريات المتقدمة، ولقد أقام لمدة خمسة أيام في سينت ألبان، كما كان قد فعل من قبل في عيد الفصح، في السنة التي تلت حصار بدفورد Bedford.

وفاة وليم أوف هافرهل

وفي اليوم نفسه، الذي وصل فيه الملك إلى سينت ألبان، حسبما ذكرنا أعلاه، أي عشية عيد القديس بارثلميو، مات وقتها في لندن وليم أوف هافرهل Haverhull، وكان لاهوتياً في كنيسة القديس بولص، وخازناً للملك، وكان قد أمضى كثيراً من سنوات حياته مخلصاً في خدمة الملك المذكور، وكان من المعتقد بأن الملك سوف يضع جون الفرنسي في موضع وليم وفي وظيفته، لكن انتشرت تقارير، أفادت بأن جون المذكور قد توفي في منطقة نائية من شمالي انكلترا، إلى حيث ذهب للشكوى ضد أحد الرهبان، وبناء عليه عيّن الملك، خازناً لنفسه، في مكان وليم المذكور، فيليب لوفل، وكان محاسباً، ورجلاً فصيحاً وحكيماً ومن أصل نبيل، وجرى هذا التعيين في سينت ألبان، بناء على ترشيح وتحييد من جون مانسيل، الذي كان صديقاً خاصاً لفيليب.

النقش على ضريح وليم أوف هافرهل

هنا يرقد وليم الخازن الأعلى للملك
ولن يلد النحيب على هافرهل مطلقاً
واحداً مثله. فعندما كان على الأرض
هي التي زودته وهي أيضاً كانت قادرة
على تزويده بخمرة ثمينة وبأطعمة لمائته
لكن الآن مملكة المسيح هي جائزته السماوية

حول مرض مميت بين الماشية

خلال هذا العام، وبعد صيف حار كثيراً، ومع اقتراب الخريف،
انتشر طاعون مميت مثله لم يشاهد من قبل، ولا يتذكره إنسان، وجاء
انتشاره بين المواشي في كثير من أجزاء انكلترا، إنما بشكل خاص في
نورفولك Norfolk، وفي السباح، وكذلك في المناطق الجنوبية،
وكان من الملامح المثيرة لهذا الطاعون، هو أن الكلاب والغربان التي
تغذت من أجساد المواشي التي ماتت بسبب هذا الوباء كانت تصاب
بالعدوى على الفور، وتتورم، وتموت حيث هي، ولذلك لم يتجرأ أي
إنسان على الأكل من لحوم المواشي خشية أن تكون عائدة إلى الحيوانات
التي ماتت بذلك المرض، وكان من بين الوقائع المدهشة التي لوحظت
بين الماشية هو أن الأبقار والثيران البالغة رضع من أئداء الأبقار
الأكبر سناً مثل العجول الصغيرة، ولوحظت واقعة مدهشة أخرى، هي
أنه في هذا الوقت من العام، الذي تنتج فيه الطبيعة كما اعتادت
الأجاص والتفاح، أزهرت الأشجار، حسبما اعتادت أن تفعل في
نيسان، وكان سبب هذا الموتان بين الماشية، وظهور الأزهار، مع
الشهوانية غير الاعتيادية بين الماشية، قد تأصل وصدر عن الحر

والجفاف، الأمر الذي أتينا على ذكره من قبل، لأن ما كان مدهشاً ومثيراً للعجب، هو أن الأعشاب، حتى في المروج، قد اهترأت وجفت وباتت قاسية خلال أشهر: أيار، وحزيران، وتموز، ومع الاعتدال الفصلي، تساقطت كميات وافرة من الأمطار، وغطت الرطوبة وجه الأرض، التي شربت مياه الأمطار وابتلعتها في شقوقها ومسامها المفتوحة، وأصبحت غنية بالانتاج وتقديم المنافع، وقدمت الخضراوات الخصبة بشكل غير اعتيادي، وأقل من المواسم المعتادة، والتهمت القطعان الجائعة وشبه الميته هذه الأعشاب التي كانت مشتاقة إليها، وأصبحت فجأة مليئة بالشحوم، وبذلك صارت أجسادها غير صالحة للأكل، وصدرت عنها أعمالاً مضحكة غير عادية تماماً، وأخيراً أصيبت بالجنون، وتصرفت وفق طرائق مدهشة غير اعتيادية، إلى أن أصيبت أخيراً بالمرض، فسقطت المواشي موتى، وانتقلت العدوى منهم، بسبب خبث المرض، وبذلك أثرت بالآخرين أيضاً، ومن الممكن استخلاص سبب مماثل من أجل إزهار الأشجار في غير موسمها.

حول تكريس كنيسة إيلاي

في السابع عشر من أيلول لهذا العام، الذي كان يوم عيد القديس لامبرت، جرى تكريس الكاتدرائية الفخمة لإيلاي وسط احتفال فخيم وأبهة كبيرة، وجرى بناء الجزء المشيخي من هذه الكنيسة إلى جانب برج جميل، ورائع الأعمال وكبير النفقات، كله بالكامل وتاماً على النفقة الفردية لهوغ، أسقف ذلك المكان، والذي كان مشرفاً خاصاً على ذلك كله، وله مكانته وصلاحه، وبني هذا الأسقف نفسه في ساحة إيلاي قصرأ ملكياً جميلاً، مع غرف وأبنية أخرى موائمة، فيها شارك الذين حضروا التكريس بمتع الاحتفال وبموائده، وذلك حسبما سنحكي في الرواية التالية، وتولى القيام بطقوس التكريس أسقف إيلاي، وهي التي كانت هدفه ورغبته المخلصة منذ زمن طويل مضى، وساعده كل من

أسقفي نورويك وللاندا، وكان موجوداً هناك أثناء الاحتفال الملك نفسه، وعدد كبير جداً من نبلاء المملكة، وذلك بالإضافة إلى عدد لا يحصى من الأساقفة ورجال الدين، وجرى منح غفران لعدة أيام إلى جميع الذين جاءوا للمشاركة في الاحتفال، وإلى الذين كان من الممكن أن يأتوا فيما بعد، وبعد مراعاة صحيحة وموائمة للاحتفالات الروحية، وجهوا تفكيرهم نحو احتفال أجسادهم، وامتألت مساكن الرهبان، وكذلك مساكن الأساقفة والذين يعيشون في البلدة بالضيوف، ومع ذلك أبدى الأسقف حزنه للعدد الصغير من الضيوف الذين تجمعوا، وأعلن أن الضيافات التي اقترحها لنفسه كانت على معيار أكبر، وقد نقصت عن حجمها الصحيح، ومع ذلك فرح في قرارة نفسه، وشعر بهجة عظيمة، لأنه تمكن بنعمة الرب من البقاء إلى ذلك اليوم، الذي استطاع فيه بسرور تنفيذ جميع الذي نواه ورتب له، وبناء عليه إن بهجة ذلك الأسقف العجوز وسروره وسعاده يمكن أن تردد قول سمعان المبجل: «الآن أخيراً أنا خادمك» إلخ، إلخ.

وفاة مرغريت الكونتيسة الكبيرة لـ دي لآيل

وفي الثاني من تشرين الأول لهذا العام، ماتت السيدة النبيلة والرفيعة النسب مرغريت كونتيسة دي لآيل Lisle، التي كانت ألقابها الأنهار، والتي كانت من قبل زوجة ذلك الخائن الدموي فولكس Faulkes، فهي كانت قد تزوجت منه ضد إرادتها، وكان هذا الزواج واحداً من أعمال الارغام (كانت قد أعطيت إلى فولكس بموجب طغيان جون الذي لم يتورع عن اقتراف أية جريمة شريرة) حيث أكرهت النبالة على الاتحاد بالدناءة، والتقوى مع عدم التقوى، والجمال مع انعدام الشرف، وحول هذا الاتحاد كتب واحد من الكتاب يقول محققاً:

القانون جعلها واحداً، وكذلك الحب وطقوس القران

فأي قانون، وأي حب، وأي رابط ربط ما بين مثل هذين الاثنين؟
وبدلاً عن قانون، اقرأ: لا قانون، وعن حب، اقرأ: كراهية
وعدم الوثام هو وثام مصير هذين المحبين.

وسوف تبقى الذكرى الطيبة لهذه السيدة النبيلة جديرة بالذكر من قبلي، بسبب الواقعة التالية: عندما كانت في إحدى الليالي ممتدة نائمة مع زوجها فولكس، رأى الأخير رؤيا، فيها ظهر له بأن حجرة ذات حجم مدهش سقطت مثل صاعقة عليه من برج كنيسة القديس ألبان وسحقته وحولته إلى رماد، وأفاق من نومه، وقفز من فراشه وهو مصاب بالدهشة والرعب، وعندما رآته زوجته يرتجف، وكأنه قد تلبسه جنون قالت له: «ما الخطب يا مولاي؟ ما الذي أزعجك؟»، وعلى ذلك أجاب: «لقد تعرضت إلى كثير من المخاطر لكن لم أضطرب قط مثلما حدث معي في المنام الذي رأيته»، وقص عليها تفاصيل منامه، فقالت له زوجته:

«لقد أزعجت مؤخراً القديس ألبان وأغضبته بشكل جدي، بتلويث كنيسته بالدم، وبنهب بلدته وتجريدها من بضائعها، والحاق الأضرار بالدير والرهبان بكثير من الطرق المضاعفة، وبناء عليه انهض وأسرع، وبادر على الفور إلى هناك، حتى قبل بزوغ الفجر، وتواضع بنفسك وتصالح مع ذلك الشهيد، وليكن ذلك على الفور سريعاً بقدر الامكان، خشية أن يحل بك انتقام يسحقك»، وبناء عليه ذهب فولكس في الصباح الباكر إلى سينت ألبان (لأنه كان قد أمضى الليل في ليوتون ، Luiton) واستدعى راعي الدير إلى حضرته، وقام وهو جاث على ركبتيه، ويديه مقبوضتين، ودموعه منهمة بمخاطبته قائلاً: «كن رحيماً بي يا مولاي، لقد أذنبت بشكل جدي إلى الرب، وإلى شهيد القديس ألبان، وإليك، لكن كن رحيماً بي أنا المذنب، وبإذن منك سوف

أتحدث الآن إلى أعضاء المجمع الرهباني، وأطلب المسامحة منهم بحضورك، عن الذنوب التي اقترفتها»، ووافق راعي الدير على طلبه، وأعجب بالذنب الذي جاء متلطفاً ومتواضعاً مثل شاة، وبناء عليه جرى تجريد فولكس من ثيابه، وحمل بيده عصا تعرف عادة باسم Baleis، ودخل على مجمع الهيئة الرهبانية، يتبعه خدمه، ورجال مسلحين، كانوا مثله مجردين من ملابسهم، وبعدما اعترف بذنبه الذي اقترفه أثناء الحرب، وتلقى لصاحبه عقوبات على جسده العاري من كل واحد من الرهبان، وبعدما ارتدى ملابسه مضى وجلس إلى جانب راعي الدير، وقال له بصوت مرتفع: «إنها زوجتي هي التي جعلتني أتصرف هكذا، بسبب منام قد شاهدته، ولكن إذا ما طالبت بإعادة الذي أخذته منكم، إنني لن أستجيب لطلبكم»، ولدى فراغه من هذا قام بالمغادرة، ورأى — على كل حال — راعي الدير والرهبان أنها منفعة عظيمة إذا ما أُلِّق منذ ذلك الحين وتوقف عن إيذائهم، لأنه في ذلك الوقت، عُذَّ كل من لم يكن سيئاً تماماً، جيداً، وذلك حسبما قرأنا قول استاروث Astaroth: «عندما يتوقف رجل ظالم عن الأذى يعدّ نافعاً»، وكذلك وفقاً لقول الرسول: «الزوج الكافر يجري حفظه من قبل الزوجة المخلصة».

حول البارلمان الكبير الذي عقد في لندن

ومع اقتراب حلول عيد القديس ادوارد (الذي اعتاد الملك على الاحتفال به مع رفقة كبيرة واکرام كبير) اجتمع تقريباً جميع أساقفة انكلترا، حيث جرت دعوتهم للاجتماع بموجب مذكرة ملكية، وكان في الحقيقة جميع الأساقفة موجودين هناك، باستثناء: أسقف شيلستر، الذي كان مريضاً صحياً، ورئيس أساقفة كانتبري وأسقف هيرفورد، اللذان كانا آنذاك في القارة، ورئيس أساقفة يورك، الذي كان غائباً لسبب ما غير معروف لنا، مالم يكن موجوداً آنذاك يعيش في منطقة نائية.

وعندما اجتمعوا كلهم، ذكرهم الملك ولفت انتباههم إلى الولاية البابوية، التي كانت هدفاً للكراهية والازدراء من قبل جميع الذين حرصوا على رفع شأن المملكة مع مصالحها، وكانت مقاصد الولاية البابوية، أن البابا بموجب فضيلة السلطة الممنوحة له من الرب، قد أعطى لمدة ثلاثة أعوام، جميع عشور المملكة، أي أن تقول موارد الكنيسة الانكليزية كلها، لتأمين الضروريات من أجل حج الملك، مضيفاً العبارات العظيمة العدوانية التالية: «ليس حسب الإحصاء الماضي للكنائس، بل حسب تقدير جديد، يتم عمله إثر تدقيق وبحث شامل، وذلك وفقاً لإرادة وقضاء الوكلاء الملكيين واستخراجاتهم، وكان هؤلاء بدهائهم الكبير في المقام الأول يعملون في سبيل منافعهم وبعد ذلك من أجل منافع الملك، ملحقين بذلك ضرراً لا يقاس بالكنيسة، ومنزلين إياها إلى درجة العبودية الدائمة.

وتقدم وكلاء الملك ورسله، مع حجج مأكرة، باقتراح إلى الأساقفة المجتمعين، بأن عليهم الموافقة على هذه المساهمة الكبيرة، وبمكر يشبه مكر الثعلب سألوا بأن يجري دفع المال لمدة عامين وفقاً لولاية البابا، وأن المال من أجل السنة الثالثة —مع أنه لم يرد ذكره في الولاية البابوية— يتوجب تجهيزه قبل أن يبدأ الملك بحجه، وبناء عليه فإن جميع مبلغ المال الذي سوف يجري جمعه وفقاً للطريقة المذكورة أعلاه، أو نصفه على الأقل، ينبغي منحه حراً ودوناً شرط إليه، عندما سيكون على وشك الشروع بحجه، لأنه —كما قالوا— سوف ينطلق على الفور برحلته، ولدى سماع هذا الاقتراح، اعترت الدهشة أسقف لنكولن الذي كان بين الآخرين، وعجب من مثل هذا الكلام المسموم، والذي قصد منه الإطاحة بالكنيسة، فأجاب بغضب شديد: «باسم مولاتنا، ماهذا؟، أنتم تتصرفون على أساس امتياز، هو لم يمنح إليكم، فهل تفترضون أننا سنوافق على هذا الاسهام الملعون؟ لاسمح الرب بأن

نقوم بالجثي على ركبنا أمام بعل»، وإثر هذه الإجابة، قال الأسقف المنتخب لوينكستر: «يا أبانا كيف سنكون قادرين على معارضة إرادة البابا والملك؟ فالأول يقوم بدفعنا، ويقوم الثاني بجذبنا، وفي حالة مماثلة وافق الفرنسيون على مساهمة مماثلة، لمساعدة ملكهم، عندما كان على وشك القيام بحجه، وهم أكثر قوة مما نحن عليه، وبالعادة ميالين أكثر للمقاومة، أما بالنسبة لنا، ماهي وسائل المقاومة التي نمتلكها؟ وعلى هذا أجاب أسقف لنكولن قائلاً: «إنه للسبب نفسه الذي من أجله أسهم الفرنسيون، يتوجب علينا معارضة هذه الضريبة، لأن أي شيء عمل مرتين صار عرفاً، وبالإضافة إلى هذا، نحن رأينا بوضوح مثل وضوح النهار، النتيجة التي وصلت إليها عملية طغيان الملك الفرنسي في جباية المال واستخراجه، علينا أن نتعلم من الأمثلة الماضية، وبناء عليه لاتدعونا نحن أو الملك ننال غضب الرب الحاد، وبالنسبة إليّ، إنني أقول دون تردد، إنني أعارض هذا الاسهام المؤذي»، ووافق على هذا القرار برغبة وبدون تردد أساقفة: لندن، وشيستر، وووركستر، والأسقف المنتخب لوينكستر، وجميع الآخرين تقريباً، وكان أسقف سالسبري متقلباً برأيه، وقد أضاف أسقف لنكولن إلى ماتقدم قائلاً: «دعونا نلتمس من الملك أن يكون لديه تقدير لخلاص روحه، وأن يلجم الرغبات العنيفة والطائشة».

كيف جرت تهدئة غضب ملك إنكلترا من قبل رجال بلاطه

جرت رواية جميع هذه الوقائع بصدق إلى الملك، الأمر الذي أثار غضبه الشديد، ولأنه لم يستطع ضبط غضبه، طرد جميع الذين كانوا في غرفته، وأبعدهم عنه مثل رجل مجنون، وبعد لأي تمكن رجال بلاطه المقربون منه من تهدئة غضبه، فأرسل رسالة إلى الأساقفة يلتمس منهم أن يزودوه من قبل أنفسهم، وبناء على إرادتهم بالمساعدة المالية المناسبة، ليس على أساس النظر إليه على أنه مولا لهم وسيدهم، بل عدّه بمثابة

واحد يطالب بالمساعدة بناء على فضيلة الأمر البابوي، وتقديره رجلاً متضرعاً، على وشك القيام بالحج إلى الأرض المقدسة، في سبيل كرامة الكنيسة المسكونية، ولكي يقاتل هناك من أجل يسوع المسيح.

كيف أجاب الأساقفة بالاستجابة لطلب الملك

وعندما حملت هذه الرسالة إلى الأساقفة، أصبحوا أكثر هدوءاً، وأجابوا قائلين: «نحن بلا شك نعتقد أن البابا لو كان حقاً على دراية بالأضرار، وبالمظالم، وبالاستخراجات، التي أثقلت بها الكنيسة الانكليزية وبها ضغط عليها بشدة، فإن الملك ما كان مطلقاً سيحصل على هذا الترخيص من بلاط روما، وإذا ما قمنا باعلام البابا بهذه المسائل بشكل كامل، مما لاشك فيه هو سوف يلغي قراره هذا، ولا عجب إذا كان قد غرر به بخنق الصديق واسكاته وبأقوال زائفة، لأن الملك قد أفقر مملكته بكثير من الطرق، فهو حيناً قام بتوسيع غابته، وحيناً آخر عن طريق جولات رجال عدالته، ومرة ثالثة بإدخال اجراءات قضائية جديدة، وهكذا بمختلف الأساليب الأخرى والطرائق، وعندما تجف المملكة، سيتبع ذلك بالضرورة تعرض الكنيسة للفقر، وتحولها إلى حالة العوز، ثم ماالذي يمكن أن نقوله بشأن الأساقفة الذين أقحمهم الملك في الكنائس الفخمة؟ وكيف قام بشكل مأساوي بونييفيس رئيس الأساقفة الأخير لكانتربري، فاستخرج ثروات منطقته وابتزها، مدعياً بأنه متورط بكثير جداً من الديون، إلى حد أنه لا يستطيع التنفس بحرية، ومن دون مساعدة الكنيسة الانكليزية كلها؟ كما أن الملك — لو سمح لنا بذكر مثل هذه الأشياء — لم يتمنع حتى الآن، عن تجريد مملكته، والكنيسة من المال، ومن الامتيازات التي تمتعت بها منذ زمن طويل، وذلك يومياً بمختلف الحجج التي لا تحصى، ومخالفة ليمينه الرئيسي، وعلاوة على ذلك من المعتقد، والمقرر بموجب حقائق واضحة، بأنه قد حمل الآن شارة الصليب ليس إلا لسبب واحد،

هو أن يتمكن بهذه الطريقة الجديدة، وبهذا الإدعاء من الاستيلاء على البقية الصغيرة من الثروة التي بقيت الآن في انكلترا، وبذلك قام بتحويل انكلترا الحلوة، والمملكة الغنية إلى وضع الجفاف والقحط، أو أنه سيجرد السكان الذين ولدوا في هذه المملكة وفيها نشأوا مما لديهم ويفقرهم، ومن ثم يحل محلهم أجانب يعطيهم أماكنهم وممتلكاتهم، أولم يبق منذ زمن طويل مضى، في شبابه، عندما جرى تحت الطالع السعيد جعله ملكاً، بوضع صليب الملك جون على كتفيه، نعني بذلك والده الذي حمل شارة الصليب في الوقت نفسه؟، وبناء عليه، ينبغي الخوف من أن يكون هذا الملك متبعاً لخطوات والده، وقد حمل هذه الشارة وفق الطريقة نفسها، ومع النية نفسها، مثلما فعل والده، أي من أجل ظلم رعاياه الطبيعيين المخلصين والدوس عليهم بقدميه، لاسمح الرب بذلك، ومع ذلك، من دون التقيد بأفعاله حتى الآن، ودون التقيد بأمر أنه قد ظلم الكنيسة الانكليزية وآذاها وفعل الشيء نفسه بمملكة انكلترا، سوف نمنحه الذي طلبه منا، وسوف نتجاوب، بقدر ما نمتلك من قوة، مع طلبه، إذا كان —حسب ما وعد به غالباً— لن يقوم من الآن فصاعداً بخرق صك امتيازاتنا، التي غالباً ما منحت إلينا وغالباً ما أقسم على مراعاتها والتقيد بها، وأن يمنحنا أيضاً صكاً آخر، يتعهد به، أنه لن يقوم في وقت آخر، اعتماداً على هذه السابقة بمنحه الآن هذا المعروف، فيطالب بأن تكون الكنيسة الانكليزية خاضعة لمثل هذه الاسهامات اللعينة والاستخراجات، ونحن نطالب أيضاً، بأن يجري جمع المال الذي يطالب الملك أن نمنحه إياه، بعناية وبأمانة، وأن يوضع جانباً في سبيل المصلحة، بحذر وحيلة أكثر مما هو معتاد، وحسبما سيظهر موائماً لرعيته المخلصين، في سبيل منفعة الملك، عندما يشرع بالذهاب إلى الأرض المقدسة، فوفقاً لهذه الشروط سوف يجري منح المال إلى الملك وتزويده به».

وقد أضيفت هذه الشروط، بسبب أن جميع المبالغ المالية، التي استخرجها الملك من الانكليز، قد جرى توزيعها من قبله بطريقة فيها طغيان وأذى، وجاءت لمنفعة أعدائه، ولإلحاق الأذى بالمملكة، والإضرار برعاياه التابعين له، وفعل ذلك مثل قيام إنسان بإرادته، بتوزيع أسلحته بين أعدائه، في سبيل إيذائه وتدميره، وجرى إعداد هذه الشروط المفيدة من قبل الأساقفة، أبناء السلام، لتكون معلومة من قبل الملك ولصالحه.

كيف أصر الملك على نواياه ومقاصده

وعندما جرى إعلام الملك بهذه المقررات التي اتخذت من قبل الأساقفة، وحملت إليه لإعلامه بها، من قبل أسقف سالسبري، ازداد غضبه اشتعالاً، وبأنف توسعت فتحتاه، أقسم أيماً مرعبة، أنه لن يخضع مطلقاً مادام حياً، لمثل هذه الحالة من العبودية، وبهذه الطريقة سار على خطى والده وعلى طريقه نفسه، وبعث ثانية إلى الأساقفة يسألهم عما إذا كانوا سيقدمون إليه جواباً بطريقة أخرى ما من الطرق، غير هذا الهراء والمراوغة، ولكي لا يظهر الأساقفة بأنهم وقحين عن طريق إرسال رفض صريح جواباً على طلب الملك، أعادوا إليه الجواب، بأنهم لن يتمكنوا من التداول حول الموضوع كما ينبغي، ولا يمكنهم إعطاء جواب كامل وقرار نهائي، من دون حضور رئيس أساقفة كانتبري وموافقته، بحكم أنه المعترف به الأول بينهم في بريطانيا، وهو الأعلى مقاماً بين جميع الأساقفة، أو من دون موافقة رئيس أساقفة يورك، ثم الحصول على الرأي الحكيم الصادر عنه، لأنه هو الذي إذا لم يكن الرئيس الأول، إنه واحد من رؤساء الرجال في المملكة، هذا ومعلوم أن الأول بينهما موجود في القارة، وكان الثاني يعيش في منطقة بعيدة، وقد منع من الحضور، لسبب غير معروف.

كيف وزع الملك الموارد الشاغرة بين أشخاص غير جديرين

واستمر الملك — على كل حال — في اسرافه المعتاد، وتصرف وكأنه يريد الانتقام لمعارضة الأساقفة له، ولذلك تابع منح الأبرشيات الشاغرة والموارد وتوزيعها بين أشخاص غير معروفين، وسفهاء، وأجانب لا يستحقون، في سبيل إنزال جرح لا يمكن شفاؤه على رؤوس رعاياه الطبيعيين، ودون أن نذكر كل قضية، إننا نعتقد أنه من الموائم والصحيح أن نذكر في هذا المجلد القضية التالية، وهي قضية بين كثير من القضايا: كان في خدمة غيوفري دي لوزنغان، أخو الملك [لأمه] أحد الشمامسة، الذي عمل بمثابة أحمق ومهرج للملك، ولأخيه غيوفري مولاه المذكور، وإلى جميع البلاط، وكانت أقواله مثل أقوال أصحاب الحركات السخيفة، وحملة العصي، قد أسهمت في تسليتهم، وفي إثارة ضحكهم، وقد أنعم الملك على هذا الرجل بكنيسة بريستون Preston الغنية، وكانت هذه الكنيسة عائدة من قبل إلى وليم هافرهل Haverhull، الذي توفي مؤخراً، حيث كان خازن الملك، وكان دخل هذه الكنيسة السنوي، قد وصل فيما مضى إلى أكثر من مائة باوند، وكان هذا الشماس نفسه من أصل بواتي Poitevin، وكان جاهلاً تماماً، في علمه وفي أخلاقه، وقد رأينا يرشق الملك، مع أخيه غيوفري ونبلاء آخرين، أثناء سيره في حديقة كنيسة القديس ألبان، بقطع الأعشاب، والحجارة، والتفاح الأخضر، ويعصر العنب غير الناضج في أعينهم، مثل واحد كان خالياً من العقل، وكان خسيساً جديراً بالازدراء في حركاته، وفي طريقة كلامه، وفي عاداته، وكذلك بحجمه وبمظهره الشخصي، وكان هذا الشخص جديراً بأن يكون ممثلاً على المسرح لا أن يكون كاهناً حسب احترافه، مما ألحق إهانة كبيرة بالطائفة الكهنوتية، فمثل هذا وعلى شاكلته كان الأشخاص الذين عهد إليهم ملك انكلترا بالعناية والوصاية على آلاف كثيرة من النفوس،

رافضاً أعداداً كبيرة جداً من المتعلمين، والحكماء، والرجال الموائمين، الرجال الذين ولدتهم انكلترا، والذين عرفوا لغة السكان المحليين، وعرفوا كيفية توجيه الجهلة، وبطريقة مماثلة أيضاً، ولكي يثير غضب الناس الصالحين وكراهيتهم، تصرف الملك بناء على نصائح سيئة، فأعطى، أو بالحري بعثر المنافع الأخرى للكنيسة والتي كانت عائدة إلى وليم المتقدم ذكره، ووزعها بين أناس غير جديرين وأجانب، وهؤلاء قد وضحت عدم كفاءتهم وانعدام الفائدة منهم بتصرفاتهم غير الاعتيادية والشاذة، والذين تبرهن بشكل واضح أنهم فاسدين بأقوالهم، التي لم تكن سخيفة فقط، بل حمقاء أيضاً وفاحشة، وجاء استطرادنا هذا وابتعادنا عن سياق روايتنا، لأن أسفنا قد أثر لتلك الأسباب.

سير الملك بالتسلسل في هذه القضية

وأصبح الملك مصاباً بعاهة الشره الكبير، وبالتعطش العظيم للمال، فقد عاد الآن إلى مكره المعتاد وخداعه، وأبدع في ذهنه خطة أن يخضع لإرادته، واحداً إثر آخر، من أولئك الذين لم يستطع تحطيمهم وهم متحدّين، وبناء عليه، عندما ارفض المؤتمر المتقدم ذكره أعلاه، وقبل أن يغادر الأساقفة لندن، استدعى إليه أسقف إيلاي، إلى مقابلة خاصة معه، ولدى وصول ذلك الأسقف، نهض إلى استقباله بكل تقدير واحترام، وبعدما طلب منه الجلوس إلى جانبه شخصياً، خاطبه بتواضع وبملامح هادئة قائلاً مايلي: «عزيزي مولاي الأسقف، سوف يكون من الصعب عليّ أن أذكر جميع ألطافكم، وكرمكم، وخدماتكم التي غالباً ما جربتھا، وتلقيتها على أيديكم، فأنت الذي قمت عن طواعية من نفسك، فتعذبت وعانيت من شقاء السفر إلى بروفانس، على حسابك الخاص، لإحضار زوجتي إلي، وعلاوة على ذلك، عندما كنت على وشك الانطلاق إلى القارة، قمت مرة تلو أخرى دون أن تمل من مطالبي، فزودتني بمساعدة فعالة، وماالذي يمكنني قوله أكثر من هذا؟

ثم مامن مرة احتجت فيها أنا إلى المساعدة، إلا وقمت بتقديمها أو على الأقل وقفت إلى جانب مطلبي بنوايا طيبة جاهزة، هذا وإنني الآن أحتاج أكثر من أي وقت مضى إلى اختبار لطفك المعتاد، وجودك، لأنك كما تعلم أيها الأب المقدس، أنني قد وضعت صليب الرب على كتفي، لأحمله بنبل إلى الأرض المقدسة، في سبيل تشريف الكنيسة المسكونية، ومن أجل ازدهار هذه المملكة، وبالنسبة لهذا الحج، إن رغبتني الخاصة، ورجائي إليك، أن تكون وأنت من رعيتي المخلصين والنافعين لي، شريكاً مساهماً، وبناء عليه إنني ألتمس بكل إلحاح ممكن، أن تساعدني في هذه الحالة الضاغطة من العوز، والتي تتطلب نفقات ثقيلة، حتى تكون مثلاً صالحاً إلى الآخرين، وأن لاتولي أدنى اهتمام إلى تراخيهم في هذه القضية، وعندما تنهياً الفرصة، سوف أرد هذا المعروف إليك بمنافع أكثر وفرة».

وأمام هذا الكلام المخادع، وقف الأسقف صامداً أمام الإغراء، وقد ردّ عليه كما يلي (بلطف، وبالأخذ بالصمت تجاه الأذى الذي لحقه من استبدال سوق القديس ايثلرد Ethelred واقامة بدلاً عنه سوق القديس ادوارد في ويستمنستر): «مولاي، إنني إذا كنت في أي وقت من الأوقات قد أديت خدمة لك، فأنا مسرور لذلك كثيراً، لكن جلالتك يعلم أنني لن أقوم، كما أنه لايمكنني بأي حال من الأحوال، أن أبعد نفسي، أو التخلي عن البنود التي عملت والقرار الذي أجمع الكل عليه صادقين، أي من قبل الجماعة كلها، لأنني إذا ما فعلت ذلك سوف يكون عملاً مخللاً بالكرامة من قبلي، وإذا ما قمنا نحن الأساقفة بالإذعان إلى قرارك غير المحدود، سوف تتعرض الكنيسة للفقير، كما سيتعرض للأذى تعهدك ويمينك، وسوف نخضع إلى ضريبة دائمة، وإلى عبودية مستمرة، ويمكنك إذا تفضلت، أن تعيد إلى ذاكرتك، كم كان عدد القديسين كبيراً، الذين خضعوا للعقوبة والنفي، والذين عدّوا

بشكل رافع ومجيد كشهداء في سبيل حرية الكنيسة المقدسة، فهل أنا بحاجة إلى ذكر ذلك الشهيد المجيد، توماس المبارك؟ أو لذكر خليفته القديس ادموند، المعاصر لنا؟ وهناك فيض من الأمثلة واضحة أمامك، كلها تميل بشكل واضح إلى نقدك ولومك، والذي عليك هو أن تكون حذراً ومتنبهاً إلى الذي حصل إلى الملك الفرنسي، وهو المثل الذي أشع واضحاً كالمرآة لك من قبل الرب، لأنه وزع المال الذي استخرجه من مملكته بين أعدائه، من أجل فديته، وبهذا المال أصبح أعداؤنا من المسلمين أغنياء، وبذلك فإن الذين يطاردوننا سوف يكونون أسرع، والذين يكرهون مجلدنا، سوف بذلك المال يكونون القاهرين لنا، لابل إنهم الآن يعيشون في بهجة، لأنهم أصبحوا أغنياء بهالنا وبسلاحنا، ومهما حدث من الآن فصاعداً إلى هذا الملك المذكور، إنه قد نال عارا لايمحى في الماضي، ففي الحقيقة أصبح ذلك الأعظم نبالة بين المسيحيين، فريسة بيد المسلمين، ومن المؤسف القول انه بسبب ذلك تخلى كثيرون عن العقيدة وارتدوا، وهذا كله من الأمور يعزى إلى نظام السرقة المتقدم ذكره».

رفض الملك الإصغاء إلى المنطق

ولدى سماعه لهذا الكلام، كان الملك مثل واحد أصيب بجرح عميق، ولم يصغ إلى ما أملاه العقل، ودعا بصوت مرتفع خدمه قائلاً: «اطردوا هذا العجوز الهرم، وأغلقوا البابا دونه، ولا تدعوه يظهر أمامي ثانية، بما أنه رفض أيضاً أن يقدم لي المواساة والعون»، وهكذا فإن هذا الأسقف، الذي استقبل بلياقة لدى دعوته، غادر وهو مغطى بالملامات والاهانات، ووفق الطريقة نفسها سعى الملك إلى اضعاف ثبات بعض الآخرين، الذين بعث خلفهم بشكل سري، ومع أن اجاباتهم لم تكن من دون وزن، فإننا سوف نتجاوزها من أجل الاختصار، وقد بذل بهذه الطريقة البارعة قصارى جهده لتطويع عقول الأساقفة لإرادته، من

أجل أن يرغم النبلاء على الموافقة على هذا الاسهام، لأن اصرارهم اعتمد على اصرار الأساقفة.

ثبات كهنة وينكستر

وفي ذلك الوقت أيضاً، قدم الأسقف المنتخب لوينكستر إلى عند أخيه الملك، ليطلب منه الاذن بالعودة إلى وطنه، وليقول له وداعاً، لكن الملك لم يخاطبه بملامح هادئة كما ينبغي أن يفعل، كما أنه لم ينهض من كرسیه، كما كان يفعل نحو إخوته القادمين إليه، ثم إن هذا الأسقف خاطبه كما يلي قائلاً: «يبدو لي يامولاي، أن المؤتمر قد ارفض، وبت عارفاً بالقرار الثابت للأساقفة، حيث أعتقد أنك أخبرت به، وأنا الآن على استعداد — إذا سمحت — للعودة إلى الوطن، أسرع مما كنت متوقفاً لأن الإقامة الأطول في هذه المدينة لن تكون موافقة لي، وبناء عليه، أعهد بك إلى الرب»، فأجابه الملك: «وأنا أعهد بك إلى الشيطان، فقد كان يتوجب عليك الوقوف إلى جانبي، حتى لو كان العالم كله واقفاً ضدي، فأنت أخي لأمي، وأنا الذي رقيتك لتكون الذي أنت عليه، ولذلك نلت عدم رضا الرب، وقديسيه، وعدم موافقة الذين يعود إليهم حق الانتخاب، ورفعتك إلى أعلى المراتب وأسمى الأماكن، حتى أنك الآن الأول في انكلترا بالنسبة للثروة»، وأجابه الأسقف المنتخب على كلامه التوبيخي قائلاً: «مولاي إنني شاب بعدد سنوات العمر، لكن هل تريد، لأنك عملت مني الذي أنا عليه، أن أتصرف مثل طفل؟ لاسمح الرب بأن أنسحب من قرار تلك الجماعة التي تحب الرب، وتقدر كرامتك»، وبهذا غادر غاضباً.

كيف دفع سكان لندن عشرين ماركاً إلى الملك

وفي هذه الآونة، استخرج الملك بوساطة التماسات ملكية، عشرين ماركاً ذهبياً من سكان لندن (الذين توجب وفقاً لفحوى صكوك

حقوقهم، وللأعراف القديمة، أن يتمتعوا بالقدر الأكبر من الحرية) وكأنهم كانوا الطائفة الأدنى من العبيد، لابل بالحقيقة ظهر وكأنهم قد نظر إليهم بالمنطق نفسه، أو ربما أقل قدرا من مكانة عرق العبيد اليهود.

فرض ضريبة عبودية أخرى على اللندين

وعلاوة على ذلك، أرغم الملك سكان لندن، بإرادتهم أو بدون رغبتهم، على إغلاق نوافذ حوانيتهم في مدينة لندن، من أجل أن يحضروا السوق الذي أقامه في ويستمنستر أيام عيد القديس ادوارد، مما ألحق الأذى بسوق ايلاي، والذي استمر لمدة خمسة عشر يوماً، وذلك دون التقيد بالأحوال الشتوية للأنواء، وبالوسخ، والمطر، وعدم مواءمة المكان، ولقد أرغموا على الوقوف في خيمهم، وذلك بناء على أوامر الملك، الذي خشي من أن لا يقوموا جميعاً بعرض بضائعهم للبيع، مع أنهم لم يواجهوا مشترين.

حول معاناتهم من الأنواء القاسية

وبناء عليه، تغلب عليهم جميعاً الوصب، وشمل ذلك الذين جاءوا إلى السوق، والذين سكنوا هناك، لأنه خلال ذلك الوقت كله، كانت هنالك حشود كبيرة من أنحاء المملكة أتت مسافرة إلى هناك، وأقامت بعض الوقت ثم عادت، وقد أمطرت في تلك الأثناء إلى درجة كبيرة، حتى أنهم تبللوا جميعاً من المطر، وغطاهم الطين، كما أنهم أنهكوا أثناء سفرهم، حيث وجدوا المخاضات لا يمكن عبورها إلا بصعوبة بالغة، والجسور قد زالت، والطرق غير موائمة للسفر عليها، وذلك مع أوساخ المدينة، وانعدام المؤن والحاجات الضرورية الأخرى، وكان كل شيء قليلاً وغالي الثمن، وعلى هذا تورطوا جميعاً بمتاعب لاحدود لها، وعلاوة على ذلك، كانت هنالك جماهير عديدة وكثيرة من الأشخاص الذين قدموا إلى لندن، وأقاموا فيها، وبلغ ذلك حداً، أن سكان المدينة قد أعلنوا —حتى المسنين

بينهم — أنهم لم يشاهدوا من قبل قط مثل هذه الحشود الهائلة، وخلال ذلك الوقت كله تزايدت مشاعر الغضب وارتفعت ومعها الكراهية ضد البابا والملك، اللذان آثرا الطغيان وتعاونوا مع بعضهما في سبيل ذلك، ولأنهم كانوا منزعين كثيراً، فقد أطلقوا عليهما اسم «المرعجين لبني البشر»، وبذلك تحقق قول الرسول: «إنه ما لم يحدث الانفصال سوف يظهر ابن الظلم»، ذلك أن الذي ظهر حتى الآن هو أن الشقاق بات قريباً، مع استيقاظ مشاعر عالمية للسخط وعدم الرضا المطلق، إن لم يكن بالأجساد، فعلى الأقل في القلوب (وكان هذا شراً أشد وأقسى) ضد كنيسة روما، والشعاع الضعيف الذي بقي من التقوى قد انطفأ.

مقالة حول شؤون غسكوني

وقام الملك في الوقت نفسه، حتى لا يظهر بأن بعض النبلاء قد جرى جمعهم مع بعضهم من دون غرض، فعرض للمناقشة الخاصة، قضية الذي يتوجب عمله بالنسبة لشؤون مقاطعة غسكوني، التي ظهر بأن إيرل ليستر، قد بعث الفوضى فيها إلى درجة عالية، مما ألحق الضرر الكبير به، أما فيما يتعلق باليرل نفسه، فقد انتشرت اشاعة في كل مكان في الخارج، تقول إنه بعدما حصل على النصر المجيد على الأعداء لنفسه وللملك، حسبما تقدم ذكر ذلك أعلاه، حمل نفسه وذهب من دون حذر إلى القلعة التي اسمها مونتوبان Montauban، التي وإن بدت أنها لاترام، كانت مهجورة وليس فيها عساكر للدفاع عنها، كما لم يكن فيها جميع أنواع المؤن، وهنا — كما قيل — جرى حصاره فجأة من قبل أعدائه الاقليميين، وبصعوبة بالغة جرى انقاذه بوساطة مساعدة بعض أتباعه المخلصين، الذين خاطروا بحياتهم لانقاذه، وعلاوة على ذلك أعاد إلى الذين تولوا حصاره، بعض الأسرى الذين وقعوا مؤخراً بين يديه في كئائنه، وفضلاً عن هذا كله، كان الملك غاضباً، لأنه رغب شخصياً بعبور البحر حتى يتولى تهدئة تلك المنطقة المضطربة التعيسة،

وقد بعث محاسبه بطرس تشيسبور Chacepore، ليطلب الاذن من الملكة بلانشي، حتى يرتحل بسلام ويسافر خلال فرنسا، وكان مثل هذا الطلب الأحمق يقابل دوماً برفض مطلق، وهو لم يتجرأ على الركوب بالسفينة ليسافر إلى هناك عبر الماء، بسبب مخاطر البحر، التي كان قد عانى منها، لاسيما وأن حلول الشتاء بات قريباً، ومعه التهديد بازدياد العواصف، وفي الوقت الذي كان فيه الجميع يتناقشون حول القرار الذي ينبغي اتخاذه حول هذه المسائل، جدد الملك في نهاية خطابه، بروح عالية، المطلب الملح بتقديم المساعدة المالية والعسكرية إليه شخصياً، لأنه كان على وشك الاقلاع للحج، وليقاتل في سبيل المسيح من أجل السلامة العامة، وعلى هذا المطلب أجابوه بالاجماع، بأن جوابهم يعتمد على جواب الأساقفة، وأنهم سوف لن يخالفوا القرار الذي سوف يتخذونه، أو يتخلون عنه، ونظر أحدهم نحو الآخر وتهامسوا فيما بينهم قائلين: «أي أمل يمكن تحقيقه من خلال هذا الملك الصغير، وماالذي يمكن توقعه منه، وهو الذي لم يتعلم قط ممارسة الفروسية، والذي لم يركب قط على ظهر حصان، ولم يشهر سيفاً في حياته، ولم يهز رحماً، ولم يرفع ترساً في معركة، فهل ياترى يمكنه أن ينتصر، حيث جرى أسر الملك الفرنسي، وحيث سقطت فروسية فرنسا وتدمرت؟ أو أية مشاعر طائشة التي يشعر بها بأنه سوف يتمكن من استرداد الاستحواذ على مناطقه في القارة بالقوة، وهي المناطق التي لم يستطع الاحتفاظ بها عندما كانت تحت حكمه؟» ومع هذه الانتقادات، ومع إعلانهم أنه قد ولد فقط لغرض استخراج المال، عادوا ساخطين إلى مواطنهم، مع محافظ نقوذ فارغة، وديون متعاطمة.

ارفضاض المؤتمر وغضب الملك مع الآخرين

ثم إن المؤتمر ارفض، وسط غضب الملك، ورجال الدين، والنبلاء، وخزن الملك غضبه وكراهيته في قلبه، معتقداً أن جميع الذي عمل وقيل

مصدره الحقد والكراهية، وبناء عليه اعتقد أنهم أعطوه سبباً للعمل بشكل سيء ضدهم وشرير بدوره، وعلى هذا الأساس أصبح عنيداً وشديد الإصرار على تنفيذ خطته التي أبدعها بطريقة ملتوية عندما تنهياً الفرصة.

كلام كونتيسة آرونديل

وفي تلك الآونة أيضاً، عندما كان الملك مايزال مقيماً في لندن، أتت إليه إلى هناك، إلى غرفته الخاصة ايزابيلا كونتيسة آرونديل Arundel، أرملة هـ. H، إيرل آرونديل، وكانت من أقرباء الملك لتطالب بحقوقها في قضية متعلقة بوصاية عائدة إليها، وبدا الملك أولاً هادئاً المظهر، لكنه بعد ذلك قرعها بكلمات قاسية، ولم يرض بالاصغاء إلى أي من مطالب الكونتيسة أو التجاوب معها، لأنه ادعى لنفسه المسؤولية عن الوصاية المذكورة، وبناء عليه قامت الكونتيسة، مع أنها كانت امرأة بالرد عليه غير هيابة، وتخطت كونها امرأة فقالت: «لماذا يامولاي الملك تشيح بوجهك عن العدالة؟ حيث لا يستطيع الإنسان الحصول على ما هو عدل وحق في بلاطك، فأنت قد جرى تعيينك بمثابة وسيط بين الرب وبيننا، وأنت لا تحكم بشكل صالح لانفسك ولا لأنفسنا، كما أنك لا تحشى من إثارة الاضطراب والأذى للكنيسة في كثير من الطرق، وهذا ما قد تبرهن ليس الآن فقط، لكن غالباً ماتبرهن مراراً في الماضي أيضاً، وعلاوة على ذلك إنك تقوم من دون خوف أو حياء بظلم نبلاء المملكة بطرق متنوعة»، ولدى سماع الملك هذا الكلام ضحك باستهزاء، وبعدما لعب بفتحتي أنفه، قال بصوت مرتفع: «ما هذا ياسيدي الكونتيسة؟ هل اتفق معك نبلاء انكلترا وأعطوك تفويضاً لتكوني المرأة المتكلمة بلسانهم والمحامية لهم، بحكم أنك فصيحة؟»، وعلى هذا ردت الكونتيسة — مع أنها كانت امرأة شابة — بطريقة ترفع من مقام الإنسان الأكثر نضوجاً بالعمر قائلة: «ولابشكل من الأشكال يامولاي أعطاني نبلاء مملكتك تفويضاً، لكن أنت الذي أعطيتني تلك الرخصة، فهي التي منحني

والدك إياها، وأنت وافقت عليها، وأقسمت على رعايتها بإخلاص، والحفاظ عليها غير مخروقة، ولقد قمت مراراً كثيرة باستخراج المال من ريعتك، في حين قد وعدت بالحفاظ على حقوقهم وامتيازاتهم، غير أنك برهنت دوماً عن نفسك بأنك ناقض للميثاق بدون حياء، ومعتدي على هذه الامتيازات، وبذلك برهنت بوضوح على أنك حانث بيمينك وخافر لذمتك، فأين هي امتيازات انكلترا، التي غالباً مامنحت، وغالباً مادونت كتابة، وغالباً ماجرى انقاذها؟ وإنني وإن كنت امرأة، وكلنا نحن الذين رعايا طبيعيين ومخلصين، نترافع بالدعوى ضدك، ونتقدم بالشكوى عليك أمام قضاء الحكم العدل المخيف للجميع، والسموات والأرضين سوف تكون شهودنا، بما أنك تعاملنا بالظلم، مع أننا أبرياء من اقرار أية جريمة ضدك، وأرجو أن يقوم المولى إله الانتقام بالانتقام لنا»، وأمام هذا الكلام استحى الملك وصمت، لأنه علم بما أملاه عليه ضميره، بأن الكونتيسة لم تباعد عن طريق الحق والصدق، وبعد لأي قال: «هل إنك لاتطالبين بإسداء هذا المعروف إليك لأنك امرأة قريبة لي؟»، وعلى هذا ردت قائلة: «بما أنك تنكر علي ما هي مطالب عادلة، كيف يمكن أن أمل أنك ستسدي إليّ معروفاً بناء على طلبي؟ غير أنني أتضرع بالشكوى أيضاً أمام وجه المسيح ضد الذين هم مستشاريك، الذين أضلوك، وأزاغوك، وحادوا بك عن طرق الحق، لأنهم مهتمون بتشوق بمنافعهم فقط»، وبعدما أصغى الملك إلى هذا التقرير الأديب وهذا الكلام اللائق، لزم الملك الصمت، وعادت الكونتيسة إلى منزلها من دون الحصول على الاذن، لابل بالحري دون أن تطلب ذلك، وذلك بعدما عانت من كثير من المتاعب ودفعت الكثير من النفقات من دون فائدة، واستمر الملك —على كل حال— لايمكن تقويمه، وليس على استعداد للاصغاء إلى هؤلاء ولا إلى الآراء والمشاورات السليمة.

حول البحث في شؤون غسكوني

ثم قام الملك مرة ثانية بدعوة النبلاء للاجتماع مع بعضهم، وهم الذين — كما ذكرنا أعلاه — كانوا قد رفضوا طلباته الملحة وقاوموها، وشاورهم حول الذي ينبغي عمله بالنسبة لقضية غسكوني، وعلى طلبه أجابه النبلاء، أنه «إذا كان الايرل سيمون ايرل ليستر يسعى إلى اخضاع أولئك العصاة المتمردين ضد ملكهم، ينبغي أن لانعجب تجاه ذلك وأن لانتحب، خاصة وأن هؤلاء الغسكونيين مجموعة من الناس المنحطين، لأن مولاهم الملك عندما اتخذ ملجأ بينهم بكل اطمئنان، خانوه، وأفقروه بعدد من الطرق المضاعفة، وبناء عليه عدت إلى الوطن مهاناً وفقيراً، مما سبب الأذى وألحق العار بجميع الانكليز، وعلاوة على ذلك إن كثيراً من هؤلاء الغسكونيين هم لصوص وقطاع طرق، يسلبون الحجاج والتجار أثناء سفرهم، ويلتجئون إلى كهوف قطاع الطرق القدمااء بين سلسلة جبال ايغريمونت Aigremont الوعرة والتي لايمكن الوصول إليها، والتي حصنها بقلاع قوية، يضاف إلى هذا، لقد بقيت فقط سنين قليلة، هي مجرد ثلاث سنوات ونصف السنة للايرل، وذلك وفقاً لصك ولايتك، للاحتفاظ بحكومة تلك البلاد، ومجدداً نحن لم نتلق معلومات تتعلق بأوضاعها مؤخراً، لوجود مسافة واسعة من الأرض والماء بيننا وبينها، وبالتالي لايمكننا إعطاء جواب محدد حول قضايا غير مؤكدة بالنسبة لنا».

هذا ولم يكن الملك مسروراً لتقديمهم له تسويغاً وعذراً لأعمال الايرل، لأنه كان ينوي التعامل معه بقسوة أكبر، وأن ينظر إليه على أنه خائن، وأن يحكم عليه هكذا، وبالتالي يجري تجريده من أملاكه، ولم تكن هذه الخطة — على كل حال — سرية بالنسبة للايرل، مع أنه كان بعيداً، وعندما رويت إليه أخبار الإجراءات المتقدمة الذكر قال: «أنا أعرف تماماً أنه يريد تجريدي، ليغني بعض البروفانسيين أو البواتيين بايرليتي».

انتهاء المؤتمر

ولذلك ارفض المؤتمر، وبقي الملك ملتهباً بغضب عنيف ضد النبلاء، وكذلك ضد الأساقفة، وفكر بأن يستدعي إلى مساعدته نائباً بابوياً، يمكنه بفضل السلطات الرسولية أن يرغم رجال الدين على تقديم الاسهام إلى مطالبه، مع أنها سوف تكون ضريبة ثقيلة، ونوعاً من أنواع العبودية الجديدة ومسألة لا تحتمل بالنسبة للكنيسة، وهكذا هددت الشرور بمضاعفة الشرور وتكديسها فوق بعضها، وبذلك يكون قد جرى إغناء السماسرة، واليهود، وآخرين من مقرضي الأموال، وسوف يغادر الأساقفة والنبلاء، خالي الوفاض، حزينين ومحتاجين.

حول المقابلة التي جرت بين مقدم الاستتارية والملك

وفي هذه الآونة أيضاً، كان مقدم استتارية القدس، ينتظر في بيت الطائفة في كليركنول Clerkenwell ينتظر وقتاً مناسباً وهادئاً، وذلك منذ وصوله، من أجل الحصول على اجتماع مع الملك، وعندما جاء إليه تقدم إليه بشكوى، حول الأذى الذي لحق به، وعرض رسائل حمايته موقعة من قبل الملك الحالي، وكذلك من قبل سلفه من الملوك، وبما أن الملك قد غضب، خاطبه بصوت مرتفع، وقدم لجوابه بيمين، ثم أجابه قائلاً معالي: «أنتم القساوسة والرهبان، وبشكل خاص الداوية والاستتارية، لديكم كثيراً من الامتيازات والصكوك، وقد جعلكم تملككم الزائف والمسرّف متجبرين، ومن التجبر أنسقتم إلى الحماقة، وبناء عليه، يتوجب علينا، أن نلغي بشكل عقلائي، الذي منح إليكم بصورة لاعقلانية، وأن نسترد من عهدتكم، الذي وزع بموجب مشورة فاسدة»، ثم أضاف قائلاً: «أولم يقيم البابا في بعض الأحيان، لابل مراراً كثيرة ومراراً كثيرة، بمراجعة أوامره وإلغائها؟، أولم يقيم هو باقحامه فقرة «دون التقيد» بإلغاء صكوك جرى منحها من قبل؟ وهكذا إنني سوف أخرق هذا الصك وألغيه، والصكوك

الأخرى أيضاً، التي منحها سلفي ومنحتها أنا بتسرع ومن دون روية»، وقام مقدم الاستتارية، الذي حمل رتبة رئيس رهبان برفع رأسه، وخاطبه من دون خوف قائلاً: «ما هذا الذي تقوله يامولاي الملك؟ لا سمح الرب لمثل هذا الكلام المليء بالنكران والجحود، والمتناقض، أن يخرج من فمك، فطوال ما أنت تتولى مراعاة شرائع العدل، سوف تكون ملكاً، لكن عندما تحرقهم وتتجاوزهم سوف تتوقف عن كونك ملكاً»، وعلى هذا رد عليه مع حاجة كبيرة للتقدير قائلاً: «سامعني هذا؟ هل ترغبون أنتم الانكليز بالإطاحة بي من على عرشي، كما فعل آباؤكم من قبل مع أبي، وبعد خلعي تتولون قتلي؟».

تعيين رينالد دي موهون حافظاً للغابات

وحدث في هذه الآونة، أن جرى صرف الفارس غيوفري لانغلي Langley، الذي كان ظالماً بلا حدود لجميع الذين وقعوا تحت سلطانه، وذلك بمختلف السبل ومهما كانت، صرفه من وظيفة حافظ الغابات، وأرسل إلى سكوتلندا، بمثابة مستشار للملكة سكوتلندا، التي كانت ابنة الملك، ومنح صرفه رضا كبيراً إلى كثير من الانكليز، وجرى تعيين رينالد دي موهون Mohun بدلاً عنه، وكان غيوفري هذا، قد جرى تعيينه، بناء على أوامر الملك، واحداً من الأوصياء على ملكة سكوتلندا، غير أن نبلاء تلك البلاد لم يستطيعوا الاستمرار بتحمل سلوكه الوقح، ولذلك صرفه من منصبه، ثم إنه حول نفسه ونقلها إلى خدمة ادوارد، وعمل في وضعه الجديد الكثير من الأعداء للملك، وكذلك لادوارد، وكان غيوفري هذا قد جرت تربيته من قبل روبرت باسليف، وتمت ترقيته إلى منصبه من قبله، لكن بعد بعض الوقت حل المتلقي للتوجيهات محل الموجه له، وهذا الذي جرت ترقيته تولى الإطاحة بالذي رقاها.

حول الأخبار التي جلبها بعض الأرمن

وجاء في هذه الأونة بعض الأرمن إلى كنيسة القديس ألبان، حتى يقدموا صلواتهم، وكان واحدا منهم أخا للرجل المقدس الذي مات في سينت ايف، وهي واقعة جرى ذكرها من قبل، وحملت الوجوه الشاحبة لهؤلاء الرجال، ولحاهم الطويلة، وطريقة عيشهم القاسية شهادة على قداستهم، وعلى قسوة نظامهم، وأكد هؤلاء الأرمن، الذين ظهروا أنهم رجال يستحقون التصديق، جوابا على سؤال طرح عليهم، مايمكن عدّه حقيقة، بأن التتار، قد عانوا من خلال انتقام الرب، وليس من خلال انتقام الإنسان، من النقص الشديد في التعداد، بوساطة مرض مميت انتشر فيما بينهم، وكذلك بوساطة سيوف أعدائهم، وأنهم قهروا تماما، وأرغسوا على العودة إلى مواطنهم الماضية، وفي الحقيقة بات بإمكان شعوب الغرب أن تكون متأكدة بأن هذا الوباء المدمر لن يزور العالم ثانية، وذكروا أيضا، أنهم يعلمون — بدون أدنى شك — بأن يوسف، الذي رأى المسيح، عندما كان على وشك الصلب، والذي كان ينتظر اليوم الذي سيحكمنا كلنا فيه، مايزال حيا حسب عاداته، وهذه الواقعة هي إحدى الحوادث المدهشة في العالم، وهي برهان عظيم على صحة الإيمان المسيحي.

وكانت بلاد هؤلاء الأرمن، تبعا لما ذكره، تبعد سفر حوالي الثلاثين يوما عن القدس، وتصل مناطقها القصوى إلى بداية مقاطعات الهند، التي تعرضت للنهب إلى حد كبير من قبل التتار، وينبغي أن يكون معلوماً بأن سفينة نوح، قد رست في أرمينيا هذه نفسها، وذلك تبعا لما ورد في الكتابات المقدسة، وما هو مدهش أكثر، هو حقيقة أنها ماتزال راسية هناك، ولكن بما أنها واقفة على قمتي جبلين عالين كثيرا، والمكان علاوة على ذلك مشحون بحشود الأفاعي السامة والخطيرة، ما من أحد يستطيع الوصول إلى هناك، فضلا عن هذا، إن إرادة الرب قد قضت

أن لا يصل مخلوق من بني البشر إليها، ويحطمها، في سبيل أن يحمل قطعاً منها، أو بالحري، إنها بقيت بفضل رحمة الرب الدائمة، هناك، حتى يبقى دمار العالم كله، وتصلحه بعد ذلك مع الرب، في ذاكرة بني البشر بشكل دائم.

وفاة كونتيسة وينكستر

وماتت في الوقت نفسه في غروبي Groby، وهي عزبة عائدة إلى إيرل وينكستر، ليس بعيداً عن ليستر، الكونتيسة زوجة ذلك الايرل، وابنة ايرل هيرفورد، وقد ماتت وهي شابة، ولذلك لم تترك ولداً منها للايرل، مثلما كان الحال مع زوجته الماضية ابنة ألان أوف غالوي Galway، التي ماتت من قبل، مخلقة له بناتاً فقط، وكانت الكونتيسة المذكورة أولاً، قد ماتت في العشرين من تشرين الأول، ودفنت في بريكلي Braukley، حيث كانت قد دفنت زوجة الايرل السالفة أيضاً، وكان دير ذلك المكان قد تأسس من قبل أجداده، ولهذا الأسباب اختاره ليكون مكاناً لدفن زوجته، ثم مالبت على الفور أن اقترن بامرأة أخرى، حيث ظل آملاً أن ينال من الرب نعمة انجاب صبي.

حول إطلاق سراح أسرى صليبيين من قبل سلطان مصر

وجرى في هذه الآونة أيضاً إرسال رسل من قبل الملك الفرنسي، تم الحصول لهم على اذن بالتجول في جميع مناطق سلطان مصر مع الأماكن الواقعة تحت حكمه، للبحث عن الصليبيين الذين في أسر سلطان مصر، وتحت سلطته حتى يجري إطلاق سراحهم من دون شروط، وفي ذلك الوقت كان قد جرى إطلاق سراح الأسرى الآخرين الذين كانوا تحت سلطة السلطان وفق شروط سهلة، وفي سبيل إطلاق سراح هؤلاء، بذل الملك الفرنسي، الذي كان أكثر الناس تقوى، كمية وافرة من المال، بوساطة صدقاته.

كيف جرى جلب عظام وليم صاحب السيف الطويل إلى عكا

وفي أحد الأيام، قال سلطان مصر للرسل الذين بعثوا لأداء المهمة المذكورة أعلاه: «أنا أعجب منكم أيها الصليبيون الذين تحترمون عظام الموتى، لم تقوموا بالسؤال عن عظام وليم ذلك الرجل المشهور كثيراً، وذو الأصل النبيل، الذي منحتموه اسم «صاحب السيف الطويل»، ونحن قد سمعنا كثيراً من الافادات، لاندري إن كانت مجرد حكايات أم لا، تتعلق بهذه العظام نفسها، من ذلك على سبيل المثال، أنهم يظهرون فوق قبره في الليالي المظلمة، وأن كثيراً من المنافع تضافى من قبل السماء على الذين يدعون إلى الرب في ذلك المكان، ولهذا السبب، ولأنه قتل في المعركة، وبسبب سماته الرفيعة، ولأصله النبيل، قد دفنا جسده مع كل احترام لائق».

وتحدث الرسل فيما بينهم، وقالوا لبعضهم بعضاً: «كيف يمكننا أن نستخف بهذا الرجل، الذي هو رجل انكليزي، والذي حتى المسلمين لا يمكنهم رفض ما هو جدير وحقيق بنبالة وليم هذا نفسه؟» وبناء عليه قرروا من تلك الساعة المطالبة بوجوب إعطاء عظامه إليهم، وقد زودهم السلطان بها برضاه، ثم إنهم جلبوا معهم عدداً من العبيد المحررين، وقاموا بجمع عظام وليم المتقدم ذكره، وأخذوهم ونقلوهم معهم، وساروا إلى عكا، حيث تولوا دفنهم بكل احترام في كنيسة الصليب المقدس.

حول الإجراءات العدوانية والعنيفة لوليم أوف بلنسية

وفي هذه الآونة نفسها، قدم وليم أوف بلنسية، أخو الملك لأمه من مقر سكنه في هارتفورد، ودخل بالقوة، ومراغمة للمرسوم الملكي الذي صدر مؤخراً، بناء على الموافقة العامة للانكليز، إلى مكان مغلق (مما يطلق عليه بشكل عام اسم حديقة) كان عائداً إلى أسقف ايلاي، قرب عزبة

هاتفيلد Hatfield، وقام هناك بالصيد، من دون الحصول على الاذن من أي إنسان، مع أن ذلك شكّل خرقاً لقانون البلاد، ولمبادئ الشرف، وأصالة النسب، وبعدما عمل هذا تحوّل إلى عزبة الأسقف، وكان عطشاناً، ولم يجد شيئاً يشربه ماعدا البيرة، فحطم بالقوة أبواب المستودعات التي كانت محكمة الاغلاق، وهو يصرخ بصوت مرتفع، ويجدف بشكل مرعب، ويلعن البيرة والذين صنعوها أول مرة، ثم إنه سحب سكور بعض البراميل، وبعدما شرب هو نفسه ما فيه الكفاية من الخمرة الموجودة هناك، والتي كانت من أفخر الأنواع، أمر بتوزيعها بوفرة بين أتباعه، وعلى جميع الذين اختاروا أن يشربوا منها، وكأنها كانت ماء، أو من أسوأ أنواع البيرة، وسمع رجل كان يتولى الاشراف على العزبة ضربات المطارق التي استخدمت لتكسير الأبواب وفتحها، وسمع صراخ الذين استخدموا في ذلك العمل، فجاء حتى يوقف عندهم، وليوزع بينهم كميات كافية من الخمرة، لكنهم لكموه فقط وأهانوه، وبكل صعوبة نجا من عنفهم، وبعدما سكروا إلى حد التقيؤ، وبعدما بددوا كثيراً من الخمرة وصبوها هناك، غادروا وهم يصرخون سخرية، دون أن يعبأوا أجرى إعادة السكور إلى البراميل أم لا، وبعدما ذهبوا وابتعدوا، ذهب خادم العزبة إلى المكان، ووجد الباب محطماً، وكأن ذلك فعل أثناء الحرب، والخمرة تسيل بكميات كبيرة على أرض المستودع، وقد قام على الفور وبكل سرعة، بتسكير البراميل، واغلاق الباب واحكامه ثانية، وعندما جرى اخبار الأسقف بهذه الإجراءات، لم يأسف للأذى الذي لحق به، وقال وهو هادئ المظهر: «عجباً هل كانت هناك ضرورة لسلب ولنهب ماكان يمكن أن يعطى إليهم طواعية وبالرضا، بكميات وافية، لو أنهم فقط طلبوا ذلك؟ ثم إنه لعن هذا العدد الكبير من الملوك، أو بالحري من الطغاة في مملكة واحدة»، ولقد كان من الواضح تماماً أن المحرض على مثل ذلك العنف، وذلك الهجوم الذي كان بلا حياء على ممتلكات الكنيسة، استحق عقوبة الحرمان الكنسي لهذا الذنب الذي اقترفه.

حول العمل غير الشريف الذي اقترفه غيوفري دي لوزنغان

وفي اليوم الثالث، بعد وقوع الحوادث التي رويت أخبارها أعلاه، قام غيوفري دي لوزنغان، أخو وليم الذي تقدم ذكره أعلاه، بالعزم على الإقامة في دير القديس ألبان، فأرسل قهرمانه قبله، ليعلن عن نيته بالقدوم إلى هناك، وليجعل رغباته معلومة، ووصل القهرمان إلى باب ساحة الدير، وقال للبواب دون أن يحويه: «معلمي وشيك الوصول، ويرغب بالإقامة هنا، أين سوف ينام؟»، فردّ عليه البواب قائلاً: «حيث سيختار»، فأجابه القهرمان قائلاً: «هو لن ينام في أي مكان غير القصر الملكي، لأنه هو من أصل ملكي»، فأجابه البواب قائلاً: «ليكن ذلك كما يريد، لكن العادة بالنسبة لنا، أن يسأل الذين يرغبون بالاستضافة هنا، أن يكون ذلك تلطفاً، وليس طلب ذلك بوقاحة، لأن هذا البيت بيت للإحسان».

ولدى سماعه هذا الكلام نظر إليه القهرمان نظرة غاضبة، وقطب جبينه، وقال للبواب: «آية حماقة هذه التي تقولها أنت؟ أين هو الاسطبل لنضع خيولنا»، وبناء عليه دلّه على اسطبل واسع، مكرّس لاستخدام الضيوف، فيه يمكن وضع ثلاثمائة رأس من الخيل من دون صعوبة، وصدف في ذلك اليوم أن بعض الناس ذوي المقتنيات، من رجال دين ومن علمانيين كانوا قد وصلوا إلى هناك للاستراحة، ولإنعاش أنفسهم، ولذلك وضعوا خيولهم في ذلك المبنى، مع علف لهم قد وضعوه أمامهم، ولدى دخول القهرمان المتقدم الذكر بعجرفة وتكبر شاهد الخيول، وخدم الضيوف، فغضب غضباً شديداً، واندفع نحو الحيوانات، وقطع أربطتهم، وبتهديد كبير وعجرفة طرد الخيول والخدم من الاسطبل، ولم يسمح لهم باتخاذ زاوية من المكان على اتساعه يحتمون بها، ولقد توجب على راعي الدير تحمل هذا كله بصبر، كما فعل أسقف ايلاي تجاه الاعتداء والأذى الذي لحق به، وذكرناه أعلاه، خاصة وأن

الانكليز الآن مستضعفين ومداسين تحت الأقدام، في حين أن الأجانب سادة على الجميع، ففي ظل الملك الطاغية، يتجمع كل شيء ويحشر مع بعضه في العراء ويتعرض للخطر وللمطر.

حول الاتهامات التي قدمت ضدّ الفارس روبرت دي لي هو

وخلال العام نفسه، ولدى اقتراب حلول عيد القديسين الرسولين: سمعان ويود (الذي هو العيد الذي يحدد سنوات حكم الملك هنري الثالث) جرى اتهام واحد من الفرسان المتعلمين، وكان اسمه روبرت دي لي هو Ho، الذي كان الملك قد عهد إليه بالوصاية على اليهود، وأيضاً على ختمه، العائد إلى خازن أولئك اليهود المذكورين، اتهامه من قبل الملك بجريمة كبيرة، وهذه الجريمة أنه قام بوساطة صك زائف، حمل أيضاً الختم الذي كان روبرت المذكور الحامل له والوصي عليه، بحكم كونه المتولي لشؤون العدالة على اليهود، قام بايذاء وظلم ابن أحد الفرسان، وكان بريئاً من كل اثم وعدوان، وبناء على هذه التهمة جرى اعتقاله، وألقي به بشكل مهين في سجن مضيق عليه، وجاء هذا الإجراء تجديداً لفضيحة التشهير، التي عانى منها فيليب لوفل، الذي كان وقتها المسؤول عن العدالة على اليهود، وكان ذلك قد حدث في العام المنصرم، عندما وقع في شرك اليهود الأشرار، وهو الذي تمكن الآن بمهارته من الارتقاء إلى وظيفة الحافظ للخزانة الملكية، وعلى هذا يمكن القول بأن «القدرة الربانية قد تسابقت مع شؤون الناس وتبارت».

وحدث على كل حال أنه بتدخل من أصدقاء روبرت المذكور، جرى كشف خبث اليهود وشورهم، وتبرهنت براءته وتأسست، ولذلك أطلق سراحه، لكنه صرف من وظيفة الوكالة، وجرى تغريمه بمبلغ أربعة ماركات من الذهب على الأقل.

حول الإجراءات القضائية لناظر أساقفة إنكلترا

وفي هذه الآونة نفسها، جرى استخدام المعلم ج. ل. الناظر العام لأساقفة إنكلترا في بلاط روما، حيث ترافع بقضيتهم ضد رئيس أساقفة كانتربري، الذي ادعى لنفسه حق الزيارة التفقدية في إنكلترا، مما كان سيسبب أضراراً لا يمكن تحملها للكنيسة الانكليزية، وفي سبيل مقاومة هذا الظلم، دفع المعلم ج. ل. المذكور ستة آلاف مارك إلى البابا، وبهذه الوسائل أمكن منع رئيس الأساقفة من الاستحواذ على حق الزيارة التفقدية الكاملة التي طلبها، واشترط أيضاً أنه ينبغي أن لا يقوم بأية زيارة تفقدية إلى أية كنيسة أبرشية، ما لم تتم دعوته للقيام بذلك من قبل قسيس المكان، ولكن الكنائس الديرية هي وحدها التي لم تعف، ووقتها عند ذلك، ينبغي أن يتلقى مساعدة مالية مقدارها أربعة ماركات فقط، ومن الممكن فهم خصوصيات هذا العمل بوضوح أكبر، بوساطة رسائل البابا، التي أقحمت في كتاب Additaments، وسوف يظهر الفحص الدقيق في مقاصدهم كيف احترم الأساقفة الرهبان في المملكة، خاصة المعفين، وأنه عندما يجري اغضاب الرب، سيكون هناك انشقاق في الكنيسة، سوف ينتج اقفاراً، فيصبح وباء عاماً بين الأساقفة وكذلك بين العلمانيين.

وصول ألبرت موثق البابا إلى إنكلترا

وفي هذه الآونة، في أيام عيد القديس مارتين، وصل إلى إنكلترا المعلم ألبرت، موثق البابا، وهو الذي كان قد جاء إلى هناك أيضاً قبل عامين، عندما كان الملك الفرنسي يستعد لعبور البحر، وذلك بقصد منع ملك إنكلترا باسم البابا من ازعاج أراضي الملك المذكور، بأية طريقة من الطرق، أثناء وجود الملك الفرنسي المذكور في القتال في سبيل الرب، وكان هدف قدومه سرياً بالنسبة لكثيرين في البداية، ولكن بعد ذلك بات السبب معروفاً بوساطة نتائجه، ولقد كان البابا يعرف أن الايرل

رتشارد، أخي الملك، مليئاً بالثروات، وأغنى من جميع رجال الغرب الآخرين، الذين كانوا من مرتبته، (دون أن يتعب نفسه في معرفة كيف حصل على ثرواته) فرتب بدهاء لاختياره من أجل التعيين ليكون ملكاً حاكماً لأبوليا، وصقلية، وكالبرا (قلورية)، وذلك في سبيل أن يقاتل الايرل لصالح البابا، وينفق أمواله على حظوظ للحرب مشكوك بها، وتعريض نفسه للمخاطر الشخصية، حتى يمكن نيل جميع هذه البلدان، من أجل منفعة البلاط الروماني، و أن يجمع الأموال لصالح هذا البلاط ولضرره الذاتي، ويتصرف البابا وعمله على هذه الصورة، اعتمد على كلام الشيطان الذي فيه دهاء وخداع عندما قال: «سوف أعطيك جميع هذه الأشياء، إذا ماسجدت لي وتعبدتني»، ذلك أن البابا كان يعرف بأن الايرل مستحوذ عليه بالنهم مثل المصاب بالاستسقاء، ويعطش إلى الثروة وإلى المفازر الدنيوية، وبهذه الطريقة وضع طعم شصه، ظاناً أنه سيمسكه به بكل سهولة، وعلى هذا ليس عجباً سر لماذا قدم البابا من قبل كثيراً من التشریف إلى الايرل رتشارد في ليون، وعامله وكأنه قريب له، وأبدى سروراً عظيماً بمصاحبتة مما أثار دهشة الجميع، ولم تعتقد أكثرية الناس بأن الايرل سوف يصغي بأي حال من الأحوال لوعود البابا، لأنه لم يكن قوياً بصحته الجسدية، ولم يكن شجاعاً ولا بارعاً في الحرب، ومجدداً لأنه سوف يبدو أنه بدون شرف في أن يسعى لإحلال نفسه محل ابن اخته هنري، وأخيراً لا يمكن لإنسان عاقل أن يقدم ما هو مؤكد ويستبدله بما ليس مؤكداً، لكن البابا اعتقد أن جميع هذه العيوب يمكن تحملها، لابل إنها ليست حتى مزعجة أو مربكة، وينبغي أن يكون معلوماً أنه في اليوم الذي كان فيه الايرل يحتفل مع البابا وقع الملك الفرنسي —بضربة غير موائمة من ضربات الحظ— بالأسر، وقد حدثني بأخبار هذه الوقائع —أنا كاتب هذه الصفحات— الايرل نفسه.

كيف شغل ألبيرت نفسه في سبيل الارتقاء بمصالحه

هناك قول متداول أن المصلي يصلي بشكل أحق إذا نسي نفسه في الصلاة، وكذلك المنصرف للعمل على منفعة واحد آخر، وغير متذكر لنفسه، ولقد قام المعلم ألبيرت الذي كان مقيماً في لندن ينتظر حتى يعطيه الايرل جواباً على رسالة البابا، الأمر الذي أخره، في سبيل تقدير القضية، قام بارسال رسائل إلى كثير من أساقفة انكلترا، التمس من أحدهم أن يهديه مهراً، ومن آخر أن يعطيه منفعة كنيسة، وجعلهم يفهمون أنه لن يرفض قبول أية هدية أخرى يمكن أن يقدموها له، وبذلك فإن المعطي لن يظهر أنه مستخف به من قبلهم، وحصل من كنيسة القديس ألبان — بمثابة عمل معروف وإحسان — على مهر وعلى منفعة أيضاً، على غرار ما يحصل عليه الرومان عادة من مكتب أي أسقف، والذي يعني تقريباً الشيء نفسه.

حول وصول رئيس الأساقفة إلى لندن

وفي ثمانية عيد القديس مارتين، وصل بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري إلى انكلترا، ولدى وصوله ما من أحد شعر بالبهجة، لا بالحقيقة — ونقول هذا مكرهين — شعر الناس بالحري بالانزعاج لوصوله، لأن كل واحد، لابل جميعاً تذكروا كيف تصرف بشكل غير معتاد ووحشي في لندن، وكيف أنه عندما كان هناك قد انتزع من الرهبان حق زيارتهم زيارة تفقدية، وفرض ذلك عليهم، وكيف أنه — علاوة على ذلك — قد أفقر المملكة والكنيسة بطرق كثيرة متعددة، باستخراجه أولاً أحد عشر ألفاً من الماركات، ومؤخراً ستة آلاف مارك، التي جرى فرضها لدى زيارته التفقدية الطغيانية، وكيف أيضاً قد أفقر بشكل كبير كنيسة كانتربري الجلييلة، التي عاشت في ظل حكم عدد كبير من القديسين، وجاء ذلك عن طريق قطع أشجار غاباتها، ووضع الدير تحت قدميه والدوس عليه، ومجدداً كيف أنه أعطى وبعثر بين

الأجانب الموارد الغنية كلها، التي أصبحت شاغرة في أيامه، ولهذا من المعتقد أن البناء الذي يقام على أساسات أرض مستنقعية، سوف يكون بناء ضعيفاً، وهذا — على كل حال — ينبغي أن ندعه لقدر العلي الأعلى.

حول الخلاف الذي نشب بين رئيس الأساقفة والأسقف المنتخب لوينكستر

وقبل ثمانية القديس مارتين مباشرة، في هذا العام، كان هناك كاهن يعمل لصالح الأسقف المنتخب لوينكستر، قد أدخل نفسه في الوصاية على مشفى ساوثويرك Southwark، كان معروفاً بشكل جيد في أسقفية وينكستر، وكان الوصي على ذلك المشفى — الذي يقال بأنه تأسس من قبل القديس توماس الشهيد — قد نال حسبما جرت العادة بين السكان لقب رئيس رهبان، ورأى المعلم يوستاس أوف لين Lynn أن الإجراء المذكور أعلاه فيه تجاوز على حقوقه، لأنه كان من موظفي رئيس أساقفة كانتربري، وبموجب وصايته، كان ينبغي الحصول على موافقته، وقد تمّ تجاهل طلب موافقته تحدياً له، ولذلك حازر الكاهن المذكور مرتين وثلاث مرات حتى يتخلى عن استحوازه على الوصاية، على أساس أن توليه للوظيفة كان مؤذياً، وبمجرد ادعاء، لكن هذه التحذيرات جرى رفض الاستجابة لها من قبل الكاهن، أو رئيس الرهبان كما كان يعرف، وجاء رفضه اعتماداً على استحوازه للمنصب، وبناء عليه قام موظف رئيس الأساقفة بحرمانه كنسياً، لعصيانه وتمرده، وبقي رئيس الرهبان المذكور تحت هذه العقوبة لمدة أربعين يوماً، كان خلالها يتفوه بالتهديدات وبالإهانات، ووقتها لم يعد بإمكان هذا الموظف تحمل ذلك التجبر والوقاحة، فأمر باعتقاله على أساس أنه شخص متسرد، ولدى سماع رئيس الرهبان بهذا، ارتدى ملابس مقدسة للحماية، والتجأ إلى الكنيسة، ولكن الموظفين الذين أرسلوا لاعتقاله، لم يوفروه لتلك الأسباب لأنه بحكم كونه محروم كنسياً، قد أظهر تحدياً لمفاتيح الكنيسة،

ثم أمر موظف رئيس الأساقفة بأخذه إلى ميدستون Maidstone، وكانت عزبة تابعة لرئيس الأساقفة، ليسجن هناك، حتى يتقرر الذي سوف يعمل معه، لأنه أفيد بأن رئيس الأساقفة بات قريب الوصول.

حول الإجراءات الجريئة التي قام

بها الأسقف المنتخب لوينكستر

ولدى سماع الأسقف المنتخب لوينكستر بهذا الإجراء، غضب غضباً تجاوز جميع الحدود اللائقة، وتقدم بشكوى ثقيلة لإخوانه، وكأنه قد عانى من ضرر عظيم وإهانة كبيرة، ولأنه تلقى منهم التشجيع والمشورة، جمع عصابة مسلحة من الفرسان، وأرسلهم مع كوكبة كبيرة من الخدم والأتباع للبحث عن المحرضين على هذا العمل العنيف واعتقالهم، وبناء عليه انطلقوا مع جلبة كبيرة وصراخ، وتوجهوا على الفور إلى ساوثويرك، ظانين أنهم سوف يجدون هناك في ذلك المكان الذين كانوا يبحثون عنهم، ولكن بعدما بحثوا في كل مكان في ساوثويرك، دون أن يعثروا على أحد أرادوه، تابعوا سيرهم بكل سرعة إلى ميدستون، لاطلاق سراح رئيس الرهبان المعتقل، وخرقوا هناك كل حاجز اعترض سبيلهم وفتحوه، وعزموا على تحويل المكان كله إلى رماد، ولما لم يجدوه هناك حيث بحثوا عنه، جرى إخبارهم من قبل واحد من تجار الحكايات بأن موظف رئيس الأساقفة موجود في لامبث Lambeth قرب لندن، فبادروا مسرعين مغادرين إلى هناك على شكل حشد، بعدما أحدثوا أضراراً كبيرة في ميدستون، ووصلوا إلى لامبث فخرقوا الأبواب وفتحوها، أوخلعوها واقتلعوها من أماكنها، ودخلوا إلى كل بيت بشكل فوضوي ومفاجيء، حتى تمكنوا قبل ساعة الغداء من اعتقال الموظف بشكل مهين، ذلك أنه لم يكن متوقعاً مثل ذلك الإجراء، ووضعوه على الفور على ظهر حصان، وأخذوه إلى المكان الذي اختاروه، مثل واحد كان من أكثر المجرمين شرواً، قد جرى

اعتقاله وهو يقترب عمل السرقة، ولم يسمحوا له حتى بإمساك المقود حتى يقود الحصان، ولكم كان إجراءً وقحاً وطائشاً! ولكم افتقروا إلى الاحترام، وأية وقاحة قد تلبستهم حتى قاموا هكذا بمطاردة إنسان صاحب سلطة عالية ومكانة رفيعة، وعاملوه بشكل مهين، فقد كان رجلاً عظيم المعارف، ومشهوراً بشكل مدهش، وهو واحد كان يمثل شخص رئيس الأساقفة؟.

ولقد أهانوا أيضاً، وأساءوا معاملة شماس، كان يقوم بواجبه في البيعة، حتى بعدما فرّ إلى المذبح، وهاجموا مقتنيات الكنيسة بأيديهم المدنسة، وعندما سمع المعلم هنري أوف غنت Ghent الجلبة، استبد به الخوف، وهذا ما كان يحدث بالعادة مع الذين كانوا أشجع منه، ويحذر قام بالنجاة، حتى لا يقع بأيدي الذين كانوا يطلبون حياته، وبعدهما اقترفوا جميع الأعمال الوحشية التي دفعهم غضبهم، أو بالحري سخطهم، لاقترافها، جروا الموظف وسحبوه بمقود الحصان إلى فارنهام Farnham، عازمين على حبسه هناك بالقوة، حتى يتمكنوا من الحصول على معلومات حول سجن رئيس الرهبان، وبعد لأي سمح له بالمغادرة، وجرى طرده بشكل مؤسف ومهين، لكنه كان مسروراً جداً لتمكنه من النجاة من بين مخالبيهم وأيديهم المدنسة، وهرب على قدميه، مع أنه كان رجلاً عجوزاً، ولم يتجرأ على النظر إلى خلفه، حتى لا يعود إلى الاعتقال، وظل يركض حتى وصل إلى ويلرلي Walerle، وهو دير كان تابعاً للسسترشيان، ولدى رؤيته من قبل رهبان ذلك المكان، تساءلوا أي سوء حظ قد ساقه إلى عندهم طريداً ووحيداً، وتلقى هناك — على كل حال — المواساة، وبدأ يتنفس بحرية من جديد.

حول الشكوى التي رفعت إلى رئيس الأساقفة

ولأن الموظفين المعتمدين من قبل رئيس الأساقفة، عانوا من هذا الأذى العظيم، تقدموا مع الدموع والنحيب بشكوى حول قضية

الوقاحة والدناءة التي عوملوا بها، إلى رئيس الأساقفة، مع كمية كبيرة من المبالغة، ولدى سماع هذه الأخبار، كان غضب رئيس الأساقفة أكبر مما يمكن وصفه، وقال متعجباً: «هذه أخبار سيئة نتلقاها لدى أول وصولنا»، وقام على الفور بالانطلاق إلى لندن، آخذاً معه أسقفي شيلستر وهيرفورد، ومن ثم قام في كنيسة سينت ماري —لى— بو - Mary Le- Bow ومعهم الأسقفين المذكورين، وقد ارتدوا جميعاً الثياب الحبرية، بحضور عدد كبير جداً من الناس، كانوا قد دعوه بوساطة المنادي، من أجل منح الذين سوف يحضرون غفراناً لمدة ثلاثين يوماً، ووقتها تفوهوا بشكل مهيب بقرار عقوبة الحرمان الكنسي الرهيبة، ضد جميع الذين شاركوا باقتراف ذلك العمل الطائش وحرصوا عليه (فقط باستثناء الملك والمملكة وأولادهما، والايكل رتشارد، وزوجته الكونتيسة وأولادهما) ثم كتب رئيس الأساقفة إلى جميع الأساقفة المساعدين التابعين له، يأمرهم بكل دقة، بحكم فضيلة الطاعة التي يدينون بها لكنيسة كانتبري، أن يفعلوا الشيء نفسه في كنائسهم في كل يوم أحد، وفي أيام الأعياد.

ومن الجهة المقابلة أمر الأسقف المنتخب لوينكستر، على الفور عميد ساوثويرك وبعض الآخرين الخاضعين له بمعارضة رئيس الأساقفة بوجهه صراحة، وأن يعلنوا على الناس أن قراره لاغياً وفارغاً وطائشاً، وأن التعليل الذي اتخذ كان خاطئاً وزائفاً، ووقتها ترفع حزب رئيس الأساقفة إلى الحبر الأعظم حول هذه الالهانة، وحول الفضيحة التي نشأت عنها، وقد كان هناك بالحقيقة بعض الناس الذين لم يقفوا إلى جانب أيّاً من الحزبين، وبعض الذين قالوا بأن من الواضح أن رئيس الأساقفة أضر بالأسقف المنتخب، وفي سبيل إنهاء هذا الخلاف تقرر وضع ترتيبات بين الحزبين، وتم الاتفاق أن الدير المتقدم الذكر يصبح معفياً من لقب الولاية، وأن يصبح خاضعاً لإدارة أسقف وينكستر، وأن

يدفع ثلاث شلنات سنوياً بمثابة اعتراف بالخضوع، وبذلك نالت كل طائفة من الطائفتين اسماً سيئاً، وجنت الملامة، والأذى، والتصرف العنيف، وفي الوقت نفسه تذكر سكان لندن الوقاحة التي أبداهها رئيس الأساقفة، في إجراءاته العنيفة في تلك المدينة، واستعادوا إلى الذاكرة مبلغ الاستخراجات الضخمة التي كان سببها، وتذكروا أيضاً طيش الملك في إيجاده، واسهامه غير الاعتيادي في منفعة، ومن جانب آخر حصلت شيعة الملك، أي الوافدين من البواتيين، على تهمة الغدر والخيانة، التي هي بالحقيقة، فطرية فيهم، وذلك مع الملامات الأخرى، حسبما هو معتاد مع الذين يتقدمون بالشكاوي، وكان هناك الكثير من المواطنين الذين رغب بعضهم أنهم لو تمكنوا من تحطيم رؤوس بعضهم واستخراج المخ منها، ورغب بعضهم الآخر أنهم لو استطاعوا تمزيق أحشاءهم من أجسادهم لفعلوا، وذلك حسبما كتب: «ويل له — أولهم — الذي من خلاله يأتي الذنب»، وبات الفريقان عرضة للخطر من الازدراء والفضيحة التي نشأت، وهكذا تحزب أصدقاء الملك وصفوا أنفسهم ضد جماعة الملكة، أي البواتيين ضد البروفانسيين الذين سكروا حتى الشمالة بسبب ممتلكاتهم الواسعة، والذين أنزلوا غضبهم على الانكليز النائمين، وكأنهم كانوا يتبارون فيما بينهم حول أيهم ينبغي أن يحصل على السيادة في المملكة، في سبيل رفع شأن أبناء جلدته، وجرى على كل حال تداول تقرير، أدان بالحري البواتيين، لأن الأسقف في تجربته قد تجاوز جميع الحدود في الوقوف في وجه رئيسه، معتمداً على أخيه الملك، الذي والله يعلم، قد أوجده ليكون حيث هو الآن، وبشكل خاص لأننا — كما ذكرنا من قبل — قد فقدنا بواتو من خلال خيانة أبيه.

كيف ذهب رئيس الأساقفة إلى اكسفورد

ثم إن رئيس الأساقفة بونيفيس أخفى الغضب الذي شعر به، مثل النار تحت الرماد، وقام بناء على تحريض من المعلم يوستاس، الذي كان

قد تأذى أكثر من سواه، وحزن كثيراً في هذه القضية، فأصر على القيام بانتقام موائم لهذا العدوان الكبير الذي لحق به، ومع هذه النية أسرع بخطاه نحو أكسفورد، في سبيل أن يجعل معلوماً لدى الناس أخبار هذا الإجراء الشائن، وبشكل خاص إلى جماعة الباحثين الذين احتشدوا هناك للدراسة من أنحاء العالم، ولكي يقوم هؤلاء أيضاً بحكاية روايات عن هذا الاثم العظيم ونشرها بين أقصى أمم الأرض، وعندما وصل إلى المدينة، استقبل من قبل حشد كبير من الكهنة وقد ارتدوا أجمل الثياب وأكثرها أناقة، وقد امتطوا على ظهور خيول مجهزة بشكل فخم، وقد رحبوا به بالهتافات مع كل مظاهر التبجيل والاحترام، لأنهم شعروا أنهم يستقبلون رئيساً للأساقفة هو الأول على الجميع في انكلترا، وهو أيضاً مشهور جداً بأصالة نسبه، ثم أكرموا بعد ذلك باحتفال كانت فيه وفرة عظيمة من اللحوم والمشروبات، وعندما تعرف رئيس الأساقفة بالتجربة ومعه كهنته البروفانسيين الكسولين إلى ذكاء وفصاحة تلك الجماعة، وإلى سلوك أفرادها المثالي، وإلى نظام ألبستهم، وإلى دقة تصرفاتهم، كانوا مرغمين على الاعتراف بأن جامعة أكسفورد تستحق أن تكون نظيرة لجامعة باريس.

الإعلان عن القرار ونشره في أكسفورد

وفي اليوم التالي الذي أعقب يوم عيد القديس نيقولا، قام رئيس الأساقفة بحضور كهنة الجامعة الذين اجتمعوا لتلك الغاية بوساطة قرع الناقوس العام، فحكى لهم بشكل مكشوف تفاصيل العمل الوقح الذي تجرأ الأسقف المنتخب لوينكستر على اقترافه، ومعه إخوته ومعاونيه، الذين استمدوا جرأتهم من ثقتهم بتأييد الملك، وكذلك أعلن بالتحديد عن أسماء المجرمين، وأعاد تلاوة قرار الحرمان الكنسي المتقدم ذكره، وهو القرار الذي ورد بالتفصيل في الرسائل التي بعث بها رئيس الأساقفة إلى جميع أساقفته المساعدين، وورد في هذه الرسائل أسماء

المجرمين بالكامل، وإذا مارغب أي إنسان برؤيتهم، عليه البحث في كتاب Additaments المحفوظ في كنيسة القديس ألبان، والذي فيه جميع التفاصيل المتعلقة بالموضوع، هذا وكان واضحاً إلى كل واحد، وإلى الجميع بأن الأسقف المنتخب مع إخوانه كانوا المقترفين لتلك الآثام.

موت بلانشي ملكة فرنسا

وفي هذه الآونة، أي بالتحديد في الأحد الأول لعيد ميلاد ربنا، الذي وقع في اليوم الأول من الشهر، توفيت سيدة السيدات في هذه الدنيا، بلانشي، أم الملك الفرنسي الوصية على مملكة فرنسا، والحامية لها وملكتها، وقد غادرت هذه الحياة، بمثابة سيدة تقية مخلصة، حتى تتمكن باحترام من مقابلة مولانا يسوع المسيح لدى قدومه، وشكلت وفاتها خسارة كبيرة ومصدراً للحزن لفرنسا كلها، فهي كانت قد عانت من أحزان كثيرة مبكرة، كان من بينها موت زوجها الملك لويس، الذي سلب منها وهي في عز شبابها، تاركاً المملكة الفرنسية معتمدة عليها، وهي قضية لم تكن سهلة التناول، وكان مرض ابنها وضعفه، وحمله للصليب، وحجه، الذي قرر أن لا يعود منه، ثم أسره من قبل المسلمين آثاره عليها، وهذه وقائع تستحق البكاء والنحيب من قبل جميع المسيحيين، وكذلك الفرار المهين لروبرت كونت أوف ارتوي وماتلاه من موته غرقاً، ومجدداً المرض غير القابل للشفاء لابنها ألفونسو، كونت بواتو، وأخيراً الأخبار التي حملت إليها وتحدثت بأن ابنها الأكبر، الملك الفرنسي، الذي كان يقاتل في سبيل الرب في الأرض المقدسة، قد عزم على البقاء هناك طوال حياته، وأن يموت هناك، وأن يحصل بذلك على المملكة السماوية، عوضاً عن مملكته الأرضية، وبذلك تلاشت تلك السيدة بلانشي التي كانت الأكثر نبلاً، في عزلتها، وماتت قبل أوانها، وبذلك حرم أولادها الأمراء الذين تقدم ذكرهم من عاطفتها التي

أوقفتها عليهم، وعندما رأت أن موتها بات وشيكاً، تركت أوامر بأن يدفن جسدها في دير للراهبات في بونتوي Pontoise كانت هي التي قد أسسته وبنته بشكل فخم جداً، وفي الحقيقة كانت قد أصبحت قبل موتها راهبة محترفة، ولبست الحجاب، الذي وضعت فوقه التاج، كما أنها ارتدت أثواب الملكة، وبهذه الحالة وهذا الشكل من ارتداء الملابس دفنت بشكل لائق، وهكذا فعلت السيدة النبيلة بلانشي، التي كانت امرأة من حيث الجنس، لكنها كانت رجلاً بالآراء، وواحدة تستحق المقارنة بسميراميس، وقالت وداعاً للدينا، تاركة الملكة الفرنسية بدون راحة، وفارغة من كل مواساة.

حول الموارد الهائلة لجون مانسيل

وخلال هذا العام، ابتسم الحظ كثيراً لجون مانسيل، الذي كان المستشار الرئيسي للملك، فأصبح غنياً جداً، حتى أن دخله السنوي قد جرى تقديره أنه قد وصل إلى أربعة آلاف مارك، بما في ذلك سبعمائة مارك جرى جمعها مؤخراً من قبله، وفي الحقيقة ليس معروفاً في أيامنا أن كاهناً غيره قد ارتقى إلى مثل تلك الحالة من الغنى، وكان ذلك مصدراً لدهشة عظيمة، ومحط تساؤل لدى الذين يعرفون الأشياء التي هي عائدة للرب، وأن رجلاً واعياً مثله لم يخف من تولي العناية بعدد هائل من الأرواح، في وقت كان الأمر فيه واضحاً أنه كان عليه أن يقدم حساباً عنهم جميعاً أمام القاضي الأعظم، وهذا في الحقيقة يؤكد ماكتب أو جاء تصديقاً لما قيل: «هناك كثير من الناس يعرفون أشياء كثيرة، لكنهم لا يعرفون أنفسهم تماماً».

كيف قام أسقف لنكولن بإحصاء موارد الأجانب في إنكلترا

ووصل أثناء هذا الوقت كله شره الرومان إلى درجة عالية جداً من الضخامة، إلى حد أن روبرت أسقف لنكولن، الذي اعترته الدهشة تجاه

ذلك، أمر محاسبه بالقيام بإحصاء لموارد الأجانب في انكلترا، ولقد تبين أن البابا الحالي، انوسنت الرابع قد أفقر الكنيسة المسكونية أكثر من جميع أسلافه، منذ التأسيس الأول للبابوية، فموارد الكهنة الأجانب الذين جرى تعيينهم في انكلترا من قبله، مع الذين صاروا أغنياء بوساطة كنيسة روما، بلغت أكثر من سبعين ألف مارك، وأحصي الدخل الصافي للملك، فوجد أنه لا يتجاوز ثلث ذلك المبلغ.

حول معاناة رهبان طائفة السسترشيان في إنكلترا

ووجد الملك في هذا العام أن الخلافات التي تفجرت بين النبلاء حول مطاردتهم، قد تسببت بالحصول على زيادة كبيرة لخزائنه، مع أن ذلك جاء بطريقة مهينة ومخجلة، وقد حدث عن طريق المصادرة التي نالوها، ولهذا أمر بالاعلان بوساطة المنادي، في الأماكن العامة، مثل الأسواق، أن كل من يرغب بالحصول على مطردة، ينبغي أن يتحدث إليه مباشرة حول الموضوع، وأنه لدى دفع مبلغ من المال، تتوجب الاستجابة لطلبه، وبذلك جرى تدمير حقوق وامتيازات عدد كبير من الأشخاص، وهي التي كان قد منحها بصكوك قديمة، وتأكدت بالاستخدام، وبين كثيرين، اعتقد راعي دير ويردون Waredon مع رهبانه، أنه سوف يكون مفيداً لهم امتلاك مطرد، لأن خدم جيرانهم من النبلاء قد حطموا تخومهم وعاثوا فساداً في حقولهم المبدورة، وداسوا على محاصيلهم، وأهانوا الرهبان واعتدوا عليهم، وهم الرهبان الذين تولوا أعمال الزراعة، وكانوا مسؤولين عن الحقول، وبناء عليه دفعوا المبلغ المطلوب من المال، وحصلوا على حق مطردة من الملك، وقد بدا هذا — على كل حال — لوليم بيوشامب Beauchamp انتقاص لحقه وامتياز، ولذلك استولى على مواشيهم، وقتل وجرح عدداً من رهبانهم، كما تولى بطرائق أخرى إلحاق الأذى بهم، لأنه كان قد تعلم بناء على تحريض زوجته (لأنه كان رجلاً مفتوناً بزوجه وخانع

لها) أن يشنّ حرباً ضدّ الرهبان، وليس ضدّ الفرسان، وهكذا فإنه منذ اثني عشر عاماً، استمر بمضايقة الكهنة النظاميين في نيوهام -New ham وظلمهم، حيث برهن عن نفسه أنه كان قاسياً مثل الصخر نحو أولئك الذين توجب أن يكون ولي نعمتهم وحاميهم، وبطريقة مماثلة أيضاً، تصرف بطرس أوف سافوي، الذي أمدته صداقته القوية مع الملك بالجرأة والوقاحة، حيث أقدم دون أن يخاف على تعطيل منافع النبالة القديمة، وخرق النظام القائم للأشياء، ولم يتوقف لمدة عشرة أعوام متتالية عن اضطهاد الدير المقدس في جيرفولكس Jervaulx وهو مؤسسة تابعة لطائفة السسترشيان في شمالي انكلترا، تأسست من قبل وبنيت مع فخامة كبيرة من قبل آبائنا الأتقياء الأوائل، وكان الملك متهماً تجاه جميع هذه الأعمال، وقد عبر بهم وتجاوزهم من دون عقوبة، لأنه بالسماح لهم على هذه الصورة، أصبح طرفاً راضياً، وأما الذين اقترفوا مثل هذه الجرائم، فقد احتفظ بهم من أجل زيارة تفقدية أكثر حدة يقوم بها الانتقام الرباني.

مختصر أخبار العام

وهكذا على هذه الصورة عبر هذا العام، منتجاً للقمح بشكل متوسط وكذلك للفواكه، قاسياً فيما يتعلق بالمرض المميت بين المواشي، ولكي نجمل باختصار أوضاع الشؤون البشرية، كان عاماً مضطرباً بالنسبة إلى جميع بني البشر، وفي الأحوال المضطربة هذه، خاصة بين الشرقيين، كان الأسر غير السعيد للملك الفرنسي، وهكذا نحن نشاهد عندما تلقي عظمة بين مجموعة من الكلاب المتلقفة، يسعى كل واحد منها إلى التقاطها وامساكها، وأثناء صراعهم يقتاتل كل واحد منهم الآخر، وهكذا يتصارعون في سبيل عض عظمة، فيعض أحدهم الآخر وتبقى العظمة دون أن تلمس، وكانت الامبراطورية في وضع خطر، مثل مركب من دون ربّان، وجردت المملكة الفرنسية من حكامها،

وباروناتها، وأسلحتها وأموالها، ولم تندب قط من قبل مثل هذه الحالة من الاضطراب والهجران، وديست انكلترا تحت أقدام الأجانب، فحنت رقبتها إلى كثير من السادة، وحرمت من العاطفة الصادقة للملكها، وخضعت إلى أخس الأحوال، وأخذت تتلاشى في يأس وقنوط، والذي كان أعظم سخطا هو البغضاء المميتة التي كانت قائمة فيما بين الكنيسة والناس، حيث ازدادت يومياً.

كيف احتفل ملك إنكلترا بعيد الميلاد في وينكستر

في عام ألف وواحد ومائتين وثلاثة وخسين، الذي وافق العام السابع والثلاثين من حكم الملك هنري الثالث، كان الملك المذكور في وينكستر أيام عيد الميلاد، حيث أقام الاحتفالات بميلاد ربنا وسط أبهة كبيرة.

حول تطويب بطرس الذي كان واحداً من طائفة الدومينيكان

وفي هذه الآونة أيضاً وصل إلى هنا بعض الرسل إلى عند الملك وإلى عند بعض النبلاء، حيث جلبوا معهم أخباراً، بأن واحداً من رهبان الدومينيكان اسمه بطرس، عندما كان يعظ في ميلان، وينتقد من دون خوف الميلانيين بسبب شرورهم وذنوبهم، أو بالحري هرطقاتهم، جرى قتله سرا من قبلهم لتأكيد الحقيقة، وبذلك حصل على الشهادة بمثابة مكافأة، على تصرفه على هذه الشاكلة، ولكي لا يبقى نور الحقيقة خفياً لمدة طويلة تحت المكيال، جعله الرب معروفاً فوق البقعة بوساطة معجزات، وعندما تسلم البابا معلومات كاملة حول ما حدث وحول المعجزات قام على الفور بتطويبه وسط أبهة عظيمة.

كيف انتخب الرومان برانكليون شيخاً لهم

وذكر الرسل الذين تقدم ذكرهم أيضاً، بأن الرومان قد انتخبوا في شهر آب شيخاً جديداً اسمه برانكليون Brancalion، وكان مواطناً من بولون Boulogne، وكان رجلاً صادقاً ومستقيماً،

وكان جيد المعرفة في القانون، كما كان إنسانا من المستحيل أن يوافق، بأي حال من الأحوال، على انتخابه ذاتيا، مالم يكونوا قد أعطوه ضمانات ببقاء سلطة الشيخ مضافة عليه لمدة ثلاثة أعوام، وذلك على عكس قوانين المدينة، وعلاوة على ذلك طلب من كل مواطن صاحب نفوذ ضمانات معتدلة، ومن عامة أهل المدينة أداء قسم بأنهم سوف يطيعونه باخلاص بمثابة شيخ لهم، لأنه كان على دراية تامة بتمرد الشعب الروماني الذي غالبا ماخرج وثار لأقل الأسباب والمناسبات، وبعدها تم الحصول على موافقته، وجرى استقباله من قبل المواطنين والناس، فرض عليه شرط لايمكن خرقه، بأنه يتوجب عليه أن يحكم المدينة وسكانها بعدل، وإلا فإنه لن يسمح له بالعودة إلى بولون بجسم صحيح، وعندما جرى أخيرا تنصيبه شيخا لمدة ثلاثة أعوام، أمر ببعض المواطنين الذين كانوا مشهورين بالقتل، والذين أدينوا لإقترافهم هذه الجريمة نفسها، بأن يجري شنقهم على نوافذ قلاعهم، كما أمر ببعض الذين كانوا عصاة بتعليقهم على أعواد المشانق.

كيف أرسل شعب وينكستر هدية فخمة إلى الملك

وعندما كان الملك على وشك تناول وجبة طعام أثناء الاحتفال بعيد الميلاد، كما تقدم الذكر، أرسل إليه سكان وينكستر هدية فخمة جدا من الأطعمة والأشربة، قد أثارت إعجاب جميع الذين شاهدوها، وقام الملك، حتى يقدم إليهم الشكر، بفرض عليهم أن يدفعوا مائتي مارك خلال مدة وجيزة من الزمن، مع أنه كان قد ولد في ذلك المكان، وهكذا انقلب الاحتفال بالميلاد إلى أسف ونحيب بالنسبة إليهم، ولم يقم الملك وزنا لهذا، وشغل نفسه بالاحتفالات، لكن بما أن سرور هذا العالم نادرا ماضي من دون منغصات، فإنه مع الضيوف قد غضبوا بسبب القرار الذي أصدره رئيس الأساقفة ضد الأسقف المنتخب لوينكستر، الذي كان مضيف الملك، وضد جميع أعوانه، لأن الأسقف المنتخب لم

يكن قد جرى تحليله بعد، كما لم يتم قبوله لنيل قبلة السلام، مع أن مصالحة كانت قد أقيمت بين الطرفين، وتمّ في ثمانية عيد الغطاس بوساطة التدخل الفعال للملك والملكة - الملك لصالح أخيه الأسقف المنتخب، والملكة لصالح عمها رئيس الأساقفة، مع الذين كانوا مهتمين في تحقيق مصالحة أكثر من سواهم، لأنه أفيده بأن وليم أوف بلنسية، وجون دي وارني Warrenne، كانا متورطين في ذلك العمل من العنف - من التوصل إلى مصالحة كاملة بين الأسقف المنتخب وبين رئيس الأساقفة، وعادا إلى تمام المودة، وقبل الأسقف المنتخب لنيل قبلة السلام من رئيس الأساقفة، لأنه أقسم بشكل علني بأنه لم يعط قط موافقته، على تلك الإجراءات العنيفة، وأنه لم يكن أبدا راضيا بهم، لكن جرى تنفيذهم من دون معرفته، وضد رغبته، وبذلك جرى تحليل الأسقف المنتخب من قرار الحرمان، وفي سبيل عدم بقاء أي أثر للغضب بسبب ذلك الخلاف، تمتع جميع الذين شاركوا في تلك الإجراءات العدوانية، بمنفعة التحليل الكامل، وبات على هذا واضحا كل الوضوح من خلال خاتمة هذه القضية، وحيث تمّ تجاوز جميع المضار التي تقدم ذكرها، دونما عقوبة، وعفي عنها، مدى اهتمام الأساقفة والآخرين وإخلاصهم لإعادة تأسيس السلام بين هاتين الفتتين، وأن القضية جرى ترتيبها، بدون شك لأن الملك قد وعد دوما في إظهار نفسه محبذا لجميع الذين كانوا الواسطة في تحقيق هذه المصالحة، وأنه ميال دوما لتلبية رغباتهم، ولذلك حملوا أنفسهم بثقة أكبر للقيام بمناقشة الشؤون الصعبة التي تقدم ذكرها، أي منح المساهمة التي تقدم ذكرها أعلاه، شريطة مراعاة شروط «الماغنا كارتا»، وتوصلوا أخيرا، وبعد كثير من المناقشات إلى قرار بالموافقة، لكن ليس على الاسهام الكبير حسبما جرى طلبه، بل على منح مبلغ محدد، وتقديمه تطوعا، مع مساعدة فعالة إلى الملك، إذا ما قام، حسبما وعد مرارا بالإقلاع عن إلحاق الأذى بالكنيسة وظلمها، وفق الطريقة التي اعتاد أن

يعملها، وأن يصغي إلى الآراء المفيدة لرعاياه الطبيعيين، الذين ضغطوا بالحاج عليه ليفعل ذلك، وتضرعوا حتى يستجيب لهم، ورد الملك على هذه الاقتراحات بالترحيب، وأضاف أنهم إذا ما وجدوا من خلال تقصي صحيح واكتشفوا، وكتبوا إليه بشكل سري وخاص حول قضايا كل تجاوز، هو سيقوم بعمل كل ما هو ضروري من اصلاحات، وجرى تحديد يوم لنشر جميع الشكاوى، حتى يتمكن بمشورة الجميع بشكل عام، من اصلاحهم وتقويمهم جميعاً، ولذلك شعروا بآمال كبيرة بأن الملك سوف يتجاوب بكرم منه مع جميع رغباتهم، لأنهم قاموا عند التقدم بهذا الطلب المستعجل بغفران جميع ذنوب أخيه، الأسقف المنتخب لوينكستر، كما تقدم ذكر ذلك، وأعادوا تأسيس السلام تماماً، لأنه حمل الصليب، وقد تطلب مثل هذا العمل التواضع والاستقامة والعدل، وبسبب أنه بات في سن أكثر نضوجاً، ومجدداً لعله يتعلم وينال التوجيه والدرس من مثل أبيه، وأخيراً بسبب أن الكنيسة قد وعدته الآن عن طوعية بالمساعدة، وتوفرت هناك عدة أسباب كثيرة تعلق رضوخه ورضاه، واقدامه بسرعة على الازعان لمطالبهم، وإن واحداً من الأسباب الأكثر إقناعاً هو الذي رأينا من الموائم اقحامه في هذا المجلد:

في الأيام التي كان فيها القديس ادموند يحكم كنيسة كانتربري، جرى منح الملك واحداً من الاسهامات، وجاء ذلك بناء على طلبه، وقد أقسم (واضعاً يده اليمنى على الأناجيل المقدسة، وممسكاً شمعداناً شموعه مشتعلة بيسراه، أثناء إملاء رئيس الأساقفة المذكور صيغة القسم عليه) أنه سوف يقوم من ذلك الوقت فصاعداً، من دون تعليقات بمراعاة أحكام الصك الذي جرى منحه مرارا إلى رعاياه من دون خرق، وأنه لن يسمح لنفسه بالتورط في شباك أية تصريحات زائفة تصدر عن أي مستشار ماهر خادع، وفي ذلك الوقت أيضاً، التحق عدد كبير جداً من الأساقفة الذين كانوا موجودين وقتها، برئيس الأساقفة، وهم يحملون

شمعدانات شموعها مشتعلة، وشاركوه في إنزال عقوبة الحرمان الكنسي بكل واحد سوف يخرق الصك، أو يقوم بتفسير ماورد فيه بشكل خاطيء، وتأكيداً على الموافقة على القرار الذي جرى التفوه به، قام جميع الذين كانوا هناك، حتى الملك نفسه، فرددوا مؤمنين قائلين: «ليكن ذلك هكذا، ليكن ذلك هكذا»، ثم جرى إلقاء الشموع واطفائها، حيث صدرت عنها رائحة بشعة أدت أناف الذين شموها ممن كانوا واقفين هناك، وبناء عليه ردد رئيس الأساقفة قائلًا: «وهكذا ومثل هذا تهلك النفوس المدانة، وتصدر عنها مثل هذه الرائحة البشعة، أي نفوس الذين سوف يخرقون الصك المذكور، أو يفسرونه بشكل خاطيء»، وقام الملك بحماس أكبر من حماس الآخرين، وردد مراراً بصوت مرتفع قوله: «آمين، آمين»، وجرت هذه الأعمال في بيعة القديسة كاترين في ويستمنستر، ولم يقيم الملك على كل حال، حسبما قرأنا في العهد القديم، في قضية بعض الملوك الحمقى، بتدمير الأماكن العالية، بل جمع المال، وبدده بتبذير، مع أنه جمعه ضد القرار العام، ووفق الطريقة نفسها تصرف مرة ثانية، والآن من جديد، في العام الحالي، ولكن بما أن هذا التصرف عمل أحمق وفيه اسراف، وقد جرى تكراره مراراً، لايمكن (مما نأسف له) عدّه إثماً عظيماً.

مغادرة المعلم ألبيرت

وكان المعلم ألبيرت ينتظر الآن الحصول على جواب للرسالة يحمله إلى البابا، وقد قام الآن بالاستعداد لعودة سريعة إلى الوطن، لأن البابا لن يعطي بأي شكل من الأشكال مساعدة إلى الايرل رتشارد من ماله، أو سيعطيه قلاعاً ليتخذ منها مقراً له، أو رهائن عليهم يمكن أن يعتمد وهو واثق، ولذلك استمع الايرل رتشارد إلى النصيحة الأكثر حكمة، وإلى اقتراحات صديقه كونراد، وبقي هادئاً، ثم إن البابا عندما وجد نفسه غير قادر على اضعاف حذر الايرل وكثرة شكوكه، التفت إلى

استخدام الحجاج الأكثر مخادعة، مع نية أن يستغل بساطة أخي الايرل وسذاجته، أي الملك، ولسوف نوضح في الصفحات المقبلة، مدى النجاح الذي حققه في هذه المسألة.

حول طرد اليهود من المملكة الفرنسية

ووصلت في هذه الآونة أوامر من الملك الفرنسي الذي كان موجودا في الأرض المقدسة، قضت بوجوب إخراج جميع اليهود الموجودين في مملكة فرنسا وطردهم، وإدانتهم بحكم نفي دائم، مع — على كل حال — الاستثناء التالي: «لكن كل من كان منهم راغبا في الإقامة، إذا كان تاجرا أو حرفيا، عليه اشغال نفسه بالتجارة وبالحرف»، لأنه قد ألح إلى ذلك الملك من قبل المسلمين، بأننا نمتلك قليلا من الحب أو الاحترام لمولانا يسوع المسيح، لأننا سمحنا لقتلته بالعيش بيننا، وبناء عليه بادر السماسرة بكل سرعة فاستولوا على أماكن ومكاتب ووظائف اليهود المنفيين.

موت راعي دير القديس أوغسطين في كانتبري

وفي هذه الآونة، كان أيضا راعي دير القديس أوغسطين، على وشك الموت، فقام الملك حتى يظهر كم كان قليلا مانواه من أجل احترام صك الحقوق الذي تقدم ذكره ورعايته، قام باستخدام زبانيته، بنهب مقتنيات تلك الكنيسة، إلى حد تدميرها النهائي، ومن دون حياء أو خجل خرق البنود الأخرى للصك نفسه، ونفس عن غضبه وأظهره ضد الأساقفة، والنبلاء، والمواطنين في لندن، وقام رهبان ذلك الدير، فركزوا جهودهم بكل سرعة لانتخاب قائد جوقة المرتلين حتى يكون راعيا لديرهم، في سبيل وضع حد لعمل السلب ذاك، ووجد هذا بعد انتخابه صعوبة حتى استطاع تجهيز نفسه بالضروريات اللازمة مما هو موجود في تلك الكنيسة، وذلك بعدما دفع غرامة إلى الملك، وبما أن

ثروة الكنيسة جرى تبديدها على تلك الصورة، وجد الرهبان صعوبة في الانفاق على عيشهم لمدة خمسة أعوام تالية.

حول الخسارة والإهانة التي ألحقت

بكنيسة القديسة مريم في يورك

وحوالي هذا الوقت نفسه، عانى راعي دير القديسة مريم في يورك، ورهبان كنيسة الدير نفسه من خسارة ثقيلة، ومن إهانة كبيرة، وذلك بموجب أحد الصكوك الذي حكم بأنه كان لاغياً من قبل خصومهم، الذين كان المقدم بينهم جون الفرنسي، وكان محاسباً لدى متسلم خزانة الملك، وفي الحقيقة كان من المعتقد، أن حقيقة الأمر هو هذا جون نفسه، الذي كان قد ولد في الشمال، كان متشوقاً وراغباً في أن يزيد موارده في هذه المناطق، اعتماداً على ممتلكات تلك الكنيسة ومن خلالها، وهو لذلك حقق الوصول إلى تلك النتيجة، مع تقدير قليل لصالح نفسه، وذلك حسبما كتب: «ويل للإنسان الذي من خلاله جرت أية فضيحة»، ثم إن الرهبان أرغموا على دفع مبلغ ضخم من المال إلى الملك، وعلاوة على ذلك لقد فقدوا إلى الأبد أراضيهم ومواردهم الغنية، وجنوا عاراً لا يمكن غسله، وأخيراً تفرقوا، وفي الوقت نفسه آلت حال تلك الكنيسة إلى الاضطراب، وتركت عرضة للخوف والدمار، وبطريقة مماثلة أيضاً، وللسبب نفسه، تسبب جون، المضطهد المتقدم ذكره (الذي حرمه الرب المنتقم من إحدى عينيه، لآثامه المتقدم اقترافها) بخسارة لا يمكن تعويضها، ودمار لا يمكن جبره للدير الموجود في سلباي Selby.

استباحة مدينة تيفولي من قبل الرومان

وفي هذه الآونة أيضاً، قام الرومان، بسبب وقاحة سكان مدينة تيفولي Tivoli وتجبرهم باستباحة تلك المدينة، حتى أوصلوها إلى حالة

الدمار، وأرغم السكان نتيجة لذلك، ولكي ينقذوا حياتهم، على الذهاب إلى روما عراة حفاة، يرجون الرحمة.

حول زواج إيرل غلوستر من ابنة أخي الملك

وفي هذا العام أيضاً، وبناء على خطط البواتيين الذين حلوا محل الانكليز المحليين، ورغبة منهم بانحطاط جميع نبلاء المملكة، وبهذه الطريقة تدمير جميع الأسر الشرعية الانكليزية، حتى يمكن تدميرهم نهائياً، ولمزج دمهم النبيل مع الدم الفاسد للأجانب، وقد شعروا بالأسى لأن من بين النبلاء لم يتلوث رتشارد إيرل أوف غلوستر وولده بهذا المصدر السام، وكان هذا الايرل شاباً، ووسياً، وفصيحاً، وحكياً، وبارعاً في قوانين البلاد، ولذلك كان من جميع الجوانب موضع أمل جميع نبلاء انكلترا، وعليه رست بثقة جميع هذه الآمال، وقد امتلك الخطوة لدى الجميع، مع طيب الرغبات، لكنهم كانوا مخدوعين جميعاً في آمالهم هذه، لأن الشر، والنهم الذي كان مخفياً منذ مدة طويلة لديه، قد انكشف الآن وظهر تماماً، مما أساء كثيراً إلى نبالته، وقد شعر الملك آنذاك بنهمه (لأن الايرل كان تحت وصايته لسنين طوال)، ولذلك خاطبه قائلاً: «عزيزي الايرل، لن أخفي عليك بعد الآن الرغبة السرية لقلبي، وهي أن أرفعك وأغنيك، ولأن ارتقي بمصالحك، بتزويج ابنك الشرعي الأكبر سناً من ابنة غي كونت أنغوليم، الذي هو أخي لأمي، وإليك سوف أبرهن عن سخائي باعطائك خمسة آلاف مارك، بها يمكن أن ترتقي زوجة ابنك إلى مستوى يتماشى مع المستوى الملكي، وذلك كما هو لائق بسيدة من أصل ملكي»، وبموجب هذه الإثارة، ثم لتوفر النهم (الذي هو وحده بين جميع الشرور يمثل العبودية للأصنام) أصبح الايرل منذ تلك اللحظة منحطاً، وسقط من النبالة لأجداده، وأعطى موافقته على المال، وكأنه كان تاجراً أو مرابياً، نعم لقد وافق على أن يتزوج ابنه الشرعي ووريثه من فتاة، أو بالحري من طفلة، كانت خالية

من الإيمان والجمال (فهذا ما يمكن استخلاصه فرضيا من الشكل المعهود للبواتيين)، وهي قد ادعت التحالف مع الفضائل الملكية، إنما في بعض المناسبات، وحسب المقتضيات، وبما أنه لم يكن ذلك المال المتقدم ذكره متوفرا بين يديه، أي الملك (لأنه عهد لنفسه بعادة تبديد الأموال التي كان ينهبها في جميع الاتجاهات) قام بالرجاء — لكن بطريقة ملكية — إلى رعاة ديرة: القديس ألبان، وردنغ، وولثام، بأن يكونوا الكفلاء له عند ايرل غلوستر من أجل دفع المبلغ المتقدم ذكره، وكان هذا لا يمكنهم قبوله ولا أيضاً رفضه، لأن من الذي يمكنه ارغام الملك على الدفع، إذا ماقاوم؟ كما أنه التمس بتوسل من الاستتارية والداوية التعهد بالقيام بذلك الواجب، وقد رفضوا بشكل مكشوف أن يفعلوا ذلك، وأعلنوا أنه ليس بمقدورهم القيام بذلك، فأصبح الملك غاضبا، وتفوه بتهديدات مرعبة ضدهم، وأثناء غضبه صرف الراهب روجر الداوي وعزله من وظيفة جمع الصدقات، وطرده من بلاطه، وفي مناسبات أخرى نصب عندما تأتى له ذلك شباكه الماكرة للداوية والاستتارية، وبالإضافة إلى ماتقدم كان الملك مدانا بمبلغ كبير من المال إلى سيمون ايرل ليستر، لتخليه عن صك الولاية الذي كان بين يديه من الملك، والذي ولاه بموجبه حكومة غسكوني لمدة خمسة أعوام.

كيف ادعى ملك إسبانيا الحق في غسكوني

عندما علم ألفونسو، ملك اسبانيا، بأن سيمون ايرل أوف ليستر، قد ترك غسكوني، وتخلّى عن صك ولايته وحكمه لها، ادعى على الفور، بأن تلك الولاية عائدة له شخصيا، وقد فعل ذلك بثقة كبيرة، لأنها تركت وحيدة لتحكم من قبل الطفل ادوارد، لأنه وفقاً لكلمات لوكان: «إن عمر طاغية النيل مصدر شك كبير، ذلك أن الثقة الدقيقة تستدعي عمرا ناضجا».

ولدى معرفة الملك المتقدم ذكره أعلاه بحقيقتي، بأن الايرل، الذي

كان رجلاً محارباً، قد ترك، وأن طفلاً جرى تعيينه حاكماً لها، التمس حظوة الخبر الأعظم، حتى يجري السماح له، دون إلحاق أي أذى بالكنيسة، حتى يطلب حكمها، ويسترد تملكها بالقوة، لأنها كانت ملكاً له، بموجب منحة من الملك هنري الثاني ملك انكلترا، وهو يمتلك صكاً بتلك المنحة، جرى تأكيده من قبل كل من الملكين رتشارد، وجون، وبناء عليه دعا ملك قشتالة إلى مساعدته رجلاً مسكونياً من نسب رفيع، وكان قوياً اسمه غاستون Gaston، كما دعا نبلاء آخرين من تلك المقاطعة، ولقد كان هناك كثيراً من نبلاء غسكوني وقفوا إلى جانب قضية ملك اسبانيا (وتخلوا عن ملك انكلترا)، وكان فوق الجميع، الرجال الأغنياء، الذين اعتادوا على ارسال خمرهم للبيع في انكلترا، وهي خمر لم يخجل ملك انكلترا من الاستيلاء عليها، والاحتفاظ بها من أجل مسراته، ولدى مشاهدة شعب بوردو، الذين بقوا مخلصين للملك، هذه الإجراءات، بعثوا رسالة إليه بكل سرعة، بأنه إذا لم يقم بكل سرعة وبشكل فعال، سوف بلا شك يفقد غسكوني كلها، وأنها سوف تعطى لغيره ويتم التخلي عنها، لصالح ملك قشتالة، الذي يدعي الحق بها كلها، ويأمل باستحواذها، وحزن الملك لدى سماعه بهذا، وتندم قليلاً — لكن ذلك جاء متأخراً كثيراً — لأنه استدعى الايرل سيمون وعزله عن حكومة غسكوني، وكان ذلك الايرل حتى لا يتعرض للإخراج عن طريق التماسات الملك، ليعود إلى غسكوني، غادر إلى فرنسا، حيث احتفظ به نبلاء تلك المملكة راغبين، واقترحوا عليه، بما أنه كان جريئاً ومخلصاً، أن يتخذوا منه قهرماناً عليهم، يتولى نصيحتهم في سبيل منفعتهم ومنافع المملكة، التي كانت مهجورة وفي وضع يائس، بسبب غياب الملك، وموت الملكة بلانشي، ورفض الايرل بثبات الموافقة على هذه الخطة، حتى لا يظهر كأنه خائن، لأنه كما قال الرسول: «احفظ نفسك وأبعداها عن جميع مظاهر الشر»، ولأنه عزل عن غسكوني، التي امتلك صكاً بولايتها، راقب تلك الإجراءات بحذر وصمت مع نظرات متغاضية.

حول القيود في قضية الزيارات التفقدية

وفي هذه الآونة، أمر البابا أيضاً، بتقديم ترضية للطائفتين المتنازعتين حول مسألة الزيارات التفقدية، ورسم بشكل حكيم ومعتدل، ووجه بوجود أن يقوم رئيس الأساقفة والأساقفة، الذين يمتلكون حق القيام بزيارات تفقدية، بالزيارات التفقدية المعتادة والموائمة، لكن في ظل تفاهم أن لا يتعرض المزارين للظلم، وأن لا يتضايقوا أو ينكل بهم من قبل المتفقدين لهم، وحدد ويّسن مقدار نفقة كل زيارة تفقدية، حسبما جاء في الرسائل المودعة في كتاب Additaments.

كيف عبر بعض النبلاء البحر من أجل

تنفيذ الزواج الذي تقدم ذكره أعلاه

ومع اقتراب حلول ربيع العام نفسه، انطلق رتشارد ايرل أوف غلوستر، ووليم أوف بلنسية أخو الملك، معاً بأبهة كبيرة، وبفخامة عظيمة، ليضعوا موضع التنفيذ، ويقوموا بترتيبات أمور الزواج الذي تقدم ذكره، بين أكبر أبناء رتشارد، وابنة كونت أنغوليم، أخو الملك، وقام هذان النبيلان بتوسعة ثوبيهما، واستهدفا الحصول على شهرة في البراعة بأعمال القتال وهما في زهرة شبابهما، فعرضوا باندفاع طائش قوتها وشجاعتها، وسرعة فرسيهما أمام الامتحان في مباراة مبارزة عقدت هناك، وكان الفرنسيون المحليون بحكم تجبرهم الذي فطروا عليه ساخطين من إقدام شابين ضعيفين وناغمين على الدخول بتلك المباراة بكل وقاحة (لأننا نقرأ بأن هكتور قال لباريس: «المريخ يفرح بالعسكري الشديد»)، لذلك قاموا برغبة شديدة بالدخول في المباراة، وبعدما أنزلاههما أرضاً، وسلبوهما، ضربوهما إلى درجة أنها طلبا بعد ذلك استخدام الكمادات والحمامات يومياً، وهما على كل حال استحقا القليل من الشفقة، لأنها كانا مسرعين من أجل تنفيذ زواج كان

مكروهاً من الانكليز، وكانا مليئين بالتعجب، وبالتفاخر الفارغ، وظهر القمر في هذه الآونة قبل أربعة أيام من مواعده الذي أعلن عنه.

كيف جرى ارغام اللنديين على دفع مبلغ من المال إلى الملك

وفي هذه الآونة أيضاً، أي أن تقول في الأسبوعين الأول من الصوم الكبير، أرغم الملك لحجة صغيرة مواطني لندن (الذين ندعوهم بالعادة باسم البارونات، بسبب سمو مدينتهم، وللامتياز القديم لمواطنيها) على الاسهام بمبلغ ألف مارك، وجرب شباب لندن في الوقت نفسه قوتهم، وسرعة خيولهم، في لعبة تدعى بشكل عام /Quintain/ حيث اتفقوا على ديك ليكون الجائزة في المباراة، وغضب بعض من أتباع الحاشية الملكية وغلماها (لأنه كان موجوداً في ويستمنستر) من هذه المباراة، وأهانوا المواطنين، ودعوهم باسم: فلاحين، وضعفاء، وتساء كالرغوة، ودخلوا على الفور في قائمة المتبارين ضدهم، وبحماس قبل اللنديون التحدي، وبعدما ضربوهم على ظهورهم بعصي رماح مكسرة، ظلوا يتناولوهم، حتى أصبحت ظهورهم سوداء وزرقاء، ثم ألقوا بجميع أتباع الملك من على ظهور خيولهم، وأرغموهم على الفرار، ثم ذهب الفارون إلى الملك، وأيديهم متشابكة، ودموعهم منهمرة، والتمسوا منه أن لا يدع هذا العدوان الكبير يعبر من دون عقوبة، ولجأ هو إلى طريقة انتقامه المعتادة، فاستخرج مبلغاً كبيراً من المال من المواطنين.

حول مراسيم من أجل تقوية المملكة

وفي تلك الآونة أيضاً، أي في أيام الصوم الكبير، انتشرت أخبار، تبينت صحتها، أفادت بأن الغسكونيين تحدثوا بوقاحة فيما بينهم أنفسهم قائلين عن ملك انكلترا: «إننا لن نقبل به حتى أن يحكمنا، لأنه رجل غير عادل، وهو رجل لا يحافظ على وعده، ولا على يمينه، ولا حتى على

بنود صكوكه»، ووصلت بعد أيام أخبار بأن لي راؤل La- Raole، في غسكوني والقديس اميليون Emilion وعدة قلاع أخرى، جرى الاستيلاء عليها، وضاعت لغير صالح الملك، وأن مذبحه كبيرة قد وقعت بين السكان، وارتعب الملك إلى درجة عالية، خشية أن يحدث بمثل هذه الخسائر أن تصبح غسكوني كلها عرضة للخطر، مثلما حدث مؤخراً في قضية بواتو، (لأن هاتين المملكتين هما بالفعل الحارسين والحاجزين للمملكة الانكليزية كلها) ولذلك أصدر مرسوماً، وأمر بأن يعلن بوساطة صوت المنادي في جميع أرجاء انكلترا بشكل عام، كما جرى ارسال أوامر مكتوبة إلى كل منطقة من المناطق، أنه تبعاً للعادة القديمة، يتوجب تقديم ما يكفي من كميات الأسلحة إلى السكان، وأنه ينبغي حشدهم، واجراء احصاء عام، من أجل تأمين عدد كاف من الرجال المقتدرين، وتجهيزهم وفقاً لامكانيات كل واحد منهم، وأن كل من يمتلك خمس عشرة حصة أرض محررة، ينبغي أن يكون فارساً، وعلاوة على ذلك، ينبغي أن يكون في كل مدينة، أي بقدر امتداد حدودها القضائية، حراسة معينة، يشرف عليها رجال ذوي حكمة واستقامة وحذر، من أجل أن يتولوا حراسة القرى والشوارع وطرق الدخول والخروج، وفضلاً عن هذا أصدر الملك، بناء على نصيحة السافويين مرسوماً ووجه أنه إذا ما كان أي إنسان مسافراً، وتعرض للتهب، أو للأذى بأي شكل من الأشكال من قبل قطاع الطرق، يتوجب على الذين قد أوكلت إليهم مهام حراسة ذلك الجزء من المقاطعة، والذين تعتمد عليهم بشكل خاص، أن يقدموا تعويضات كافية للفئة التي تعرضت للأذى، وعليهم أن يعيدوا إليهم الذي فقد تبعاً لأعراف السافويين، ويعني ذلك أن الأشياء إذا ما حملت بعيداً وسلبت، عليهم ملاحقة ومطاردة مقترفي الآثام، وتنظيف المنطقة منهم، ولقد بدا واضحاً إلى كثيرين، أن هذه الخطة من غير الممكن تنفيذها في هذه البلاد، مثلما هي مطبقة في سافوي، لأنه في بلاد سافوي لا يوجد

مثل هنا الكثير من الجوانب الواقعة قرب الطريق، والعديد من الأحراج، أو مثل هذه الكثرة من الغابات والأشجار، كما أنه ليس موجوداً هنا بسبب الجبال الوعرة والتي لا يمكن الوصول إليها، طرقات مفتوحة، بل مجرد ممرات مطروقة فقط، حيث لا يمكن لقطاع الطرق المحافظة فيها على أنفسهم بشكل موثم بعيداً عن الطرق، أو إخفاء أنفسهم، ونتيجة لذلك كان من السهل اعتقالهم، وبالإضافة إلى هذا ما الذي يمكن قوله، أو كيف يمكن البرهنة على أي شيء من دون شهود؟ وهكذا إنه نظراً لتوفر بعض عدم الرضا، أعيقت القضية، أو بالحري لم تحقق أية نتيجة، والسبب الأول لذلك، أن مثل ذلك التغير الكبير في القانون، لم يكن من الممكن إحداثه بشكل فعال من دون موافقة عامة للبارونات.

وفاة رتشارد دي ويتز أسقف شيستر

وفي حوالي الوقت نفسه، أي في الثاني من نيسان، مات المعلم رتشارد دي ويتز Witz أسقف شيستر، وكان رجلاً متميزاً في علمه، وبقداسة محمودة، وكان من قبل كاهناً ومستشاراً خاصاً لدى القديس ادموند، رئيس أساقفة كانتربري، وهو قد حاول أن يسير على أثره ويقلده خطوة خطوة، وكان ادموند المبارك قد تنبأ لهذا الأسقف بالوصول إلى مرتبة الأسقفية، وقد ذهب إلى بونتي في الوقت الذي كان سيجري فيه نقل القديس المتقدم ذكره، من أجل أن لا يكون مثل ذلك الصديق الخاص للقديس غائباً عن حضور مثل تلك المناسبة المهمة والمقدسة، وفي الحقيقة كان هو على علاقات طيبة مع القديس، وكان على اطلاع على جميع أسرارته، التي غدت الآن كلها مكشوفة في سبيل تنوير الجميع، واعتماداً على ما ذكره هذا الرجل مع الذي أورده الراهب روبرت بكيون Bacon، الذي كان من طائفة الدومينيكان، تمكن الراهب متى بارييس، الذي هو راهب في كنيسة القديس ألبان، من كتابة

سيرة حياة القديس ادموند المذكور، كما أنه صنف بعناية الذي عرفه عن طريق أناس كانوا بلا شك موضع ثقة، وكل من أراد الاطلاع على ذلك الكتاب يمكنه أن يجده في كنيسة القديس ألبان.

تجدد الاضطرابات بين الغسكونيين

وفي حوالي حلول يوم عيد القديس إلفيجي Elphege، وجد الرعايا الخونة للملك في غسكوني، أن غياب الايرل سيمون، وأي واحد يمكن أن يضبطهم ويؤدبهم، قد منحهم الفرصة للتحرك بحرية للتعبير عن غضبهم وحقاقتهم، فشرعوا مثل حيوانات مفترسة، أو مهرة غير مدجنة، يتصرفون بطيش، ويضايق كل واحد منهم الآخر، فهاجموا القلاع، وأسروا الأتباع وسجنوهم، وحولوا إلى رماد مساكن بعضهم بعضاً، وتسببوا في موت السكان، وكان بينهم وأعظمهم دوراً هو غاستون حاكم بيرن Bearn وبيريغورد Perigord، وكان رجلاً ملطخاً باقتراف كثير من الجرائم، وكان من الرعايا المقسمين على الاخلاص للملك، لكنه جرد نفسه من ذلك وحنث بقسمه، ومع أن ملك انكلترا وفره ولم يقم بإدانته، فقد قام في سبيل مضايقة هذا الملك وإغضابه أكثر، بالتحول إلى جانب ملك اسبانيا، ثم قام هذا الرجل باجتياح شطر كبير من غسكوني، وأثار الأعداء وشجعهم على التمرد ضد مولاهم وسيدهم ملك انكلترا، ولذلك باتت بوردو التي كانت بالعادة تزود غسكوني كلها بالمؤن، هي نفسها تعاني من العوز.

كيف جرى نهب بضائع الفقراء

نال الملك في هذه الآونة كراهية لايمكن إزالتها، وجلب إلى نفسه اللعنات المرعبة لكل من السكان المحليين والأجانب، وقد تزايدت هذه اللعنات وأسبابها يومياً، لأن عمد المناطق والوكلاء الملكيين، عملوا شغلهم الدائم، اعتماداً على حجج مخترعة أو أسباب أخرى، القيام

بإفقار كل من يمكنهم افقارهم، أو بالخري نهبهم، وصار الآن في انكلترا كثيراً من الملوك المستبدين، كل واحد منهم لديه الرغبة بالسلب والنهب، وأعتقد أنه خطير ومزعج الإقدام على تسميتهم، فقد سلبوا من الفقراء، وبشكل خاص من الباعة والتجار خيولهم، وعرباتهم، وخمورهم، ومؤونهم، وأقمشتهم، وشمعهم، والحاجيات الأخرى الضرورية، لابل إنهم أرغموا المنهوبة بضائعهم بالاكراه وضد إرادتهم، على نقل البضائع المسلوقة إلى أماكن نائية، دون إعطائهم أجراً، ولا حتى شكراً فارغاً مقابل أتعابهم، وقد عثروا على أخطاء من دون سبب، ففرضوا غرامات ثقيلة على البلديات، واحتجوا بوجود موازين زائفة وكذلك مقاييس، فاستخرجوا المال من الأبرياء، وبما أن الخمر جلبت للبيع من قبل الغسكونيين، وقد جرى الاستيلاء عليها، من دون أية مدفوعات، فإن الذين جلبوها، عادوا بأيدي فارغة إلى بلادهم، واشتكوا إلى جميع سكان مناطقهم، ونتيجة لذلك جنى الملك كراهية عامة.

حول منح امتياز عظيم إلى كنيسة وولتهام

وفي أيام عيد الفصح، من هذا العام نفسه، قام الملك تقديراً منه لقداسة كنيسة وولتهام Waltham وللكرم الفخم الذي أظهره راعي الدير مع رهبان دير وولتهام، ولذلك منح وثبت ما كان ممنوحاً من راعيه، من خلال وفاة الراعي أو استقالته، أن يقوم الرهبان بناء على إرادتهم ولصالحهم، ولامتلاكهم السلطة الكاملة: التصرف بالبارونية وبالممتلكات الأخرى للدير، ولهذه الغاية منحهم صكاً نظامياً كاملاً، وكان هذا الامتياز قد حصلوا عليه منذ زمن قديم مضى، إنها من أجل ضمانة أعظم، منحهم الملك إياه مجدداً وأكد لهم، وقد منحهم أيضاً حق عقد سوقين، وأنعم عليهم بمنافع أكبر، هذا وجرى عرض هذه الأشياء كلها مع محتويات الصكوك كاملة في كتاب Additaments.

كيف طلب الفرنسيون المشورة والمساعدة من الإيرل سيمون

ومع اقتراب حلول عيد الفصح، تفحص النبلاء الفرنسيون وقدرُوا كيف أن مملكة فرنسا كانت محرومة من وجود حاكم لها، وأنها كانت عرضة لخطر عظيم، وذلك بسبب غياب الملك الذي كان يقاتل في سبيل الرب في الأرض المقدسة، وكذلك بسبب وفاة الملكة بلانشي، يضاف إلى ذلك أيضاً خسارة نبلاء فرنسا الذين قتلوا في الأرض المقدسة، فحولوا انتباههم نحو الإيرل سيمون، لأنهم رأوا إخلاصه، ونبالة عقله، وأنه تعلم حتى يحدو مثل والده في جميع الأشياء، كما أنهم رأوا أنه قد تحرر من حكومة غسكوني، فالتمسوا منه ورجوه أن يقوم بالاقامة بينهم، حتى يصبح واحداً من الأوصياء على التاج وعلى مملكة فرنسا، وأنهم سوف يكدسون التشريفات عليه بمثابة تعويضات مجزية، ذلك أنهم أكدوا أنه كان مثل والده سيمون الذي قاتل لصالح الكنيسة ضد الأليبيين، ولأنه أحب مملكة فرنسا من قلبه، كما أنه لم يكن غريباً بالنسبة لفرنسا من حيث الأصل، وأرسل الفرنسيون مرتين رسائل من أجل هذه الغاية مع رسل خاصين، إلى الإيرل، لكنه رفض بثبات الاستجابة لطلبهم، حتى لا يبدو وكأنه مرتد.

كيف دعي البابا إلى العودة إلى وطنه من قبل الرومان

وفي هذه الآونة، أرسل الرومان رسلاً خاصين، ليتقدموا بالرجاء إلى البابا حتى يعود إلى روما، ليعين رعيته مثل راع صالح، ولكي تبتهج روما بوجود حبرها (لأنه حمل لقب الحبر الروماني) مثلما فعلت المدن الأخرى، حيث تمتعت كل منها بوجود أسقفها، وقد ظهر للرومان — وحق لهم أن يظهر — أنه من غير الطبيعي أن تكون روما لوحدها — التي كانت تدعى باسم «ملكة المدائن» — محرومة لمثل تلك المدة الطويلة من وجود كاهنها الأعظم وحضوره فيها، هذا وكان البابا فاغراً فمه لتلقي الهدايا من هؤلاء الذين جاءوا إليه، وفتح صدره لتسلم جميع

أنواع الأعطيات، لكنه وإن بدا مرتاحاً، كان غير مستقر عندما كان موجوداً بين الناس على هذا الجانب من الجبال، ولأنه تأخر عن القدوم، دعاه الرومان مرة ثانية، كما فعلوا من قبل، لكن بإلحاح أكثر ومع شرط أن عليه أن يأتي إليهم أو أنه لن يأتي أبداً، وعندما شاهد بأن الخطر محقق به، خاصة عندما أرسل الرومان رسالة إلى أهل بيروجيا، بأن لا يحتفظوا بالبابا أية مدة أطول، مع التهديد أنهم إذا فعلوا ذلك سوف يحاصرون ويدمرون، وقتها غادر بيروجيا في شهر أيار، وبادر مسرعاً إلى روما خائفاً مرتعداً، ولقد همس إليه بأن الرومان والميلانيين يطالبونه بدفع مبلغ كبير من المال، مستحق لهم مقابل ما أنفقوه في شن الحرب ضد فردريك وفي حماية الحقوق البابوية واللاهوتية، وبناء عليه إنه وإن كان قد شد حذاه تحت ملامح هادئة، لقد عاد إلى مدينته وهو يشعر بالخوف والقلق، وعلى كل حال استقبله الشيخ والشعب الروماني بالبهجة.

حول البارلمان العظيم الذي عقد خلال أسبوعي الفصح

في أسبوعي عيد الفصح، في شهر أيار، جرت دعوة نبلاء انكلترا للاجتماع مع بعضهم، بموجب قرار ملكي، وتوجب اجتماعهم في لندن، للتباحث مع الملك حول بعض القضايا الصعبة المتعلقة بالملكة، وحضر في هذا الاجتماع والتقى عدد كبير من الايرلات، والبارونات، وكذلك بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري، مع جميع أساقفة انكلترا تقريباً، أما بالنسبة لرئيس أساقفة يورك (الذي كان بالعادة يتجنب الالتحاق بالملك في المؤتمرات، بقدر ما كان يستطيع، لأنه وجد بالغالب أنها كانت مؤتمرات بلا فائدة عملية) فقد اعتذر عن الحضور، بحجة كبر السن، وعيشه على بعد كبير، وكان سوء صحة أسقف شيكستر مسوغاً لعدم حضوره، وكان كرسي شيلستر في تلك الآونة شاغراً، وبعد مناقشات طويلة كانت بلا فائدة، حيث جرت حول الحاجة الضاغطة

للملك، الذي طالب بمبلغ كبير من المال من أجل حجه، وبعد القيام فجأة بتوزيع رسائل بين الفئتين، تم الحصول على الموافقة، ثم جرى إرسال رئيس أساقفة كانتربري، وأسقف سالسبري، وكارآيل، والأسقف المنتخب لوينكستر، إلى الملك، باسم جميع الأساقفة ورجال الدين، لحنه ولاقناعه، بحكم أنه وعد مراراً، وأقسم بالتنفيذ أيماناً مهيباً، أن يسمح للكنيسة المقدسة أن تتمتع بجميع امتيازاتها، خاصة فيما يتعلق بقضية الانتخابات، الموجودة بشكل أساسي داخل الامتياز اللاهوتي، لأنه في الوقت الحالي، من غير الممكن ترقية أي واحد في الكاتدرائيات، أو في الكنائس الديرية، ما لم يكن قد فرض عليهم بوساطة الملك، ولهذا السبب فإن الأساقفة والمتعلقين بهم قد لحق بهم الدمار، وتأذت الكنائس بصورة مرعبة، وقد قالوا بأنه إذا ما أقدم على تقويم هذا مع بعض التجاوزات الأخرى، تماشياً مع بنود الصك العظيم لامتيازاتهم، فإنهم سوف يوافقون على مطالبه، مع أن ذلك سيلحق بهم أذى كثيراً، وعلى هذه الاقتراحات أجاب الملك قائلاً: «إن الذي ذكرتموه صحيح، وأنا حزين وآسف لأنني تصرفت على هذه الصورة، وبناء عليه ينبغي أن يتم الترتيب الآن أن يجري تصحيح الذي عمل، وأن لاتتخذ مثل هذه الإجراءات في المستقبل، وكونوا أنتم أيها الأساقفة معي، بحكم أنكم ترقيتم على هذه الصورة، حتى لاتتعرضوا للأذى، أنتم والذين هم رعية لكم، لأن عليكم أن تتذكروا، أنني أنا الذي دفعت إلى المقام العالي الذي هو فيه الآن بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، وأنت ياوليم أسقف سالسبري، أنا الذي ارتقيت بك من درجة منخفضة كثيراً، لأن تكون الكاتب لصكوكي، ولقد عملت كثيراً من الأحكام المرعبة عندما كنت تعمل بمثابة مسؤول عن العدل، وتابعاً مأجوراً، وأنت ياسيلفستر أسقف كارآيل، الذي كنت لمدة طويلة تلتقط فتات المستشارية، وكنت كاهناً صغيراً بين كهنتي، كم من اللاهوتيين والأشخاص المحترمين قد وضعتهم أنا جانباً، لأرتقي بك إلى الأسقفية؟ ومثل هذا بالنسبة لك

يا أخي ايثيلمار، من المعروف تماماً، كيف ارتقيت بك، ضد إرادة الرهبان، ومن دون الاهتمام بصلواتهم وانذاراتهم، ورفعتك إلى رئاسة كنيسة وينكستر الفخمة، وذلك على الرغم من صغر سنك وقلة علمك، لابل كونك مازلت تحتاج إلى أستاذ، وأولاً وفوق كل شيء، إنه من الموائم لي ولكم أنفسكم، أن تقوموا تحت تأثير التوبة، بالاستقالة مما حصلتم عليه بشكل غير عادل، حتى لاتعانوا من إدانة أبدية، وأنا سوف أمتلك بمثل هذا المثال المسوغ والدافع، بأن لا أقوم من الآن فصاعداً، بترقية أي إنسان إلى منصب ليس هو جديراً به»، وعلى هذا كان النقاش أديباً وفيه نقد توبيخي وسخرية لاذعة، ثم إنهم أجابوه قائلين: «مولانا الملك نحن لانريد أن نذكر الذي مضى، إن مطلبنا يمتد إلى المستقبل»، ثم إنهم تخلوا عن جميع القضايا المثيرة، التي يمكنها فقط أن تثير الخلافات، ثم إنهم نقلوا أنفسهم بشكل جدي إلى الأعمال الصعبة التي أمامهم، وبعد أمد طويل وبعد كثير من النقاشات التي استمرت لمدة خمسة عشر يوماً وأكثر، تقرر بموجب الموافقة العامة للجميع، عدم إعاقه الملك مطلقاً في نيته، التي كانت نية تقوية، وهي القيام بالحج، إنما ينبغي أن لاتعاني المملكة والكنيسة من أضرار كبيرة بموجب ذلك، وبناء عليه جرى منح الملك العشر من الموارد التي تتلقاها الكنيسة، وهذا العشر ينبغي انفاقه تحت اشراف النبلاء المستقيمين على ضروريات الرحلة، وأن يكون ذلك لمدة ثلاث سنوات، كما تقرر أيضاً أنه عندما سينطلق يريد القدس، في سبيل مساعدة الأرض المقدسة ضد أعداء الرب، يتوجب فرض ضريبة بدل الخدمة العسكرية على الفرسان لذلك العام، أي ثلاث علامات لكل رنك من الرنوك، ووعد الملك باخلاص وحسن نية كاملة، ومن دون أية مواربة، بأنه سوف يأخذ بصدق بالصك العظيم (الماغنا — كارتا) وبجميع شروطه، والذي حدث أن والده، الملك جون كان قد أقسم منذ سنوات خلعت على تطبيق ما جاء في ذلك الصك، ومثل هذا فعل الملك الحالي

لدى تسلمه التاج، ثم فعل ذلك في كثير من المناسبات فيما بعد، حيث تمكن بهذه الوسائل من استخراج مبالغ ضخمة من المال، وكان موجوداً في هذا المؤتمر من رجال الدين والأساقفة: بونيفيس رئيس أساقفة كانتبري، وأساقفة: لندن، وروكستر، وايلاي، ولنكولن، وووركستر، ونورويك، وهيرفورد، وسالسبري، وباث، واكستير، وكارلايل، ودورهام، والقديس داود، والأسقف المنتخب لوينكستر، وكان أسقف شيكستر قد مات مؤخراً، واعتذر أسقف شيلستر وسوغ غيابه بسبب سوء الصحة، وكذلك فعل رئيس أساقفة يورك بسبب تقدم السن، ولإقامته في مكان بعيد جداً.

وفي اليوم الثالث من أيار جرت قراءة الإعلان التالي في القاعة الكبرى في ويستمنستر: «بحضور وموافقة مولانا الحاكم هنري، الملك المشهور لانكلترا، مع أصحاب السمو: رتشارد إيرل كورنول، أخي الملك، ور. R إيرل أوف نورفولك وسفولك Suffolk ومارشال انكلترا، وهـ. H إيرل أوف هيرفورد، وهـ. H إيرل أوف اكسفورد، وج. J إيرل أوف ووريك Warwick، والنبلاء الآخرين للمملكة، نعلن نحن: ب. B الذي هو بالنعمة اللاهوتية، رئيس أساقفة كانتبري، والأول في جميع انكلترا، وف. F أسقف لندن، وهـ. H أسقف ايلاي، ور. R أسقف ووركستر، وو. W أسقف نورويك، وب. P أسقف هيرفورد، وو. W أسقف سالسبري، وو. W أسقف درم، ور. R أسقف اكستير، وس. S أسقف كارلايل، وو. W أسقف باث، ول. L أسقف روكستر، وت. T أسقف القديس داود، ونحن في ثيابنا الحبرية مع الشموع المشتعلة، بأننا تفوهنا بشكل مهيب بقرار عقوبة الحرمان الكنسي وفق الشروط التالية: ضد جميع الذين يخرقون امتيازات الكنيسة، وامتيازات الأعراف الحرة

لمملكة انكلترا، ولا سيما ماجاء متضمناً في صك الامتيازات لمملكة انكلترا، وفي الصك المتعلق بالغابات (وكانت هذه الصكوك قد كتبت ووضعت في الكتاب، لدى الحديث عن أيام هنري الذي تولى منحهم)، وإننا نتولى بموجب سلطات الرب القدير، والابن، والروح القدس، والأم المجيدة للرب، مريم العذراء الدائمة، والرسولين المباركين: بطرس، وبولص، وجميع الرسل، والمبارك رئيس الأساقفة الشهيد توماس، وجميع الشهداء، والقديس ادوارد ملك انكلترا، وجميع المعترفين والعذراوات وجميع قديسي الرب، حرمان، وتكفير، مع الطرد من عتبات الكنيسة الأم المقدسة، جميع الذين سوف يقومون من الآن فصاعداً عن معرفة وبصورة شريرة، بتجريد الكنائس أو حرمانهم من حقوقهن، وكل الذين سيقومون بخبث، أو يسعون بطيش لخرق، أو انقاص، أو تغيير بصورة سرية أو علنية، بالقول أو بالفعل، أو بالمشورة والرأي، امتيازات الكنسية، أو الأعراف القديمة والمصادق عليها العائدة للمملكة، وبشكل خاص الامتيازات والأعراف الحرة الموجودة في الصكوك المتعلقة بالامتيازات العامة لانكلترا، وللغابات، وهي الامتيازات التي جرى منحها من قبل مولانا ملك انكلترا، وتشمل العقوبات رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورجال الدين الآخرين في انكلترا، والايالات، والبارونات، والفرسان، والمتملكين الأحرار، إذا ما قاموا بطيش بانتهاكهم، أو أي واحد أقدم على ذلك بأي فعل كان، والعقوبات أيضاً ضد الذين سيذيعون، أو إذا ما أذيع سوف يأخذون بأي بند، أدرج مجدداً أو سوف يدرج، أو سيرعون أي عرف جديد، ضد هذه الامتيازات، أو ضد بنودها، أو ضد كتاب مثل هذه البنود، أو ضد المستشارين والمنفذين لهم، والذين يسعون للحكم بموجبهم.

وليكن بمعلوم جميع الذين تقدم ذكرهم أعلاه فرداً فرداً، الذين سوف يقترفون عن دراية أيأ من التجاوزات التي تقدم ذكرها، وليكونوا

على يقين بأنهم سينالون هذه العقوبة، بسبب الاقتراف، والذين من خلال الجهل سوف يقتربون مثل هذه الأفاعيل، ولم يقوموا بعد انذارهم، بالاصلاح وتقديم ترضية كاملة عما اقترفوه خلال أربعة عشر يوماً، شروعاً من يوم التذكير، أمام قضاة متميزين أو عاديين، فهم إذا لم يفعلوا ذلك، سوف يشملون من ذلك الحين بالعقوبة، وإننا نشمّل بهذه العقوبة نفسها أيضاً، كل من يعكر صفو سلام الملك والمملكة، وتخليداً للذكرى وضعنا أختامنا على هذه العروض».

ثم أحضروا إلى أمام الاجتماع، صك والده الملك جون، الذي قام الملك هنري بإرادته الحرة، فمنح أيضاً بموجبه الامتيازات التي تقدم ذكرها، وعندما أصغى الملك إلى قرار العقوبات المتقدم ذكره، وضع يده على صدره، وحافظ على نظرة هادئة، ومشرقة وفرحة، وعندما قام رجال الدين أخيراً بعد الفراغ، بإلقاء الشموع أرضاً، وعندما انطفئت هذه الشموع أرسلت رائحة ننتة، وهنا قال كل واحد منهم ورددوا جميعاً: «هكذا سوف يهلك وتصدر عنه مثل هذه الرائحة في جهنم جميع الذين سينالون هذه العقوبة»، وكانت الأجراس في الوقت نفسه تقرع، وهنا قال الملك: «هكذا ساعدني يارب، إنني سوف التزم بصدق بجميع هذه البنود، بحكم أنني رجل، ومسيحي، وفارس، وملك متوج وممسوح».

وينبغي أن نشير إلى أنه لدى الشروع بالتفوه بهذا القرار، أعطيت شموع مشتعلة إلى جميع الحضور، وعندما أعطيت شمعة إلى الملك، أخذها لكنه لم يحتفظ بها، وناولها إلى واحد من الأساقفة قائلاً: «إنه لا يليق بي أن أمسك مثل هذه الشمعة، لأنني لست كاهناً، فالقلب يعطي أصدق برهان، واحتفظ لبقية الوقت بيده مفتوحة وهي موضوعة على صدره، وظل هكذا حتى تم الفراغ من قراءة قرار الحكم».

وصمم — على كل حال — روبرت أسقف لنكولن في قلبه على القيام

فور عودته إلى كرسية بإعلان قرار العقوبات الكنسية بكل مهابة في كل كنيسة موجودة في أسقفيته (التي من الصعب علينا القيام بتعدادها) ضد جميع الذين سوف يخرقون الصكوك التي تقدم ذكرها أعلاه، وخاصة ضد الكهنة، وفعل ذلك خشية منه من أن الملك سوف ينقلب على الفور ويتخلى عن تعهداته، ولذلك علق هذا القرار في آذان الجميع، وأرعب قلوب الذين سمعوه إلى أقصى الدرجات.

حول عزل الإيرل سيمون من ولاية غسكوني

وهكذا كان أن ارفض الاجتماع، وما أن جرى ذلك حتى حصل الملك على الفور على أسوأ مشورة، استهدفت إلغاء جميع الإجراءات التي تقدم ذكرها، فلقد قيل له إنه إذا جرت المحافظة على الشروط المذكورة أعلاه، هو لن يكون ملكاً، ولاحتى سيداً لانكلترا، وأن والده جون قد اكتشف ذلك، ولذلك فضل الموت على أن يداس على هذه الصورة تحت أقدام رعيته، وقال له وكلاء الشيطان هؤلاء همساً: «لا تشغل نفسك إذا مانلت هذه العقوبة، لأنه مقابل مائة أو مائتي باوند سوف يملكك البابا، فهو بموجب سلطاته الواسعة يمكنه أن يحل أو يربط كل الذي يختاره، وما من أحد مهما كان عظيماً، يمتلك سلطة أعلى من السلطة التي يمتلكها هو نفسه، فأنت سوف تحصل على جزء العشر كاملاً، الذي سوف يصل إلى كثير من آلاف الماركات، وإنك إذا ما أعطيت جزءاً صغيراً من هذا المبلغ الكبير إلى البابا، سوف يتولى تحليلك، حتى ولو كان قرار الحكم مؤكداً من قبله، لأن إليه يعود حق نقض وإلغاء أي شيء كان مقررأ، وفي الحقيقة إنه مقابل مكافأة صغيرة، يمكنه حتى أن يمدد مدة الاسهام بدفع العشر لمدة عام، أو لمدة عامين».

وهذا ما وقع إثر ذلك، حسبما توضح ذلك الرواية التالية: وفي حوالي الوقت نفسه أرسل سكان بوربدو رسالة إلى الملك بأنه مالم يقدم بسرعة وبكل قوة إلى غسكوني، سيكون من المؤكد فقدانه للبلاد كلها، وحول

هذا كانوا غالباً ما أخبروا الملك بذلك من قبل، لكن في هذه المرة فعلوا ذلك ببيانات واضحة، وأضافوا (ماكان زائفاً) بأنه قد خسر كثيراً من الرعية والأصدقاء، من خلال طغيان سيمون، إيرل أوف ليستر، لأنه دجن وأنزل إلى طاعة الملك، كثيراً، لابل وأكثر من كثير من المتمردين الأقوياء ضده، ثم إن الملك رغب بإرضاء الغسكونيين، فأخبرهم بأنه إذا ما عاش سوف يأتي إليهم من دون شك، وبقوة في سبيل تشریفهم وعلو شأنهم، كما أنه أمر بأن يعلن بوساطة المنادين في غسكوني، أنه ما من أحد ينبغي له من ذلك الوقت فصاعداً، الخضوع للإيرل سيمون، أو اطاعته، وجعل أمراً معلوماً للجميع فرداً فرداً، أنه نتيجة للشكاوى التي عملت ضد مظالم الإيرل، قد قام بعزله، وأن ذلك كان مقابل نفقة كبيرة، لأنه انتزع منه الصك الذي كان الإيرل قد حصل عليه، من أجل الاستحواذ على غسكوني للأعوام الثلاثة المقبلة، وأعطت هذه الإجراءات كلها رضاً عظيماً إلى الغسكونيين، ثم كان أن الخيانة التي بقيت متخفية لمدة طويلة، قد أعلنت عن نفسها، لأنه منذ اللحظة التي عرف بها أصدقاؤه الخلل، أن مدة حكم الإيرل قد انتهت، قام هؤلاء المتظاهرون بالصدقة، والذين تبعوا سعادته، فأصبحوا أكثر أعداءه مرارة.

حول عودة هنري أوف باث إلى البلاط

وفي هذه الآونة أيضاً، نسي هنري أوف باث جميع أحزانه، وقام مجدداً بناء على إرادته المحضة فمزج نفسه وشغلها بمشاغل الاهتمام بالبلاط، لأن الذي تشغله الدنيا بمتاعبها، يجد بعض الصعوبة بالنجاة منها، وفي هذا العام أيضاً، جرى تعيين الفارس أرنولد دو بيوس Bois مسؤولاً رئيسياً عن الغابات، في محل روبرت باسليف، وذلك في الأجزاء الجنوبية من انكلترا، امتداداً حتى نهر ترنت Trent الكبير، وعيّن جون أوف ليكسغتون Lexington، وكان

فارساً، للمناطق الممتدة من النهر نفسه إلى مملكة سكوتلندا، وجاء ذلك بدلاً عن غيوفري دي لانجلي Langley، الذي أفقر في السنوات الماضية من دون رحمة ومن دون سبب جميع سكان المنطقة المجاورة للغابات.

حول المعجزات التي عملت عند قبر رتشارد أسقف شيكستر

وعمل الرب في الوقت نفسه معجزات واضحة عند ضريح رتشارد، أسقف شيكستر، في كنيسة ذلك المكان، وقد جرى الآن الكشف عن تقواه السرية، لأنه عندما قضى، وتمت تعرية جسده، بغرض القيام بغسله، تبين أنه كان مغطى بثوب من الشعر، ومتمنطق بأطواق حديدية.

حول انتخاب جون كلبني لأسقفية شيكستر

وفي هذه الآونة وضع الكهنة النظاميون لشيكستر الرب أمام أعينهم، فانتخبوا أسقفاً لهم المعلم جون كلبني Clippinge، وكان كاهناً نظامياً في الكنيسة نفسها.

حول الزيارة التفقدية للطائفة السوداء

وعزم البابا، بناء على شكوكه ومقاصده، وأمر الآن الأساقفة، وفرض على كل واحد منهم القيام بزيارة تفقدية إلى التجمعات الرعوية الرهبانية وإلى الديرة المؤسسة في أسقفيته، وارغامهم تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي بتطبيق بعض الشروط التي لاعلاقة لها بأحكام القديس بندكت، والتي لا تشكل جزءاً من صلب الأحكام المذكورة، والتي عملها الرهبان ممارسة لن يطيعونها مطلقاً، وتعهدوا أنهم لن يمارسونها أبداً، وعندما وجد رهبان الطائفة السوداء (البندكتيون) في فرنسا، أنفسهم محرومين تماماً من حماية الملك، نشدوا شراء السلام لأنفسهم، حتى لا يكونوا عرضة للخضوع لإرادة الأساقفة، الذين كانت

الامتيازات الممنوحة لهم هدفاً للكراهية، ولهذا دفعوا أربعة آلاف باوند من نقود تورين إلى البابا، وبذلك أوقفوا عنف هذا العمل الطغياني، وهذه الشؤون وجميع ماتعلق بها من خصوصيات، قد جرى شرحها بصورة كاملة في كتاب Additaments، وترافع راعي دير القديس ألبان ورهبانه إلى البابا، واشتكوا ضد الزيارة التفقدية لأسقف لنكولن، لأن بذلك سوف يجري خرق امتيازاتهم.

كيف عمل ملك إنكلترا الاستعدادات لحملة إلى غسكوني

فور عقد المؤتمر الذي تقدم ذكره أعلاه (يعني أن تقول في حوالى الأول من حزيران) جرى اخبار الملك بالحالة البائسة في غسكوني، فحشد بموجب الأوامر الملكية الفرسان الذين يدينون له بالخدمة العسكرية في جميع انكلترا، وأمرهم بأن يكونوا مستعدين مع الخيول والأسلحة والأشياء الضرورية الأخرى في بورتموث، في ثمانية عيد التثليث، للاقلاع بحراً معه، بحكم أنه كان على نية الانطلاق بحملة كبيرة قوية إلى غسكوني، التي كانت الآن عرضة للخطر، واستهدف من وراء ذلك إعادتها للطاعة، ومن ثم استرداد السلام، وأمر بالوقت نفسه بالاستيلاء على جميع السفن العائدة للتجار، وسفن النقل العائدة للقارة أو لانكلترا، أو للآخرين، واستهدف من هذا الاستيلاء تأمين نقله شخصياً مع أتباعه، وكان تعداد هذه المراكب يزيد على الألف، وقام أصحاب هذه السفن، بتأخير إقامتهم وتمديدتها لمدة ثلاثة أشهر، مقابل خسائر كبيرة ومتاعب عظيمة، وفعلوا ذلك انتظاراً لرياح مواتمة، لكن ذلك كان بلا محصلة، وبذلك بدا واضحاً بأن هذه الحملة لا تحظى برضا الرب، ووجد الملك نفسه وقتها وقد أنفق، مبلغاً كبيراً من المال، وأنه استخرج جميع أساسيات العيش لدى الرهبان في المنطقة المجاورة واستهلكها، وقد بعث بخيوله وبأتباعه إلى هنا وهناك للعسكرة والإقامة، حتى تهب ريح أكثر مواءمة، وتبتسم لهم، كما أنه كتب إلى

الاييرل رتشارد وإلى الملكة، بحكم كونها الأوصياء على المملكة، يأمرهما أنه إذا ما أصبحت أية رعاية ديرية فخمة شاغرة، أن يحتفظا بالمسؤولية عنها لأنفسيهما، والأمر نفسه فيما يتعلق بأية أسقفية إذا أصبحت شاغرة، وهنا لم يتردد ولم يساوره الشك أنه بعمله هذا قد خرق كثيراً من شروط الصكوك، التي كان يعني عدم الالتزام بها قرار الحرمان الكنسي، الذي جرى إعلانه منذ وقت قريب.

حول المذبحة التي اقترفت في أحواز فلاندرز

وفي هذا الوقت نفسه من العام، وقعت مذبحة كبيرة للرجال والخيول والمواشي في المقاطعات المجاورة لفلاندرز وألمانيا، حيث من المعتقد أن أكثر من أربعين ألفاً من الرجال المقاتلين قد ذبحوا، ومثلما حدث في طروادة، التي قيل بأنها قد تدمرت مع سكانها بسبب امرأة، مثل ذلك فإن هذه المذبحة كان سببها امرأة، هي كونتيسة فلاندرز، وجرى ذكر سبب وتفاصيل هذه المأساة التي لاتعوض، بشكل كامل في كتاب Additaments، كما أن تفاصيل أخبارها كلها سوف يرد ذكرها في الصفحات المقبلة.

ومات في هذه الآونة وليم أسقف لانداف Llandaff، الذي أخبر مسبقاً بموته بوساطة العمى لمدة سبعة أعوام.

حول زيارة تفقدية عملت من قبل رئيس أساقفة كانتربري

وفي هذه الآونة نفسها أيضاً، قام رئيس الأساقفة بونيفيس بزيارة تفقدية ليفيرهام، وروكستر، وزار متفقداً الكهنة النظاميين لكنيسة القديس بولص وآخرين في المدينة، وبسبب التقييدات التي فرضت، استقبل بلطف، وفعل هذا بحذر حتى يمكنه الوصول، والحصول على حق القيام بالزيارة التفقدية.

كيف استقبل مارشال إنكلترا زوجته ثانية

وفي تلك الآونة نفسها، استقبل الايرل روجر بيغود مارشال انكلترا زوجته ثانية، التي هي ابنة ملك سكوتلندا، التي كان من قبل قد طلقها اعتماداً على مشورة شريرة، واقتنع بهذا بوساطة حكم صدر عن الكنيسة، وعندما بات متأكداً من الحقيقة قال: «بما أن هذا هو حكم الكنيسة، إنني بأمان وعلى استعداد للقيام بهذا الزواج، الذي كنت من قبل شاك به ولدي ريبة حوله»، لأنه سلف أن قيل له بأنها أقرباء بالدم.

حول مغادرة ملك إنكلترا إلى غسكوني

وفي السادس من آب في هذا العام، بعدما قام الملك بتعيين الايرل رتشارد والملكة وصيين على المملكة، وعهد إليهما بالعناية بإدوارد الذي كان أسن أولاده، قال وداعاً لإنكلترا، وأقلع من بورتسي Portsea، وركب متن البحر برفقة ثلاثمائة سفينة كبيرة، وأسطول كبير جداً من المراكب الأخرى، وبعدها قبل الطفل والده، وبكى لمغادرته، وقف يبكي ويتنهد على الشاطئ، طوال الوقت الذي استطاع أن يرى فيه أشربة السفن وهي تغيب في عرض البحر.

وفاة توماس أوف هارتفورد رئيس شمامسة نورثأمبرلاند

في ثمانية عيد القديس لورانس في هذا العام، مات توماس أوف هارتفورد، رئيس شمامسة نورثأمبرلاند، والراهب من دير القديس ألبان، وجاءت وفاته، في رئاسة شمامسته، وكان في نهايته مقدساً وسعيداً، وعظيم الاستعداد في جميع الأشياء الضرورية للتحويل المقدس لمسيحي ولانتقاله من الدنيا، وكان من قبل تلميذاً في مدرسة القديس ادموند، رئيس أساقفة كانتربري، وكان صديقاً مقرباً من ذلك الحبر، ومنذ أن أصبح مثله، سعى لأن يسير على دربه خطوة خطوة (مثلاً فعل المعلم رتشارد، الذي صار فيما بعد أسقف شيكستر، وهو الذي تقدم

ذكره من قبل أعلاه)، وبما أنه كان رجلاً صاحب ثروة، وصديقاً للفقراء، خاصة من الفرنسيين والدومينيكان، فقد تبرع بجسده إلى دير فقير جداً تابع لرهبان جبل الكرمل، وكان لهذا التبرع أثره في زيادة مكانة الرهبان ومنفعتهم، وبعدما غادرت نسمة الحياة جسده، كان رفاقه الواقفين هناك يتناقشون بقلق من أجل الحصول على ضريح حجري، وكان الحصول على مثل هذا الشيء صعباً في ذلك الحين، كما كان توفره في تلك المناطق، وقد رغبوا بأن يحفروا عليه اسم توماس، وهنا تدخل واحد من الكهنة وكان اسمه أيضاً توماس، وكان رجلاً صالحاً، وتقياً، وأعلن قائلاً: «لا تزعجوا أنفسكم حول هذه القضية، لأنه موجود لدي الذي تريدونه، أي ضريحاً حجرياً، عليه قد نقش اسمي، وهو توماس، فقد كنت أنا المذنب توماس أنوي بأن أدفن فيه، لكن إنه بإرادة الرب، الذي يقضي بتوزيع كل شيء حسب إرادته، لقد قضي غير الذي أردته في السماء، ولهذا أنا أقدم هذا هدية إلى رئيس شمامسة المقدس (كما أنه ليست هناك حاجة لتغيير الاسم)، وأنا واثق أنه تقرر أن يحل محلي، ويتلطف بأخذ مكاني الذي مقر اقامته في السماء، آه كيف حصلت هذه الصخرة بسعادة على نزيل آخر سواي»، وعند ضريح توماس رئيس الشمامسة هذا نفسه، حصل عبيد المسيح المخلصين بشكل اعجازي على الشفاء من الأمراض، كما شهد بذلك بمثابة حقيقة مطلقة لكاتب هذا الكتاب، جون أوف لكسنتون Lexington، وكان فارساً ورجلاً صاحب علوم كبيرة، وسلطات عالية، وأظهر مولانا يسوع المسيح أيضاً قداسة هذا الرجل المقدس، بمعجزات خاصة، حول مصداقيتهم هناك شهادات، وبناء عليه حصل في وقت قصير، نتيجة للمنافع الكثيرة والمتكررة، روحياً وجسدياً، وقد أنعم بها على المتوسلين هناك، وهكذا فإن البيعة الصغيرة للرهبان المذكورين قد ازدادت سمعتها، فحصلت على لقب دير، ونحن نعتقد بثبات بأن رئيس الشمامسة المقدس هذا، وكذلك رتشارد أسقف شيكستر، وإن كانا لم

يطوبا في روما، كانا متحدين مع القديس ادموند، حيث كانا صديقيه الخاصين أثناء حياته، وبخصوص المعجزات التي تفضل الرب بعملها من خلال فضائل الأسقف المبارك، إنه قد جرى ذكرها في الكتب المتضمنة تاريخ كنيسة القديس ألبان، أي في كتاب سيرة حياة القديس ادموند، والمعجزات النافعة التي منحها الرب إلى المحتاجين إليها من خلال فضائل توماس، رئيس الشمامسة، المتقدم ذكره أعلاه، معروفين بشكل جيد من قبل رهبان جبل الكرمل المتقدم ذكرهم، ومن قبل الناس في تلك البلاد، ونحن نعتقد أن هؤلاء الأبناء الثلاثة المباركين لانكلترا: ادموند، ورتشارد، وتوماس، يتمتعون بمجد التثليث العظيم.

حول الكارثة التي نزلت بالجيش الفرنسي

ومع مرور الوقت على هذه الصورة، في الوقت الذي كان فيه الملك الفرنسي يعيش في محتته، وقد ضغط عليه بالجوع في الأرض المقدسة، آنذاك كان يمضي الوقت بشكل مهين في تحصين قيسارية، ووقتها جاء إليه فارس نبيل من أصل فرنسي، وقال له: «مولاي الملك، إننا مقيمون هنا في حالة عطالة مخجلة، اسمح لي إذا كان يرضيك، أن أذهب ضد هؤلاء الكفار، الذين لم تقم معهم لا هدية ولا صداقة، لأنال بينهم بعض الشريف والمنفعة، وكذلك بعض المؤن، التي نحن بحاجة ماسة إليها، هذا عدا عن التدريب العسكري لجيشنا، لأنه كما تعلم، إن أية منفعة أو شهرة تعزى إلى فارس ما، ذلك كله يتجمع ليعزى بشكل أكمل إلى مولاه»، وعلى هذا الطلب رد الملك بأريحية قائلاً: «اذهب، وليعيدك ربي سالماً من مهمتك»، وبناء عليه جمع الفارس كتلة من الجنود، ووجههم وشجعهم بوساطة المثل الذي ضربه وليم صاحب السيف الطويل، الذي تولى القيام بحملة مماثلة، حسبما ذكرنا ذلك في المكان المناسب، وقد انطلق نحو بلاد المسلمين الذين كانوا قد ألحقوا أضراراً بالغة بالصليبيين، وقاتلهم بشدة متناهية، وهزمهم بشكل مفاجيء، وفرق

شملهم، ومن ثم عاد بنصر مجيد، وهو في غاية السرور، مع غنائم كبيرة، ولدى رؤية هذا من قبل واحد من المتملقين بين مستشاري الملك قال له: «يا صاحب الجلالة، لقد حصل هذا الفارس على مبلغ كبير من المال، وحقك يخولك ويتطلب أن تقوم بالمطالبة بحصة كبيرة منه، لاسيما وأنت الآن بحاجة ماسة، لأنه بموجب لطفك ومعروفك، غادر الجيش بشكل سري، مخالفاً ما قضت به الأوامر العامة، وخارقاً لها بطيش»، وبناء عليه جرى استدعاء الفارس إلى أمام الملك، ووجهت إليه تهمة قاسية من قبل منافسيه، ونتيجة لذلك الإجراء، قام بالتخلي عن الجزء الأكثر مما حصل عليه إلى الملك، ثم خاطب ذلك الفارس الملك قائلاً: «مولاي، إن جميع ما أملكه، حتى نفسي هو ملك لك، لكن يبدو لي أن الأكثر عدلاً هو أن يتمتع بالثروة الذي حصل عليها، بعدما عرض جسده وحياته للخطر في الحصول عليها، والذي أعتقد أنه أن هذه الإجراءات، قد أثرت من قبل بعض السادة الكسالى، ورجال القاعات الجبناء، والمستشارين لديك، الذين يطرونك ويتملقون إليك لمنحك السرور»، وقام واحد ممن نالوا اللوم هكذا، لدى سماعه لهذا الكلام، فقفز نحو الأمام إلى وسط الذين كانوا مجتمعين، وكان يغلي غضباً، وقد تدفق بكلام كله قدح وذم ضد الفارس، قائلاً: «بتفوهك بهذا الكلام أنت تتشدد بالكذب من حلقومك القذر، وذلك عندما تتهم كتلة عبيد مولانا الملك بالكسل والغدر»، وأضاف يقول: «بأن الموجه للاتهام كان فارساً سيئاً، وجباناً، ورجلاً مهزوماً»، وباللغة الفرنسية هو *mechant*، مما كان يعني أكبر شتيمة بينهم، ولدى سماع هذا الكلام، كان هناك ابن الفارس المتهم، وكان شاباً جريئاً، وفارساً شجاعاً، فقفز واقفاً في وسطهم، ولم يستطع أن يضبط نفسه لغضبه، فصرخ بصوت مثل الرعد، قائلاً: «بحق دماغ الرب، إنك حقير، وتعيش منحط، كيف تتجرأ على التفوه بمثل هذا الكلام إلى أبي بحضوري وعلى مسمع مني؟» وسحب فجأة سيفاً صغيراً، أو خنجرًا كان يحمله، وطعنه على الفور في بطنه، ثم ركض وهو

مثل المجنون من غضبه، وهرب إلى الكنيسة للحماية، ولدى رؤية والده الذي صنعه، حزن حزناً عميقاً، وانكب على قدمي الملك قائلاً: «الآن يامولاي الأكثر احتراماً، هل ستظهر رحمتك الملكية وتبرهن عليها، إذا تفضلت بالعفو عن هذا العمل الغاضب، أما بالنسبة لي، فأنا سوف ألتزم بحكم محكمتك، وسوف أخضع للذي ستقضي به»، وبناء عليه أجابه الملك: «اجلب كفلاء موثمين للقضية»، وعندما كان ذاهباً لتحقيق هذا الغرض، كان ابنه قد سحب من الكنيسة من قبل وكلاء الملك، وجرى شنقه من دون أية محاكمة أو قضاء، وعندما كان والده عائداً مع كفلائه، مستعداً لإطاعة القانون في كل جانب، وجد ابنه مشنوقاً، وقد مات، العمل الذي قام به أعداؤه، في سبيل زيادة حزن والده، برؤية ابنه المتوفى، فارتجفت أطرافه من الغضب والألم، وبصعوبة بالغة تكلم، وأخيراً قال متعجباً مندهشاً: «ما هذا ياسيدي الملك؟ هل قمت بالشنق، أو اقتنعت، وسمحت بشنق ابني من دون محاكمة أو قضاء؟ إنني لا أستطيع ضبط مشاعري كأب، أين هو الاحترام المستحق للكنيسة؟ وأين هي عدالة المحاكم الفرنسية؟ إن ما هو عائد لي في فرنسا، بموجب حقوق أبائي، وكذلك ولائي لك، والذي حصلت عليه مؤخراً بسيفي، أتخلى عنه لك، وسوف أغادرك أنا شخصياً، وأتخلى عنك»، وما أن فرغ من كلامه هذا، حتى امتطى مسرعاً على حصان سريع، ولم يوفر مهمازه، حيث هرب إلى أحد السلاطين، وقصّ عليه جميع هذه الوقائع بالتفصيل، وهنا قال له السلطان: «لقد فررت إليّ وأنا سوف لن أتخلى عنك أبداً، وأنا أفتح لك صدر اللجوء والحماية»، ثم التحق على الفور بجيش ذلك المسلم، وصار مرتداً مرعباً، مبرهنًا على صدق المثل القائل: «الغضب هو الرغبة بالانتقام»، ومنذ ذلك الحين أوقف نفسه على الانتقام، وتغيرت صداقته إلى كراهية خاصة، وألحق ضرراً بالحدود بالملك وبجيشه، ولم يتوقف عن قصده حتى قتل الذين شنقوا ابنه، وهكذا أنجب الحسد غضباً، واقترب الغضب القتل.

ووقع حادث مأساوي مماثل تماماً قبل أربعين سنة خلت، عندما قام واحد من الداوية اسمه فيراند Ferrand، وكان رجلاً شجاعاً في القتال، وحكيماً بالرأي والمشورة، بالالتحاق بالمسلمين، نتيجة انتزاع فرس ثمين منه بالقوة، ومن خلاله فقد الصليبيون في المقام الأول دمياط بتعاسة، وأخيراً كل الشرف الذي كانوا قد حصلوا عليه، ولكن عندما كانوا أخيراً على وشك الغرق، تحركت عاطفة الشفقة لديه، وساعد الذين كانوا على وشك الهلاك، في سبيل أن لا يشمل الانتقام لغلطة عدة آلاف كثيرة.

وفي هذه الآونة، ابتسمت الرياح الموائمة، بعد انتظار كبير، للملك، وأقلع الملك بعد تقيله لابنه ادوارد وعناقه له، وعاد الولد إلى أمه، وغادر الملك بأشربة منشورة.

وصول ملك إنكلترا إلى بوردو

وفي هذه الآونة، أيام الاحتفال بصعود العذراء المباركة، وصل الملك سالماً إلى بوردو، وخرج المواطنون لاستقباله، وقد استقبلوه بكل احترام لائق، وفي الوقت نفسه هرب أعداؤه، أو أغلقوا على أنفسهم قلاعهم للدفاع عن أنفسهم، ثم أمر بحصار لي راؤل، حيث كانت هناك أعداد كبيرة من المتحزبين لعدوه غاستون، وكانوا فيها مختبئين، ذلك أن غاستون نفسه كان قد هرب إلى ملك اسبانيا، الذي أصبح صديقاً له، وحليفاً، واعداً إياه أن تكون ملكية غسكوني وحكمها — حسبما قال — عائدة له، وقام الذين تركهم لحماية لي راؤل، بالاعتماد على هذا التحالف، فدافعوا عن أنفسهم بحماس وشجاعة.

حول مشاعر الشكوك التي شعر بها الفرنسيون تجاه البواتيين

وكان الذين أمسكوا بزمام أمور حكومة فرنسا، يشعرون بالشكوك نحو البواتيين، بسبب غدرهم الذي تبرهن مراراً، وقد باتوا الآن

خائفين، عندما سمعوا بوصول ملك إنكلترا سالماً إلى غسكوني، وصاروا يخشون من أن يقوم البواتيون بالالتحاق به، ذلك أنه كان مولاهم القديم، وسيدهم المحرر لهم الآن، خاصة وأن ملكهم كان على مسافة بعيدة عنهم، ولذلك بعثوا إلى هناك بكتلة من الجنود، ولم يسمحوا للبواتيين بالاستحواذ على ممتلكاتهم، أو أن يكونوا مسؤولين عن قلاعهم ومدنهم، وبهذه الصورة بقي البواتيون، على الرغم منهم، مخلصين، ولم يلحقوا أي أذى بالملكة الفرنسية، كما أنهم لم يقدموا أية منفعة للملك إنكلترا، وهم على كل حال، نصبوا الشباك والأفخاخ لأقدام الانكليز، حسبما سنشرح ذلك بالتفصيل في الصفحات التالية.

رسالة أسقف لنكولن إلى البابا

وفي هذه الآونة، كان البابا أنوسنت الرابع قد بعث برسائل رسولية، أمر فيها أسقف لنكولن بالقيام ببعض الأعمال، التي بدت إلى ذلك الأسقف أنها غير عادلة، ومضادة للعقل، وذلك حسبما اعتاد البابا أن يعمل غالباً معه ومع الأساقفة الآخرين، وبناء عليه قام الأسقف المذكور بكتابة الرسالة التالية جواباً له:

«تحيات: ليكن معلوماً بالنسبة لقداستكم أنني أطيع بإخلاص وتبجيل الأوامر الرسولية، مع مشاعر بنوية، وبموجب غيرتي نحو كرامة والدي، إنني أعترض على هذه الأشياء وأقاومها، لأن هذه الأشياء مضادة للأوامر الرسولية، هذه الأوامر التي أنا مرتبط باتباعها وملتزم بموجب الأمر اللاهوتي، لأن الولايات الرسولية وأوامرها ليست، ولا يمكن أن تكون غير عقائد الرسول ومولانا يسوع المسيح نفسه، الذي هو معلم الرسل ومولاهم، وتبعاً له، ووفقاً لمراتب الكنيسة يمثل البابا النموذج والشخص الذي يحتل أعلى الدرجات، وذلك بشكل لائق وموائم، لأن مولانا يسوع المسيح قد قال: «الذي ليس معي هو ضدي»، وضده من غير الممكن أن يكون الكرسي

الرسولي الذي هو أعظم قداسة ومكانة لاهوتية، وبناء عليه، إن الرسالة المتقدمة ليست متوافقة مع القداسة الرسولية، بل مضادة لها تماماً ولا تتماشى معها مطلقاً، لأنه في المدخل إلى تلك الرسالة، والرسائل الأخرى المشابهة لها، التي انتشرت بالطول وبالعرض، نجد عبارة «دون التقيّد»، التي أقحمت من دون الحاجة لإطاعة القانون الطبيعي، وعنّها قد صدر وانتشر فيض من عدم الاستقرار، والوقاحة والغش، وانعدام الحياء، والكذب، والخداع، والحاجة إلى وضع الثقة والأمانة في أي واحد، ومن الشرور التي نجمت عن هذا كله، والتي هي من دون إحصاء تكدرت نقاوة الديانة المسيحية، واضطرب الهدوء الاجتماعي لبني البشر، وانقلب كليّة، وعلاوة على ذلك، بما أن ذنب الشيطان، هو الذنب نفسه الذي سيكون في نهاية الحياة ذنب ابن الهلاك، أي المسيح الدجال، المسيح الدجال الذي سوف يقتله الرب بنفخة من فمه، لا يمكن أنه كان أو سيكون هناك ذنب من أي نوع، معاكساً مثله أو مضاداً لعقيدة الرسل والانجيل، وفي الوقت نفسه مثله كراهية، ومقتاً، وبغضاً بالنسبة لمولانا يسوع المسيح، الذين يميّتون الأرواح ويدمرونها ويقودونها إلى الضلال عن طريق وظائف وأعمال رعاتهم الكنسيين، وبوساطة أكثر البراهين وضوحاً في الكتابات المقدسة، يجري اقتراف هذا الذنب من قبل الذين وضعوا في وظائف الرعاة ومنحوا سلطات الرعاية والعناية، لكنهم قاموا بالحصول على رواتبهم من حليب وصوف شياه المسيح، التي ينبغي أن تنشط وتحفظ بوساطة واجبات وأعمال الرعاة، وأن لا تستخدم لتلبية حاجاتهم، لأن عدم القيام بواجبات الرعاية، هو بالنسبة للكتابات المقدسة، هو قتل الشياه وإهلاكها، وإن هذين النوعين من الذنوب، مع أنهما يختلفان في نوعيهما، هما أسوأ الذنوب قاطبة، ويتفوقان بلا حدود على كل نوع آخر من الذنوب، حسبما هو واضح منهما، ذلك أن الذنوب وإن كانا موجودين كما قلنا من قبل، هما مختلفان بالنوع ولا يشبه أحدهما الآخر،

ومضادان لما هو الأفضل، وكل ما هو مضاد للأفضل هو الأسوأ، هذا وإنه بالنسبة إلى الذين يذنبون بهذه الطريقة، إن أول الذنوب هو ذبح الرب، وهو الذنب القاضي على كل صلاح ومضاد له ومن غير طبيعته تماماً، والذنب الثاني هو ذبح الاصلاح والتعبد الصحيح، الذي بنعمة المشاركة في الشعاع اللاهوتي هو أساسي، وبشكل طبيعي جيد جداً، ومن هذا المنطلق، إنه في أحوال الأشياء الصالحة، نجد أن سبب الصلاح قد عدّ أفضل من النتيجة والتأثير، ومثل هذا بالنسبة لقضية السوء، فسبب السوء أسوأ من التأثير، وإنه على هذا واضح أن الذين يدخلون عمليات الذبح الشريرة للاصلاح والعبادة والتقوى، بين شياهم المسيح في كنيسة الرب، أسوأ من أسوأ القتل أنفسهم، لابل هم حتى أعظم قرباً من الشيطان ومن المسيح الدجال، وفي هذا أسوأ في درجة الشرور تفوق الآخرين، وبما أن السلطة الأعظم والقدرة اللاهوتية قد منحت إليهم من السماء من أجل العبادة والتأله، وليس من أجل دمار بني البشر، عليهم أن يشعروا بأنفسهم أن عليهم أن يبعدوا عن كنيسة الرب، وأن يطردوا مثل هؤلاء القتل الشريرين، وبناء عليه، إن الكرسي الرسولي الذي هو الأعظم قداسة، والذي إليه بشهادة الرسل قد منحت جميع أنواع السلطات، من قبل قدس الأقداس، ومن قبل مولانا يسوع المسيح، من أجل العبادة والتأله وليس من أجل التدمير، لا يمكنه أن يميل نحو أي ذنب من هذا القبيل، مثل أن يأمر، أو أن يفرض، أو أن يحاول بأية طريقة من الطرق، عمل أي شيء، هو على هذه الدرجة من الكراهية، والرفض والمقت، لدى مولانا يسوع المسيح، وهو مهلك مميت إلى أبعد الحدود بالنسبة للجنس البشري، لأنه سوف يكون بوضوح ضللاً أو فساداً، أو تجاوزاً، لسلطاته المطلقة الأعظم قداسة، أو ابتعاداً عن عرش المجد لمولانا يسوع المسيح، وهو سوف يجلس في مقعد الهلاك والعذاب في جهنم، إلى جانب أميري الظلام، اللذين ذكرتهما أعلاه، ولن يكون هناك أي واحد من الرعايا المخلصين

للكرسي المذكور، مطيعاً له باخلاص وطهارة، إلا إذا فصل نفسه عن جسد المسيح وعن الكرسي المقدس المذكور بالخروج والانشقاق، ولا يمكنه إطاعة مثل هذه الأوامر أو الوصايا، أو القبول بذلك صدوراً عن أي ملك، أو أي واحد مهما كان، حتى لو صدرت عن السلطة العليا في انكلترا، بل إنه من الضروري بالنسبة له وواجبه يقضي بأن يقف ضدهم، وأن يقاومهم بأقصى ما أوتيته من قوة، وبناء عليه، مولاي المبجل، إنه بموجب فضيلة الطاعة والولاء المتوجبة عليّ نحو كل من الآباء والكرسي الرسولي الأعظم قداسة، وصدوراً عن اتحادي معه في جسد المسيح، إنني مع رغبتني الكلية بالاتحاد، وعلى الرغم من مشاعري البنوية وطاعتي، أرفض الطاعة، وأقف ضدها، وأقاوم الأوامر التي وردت في الرسائل التي تقدم ذكرها، وهذا بشكل رئيسي، حسبما أوضحت من قبل، لأنهم كما هو واضح يميلون إلى ما هو ذنب بغيض، ضد مولانا يسوع المسيح، ولأنهم الأكثر شراً وضرراً للجنس البشري، وهم كلية ضد قداسة الكرسي الرسولي، وضد الإيوان الكاثوليكي، كما لا يمكن لقداستك استخدام أية إجراءات قاسية ضدي، لأن جميع حججي في هذه القضية هي ليست معادية أو متمردة، بل دوافعها مشاعر البنوة لدي، ورغبتني بتشريف أبي وأنت بوساطة طاعة الأوامر اللاهوتية، ولكي أجمل كلامي، وأعرض ما أريده بوضع كلمات، إنني أقول إن قداسة الكرسي الرسولي تمتلك السلطة فقط للإعمار والتهذيب وليس للتدمير، حتى تكون القدرة الوافرة لديها الاستطاعة على بناء كل شيء والارتفاع به، وهذه الأشياء التي يدعونها الاسهامات وأعمال التزويد، ليست من أجل التنوير، لكن من الواضح تماماً أنها من أجل التدمير، ولذلك فإن الكرسي الرسولي المبارك لا يمكنه أن يقبلهم، لأن الجسد والدم، اللذان لن يملكا مملكة الرب، قد أوحيا بهم، وليس الأب لمولانا يسوع المسيح الذي هو في السماء».

حول سخط البابا العظيم تجاه رسالة أسقف لنكولن

وعندما وصلت هذه الرسالة إلى البابا لم يستطع أن يضبط غضبه وسخطه، وبعدما أخذ مظهر المتجبر مع نظرة غاضبة قال: «من هو هذا العجوز المخرف، وهذا الأطرش والمجنون الذي يهذي، الذي بوقاحته وطيشه يحكم على أعمالي؟، بحق بطرس وبولص لولا أن كرمي الفطري يمنعني لألقيت به في متاهة لانظير لها من الفوضى والاضطراب، والعار، حتى يكون موضوعاً للكلام، وهدفاً للتعجب والرعب لجميع أنحاء العالم، أوليس ملك انكلترا من أتباعنا، أو بالحري عليّ القول: من عبيدنا؟ ويمكن بأمر منه أن يلقي بالسجن، ويلحق الإهانة بهذا الأسقف العجوز نفسه»، وعندما تليت الرسالة بين اخوانه الكرادلة، استطاعوا بصعوبة ضبط غضب البابا وكبحه بالقول له: «ليس لائقاً بنا يا صاحب القداسة، فرض أية عقوبة قاسية ضد هذا الأسقف، لأننا والحق يقال، إن الذي قاله صحيح، ونحن لانستطيع أن نحكم عليه بالادانة، فهو كاثوليكي، لابل هو مقدس جداً، وأعظم ديانة، وأعظم قداسة، ويمتلك حياة أكثر استقامة منا أنفسنا، وهو في الحقيقة ليس له نظير، ولا يوجد من يتفوق عليه بين جميع الأساقفة، وهذا ما يعرفه جميع رجال الدين من الانكليز، وكذلك من الفرنسيين، ومعادتنا له ستكون بلافائدة، ومصادقية هذه الرسالة، التي ربما أصبحت الآن معروفة من قبل أعداد كبيرة، من الممكن أن تثير الكثيرين ضدنا، لأنه يعدّ فيلسوفاً عظيماً، وهو مجيد تماماً لمعرفة اللغتين اللاتينية والاغريقية، وهو غيور على تطبيق العدالة، وعالم في مدارس اللاهوت، وواعظ للناس، محب للاحسان، ومطارد منكل بالمدنيين»، فهكذا تحدث جايل الاسباني وكان كاردينالاً، ومثله فعل الآخرون، الذين تحركت ضمائرهم، ونصحوا البابا بالتغاضي، وأن يعبر بتلك المسائل صامتاً، خشية أن لا تحدث إثارة بسببها، ولا سيما أنهم كانوا يعرفون أن الخروج والتمزق سوف يحدث على الفور.

حول كرم روبرت أوف سوثندون وإحسانه

وقام في هذا العام أيضاً روبرت أوف سوثندون Sothindon، وكان كاهناً ومستشاراً خاصاً للملك، صدوراً عن مشاعر الإحسان، وتقديراً منه للمال الذي جرى صرفه من قبل دير القديس ألبان، فأعطى كنيسة هارتبورن Hertburne، التي كان يمتلكها كلية، ومستحوذ عليها تماماً، قام باعطائها إلى الدير المذكور، حتى يمتلكها تماماً، ويتصرف بها بما يفيد، كما أنه أنعم أيضاً بمنفعة ماثلة على كنيسة القديس مارتين أوف باتل Battle، بإعطائها كنيسة جيليلهام Jeilham، ومثل هذا أنعم بكنيسة هوسبنغ Hospinge على فرسان الاسبتارية في دوفر، وبلغ مورد المنحة الأولى سنوياً مبلغاً مقداره ثلاثمائة مارك، أما المنحة الثانية فكانت مائة مارك، أما الثالثة فكانت ستين ماركاً، وعملت المنح الثلاث جميعاً صدوراً عن التقوى، ولزيادة الضيافة وتقديمها ظاهرة إلى كل من الناس والخيول.

موت رالف راعي دير رامسي

في أمسية عيد صعود العذراء المباركة، مات المبجل رالف، راعي دير رامسي، تاركاً ديره عرضة للنهب من قبل مخلوقات الملك في أيام الحصاد، ثم عهد بالعناية بالدير إلى يود Ude، وكان كاهناً من البلاط، وأنا سوف أعبر بأعماله بصمت خشية أن تصل إلى مسامع خصومه، وجرى الاستيلاء على أوعية من الفضة كان وزنها خمسة وثلاثين ماركاً، وخمرة منتخبة، وخيول، وحيوانات من الغابة، من أجل استخدامات أوصياء المملكة، وأبعدوا بدون احترام عن الكنيسة، والذي كان أكثر قسوة وحدة، هو استخراج مبلغ من المال من العاملين في أملاك الدير، وذلك من قبل الذين كانوا متوجب عليهم حراسة الذين لاآباء لديهم وحمايتهم، وعلاوة على ذلك جرى ارسال المعلم نيقولا بلمبتون Plumpton والمعلم جون ايرلاندا، وكانا كاهنين

لدى الملك، إلى بلاط روما، في سبيل معارضة ثم إلغاء الوعود الملكية التي تقدم ذكرها أعلاه، وقد تلقيا أوامر بأن لا يوفرا نفقة في سبيل تنفيذ غايات الملك، وفي الوقت نفسه، وخلال ذلك العام كله، قام أسقف لنكولن، الذي تنبأ بأن الملك سوف يضلل بوساطة مشورة شريرة حتى يخرق جميع وعوده، لذلك أمر بالتفوه بقرار الحرمان الكنسي ضد جميع الذين سيتولون خرق صكوك الامتيازات المتقدم ذكرها، في جميع أرجاء أسقفيته، وفي أي مكان توفر فيه اجتماع للناس، لكن مما يؤسف له كانت مفاتيح الكنيسة فيما بينهم محل استخفاف وتحدي.

الطوفان المدهش الذي تسببت به الأمطار

ووقعت في حوالي الوقت نفسه واقعة مدهشة، كان حولها هناك أحاديث طويلة، هي أنه على الرغم من أنه كان هناك في ربيع هذا العام وصيفه جفاف كبير وطويل، حدث في نهاية الصيف وفي الخريف فيضان للأنهار، فقد غمرت المياه الشواطئ، وارتفعت إلى مستوى قمم التلال، وغطت المناطق المجاورة، ومجدداً حدث في نهاية الخريف وبعد عيد القديس ميكايل أن كان هناك فيضان نجم عن أمطار غزيرة، ثم اختفى وأعقبه جفاف كبير ونقص لا بل ندرة في مياه الأنهار والينابيع، إلى حد أن الذين أرادوا طحن القمح أرغموا على حمل حبسهم إلى مسافة تقارب رحلة يوم من أجل طحنها، ووقعت واقعة مشابهة ومدهشة في ربيع هذا العام نفسه، جاءت معاكسة لطبيعة الفصل، لأنه في أيام الاعتدال الربيعي يكون المناخ كله معتدلاً ولطيفاً، ويكون هناك هدوء لجميع العناصر.

الاحتفال الفخم بعيد القديس إدوارد

اجتمع بناء على أوامر من الملك عدداً كبيراً من الأساقفة والنبلاء، في عيد القديس إدوارد، الذي يحل خلال أسبوعين من عيد القديس

ميكائيل، واحتفل بهذا العيد من خلال إدارة الايرل رتشارد والملكة بشكل رائع، ووفق طريقة لم يكن هناك قط ما هو أبهى منها.

كيف حصل ملك إنكلترا على ملكية قلاعه في غسكوني

وفي نهاية صيف هذا العام، حصل ملك انكلترا بعد بذل كثير من الجهود، وبعد اتفاق كبير للمال من دون فائدة، على تملك قلاعه الخاصة في غسكوني، حيث منح عروضاً جيدة للذين كانوا محاصرين فيها، وفي الحقيقة هو لم يلحق بهم كبيراً من الأذى والأضرار، مع أنهم استحقوا ذلك كثيراً، واقتصرت الأضرار، كما شاهدوها بأنفسهم، وعرفوها، على تدمير كرومهم، وقد رمى المحاصرون يومياً أحجار طواحين كبيرة ومقذوفات ذات أحجام مدهشة، على جيش الملك، وقد جرى حمل هذه المقذوفات إلى انكلترا، حتى يجري عرضها بمشابة أشياء غريبة جداً، وعندما جرى التضييق عليهم وحوصروا عن قرب، أرسلوا مراراً وبشكل سري رسلاً إلى ملك اسبانيا، رجوه فيها أن يساعدهم، على أساس أنهم من رعاية المخلصين، وفي أثناء حصارهم على هذه الصورة، زادوا من عدوانيتهم، ولجأوا إلى الغلو في إجراءاتهم، وعندما أرغموا على مغادرة قلاعهم بمشابة أسرى لدى الملك، ذهب إخوة الملك لأمه إليه، وطلبوا منه تسليمهم الأسرى، حتى يتولوا معاملتهم كما يريدون ويرغبون، وقد أثار هذا المطلب الوقح دهشة وحفيظة العديد من أصدقائه، وقام هو على كل حال بتوفير حياة الذين كانوا أعداء مكشوفين له، وذلك بباعث من الرحمة لديه، وهو الذي واجه متاعب كبيرة في اخضاعهم، وفعل هذا من دون تقدير منه لأحكام الانجيل التي تقول: «أحضروا الذين رفضوا تقديم الطاعة لي حتى أكون حاكماً عليهم، واذبحوهم بحضوري»، وبذلك ماتت سمعته الجيدة، وتلاشت كل مظاهر الاحترام له، بحكم أنه تولى ظلم رعيته من أبناء بلده، وأظهر اللطف نحو الأجانب.

كيف أرسل ملك إنكلترا سفراء إلى ملك إسبانيا

ثم قام الملك، خشية منه من غدر الغسكونيين وخيانتهم، وأن يقدموا على التخلي عنه والالتحاق بملك اسبانيا، الذي كان له نفوذ كبير عليهم، فأرسل أسقف باث، وجون مانسيل، كاهنه المفضل، بسفارة خاصة إلى ذلك الملك، يرجوان بتواضع الحصول على صداقته والتحالف معه، ويطلبان منه اعطاء اخته لأمه لتكون زوجة لابنه الأكبر، والذي هو ولي عهده الشرعي، أي ادوارد، فهو — أي ملك انكلترا — كان قد تنازل عن غسكوني إلى ابنه ادوارد المتقدم ذكره، ولم يكن ذلك ليختلف كثيراً، أو بعيداً عن المنحة التي عملت، أو التي سوف يجري منحها إلى أخت ملك اسبانيا المتقدم ذكرها، إذا ما تزوجت من ابنه ادوارد، وأوصل السفيران المذكوران مهمتهما إلى التمام، وحصلوا بعد متاعب جمة، وقلق عظيم على صداقة ملك اسبانيا وعلى نواياه الطيبة وتمكن أيضاً من الحصول على صك حقوقي فخم، كان وزن الختم الذهبي عليه يعدل وزن مارك من الفضة، وقد ورد في الصك فقرة خاصة، أقحمت فيه خصيصاً، تحدثت وأفادت بأن ملك اسبانيا قد تخلى عن كل ادعاء له مهما كان نوعه أو سيكون في غسكوني، وذلك بموجب فضيلة منحة الملك هنري الثاني، ثم تأكيد ذلك وتثبيتته من قبل الملكين رتشارد وجون، وجاء ذلك بفضل الإجراءات البارة لهذين السفيرين، أو بالحري أن تقول جهود جون مانسيل وحده، وتم الحصول أيضاً على بعض الامتيازات، لصالح الحجاج الذين يذهبون إلى القديس جيمس، ومنفعة حق الإقامة حسب رغبتهم في المدن التي هي تحت حكم ملك اسبانيا، وكذلك شراء الطعام لأنفسهم كما يريدون، دون أن يطلبوا الاذن من الذين يتولون رعايتهم.

ثم إن ملك اسبانيا المذكور طلب وجوب تقديم إدوارد إليه، حتى يتمكن من فحصه والتعرف على براعته ومعارفه، ولينعم عليه بمرتبة

الفروسية، مع جميع التشريفات الجديرة بشاب من مثل هذه المرتبة العالية، وأفرحت هذه النهاية الذكية والإدارة الكاملة لجميع الشؤون، ملك انكلترا، لكنه شعر بخوف عظيم، ولاعجب من ذلك، فقد خاف من ارسال ابنه الأسن، والوريث لجميع أراضيه، إلى ملك اسبانيا، الذي كان يعيش على بعد كبير، وخشي من أن يجري تضليل ذلك الملك باثارة النهم لديه والشروع، فيحتفظ به لديه بمثابة رهينة، أي أن يرتن لديه ذلك الأمير الذي سلم إليه من دون عناية وتقدير، وأخيراً قدم جون مانسيل — على كل حال — شهادة على صلاح ملك اسبانيا وصدقه، وأعلن أنه لن يقترب، كما أنه لن يسمح باقتراف، مثل هذا الاثم، وارتفعت ثقة الملك، وكان راضياً بعد ذلك بإصدار الأوامر بأن لا يذهب ادوارد لوحده، بل أن ترسل ملكته معه، الأمر الذي جرى تنفيذه، وحدث أثناء مدة تلك الحرب كلها، أنه كان كلما اقترب أي انكليزي ذنباً من الذنوب، كان يعاقب بشكل يتجاوز ما يستحقه ذنبه، لكن في حال اقتراف أجنبي لإثم من الآثام، كان يعاقب قليلاً، أو حتى كانت القضية تمر من دون عقوبة، وكانت هذه الحقيقة موضع تساؤل، ولم يكن ذلك من دون سبب مسوغ.

حول عدوان حاد قام به المسلمون ضد الصليبيين

وقام في هذه الآونة بعض النبلاء من المسلمين الشرقيين، بحكم كراهيتهم للصليبيين، بالدخول بتحالف في سبيل تدميرهم، وعاثوا في أراضهم كما أرادوا، واجتاحوها من دون أية معارضة، حتى وصلوا إلى أبواب عكا نفسها، وقد تسببوا بجبروتهم بكثير من الأذى.

حول المجاعة الكبيرة في غسكوني

وفي هذه الآونة أيضاً، عانى جيش الملك من نقص كبير في المؤن، إلى درجة أن الدجاجة الواحدة بيعت بستة بنسات استيرلينية، وبيع مكيال

القمح مقابل عشرين شلناً، والرابع من الخمر مقابل شلنين وأكثر،
والرغيف الواحد من الخبز الذي وزنه باوند واحد بينسين أو بثلاثة،
وهكذا صار بالكاد يمكن لفارس جائع أن يكتفي بانفاق شلنين من
الفضة للانفاق يومياً على نفسه وعلى تابعه وعلى غلامه، وعلى فرسه.

كيف جرى إعفاء راعي دير القديس ألبان

والدير معه من الدين المستحق لرتشارد أوكسهي

في الثالث والعشرين من شهر تشرين الأول في هذا العام، جرى
سحب قيد رباط الدين الذي كان راعي دير القديس ألبان والدير
خاضعين له بموجب قرض رتشارد أوكسهي Oxhay من يدي
اليهودي الياس اللندني، والدين كله ألغي، وجرى الإعلان عن ذلك في
مجمع اليهود في لندن، من أن راعي الدير المذكور والدير قد أعفيا من
كل ادعاء ضدهما فيما يتعلق بذلك الجانب، منذ بداية الخليفة حتى ذلك
الحين، وجرى الحصول على وثيقة من قبلهم ثم تم الإعلان عنها.

كيف انتشرت سمعة ملك إسبانيا في الخارج

وفي هذا الوقت انتشرت سمعة ملك اسبانيا وشهرته، لكن ليس
بقدر سمعة ملك انكلترا وشهرته، وجاءت ألقاب الملك الاسباني في
وثائقه كما يلي: «ألفونسو، بنعمة الرب ملك قشتالة وليون، وغاليشيا
وطليطلة، وميورقة، وقرطبة، وجيان»، وكانت مملكة ملك انكلترا أكبر
بكثير وأضعافاً مضاعفة لمملكته، حيث كان قد عهد بايرلاندا مع كثير
من ممتلكاته الأخرى إلى ابنه، لكن هذه القضايا تحتاج إلى عرض
خاص.

النصيحة الحكيمة التي قدمها ملك إسبانيا إلى ملك إنكلترا

أصبح الآن ملك اسبانيا صديقاً كبيراً لملك انكلترا، وبعدها سمع عن

ممارساته، حزن، وتأثر بروحه اللطيفة وبحكمته، فأرسل رسالة إليه، أي إلى ملك انكلترا، يحثه فيها على أن يحدو حذو الملوك الصالحين والأمراء الجيدين، الذين كان شعارهم منذ العصور الأزلية كما يلي: «هو سيكون حملاً لعبيده وجندياً تابعاً، وأسدأ نحو الغرباء والعصاة»، وتمت الإشارة إلى هذا القول الذي ذكره لإثارته وتشجيعه على أن يعمل هكذا، وأن لا يستمر بعد الآن في ظلم رعاياه الطبيعيين، وأن يرعى الأجانب والغرباء وأن يدعمهم، لكن:

ماهي الفائدة المتوخاة من بذل الجهد

في إلقاء البذار على أرض قاحلة؟

وكان لدى ملك اسبانيا ثمانى ممالك هي: قشتالة، وغاليشيا، واشبيلية، وقرطبة، وميورقة، واشباليا Hispalis، فهؤلاء جميعاً بين يديه وهم يخضعون إلى القوانين المسيحية، ولديه أيضاً ملكين مسلمين يدفعون الجزية إليه، كما ظهر في الصك الذي أرسله إلى ملك انكلترا.

حول المرض الشديد الذي أصيب به أسقف لنكولن

وحوالي ذلك الوقت نفسه، وعندما كانت أيام الشعرى (من أوائل تموز حتى أوائل أيلول) تمارس تأثيرها الشرير، تمدد روبرت أسقف أوف لنكولن مصاباً بمرض شديد، وكان ذلك في عزبة اسمها بوكدون Buckdon، ولذلك استدعى إليه المعلم جون أوف سينت جايل، وكان راهباً من طائفة الدومينيكان، وكان بارعاً في فن الطبابة والمداواة، ومحاضراً متعلماً باللاهوت، من أجل أن يحصل منه على المواساة، لكل من جسده وعقله، لأنه عرف، وكأن ذلك جاء بوساطة إلهام، أن المحن مقبلة لتحل بالكنيسة خلال وقت قصير، ونحن غير مجهزين ضدها، ولهذا السبب أمر الكهنة المؤسسين في جميع أرجاء أسقفيته بإعادة قراءة قرار الحرمان الكنسي، من دون توقف ضد الذين يخرقون صكوك

الحريات العظيمة التي فيها امتيازات المملكة، وذلك حيثما وجدوا أناساً مجتمعين مع بعضهم، وقاوم بعض أصدقاء البلاط، والكهنة وكذلك بعض الرجال العلمانيين هذا الأمر بتمرد، وكدسوا الإهانات على رجال الدين، وبناء عليه نحن على يقين أنهم بقيامهم بهذا الإجراء، قد سقطوا في شرك التكفير، وعندما كان الأسقف يتحادث في أحد الأيام مع الراهب جون الطيب المتقدم ذكره، أخذ الأسقف يتحدث عن أعمال البابا، فانتقد بحدة اخوانه الرهبان الدومينيكان والآخرين، كما أنه لم يوفر الرهبان من طائفة الفرنسيسكان، لأن طائفتهم تأسست على الفقر التطوعي، وهو الفقر بالروح، في سبيل أن يتمكنوا من ممارسة حرية أعظم، وليس في تلطيف أخطاء الذين بالسلطة، بل أن يقوموا بلومهم ونقدهم بوساطة حدة الروادع، لأن:

المسافر، الذي حافظه نقوده خفيفة

سوف يغني مع أن قطاع الطرق على مشهد منه.

وقال الأسقف: «إنه بالنسبة لك أيها الراهب جون، وبقيتكم أنتم الدومينيكان، إنكم بقدر ماتحجمون عن نقد ذنوب النبلاء بجرأة، وبقدر ما تتمنعون عن الكشف عن جرائمهم، أنا أعدكم هراطقة منحطين» وأضاف قائلاً: «ماهي الهرطقة؟ أعطني تعريف محدد للكلمة»، ولأن الراهب تردد في الجواب، ولم يتذكر معنى أصيلاً، أو تعريفاً محدداً للكلمة، استطرد الأسقف مضيفاً معطياً ترجمة صحيحة من الاغريقية إلى اللاتينية قائلاً: «الهرطقة موقف جرى اختياره من قبل المشاعر الإنسانية، هو مضاد للكتابات المقدسة، ويجري التبشير به بشكل مكشوف، ويجري الدفاع عنه بعناد وإلحاح»، والهرطقة في الاغريقية، هي الانتخاب في اللاتينية، وعلى هذا الأساس انتقد الأسقف الأساقفة، خاصة الرومان منهم، من أجل إيكالهم مهام شفاء النفوس والعناية بها إلى أقربائهم، الذين كانوا غير مناسبين، وضعفاء غير أكفاء، بسبب أنهم

كانوا شباباً وبسبب الحاجة إلى المعرفة، واستطرد يقول: «إن إعطاء وظيفة العناية بشفاء النفوس إلى طفل، هو موقف أي أسقف جرى اختياره بوساطة المشاعر الإنسانية، على أساس الجسد أو العلاقة الدنيوية، وهو مضاد للكتابات المقدسة، التي تمنع أن يتولى الرعاية الذين غير قادرين على منع الذئاب، ولقد جرى التبشير بهذا، لأن هذا مؤيد بشكل مكشوف بصكوك حريات تحمل الأختام أو التواقيع، وجرى الدفاع عنها بعناد، لأنه إذا ما حاول أي واحد أن يقف ضدها يجري تعليقه من شراكة المؤمنين، وحرمانه كنسياً، وإثارة الحرب ضده أمر مقدس ومشروع، وكل من ينطبق عليه تعريف الهرطقة وهو متبني لذلك، هو هرطقي، هذا وعلى كل مسيحي مخلص واجب الوقوف ضد الهرطقة بقدر ما أوتي من قوة، وبناء عليه، إن الذي بإمكانه مقاومة الهرطقة ولا يفعل ذلك، هو مذنب، وقد أظهر نفسه أنه يجذب الهرطقة، وفقاً لقول غريغوري: إن الذي يخفق في الوقوف ضد جريمة ظاهرة، ليس بريئاً من التهمة في أنه شريك سري في اقترافها، هذا وإن الرهبان الفرنسيين، وكذلك الرهبان الدومينيكان، هم فوق غيرهم، يتوجب عليهم الوقوف ضد مثل هذه العقيدة، ويحكم فضيلة وظيفتهم، لديهم القدرة على التبشير، وبسبب فقرهم هم أكثر حرية في ممارسة ذلك العمل، وهم لا يذنبون فقط إذا لم يقفوا ضدها، بل إذا ما جذبوها، لأن الرسول يقول في الفقرة الأولى من رسالته إلى الرومان: «الذين إذ عرفوا حكم الله أن الذين يعملون مثل هذه يستوجبون الموت لا يعملون فقط بل أيضاً يسرون بالذين يعملون»، وبناء عليه يمكننا الوصول إلى محصلة، أنه ما لم يقم البابا نفسه بالتوقف عن اقتراف مثل هذه الخطيئة، وكذلك ما لم يظهر الرهبان المذكورين أنفسهم أنهم مهتمين بالتخلي عن مثل هذه العقيدة، يستحقون موتاً سرمدياً، وهناك أيضاً مرسوم يقول بأن مثل هذا الإثم يعني هرطقة، وبناء عليه من الممكن دعوة البابا هكذا، لابل ينبغي دعوته هكذا على هذا الأساس».

شكوى أسقف لنكولن من الحبر الروماني

وكانت الليالي آنذاك طويلة (لأنها كانت الليلة الثالثة قبل عيد القديس دينس)، وكان الأسقف قد أنهكه المرض، وكان قد هذه التعب، لذلك أمر بإحضار بعض كهنته، علّه يستطيع الترويح عن نفسه بالحديث معهم، وقام الأسقف بابداء الحزن الشديد حول فقدان النفوس، بسبب شره البلاط البابوي، وقد خاطبهم بحزن وأسف كما يلي: «جاء المسيح إلى العالم ليربح النفوس، وبناء عليه إذا كان هناك أي واحد لا يخاف من تدمير النفوس، ألا يستحق أن يحمل اسم المسيح الدجال؟ لقد عمل الله الدنيا كلها في ستة أيام، لكن من أجل إصلاح خطيئة إنسان، عمل لمدة تزيد على الثلاثين سنة، أفلا ينبغي —بناء عليه— عدّ المدمر للنفوس عدواً للرب، ومسيحاً دجالاً؟ فلقد قام البابا باعتياده على وسيلة استخدام عبارة «دون التقيد» إلخ، بإلغاء امتيازات الأحرار الرومان من أسلافه، من دون حياء، وهذا لم يقترف من دون إلحاق الأذى والضرر بهم، لأنه بعمله على هذه الشاكلة، ألغى تماماً، ودمّر الذي بذل كثير من القديسين جهوداً كبيرة لبنائه، لابل إنه استخف بجميع القديسين وازدراهم، وبناء عليه أليس من العدل أن يستخف بالمستخف وأن يزدري وفقاً لكلام اشعيا: «الويل لك أيها الرافض، أولاً تستحق أنت أن ترفض؟» فمن الذي يحافظ على امتيازاته؟ وجواباً على هذا، إن البابا، بناء عليه يدافع عن خطيئته، وهو يستحق أن لا يمتلك السلطة على الآخرين، وبناء على ذلك إن واحداً اسمه البابا لا يمكنه أن يرغمني، فأنا الذي بالفعل أيضاً بابا»، وقال الأسقف: «إن جوابي على هذا هو: يبدو لي أن الذين يبحدون وسط مخاطر العالم، والذين فرحين في أمان الميناء ليسوا متساوين، والتسليم بأن أي بابا يمكن أن يكون محفوظاً، بعيد عني قول غير ذلك، ذلك أن المخلص يقول: «إن الذي هو الأدنى في ملكوت السموات هو أعظم

من يوحنا المعمدان، وأعلى من الذين لا يوجد أعلى منهم ممن ولدتهم امرأة»، وعلى هذا، أوليس أي بابا، أعطي امتيازات أو ثبتهأ أعظم من البابا الحالي؟ من المؤكد، كما يبدو لي هو أعظم، وبناء عليه، لديه سلطة على واحد أدنى منه، ونتيجة لهذا، ينبغي أن لا يقوم هذا البابا بإلغاء قرارات أسلافه، أوليس البابا هو الذي يقول في حديثه عن معظم أسلافه: كذا وكذا واحد صاحب ذكرى تقية، أو سلفنا، إلخ؟ وغالباً ما يقول أيضاً: إننا نسير على خطى سلفنا المقدس، إلخ؟ فلماذا، على هذا الأساس، يقوم هؤلاء الذين يتبعون الخطوات بتدمير الأسس التي تولى الذين من قبلهم ارساءها؟ فلقد قام عدد من الأخبار الرسولين بتأكيد كل امتياز جرى منحه من قبل بلا استثناء، أوليس العديد الذين جرى انقازهم بالنعمة اللاهوتية أكثر من واحد فرد مايزال تحت الخطر؟ ومجدداً إن آباءنا الأقدمين، الأخبار الرسولين، كانوا من قبله بالزمن، وقد نالوا الاحترام من قبل العصور القديمة، ورفع شأنهم، ونحن علينا أن ننظر إليهم باحترام، وقد جرى الحفاظ على هذا النظام من قبل بندكت المقدس، وصاحب الفضائل، والمبجل، والذي امتلأ بروح جميع القديسين، لدى تأسيسه لنظامه، لأنه فضل الذين جاءوا أولاً للالتحاق بالطائفة، مهما كانت مراتبهم، وآثرهم على الذين التحقوا فيما بعد، حتى وإن كانوا رجالاً أصحاب مراتب، وسلطة، وأمر بتقدير القدماء وأن ينظر إليهم بالاحترام الأعظم، ولذلك، من أين نبع هذا الأذى المتهور الذي يستهدف إلغاء امتيازات مثل هذا العدد الكبير من القديسين.

شكواه المريرة من ظلم الكنيسة

وعلاوة على ذلك، مع أن كثيراً من الرجال الرسولين، قد آذوا الكنيسة، قد أنزلها هذا الواحد إلى أسوأ درجة من درجات العبودية، وجعلها أدنى من الآخرين، وزاد كثيراً من ارباكاتها، لأنه بسبب السماسرة، الذين يظهرون التعامل بالربا في أيامنا هذه، حسبها رأينا

وعرفنا، فإن الآباء المقدسين والعلمين، الذين من بينهم: واعظ فرنسا المشهور، راعي دير فلي Flaye الذي هو من طائفة السسترشيان، والمعلم جيمس دي فيتري Vitry، وستيفن المنفي، رئيس أساقفة كانتربري، والمعلم روبرت دي كوركون Courcon، جرى طردهم من فرنسا، لأنهم بوعظهم قد أيقظوا المشاعر، وقام هذا البابا بحماية هؤلاء السماسرة في انكلترا، التي لم تتعرض قط من قبل للمعاناة من مثل هذا الوباء، وإذا ما قام أي واحد بالشكوى منهم أو بنقدهم، ينال المتاعب والخسارة، كما شهد على ذلك روجر أسقف لندن، والعالم كله يعرف أن الربا قد عدّ ممقوتاً في العهدين القديم والجديد معاً، وهو محرم من قبل الرب، والآن يقوم تجار البابا أو وكلاؤه — في سبيل اغضاب اليهود — بممارسة أعمال الربا بشكل مكشوف في لندن، ويبدعون مختلف الخطط للظلم ضد عبيد الكنيسة، وبشكل خاص ضد الرهبان، حيث أنهم يرغمون الذين تعرضوا لضغط العوز، على ممارسة الكذب، وأن يضعوا تواقعهم على كتابات مزيفة، ومثل هذه الإجراءات هي اعتراف عملي، وممارسة لعبادة الأوثان، ومن ثم التخلي عن الحق الذي هو الرب، وعلى سبيل المثال إنني أقبل بقرض مقداره مائة مارك مقابل مائة باوند: وإنني هنا أنا مرغم على إعطاء ورقة مكتوبة، والتوقيع بالاسم، وفيها أعترف بأنني تقبلت قرضاً مقداره مائة باوند ينبغي سداذه عند نهاية العام، وإذا مارغبت أن تدفع إلى مراي البابا المال الذي اقترضته خلال شهر، أو خلال بعض الوقت الأقل، هو لن يتسلم منك أقل من المائة باوند كاملة، وهذه شروط أكثر ظلماً من شروط اليهود، لأنك متى أردت أن تعيد إلى يهودي المال الذي أقرضك إياه، هو سوف يتسلمه منك بتقدير وشكر، ومع فائدة تتوافق فقط مع الوقت الذي أقرض به المال، وعلاوة على ذلك نحن نعلم بأن البابا قد فرض على كل من الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان، أن يحضروا عند الذين يموتون ليطلبوا

منهم بكل عناية، وليحاولوا اقناعهم بإلحاح، ليعملوا وصاياهم لمنفعة الأرض المقدسة ولنجدتها، وليلزموهم بحمل الصليب، من أجل أنهم إذا ما تعافوا من مرضهم، يمكن لهؤلاء الرهبان خداعهم حول ممتلكاتهم الأساسية، أو أنهم إذا ماتوا، وقتها من الممكن استخراج الكثير من المنفذين لوصاياهم، كما أنه باع أيضاً الذين حملوا الصليب إلى رجال علمانيين، مثلما عمل اليهود عادتهم من قبل، بيع الأغنام والثيران في الهيكل، ولقد رأينا رسالة صدرت عن البابا، نجد أنه ورد فيها، أن الذين عملوا وصاياهم، أو حملوا الصليب لمساعدة الأرض المقدسة، سوف يتلقون غفراناً يتماشى مع نسبة المال الذي قدموه من أجل هذا الغرض، وعلاوة على ذلك قام البابا في كثير من رسائله، بتوجيه الأساقفة لتجهيز كذا وكذا شخص بمنافع لاهوتية، وهم أشخاص غرباء وغائبين، وبعضهم غير لائقين تماماً بالمنافع، لكون أحدهم كان لا يعرف لغة المحليين حتى يكون بذلك قادراً على الوعظ، أو تلقي الاعترافات، ولا يمكنه حتى أن يستقر ويسكن ليتولى تدبر حاجيات الفقراء، ولاستقبال المسافرين، وقد أمر بأن تكون المنفعة واحدة من نوع يجعل هذا الغريب نفسه يفكر ويتمعن فيما إذا كانت تستحق القبول، ومرة ثانية نحن نعلم بأن البابا قد كتب إلى راعي دير القديس ألبان يأمره بتزويد واحد اسمه جون أوف كيمزان Came-zan — هو لم يره قط — بمنفعة موائمة، وفي وقت قصير، وبناء عليه جرى تعيين ذلك الشخص في كنيسة تساوي أربعين ماركاً، وأكثر، سنوياً، وهو لم يكن حتى راضياً بهذا وقانع، لذلك تشكى إلى البابا، ومجدداً، كتب قداسته إلى راعي الدير المذكور، أن يتدبر منفعة أكثر ربحاً ليعطيها إلى الكاهن المذكور، ومع هذا أن يبقى لصالحه — أي البابا — أعطية الكنيسة المتقدم ذكرها.

وبعد مضي أيام قلائل بعد ذلك، ذهب شخصان وضيعان إلى دير

الراعي المذكور، وهما يحملان رسائل من البابا، كان من بين محتوياتها أمراً إلى راعي الدير أن يدفع على الفور باليد، ومن دون أية مشاكل مبلغ عشرة ماركات إلى هذين الشخصين النييلين، حتى يتمكنوا من تدبر شؤونهما، ووضع راعي الدير حداً لتهديداتهما ولكلامهما المتعجرف بدفع المال، وبشأن الرجال المقدسين والمتعلمين، الذين غادروا هذا العالم ولن يعودوا، قام البابا حتى يحاكي الرب، بتعيين جباة لاستخراج المال بحجج متنوعة، وقد تولوا القيام بهذا العمل، وإن كانوا مكرهين، حتى لا يظهروا أنهم غير طائعين، وهكذا صاروا مع كونهم دنيويين أكثر دنيوية، ودلت خشونة ملابسهم، التي ارتدوها على كذبهم، وبالقدر نفسه تسترهم تحت غطاء الفقر على سكنى روح التجبر فيهم، وبناء عليه بات من غير الممكن ارسال نائب بابوي إلى انكلترا، مالم يجري طلب إذن الملك من أجله، ويرسل البابا نواباً مزيفين وموهين، ومع أنهم لا يرتدون ملابس حمراء، هم متسلحون بسلطات كبيرة، وليس من الصعب إيجاد مثل يستشهد به، لأن عدداً كبيراً من هذا النوع جاءوا مراراً، أن نتولى ذكرهم بالاسم سوف يكون مؤذياً للسامعين، ومن جديد إن الذي لم أره بالعادة، هو أن البابا قد قام، في سبيل مصلحة دنيوية، فسمح إلى أي واحد بشغل منصب الأسقفية، مع أنه لم يكن أسقفاً، بل منتخب بشكل أبدي، محافظاً أيضاً على الموارد القديمة، الأمر الذي يؤكد الأمر التالي، هو أنه قد سمح له بأخذ حليب الشاة وصوفها دون أن يتولى طرد الذئاب وابعادهم.

وبعد استحواذهم على هذه التجاوزات المقيتة وأشياء مزدرة أخرى، مثل كل نوع من الشره، والربا، والسيمونية، والسلب، وكل نوع من الترف، وممارسة الجنس، والنهم، وحب الزينة، المستبد بذلك البلاط والمتحكم به، وبذلك انطبق بعدل عليهم القول: «أن تشبع

نهمه العالم كله لا يكفي، وأن تلبي رغبات مسراته، جميع عاهرات العالم غير كافيات»، ثم قام ذلك البلاط ببذل كثير من الجهود، وقام بكثير من الإجراءات، على أمل أن يظهر بأن الأردن سوف يصب في فمه، ولذلك فغر عن فكين مفتوحين وهو راغب في أن يدعي لنفسه تملك حاجيات أولئك الذين ماتوا من دون وصية، وكذلك أيضاً الذين منحوا بوضوح ممتلكاتهم بموجب وصية، وتصرفوا حتى يفعلوا هذا بحرية أكبر، بأن جعلوا الملك متورطاً معهم وشريكاً في سرقاتهم»، ثم إنه أضاف يقول: «ولن تستطيع الكنيسة أن تتحرر من أغلال عبوديتها، إلا بحد السيف الدموي، وهذه الشرور هي الآن خفيفة، لكنهم خلال وقت قصير — خلال ثلاث سنوات كما أخن — سوف يصبحون أكثر جدية»، وعند الفراغ من هذا الكلام النبؤي، الذي تفوه به بكل صعوبة، والذي قوطع بالآهات والدموع، انبسط لسانه، وعجز عن التنفس، وأصبح صامتاً، لأنه فقد القدرة على الكلام.

حول وفاة روبرت أسقف لنكولن

وهكذا بناء عليه، غادر من منفى هذه الدنيا، التي لم يجبها مطلقاً، روبرت المقدس، الأسقف الثاني للنكولن، وقد مات في عزبته بوكدون Buckdon، في ليلة عيد القديس دينس، وقام خلال حياته بنقد البابا والملك بشكل مكشوف، وأصلح القساوسة، وقوم الرهبان، وفيه فقد رجال الدين، المدير، والكاهن، والموجه — العالم والداعم — وفقد فيه الناس الواعظ، وقد أظهر نفسه مضطهداً للعاجزين عن ضبط شهواتهم الجنسية، وفاحص مدقق لمختلف الكتابات المقدسة، مكافح للرومان وماقت لهم، وكان كريماً مضيافاً، ومسرفاً، وأديباً، ومشرقاً، ودمثاً عند المائدة، ومعتدلاً في تناول الأغذية الجسدية، وتقياً مخلصاً عند المائدة الروحية، وباكياً نادماً، وكان في ممارسته لواجباته الأسقفية، لطيفاً، لا يعرف التعب، وجديراً بالاحترام.

حول الموسيقى التي سمعت في السموات

خلال الليلة التي غادر فيها الأسقف المذكور إلى الرب، سمع فولكس Faulkes أسقف لندن في الهواء من فوق صوتاً رائعاً، وعظيم القبول، وموسيقى أنعشت أذنيه وقلبه وركز انتباهه على الوقت، وعندما كان يصغي إلى الموسيقى (ذلك أنه كان في ذلك الوقت مقيماً قرب بوكدون) قال لبعض الأشخاص الذين كانوا واقفين إلى جنبه: «هل سمعتم أنتم أيضاً الذي أنا أسمعه؟» وبناء عليه سأله: «مالذي تسمعه يا مولانا؟» فأجابهم الأسقف: «إنني أسمع صوتاً غير اعتيادي، مثل صوت جرس دير كبير يقرع لحناً بهيجاً في الهواء من أعلى، ومع أنهم أصغوا بكل عناية، أعلنوا أنهم لم يسمعوا شيئاً، وبناء عليه قال الأسقف لهم: «بحق الإيمان الذي أدين به للقديس بولص، إنني أعتقد أن أبانا المحبوب، وأخانا، ومعلمنا، الأسقف المحترم للنكولن، يعبر من هذا العالم ليأخذ مكانه في ملكوت السموات، وإن هذا الصوت الذي سمعته قد قصد منه، تقديم انذار مكشوف لي حول ذلك، لأنه لا يوجد دير قريب من هنا، فيه جرس من ذلك النوع، ومرتفع إلى هذه الدرجة، دعونا نبحث في القضية على الفور، وبناء عليه قاموا بالتقصي، فوجدوا، حسبما تبرهن بإفادة جميع آل بيته، أنه في تلك الساعة بالذات، غادر الأسقف هذا العالم، وبالنسبة لهذه الواقعة الرائعة، أو بالحري، المعجزة الأولى، جرى الإخبار بها بمثابة حقيقة، وحملت كينة إلى كاتب هذا الكتاب، من قبل المعلم جون كراتشيل Cratchale، وهو كاهن وثيق الصلة بالأسقف، وواحد كان موضع احترام كبير، وكان صاحب سلطة عالية بين أتباعه وأصدقائه.

حول أصوات الأبواق والأجراس التي سمعت في السماء

وفي تلك الليلة نفسها، كان هناك بعض الرهبان من طائفة الفرنسيسكان، مسرعين نحو بوكدون، حيث كان روبرت أسقف

لنكولن مقيماً (لأنه كان المواسي والأب للرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان) وأثناء عبورهم للغابة الملكية في فوبرج Vauberge, بما أنهم كانوا جاهلين لتعرجاتها أضاعوا طريقهم، وعندما كانوا يتجولون ويبحثون، سمعوا في الهواء أصوات أجراس، ميزوا بوضوح بينها صوت جرس كان لحنه جميلاً جداً وحلوا لايشبه أي شيء سمعوه من قبل، وأثارت هذه الواقعة دهشتهم كثيراً، لأنهم عرفوا أنه لم تكن هناك كنيسة قريبة معروفة، وعندما بزغ نور الفجر، وبعدما تجولوا هنا وهناك من دون فائدة، قابلوا بعضاً من أهل الغابة، فحصلوا على التوجيه لاسترداد طريقهم الصحيح، وبعد ذلك سألوهم عن معنى القرع الكبير والمهيب للأجراس، التي سمعوها قادمة من اتجاه بوكدون؟ وعلى هذا أجابهم رجال الغابات أنهم لم يسمعوها شيئاً، ومع أن الصوت كان مستمراً يملأ الهواء بلطف، لم يكونوا يسمعون أي شيء على الإطلاق، ومع أن الرهبان ظلوا مندهشين تابعوا سيرهم، فوصلوا إلى بوكدون في الوقت المناسب، وهناك جرى اخبارهم، أنه في الوقت الذي سمعوا فيه تلك الألحان الشجية في الليل والأصوات اللطيفة، لفظ روبرت أسقف لنكولن روحه السعيدة.

حول المجاعة الكبيرة في غسكوني

استمرت في هذه الآونة ندرة المؤن في غسكوني وتثبتت، وازدادت إلى درجة بلغ فيها ثمن مكيال الطحين عشرين شلناً، والكمية نفسها من الشوفان بعشرة شلنات، وبيعت اللحوم والأسماك بأسعار عالية، لابل حتى الخمرة، بيعت كذلك، مع أن غسكوني كانت فيها بالعادة وفرة منها، ولذلك أرسل الملك رئيس رهبان نيوبوري Newbury, وكان كاهناً نظامياً، وبعث أيضاً روجر سنسور Censor, مع بعض مستشاريه المخلصين إلى انكلترا للحصول، ومن ثم جلب ما كان ضرورياً لجيشه، وذهب هؤلاء الرجال وقتها إلى لندن، وفرضوا مبلغاً

كبيراً من المال واستخرجوه من سكان ذلك المكان، ولم يكونوا بطيئين أو غير نشيطين في جباياتهم، وجمعوا الأسلحة، والقمح، واللحوم المملحة، وحملوا جميع ذلك في عدد كبير من السفن، لكن رجال بلاط الملك والجيش كانوا مثل خليج كاربيديس Charybdis الذي لا يعرف الشعب، التهموا هذه الأشياء كلها، وفي الحقيقة عدّ الملك انكلترا بئراً لا ينضب، وكان عليها أن تدفع من أجل أخطاء وذنوب جميع الجيران وكذلك جميع البلدان المجاورة، وفقاً لقولهم:

عقوبات النزوات الملكية

تقع على أكتاف الاغريق

أما وأصبح الملك Lycurgus ثانياً، اقتلع كروم الأعداء ودمرها، وهي الكروم التي اعتمد عليها الغسكونيون بشكل رئيسي من أجل عيشهم، وأمر بتسوية بيوتهم وقلاعهم مع الأرض، وعندما تبين هذا للغسكونيين اشتكوا من هذا النوع من الانتقام، وعدوه أدنى بكثير من طريقة الفروسية في الحرب التي مارسها سيمون إيرل أوف ليستر، وعدّوا تدمير كرومهم واحراق بيوتهم حروب امرأة عجوز، وليست من حروب الرجال.

حول إطلاق سراح أسرى من قبل الملك

وبعد الاستيلاء على قلعتي لي راؤل وبازاس Bazas، اللتان كلفتا الانكليز الكثير من المتاعب والنفقات، أعطى الملك ملكيتهما بشكل حر إلى بطرس أوف سافوي، وإلى إخوته البواتيين، الذين ما ان أطلق سراحهم حتى التحقوا على الفور بأعدائه.

موت وليم دي فيزي

وهكذا سلبت انكلترا من كل جانب، وجردت من السلاح، والطعام

والمال، والذي كان محزناً أكثر هو تجريدها من فرسانها، لأنه بعدما ذهب الملك إلى القارة مات عدد كبير من أتباعه، كان من بين أعدادهم وليم دي فيزي Vesey، وكان واحداً من أعظم النبلاء وبارونات شمالي انكلترا، فقد غادر طريق الجسد، وقام الملك على الفور بإعطاء المسؤولية التي كانت بعهدته، وكانت ذات أهمية عظيمة، إلى أجنبي، محدثاً بذلك أذى عظيماً لحقه برعاياه الطبيعيين.

حول آلام فرسان شروبري

وفي هذه الآونة بالذات، رفض بعض فرسان شروبري Shrewbury، لابل هم جميعاً، الانصياع إلى مرسوم الملك الجديد، المتعلق بالملكيات، التي كان المسافرون قد سلبوها، وذلك حسبما كانت العادة بين السافويين في بلادهم، ولذلك تعرضوا عن طريق العقوبات إلى أعظم استخراج، ولهذا مكثوا لعدة سنوات وهم يجدون صعوبة في تزويد أنفسهم مع آل بيوتهم بالضروريات من أجل الحياة، أو بوسائل زراعة أراضيهم.

حول التجاوزات التي اقترفت من قبل المسلمين

في يوم عيد جميع القديسين، وصلت أخبار مرعبة جداً إلى الايرل رتشارد، الذي كان قلقاً أكثر من الآخرين حول أوضاع الأحوال في الأرض المقدسة، وقد تحدثت — وذلك كإشارة على الغضب العظيم للرب — بأن سلطان المسلمين والقادة الرئيسيين بينهم أقاموا سلاماً فيما بينهم أنفسهم، ودخلوا في تحالف اتحادي من أجل تدمير الصليبيين، حيث أخذوا يجتاحون الأرض المقدسة كيفما أرادوا، واستولوا على مقتنيات الصليبيين حسبما رغبوا من دون أية معارضة، أي أنهم دمروا جميع المنطقة عبر عكا، وأزالوا بعض الطواحين التي كانت عائدة إلى سكان ذلك المكان، لأن المسلمين عملوا مؤامرة لمحاصرة عكا، وأسر

ملك فرنسا، مما كان سيشكل عاراً لا يمكن رضه بالنسبة للصليبيين، وعزموا أن يقدموه بعد أسره إلى خليفتهم، الذي كان بالنسبة لهم مثل البابا، وعندما أصبحت هذه الحقيقة معروفة بشكل عام (بين الصليبيين) حزنوا بشكل عميق، وعزوا هذا كله إلى سوء الحظ، وإلى الشره العنيد للرومان، الذين رفضوا بصلف تواضع فردريك وعرضه المساعدات لاسترداد جميع مقتنيات الصليبيين بشكل مسالم، أي جميع الممتلكات التي امتلكها الصليبيون في أي وقت من الأوقات في الأرض المقدسة، ذلك أن الرومان لم يرغبوا بأن يعزى مثل هذا الانجاز العظيم إليه، وما كان مؤلماً أكثر هو أنهم باعوا إلى العلمانيين الصليبيين، فأنهكوا وتحولوا إلى متسولين، وجاء ذلك وفق الطريقة نفسها كما فعل اليهود، حسبما ذكرنا أعلاه، حيث باعوا الأغنام، والثيران، والحمام في الهيكل وهم الذين طردهم الرب، وحدث على كل حال، أنه بإرادة الرب، الذي وإن غضب، تذكر الرحمة، فكان أن ثار بعض المسلمين ضد الذين كانوا ينزلون بالصليبيين غضبهم، وبذلك أخفقت مقاصدهم، وأرغموا على التراجع.

حول حملة كونراد بن فردريك

خلال هذا الوقت كله كان كونراد يلاقي النجاح في حملته في أبوليا، منطلقاً من كراهيته للبابا، فاستولى على مدن كابوا Capua، ونابل، ومدن أخرى، وأدخلها في طاعته وسحق قوى كثيرين وقفوا ضده، وكان قد سكن في تلك البلاد رجلاً شريراً، وملطخاً بالدماء، وكان واحداً من أهلها أيضاً، اسمه جون الموري Moor، وكان داهية متملقاً، تمكن تحت رداء التظاهر بالصدقة، من أن يسمم بشكل سري، كثيراً من الناس، وقد قيل بأن هذا الرجل قد تمكن بهذه الوسائل من قتل فردريك في الأزمان الماضية، ونصب الآن شباكه السرية المميتة لابنه كونراد.

حول الخلاف بين رئيس الأساقفة

بونيفيس والهيئة الكهنوتية في لنكولن

بعدها عاد بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري من حضور دفن روبرت أسقف لنكولن، نشب خلاف بينه وبين الهيئة الكهنوتية في لنكولن، لأنه ادعى بموجب الحق العام أنه يمتلك السلطة في توزيع أوقاف أسقفية لنكولن ومواردها، بعدما حرمت الآن من راعيها، وفي المقابل وقف ضد ادعائه العميد والهيئة الكهنوتية، معتمدين على امتيازهم الخاص وعلى العرف القديم والمعترف به، وقد أيدهم المعلم وولتر بيلستدون Billesdton، وكان رجلاً بارعاً تماماً بالقانون وجديراً بالثقة، حيث قدم بينة إليهم، ذكر فيها ثلاث كنائس، قد جرى منحها من قبل العميد، عندما كان الكرسي الأسقفي شاغراً، ومثل هذا فعل عدد كبير من الأشخاص الآخرين، الذين عرفوا أن تلك كانت القضية الحققة، وقام رئيس الأساقفة، وهو واثق من سلطاته المتنوعة والمضاعفة، بإنزال عقوبة الحرمان الكنسي بجميع الذين وقفوا ضده، وكان وليم وولف Wolff، رئيس شمامسة لنكولن، الذي كان رجلاً كبير المعرفة بالقانون، وفي الأنواع الأخرى من الآداب، وكان صاحب نفوذ كبير، كان هو الرجل الوحيد، الذي وقف مواجهة ضد رئيس الأساقفة، وقد ترافع بدعوى استئناف إلى الحبر الأعظم، لصالح حقوق وامتيازات كنيسة، وأقام نفسه وحدها بمثابة حاجز للدفاع عن ممتلكاته الخاصة وعن امتيازات كنيسة، وقد أرغم على تحمل أشد الآلام تعاسة، حسبما سوف تظهر الرواية التالية:

وكان الكهنة النظاميون قد هدتهم الإجراءات التي جرى تنفيذها في الأزمات السالفة من دون فائدة، ولذلك لم يكونوا قادرين، ولاحتى راغبين في الدخول في قضية مشكوك فيها ضد خصم على درجة كبيرة من القوة، ولذلك أذعنوا لرئيس الأساقفة وخضعوا له، وبقيامهم بهذا

حصلوا على نعمة التحليل من الحرمان الكنسي، وبقي رئيس الشمامسة مصراً على موقفه، وبحث في الوقت نفسه عن مكان للاختفاء، واعتقد أخيراً أن عليه أن يجد لنفسه مكاناً للجوء في مدينة القديس ادموند، لأن العادة جرت بأن يجد المضطهدون الملجأ هناك مع الحماية، وكذلك في منطقة نفوذ كنيسة القديس ألبان، ولذلك حمل نفسه إلى مدينة القديس ادموند المتقدمة الذكر، وذلك بعدما بقي مدة أربعين يوماً بصورة مستمرة، تحت الحرمان الكنسي، بصورة عادلة أو غير عادلة، لا يمكننا القول، لكن المطاردة والتنكيل من قبل رئيس الأساقفة لحقا به إلى هناك، ولذلك عوضاً عن أن يجد ملجئاً، وجد سجنًا، كما لم يستطع راعي دير القديس ادموند أن يستقبله، أو أن يقدم الحماية له، وأنزل إلى حالة الفقر، وحكم عليه بالنفي، لذلك ذهب رئيس الشمامسة إلى روما، ليطلب المعونة والمواساة من البابا، الذي عندما علم بحقائق القضية أشفق عليه، وأعطاه انصافاً أبوياً، وانتقد بالوقت نفسه خنوع الكهنة النظاميين، وقسوة رئيس الأساقفة، وأثنى على ثبات رئيس الشمامسة، وعند ذلك ارتفعت آمال رئيس الشمامسة، وانطلق عائداً من بلاط روما، لكن لدى وصوله إلى المناطق الواقعة عبر جبال الألب، استبد به التعب والأسى، الذي تحمله في الدفاع عن امتيازات كنيسته، فغادر طريق الجسد كله، ليكون جديراً بالتعايش مع القديس توماس الشهيد، الذي مات في قضية مشابهة، وكان قبل موته قد عانى لمدة تقارب الثلاثة أعوام من المحنة في هذه القضية.

كيف ذهب رئيس الأساقفة بونيفيس إلى دير القديس ألبان

أثناء تلك الآونة التي تقدم ذكرها أعلاه من السنة، عندما كان بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري على طريق عودته من دفن الجسد المقدس لروبرت، أسقف لنكولن، عبر بدير القديس ألبان، وطلب السماح له بالإقامة هناك، وتقدم بطلبه بكثير من اللطف والتواضع،

خشية منه أن يقابل بالرفض، لأن ذلك الدير معفى من تقديم الضيافة، وذلك حسبما كان قد حدث له من قبل في بلفوير Belvoir، وهي رئاسة رهبانية تابعة لدير القديس ألبان، وقام — على كل حال — راعي دير القديس ألبان بإرسال رئيس شمامسته مع بعض من الرهبان لاستقباله، معذرين أنه لم يستطع القدوم لاستقباله بسبب الضعف وتقدم السن، وبناء عليه ذهبت هذه الفئة لاستقباله مع تشريف عظيم واحترام، وجاء ذلك إثر تسلمهم لرسائله، التي ذكر فيها أنه طلب الضيافة كعمل من أعمال اللطف، وتبعاً لذلك جرى قبوله في يوم محدد بعد العصر، ومع أنه عومل بقلق، رفض قبول أية هدية قدمت إليه من مقتنيات الدير، باستثناء الطعام والشراب، ثم إنه شكر بأدب راعي الدير لأنه استقبله بلطف، ولضيافته الكريمة، وبعدها قام بالمغادرة في الصباح الباكر من يوم عيد القديس مارتين، من دون الدخول إلى قلب الدير أو الكنيسة.

وتصرف وفق الطريقة نفسها، النائب البابوي أوتو، الذي كان حاله في انكلترا بمثابة بابا ثاني، فكتب رسائل، أفاد فيها بأنه طلب الضيافة كعمل إحسان، لكن روبرت أسقف لنكولن أثناء ذهابه إلى هارتفورد، لم يقم بكتابة رسالة من أجل هذا الهدف، ولذلك لم يتم استقباله، فقام في اليوم التالي بتعليق كنائس العلمانيين من شراكة المؤمنين، لكن لأنه انتقد لعمله هذا من قبل النائب البابوي، قام على الفور بإلغاء القرار الذي تفوه به بسرعة، لأنه عمل بناء على نصيحة شريرة.

حول امتياز دير القديس أوغسطين في كانتربري

وإثر مغادرة رئيس الأساقفة المذكور لدير القديس ألبان، تلقى رسالة بابوية، ناوله إيها راهب من دير القديس أوغسطين في كانتربري، وكان الذي جاء فيها أمره أن لا يزجج راعي ذلك الدير، أو رهبانه، بوساطة الزيارات التفقدية، أو التعليق من شراكة المؤمنين، أو الحرمان الكنسي،

وهو ما كان قد اقترحه، وحاول أن يقوم به من قبل، وبعدما قرأ هذه الرسائل من دون اهتمام، أمر باحراقهم، ومن الممكن الوقوف على محتوياتهم في كتاب Additaments، ونتيجة لهذا، كان رئيس الأساقفة، وكذلك الذين قدموا إليه النصيحة، مسرورين تماماً، لأنه تصرف بنفسه مسالماً هكذا، وباعتدال في دير القديس ألبان.

كيف ولدت ملكة إنكلترا ابنة

وفي هذه الآونة نفسها، ولدت ملكة إنكلترا ابنة للملك في لندن، وقد جرى تعميدها من قبل رئيس الأساقفة، وتسميتها بكاترين، لأنها تنفست للمرة الأولى في يوم عيد القديسة كاترين.

كيف ذهب سيمون إيرل ليستر إلى ملك إنكلترا

وفي هذه الآونة نفسها، ذهب سيمون إيرل ليستر، الذي كما ذكرنا من قبل، كان قد طلب منه قبول منصب قهرمان فرنسا، بسبب اخلاصه وشجاعته، لكنه رفض على أساس أن «ما من رجل يمكنه أن يخدم بشكل صحيح سيدين»، كان أحدهما معادياً للآخر، ذهب إلى مولاه ملك إنكلترا في غسكوني، مقدماً نفسه ومعلنًا عن استعداداته ورغبته في خدمته، في اخضاع أعدائه العصاة من الغسكونيين، الذين —يمكن القول— كانوا يرتعبون منه مثل الرعب من الرعد، كما أنه أخذ معه قطعة متتخبة من العساكر، جمعها على نفقته، وقد عرض أن يبقوها تحت طلب الملك ووفقاً لرغبته، وشكل الفرسان والجنود الذين كانوا معه حشداً كبيراً، لأنه أثير بروح الإحسان والتواضع، الذي تجاوز حدود المشاعر الإنسانية، بالرد بالخير على الشر، وأن لا يفكر شيئاً حول كلمات الغضب الطائش التي صدرت عن الملك، الذي تفوه أثناء حدة غضبه، بكلمات إهانة ضده، لكنه عوضاً عن ذلك أعاد إلى الذاكرة المنافع التي أنعم بها الملك عليه، باعطائه اخته لتكون زوجة له، وبمنحه إيرلية ليستر، وبالعهد إليه بأمر الوصاية

على وريث غيلبرت أوف همفريفل Gilbert of Humfreville، وكان الايرل قد تلقى نصيحة حول هذا الموضوع من قبل روبرت أسقف لندن، الذي كان صديقاً خاصاً به، كما كان أيضاً الأب المتلقي لاعتراقات الايرل، وقد مال الايرل عن طواعية لهذه النصيحة، واستجاب لهذه الرغبة، وأعجب الملك بأريحية الايرل، واستقبله بأعظم بهجة، ولدى معرفة الغسكونيين، الذين كانوا أصدقاء الحظ، بأن ملك اسبانيا قد تصالح مع ملك انكلترا، وأن الايرل سيمون قد وصل ومعه تلك القطعة المربعة من العساكر، أصبحوا متواضعين، مع أن ذلك كان ضد إرادتهم، وعادوا بموجب درجات وتراجعوا إلى خضوعهم إلى الملك، الذي اقترح بعد هذا العودة إلى انكلترا.

حول الاضطرابات في جامعة باريس

وتفجر في هذه الآونة خلاف كبير بين الباحثين في جامعة باريس والرهبان الدومينيكان، الذين أصبحوا كثيرين جداً، وعلا شأنهم كثيراً، لأنهم صاروا المتقبلين لاعتراقات الملك والمستشارين لديه، ولذلك رفضوا الخضوع للأعراف القديمة والمقررة، والاعتراف بامتيازات الباحثين، ولهذا اجتمع الباحثون، وجمعوا المال من بين بعضهم بعضاً، حيث أسهم كل واحد منهم حسب إمكانياته، وجرى إلغاء الدخل الاسبوعي العام لكل واحد منهم، في سبيل تلبية مطالب بلاط روما وارضائه من ذلك المال باسم رجال الدين، وتشجع الرهبان المتقدم ذكرهم من هذه الواقعة، لأنه كان لديهم أصدقاء أصحاب سلطة كبيرة في ذلك البلاط، كان من بينهم الراهب هوغ، الذي كان من طائفة الدومينيكان، لابل حتى البابا نفسه، وذلك بالاضافة إلى عدد كبير آخر، أصحاب نفوذ رفيع وسلطات كبيرة، ولذلك جرى صرف مبلغ كبير من المال، وكانت هناك متاعب كثيرة تبذرت في هذه القضية، حتى أمكن أخيراً إعادة تأسيس السلام، بتغيير الأعراف الباريسية.

حول وصول البابا إلى روما

وأثناء هذا الوقت كله أهيج البابا بوساطة كثير من الاضطرابات اليومية، وكان وقتها قد مدد اقامته المؤقتة في أسيسيو Assissio، وإلى هاهنا أرسل إليه الآن طلباً بوساطة رسل خاصين من قبل برانكليون، شيخ الرومان وجميع سكان مدينة روما، بأن عليه العودة من دون تأخير إلى مدينته، لأنه كان راعيتهم، والحبر الروماني، وعلاوة على ذلك ذكروا له أنهم يعجبون كثيراً من تجوله هنا وهناك دونها استقرار، وفي المنفى، تاركاً كرسيه الحبري لروما، وهاجراً لشيأه، الذين سوف يقدم عنهم حساباً دقيقاً للقاضي الأعظم، لأنه تركهم لأنياب الذئب، في حين هو يسعى فقط وراء المال، فضلاً عما تقدم، أوضح شيخ روما مع الشعب الروماني، إلى مواطني أسيسيو، مع التهديد بتدمير لامنجة منه، إذا ما احتفظوا بالبابا أية مدة أطول، ذلك أن العالم كله قد عرف أنه كان بابا روما، وليس حبرليون، ولا بروجيا، ولا أغنانو Agnano، لأن هذه كانت هي الأماكن التي غالباً ما أخفى نفسه بها، وبناء عليه ذهب سكان أسيسيو أنفسهم إلى قداسته، وعبروا عن هذه الرسالة وأوصلوها كاملة إليه، ولذلك بات واضحاً للبابا، ومفهوماً تماماً، أن عليه بحكم الضرورات الذهاب إلى روما، خشية من أن يجري تدمير شعب أسيسيو من قبل الرومان أثناء سخطهم، فالشيء نفسه كان قد حدث مع شعب أوستيا، وبورتو، وتوسكولوم، وألبانو، وسابينو، وحالياً مع مواطني تيفولي، وبناء عليه برضا منه أو بعدم رضا، حزم حقائبه، وذهب إلى روما، مع أنه كان في حالة من الرعب، لكن عند وصوله استقبل بكل تشريف، وكان الشيخ مسروراً كثيراً، وبوضع نظامي، وفي الوقت نفسه، ظل كونراد بالفعل شوكة في عين البابا، وكان يقترف أعمال تخريب مرعبة، في كل من البر وعلى شاطئ البحر، وضد أسوار نابل

ودفاعاتها (وهي المدينة التي كانت من قبل المفضلة للسكنى من قبل فرجيل)، لكن بسبب كراهية البابا ولعناته، لم يستطع احراز التقدم بما أخذه على عاتقه.

أمثلة على جشع الرومان

وكان الرومان غير راغبين، لابلحري غير قادرين على الاستمرار في اخفاء جشعهم، لذلك بدأوا بعمل شكاوى كبيرة ضد البابا، وطالبوا بسرعة وإلحاح بأن عليه تعويضهم عن الخسائر والأضرار التي عانوا منها، بسبب غيابه، وذلك عن طريق ايجارهم لمساكنهم، ولتجاراتهم، ولرباهم، ومواردهم، وتجهيزاتهم، وطرق أخرى لاحصر لها، مما أحزن البابا في قلبه، حيث وجد نفسه قد وقع في الفخ، فالتجأ إلى الشيخ من أجل المواساة، وبناء عليه قام الشيخ بضبط غضب الشعب بخطابات لطيفة، حيث أخبرهم، أنه كان عملاً غير إنساني، اغضاب البابا بهذا القدر وازعاجه، وهو أبوهم وراعيهم الروحي، وقد استدعي بشكل مسالم من قبلهم، ليتولى العناية بأرواحهم، وهذه الوسائل خفت ثورة العاصفة وتمدت.

حول الأحوال المضطربة للأنواء وللبحر

وفي اليوم الذي أعقب عيد القديسة لوسيا في هذا العام، انهمرت السحب بكميات وافرة من الثلج، وأعطت الرعود الشتوية الانطباع وأشارت إلى انذارات مرعبة.

حول طرد شعب لى راؤل ونفيه

وأيضاً في هذا الوقت بالتهام أدين جميع الناس الذين سكنوا في لى راؤل، وفي القلاع الأخرى التي وقعت تحت الحصار، ثم جرى اخراجهم منها أثناء المجاعة، وحكم عليهم بنفي دائم رجالاً ونساءً، ولذلك أخذوا يتجولون في البلدان المجاورة بمثابة متسولين.

حول فيضانات البحر والأنهار

وفي هذا العام أيضاً فاض البحر والأنهار عدة مرات، وتجاوزت المياه حدودها، محدثة أضراراً لا يمكن تعويضها للمنطقة المجاورة.

حول المعجزات التي صنعت في كنيسة لنكولن

تكدست المعجزات فوق المعجزات وتضاعفت يوماً في كنيسة لنكولن، وقد عملت من قبل الرب من خلال فضائل الأسقف روبرت، ونهض القديسان الآخران اللذان كانا متمدنان مرتاحان في الكنيسة نفسها، وهما القديس ريمي Remy، والقديس هوغ ليضيفا المنافع على المؤمنين، وكان الناس قد توجهوا بالدعاء إليهما، فاستجابا لهم بوساطة الصلوات والتضرعات، وينبغي أن لا يندهش أي إنسان تجاه بعض أعمال العنف التي اقترفت من قبل هذا الأسقف نفسه خلال حياته، والتي رويت أخبارها في هذا المجلد، وقد كان واحداً من هذه الأعمال رغبته الملحة بالقيام بزيارة تفقدية للكهنة النظاميين في لنكولن، مما ألحق بهم أذى كبيراً وأغضبهم كثيراً، وعلاوة على ذلك كان روبرت هذا نفسه يوجه تهديدات مخيفة ضد العاملين في الرهينة، خاصة الراهبات من النساء، ولا شك أن دافعه كان غير صحيح، لكن ربما من دون تمييز صحيح، وأنا يمكنني أن أؤكد بأن فضائله قد أرضت الرب بدرجات أعلى بكثير من عدم رضاه تجاه أخطائه، كالشيء نفسه الذي حدث في قضية داود وبطرس، فأنا امتدح لطف داود، لكنني أشجب عمل الغدر الذي اقترفه نحو أوريا الذي كان من رعيته المخلصين، وأنا أيضاً أطري ثبات بطرس، لكنني لا أرتضي بإنكاره ربنا ثلاث مرات، فالأول كان قريباً جداً إلى قلب الرب، وجرت تسمية الثاني رئيساً للرسول.

خلاصة أحداث العام

كان هذا العام بمجمله خصباً وافراً بالقمح والفواكه كثيراً إلى حد أن سعر مكيال القمح نزل إلى ثلاثين بنساً، لكن المنفعة التي تم الحصول عليها على الأرض ضاعت بالدمار الذي أحدثه البحر، عندما فاض، وتجاوز حدوده، فهو قد أهلك فجأة بفيضانه الناس والمواشي، وعندما حدث ذلك أثناء الليل، أغرق المزيد أكثر فأكثر، وكان هذا العام عام دمار بالنسبة للأرض المقدسة، وعام سفك للدماء بالنسبة لفلاندرز ولبلبدان المجاورة لها، وعام خسارة واهانة وشقاء بالنسبة لفرنسا، وعام غضب واضطراب بالنسبة للبابا ولؤيديه، وبالنسبة لانكلترا كان عاماً مشحوناً بالاضطراب، وقدم ميلاً نحو الضغط على شؤونها الروحية والدينية.

كيف أمضى الملك الشتاء في غسكوني

في عيد ميلاد عام ١٢٥٤ لتجسيد الرب، الذي وافق العام الثامن والثلاثين من حكم الملك هنري الثالث، كان الملك المذكور في بازاس Bazas في غسكوني. ليس بعيداً عن لي راؤل، واحتفل هناك برفقة نبلائه بذكرى حلول الميلاد بأبهة عظيمة، وبمهبابة كبيرة، وقدم أيضاً بعض الهدايا الثمينة من الملابس، والأشياء الأخرى التي لها قيمتها إلى الغسكونيين، الذين كانوا متشوقين لشم رائحة أمواله، وأقامت الملكة التي قامت معافاة من ولادة، حفلاً رائعاً جداً، وكان ذلك في يوم عيد القديس ادوارد، حيث توافق ذلك مع ذكرى طهارتها، وكان موعد ذلك عشية عيد الغطاس، وكان موجوداً في ذلك الاحتفال، عمها رئيس الأساقفة، وأسقف إيلاي، والاييرل رتشارد، وايرل غلوستر، وعدد كبير آخر من نبلاء انكلترا، وفي هذا الوقت بالذات، أرسلت الملكة أيضاً إلى الملك هدية السنة الجديدة مبلغ خمسمائة مارك، من الموارد الملكية المتسلمة، حتى تساعد على متابعة الحرب، ولكي يتمكن من تحرير نفسه من تعهداته.

انتخاب هنري ليكسنغتون لأسقفية لنكولن

وفي اليوم التالي لعيد القديس توماس الشهيد، انتخب الكهنة النظاميون في لنكولن لأسقفيتهم المعلم هنري ليكسنغتون - Lexington، الذي كان عميد الكنيسة نفسها، وقد قام هذا بعد انتخابه بالذهاب إلى القارة لرؤية الملك، ولكي يرى من قبله وينال الموافقة منه، لأنه امتلك سلطة الموافقة وعدم الموافقة على المنتخب، وكذلك على الانتخاب، وكان طوال الوقت خائفاً من الظهور أمام الملك، الذي كما جرت عادته، كان قد تقدم برجاء، بإلحاح، وتوسل إلى العميد المذكور، وإلى الهيئة الكهنوتية بمجملها، من أجل أن يختاروا أسقفاً لهم، وراعياً لأنفسهم هو أسقف هيرفورد، لكن هذا قد توجب رفضه من دون تردد، ليس فقط لأنه كان أجنبياً، ولا يفهم اللغة الانكليزية، بل لأنه كان معروفاً بشكل مكشوف أنه أكثر الناس عدوانية وعدم اخلاص للمملكة، وعلى هذا المطلب الذي حثهم الملك عليه، وضغط عليهم، رفض الكهنة النظاميون والمنتخبون الإصغاء والقبول به، فهو بالحقيقة كان قد فرضه بالقوة فأدخل إلى أسقفية هيرفورد، وأيضاً بوساطة القوة العلمانية، وبعدما سمن نفسه على حليب وصوف، وثروات القطيع الذي عهد به إليه، تخلى عن ذلك القطيع وهجره، وعن الرهبان ورجال الدين والعلمانيين وذهب إلى القارة (حيث عاش، وأنا آسف أن أقول: من دون كرامة) ليكونوا جميعاً عرضة لأنياب الذئاب، وعلى كل حال، بما أن الملك لم يستطع العثور على أي سبب لرفض الانتخاب الذي تقدم ذكره، والذي قام به الكهنة النظاميون، قام بقبوله، لكن بمشاعر راضية من قلبه.

حول ظاهرة مدهشة في السماء

وفي حوالي منتصف الليل من يوم عيد ختانة ربنا، كان القمر في اليوم الثامن من عمره، وكانت قبة السماء مرصعة بالنجوم، وكان الهواء هادئاً

تماماً، ظهر آنذاك في السماء منظرًا رائعاً أن تصفه، وكان على شكل سفينة كبيرة، تصميمها جيد، ولها نموذج مدهش ولون، وجرت مشاهدة هذه الظاهرة من قبل بعض رهبان دير القديس ألبان، الذين كانوا مقيمين في دير القديس أمفيبالوس Amphibalus للاحتفال بالعيد، وهم الذين كانوا ينظرون نحو السماء لمشاهدة النجوم، لمعرفة فيما إذا كان الوقت قد حلّ لترتيل الأناشيد الليلية، وقد قاموا على الفور بدعوة جميع رفاقهم وأتباعهم الذين كانوا في الدير لمشاهدة تلك الظاهرة الرائعة، لكنها بعد أمد بدأت بالتلاشي واختفت، ومن هنا جاء الاعتقاد، بأن الذي كان هو مجرد غيمة، لكن واحدة رائعة وغير اعتيادية.

ولاية مخادعة

وفي السابع والعشرين من كانون الثاني، في هذا العام، وهو يوم عيد القديس يوليان، اجتمع تقريباً جميع نبلاء انكلترا في بارلمان، حيث ظهر أمامهم روجر بيغود، وايرل ميرسكال Mareschal، وغيلبرت سيغريف Segrave، بمثابة رسل خاصين من الملك، للإعلان —ربما أن ذلك قد فرض على أنفسهم فرضاً— لجماعة انكلترا كلها، عن الرغبات التي شعر بها الملك داخلياً وعن مقاصده، وكان بين الحضور أيضاً في هذا الاجتماع: رتشارد إيرل أوف كورنويل، أخو الملك، وايرل وينكستر، مع الملكة، وجميع أساقفة انكلترا، باستثناء أسقفي: درم، وباث، فقد كان الأخير مع الملك في غسكوني، ولدى اكتمال اجتماعهم كلهم، نهض المتحدث باسم الملك، وخاطبهم كما يلي: «أصدقائي وسادتي، الذين بصدورهم يضع مولانا الملك ثقته، الذي ليس لديه، في الحقيقة، من ملجأ غير رعيته المخلصين، وأنتم تعرفون كيف عرض نفسه باخلاص وثبات إلى مخاطر البحر، التي لا توفر إنساناً، وأيضاً لمخاطر الحرب، ليحافظ على قوة المملكة، فقد وجد أعداءه يتحركون ضده، ومعادين له بشجاعة، وقد قام بسحق بعضهم،

بينما بقي بعض آخر يحتاج إلى غلبة وقهر»، ثم أضاف المتحدث حتى يثير المستمعين إليه ويحركهم قائلاً (مع أنه بقوله جانب الصدق والحقيقة) بأن: «ملك قشتالة، الذي كان الملك يتوقعه، ويأمل بأن يجده أعظم أصدقائه، لكونه متحالفاً معه بالدم، وجده غير ذلك تماماً، حيث تبرهن أنه أكثر الأعداء دموية، حتى أنه تحدى ملك انكلترا واستخف به، وقد مال الغسكونيون إلى ملك قشتالة المذكور، وآثروه وفضلوه وهو اسباني لأن يكون سيدهم الطبيعي ومولاهم، وبناء عليه هو يطلب مساعدة فعالة منكم، لأنه هكذا موجود في وضع حرج»، وبرهاناً على أمانتهم، وتصديقاً لكلماتهم، جلب بعض رسل الملك، بعض الشباب، من حجم مربع، وهو الذي رموه بوساطة القسي الزيارة، وهو الشباب الذي يدعى عادة باسم مربع اليأس (من الممكن تسمية القسي بالنسبة لحجمها الكبير باسم عوارض، وتسمية الشباب بنوع من دعائم الحائط)، وتجاوباً مع طلب الملك، ولكي يضرب مثلاً مشجعاً للآخرين، قال الايرل رتشارد (لأنه وثق بحكاية الرسل المذكورة أعلاه وصدقها): «بما أنني أكثر قدرة، وعليّ يتوجب تقديم المساعدة أكثر من بقيتكم، سوف أساعد بشكل فعال مولاي وأخي، بتزويده بثلاثمائة عسكري يقاتلون من أجله لمدة سنة على حسابي»، ووعد ايرل غلوستر بتقديم مساعدة، حسب أفضل ما يستطيعه، وأضاف بأنه لن يساعد الملك من أجل الحصول على مناطق، لكن إذا ما قام ملك قشتالة بمهاجمته، هو سوف يقدم المساعدة لانقاذه، وقام الايرل رتشارد أيضاً، فوضع قيلاً مشابهاً على وعده بالمساعدة، وأضاف قائلاً: «إذا كان الذي أخبرنا به صحيحاً»، ووجد جمهور المجتمعين بأن فخاً كان منصوباً لهم، ولذلك أجابوا على كلام أولئك المتحدثين قائلين: «وأسفاه، وأسفاه، لماذا يسعى سادتنا إلى خداعنا بمثل هذه الحجة البارة؟ فنحن نجد واضحاً وضوح النهار، واقعيتين متعارضتين، ذلك أن الملك قد بعث خلف ملكته، وابنه الكبير، وولي عهده، وهما شخصان ضعيفان، وغير

موائمين للتعرض لمخاطر الحرب، وطلب حضورهما إليه، بأقصى سرعة ممكنة، وهذا أمر ما كان له ليفعله ولا بشكل من الأشكال، لو أنه على وشك شن الحرب ضد ملك قشتالة، لابل إنه بالحري أنهما لو كانا معه، لأرسل بهما عائدين إلى انكلترا من أجل السلامة الأكبر، أو لم يتقدم الذكر عن زواج خاص سوف يجري عقده بينهما؟ وهذا كله يتناقض مع ما أفاد به الرسل وذكروه من قبل»، وهكذا حوّل الملك نفسه إلى واحد لا يمكن تصديقه، وغير جدير بالثقة، ورفض المؤتمر من دون أية نتيجة، وبناء عليه أرسل الإيرل رسالة إلى الملك حول هذا الموضوع، انظرها في كتاب Additaments عند علامة القيثارة.

كيف ذهب بعض المسلمون إلى فرنسا حتى يجري تعميدهم

وفي هذا الوقت نفسه أيضاً، قدم بعض المسلمون الذين كانوا قد تحولوا إلى العقيدة المسيحية إلى فرنسا، وكان بعضهم قد جرى تعميدهم من قبل، والبقية على نية التعميد، وكان سبب تحولهم هو كما يلي: كانوا قد رأوا بأن الملك الفرنسي قد جرى بالفعل تحريره بشكل اعجازي من يدي سلطان مصر القوي، والسلطان نفسه قد جرى قتله على الفور، بعد أسر الملك، وشاهدوا — علاوة على ذلك — صبر الملك في الشدائد، وثباته الذي لا يتزعزع عن مقاصده، فهو حتى بعدما وقع أسيراً، بقي في الأرض المقدسة، وتابع أعمال تحصين القلاع، وتمتين المدن ضد أعداء الرب، وشهدوا أيضاً قوة إيمانه، وأنه كان مثل أيوب، في عدد كبير من البلايا والشدائد، ومع ذلك هو لم يذنب حتى بشفتيه، وبالإضافة إلى هذا، قدروا حقيقة، أنه قام في سبيل حبه لربه يسوع المسيح، قد تخلّى عن مملكته الجميلة، مملكة فرنسا، ليعرض نفسه لمخاوف البحر والرياح، ولمخاطر المعارك والحروب في الممالك الأجنبية والبعيدة، صارفاً كل جهوده وانتباهه إلى كسب أرواح الكفار، وهذا كله ما كان له أن ينجح بفعله من دون عون الرب، ومواساة الجلالة اللاهوتية، وقد تعلموا

أيضاً من تبشير الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان أن شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم).. كانت مسممة لأرواحهم، وجلب هؤلاء المتحولون رسائل معتمدة من الملك، فيها أوامر بأن يجري الإنفاق عليهم من الصدقات الملكية، حتى يعود هو نفسه إلى بلاده، فعندها سوف ينعم عليهم بالمزيد من الانفاق ويزيد من تجهيزهم.

حول وصول غرباء إلى إنكلترا كانوا

لا يعرفون لغة الإنكليز وعاداتهم

في أيام الصوم الكبير من هذا العام، وصلت بعض المراكب الأجنبية، وقد ساقتها إلى هنا قوة الرياح، وجاء ذلك على الرغم من جهود الذين كانوا مسؤولين عنهم، ولم يكن لدينا أيأ من السفن مثلهم، فقد كانوا مراكب واسعة، جميلة، وبنيت بقوة، وكانت مجهزة بجميع أنواع الأسلحة والمؤن، وكانت أشبه بمخازن حربية، وقد دفعت إلى السواحل الشالية لانكلترا، قرب يبرويك Berwick. وقد شوهدوا على الفور من قبل خفر السواحل، كما تمت مشاهدة الملاحين الذين كانوا فيهم، وقد توجسوا أن يكونوا أجنب، أو جواسيس، أو أعداء من نوع من الأنواع، ولدى القيام بتفتيش دقيق في المراكب، وجد الذين اعتقلوهم أنهم كانوا مليونين بكميات كبيرة من الأسلحة، مع دروع، وخوذ، وترسة، ورماح، وقسي وسهام، وقسي عقارة ونشاب، وكذلك كميات من المؤن كانت كافية لجيش، ولدى سؤالهم، لم يخبروا النواب الملكيين من هم، أو من أين جاءوا ولماذا جاءوا، ولم يستطع أي من النواب الملكيين فهم لغتهم، وكانت هناك أيضاً مراكب أخرى مشاهدة في البحر، وعندما خيل لجميع الذين كانوا في المراكب بأنهم سوف يعدمون، سمح لهم بالمغادرة بسلام، حتى لا يبرهن الرجال عن أنفسهم أنهم أكثر قسوة ووحشية من العاصفة، وربما للخوف من الانتقام، إذا ما ألحقوا بهم أية أضرار.

حول مؤامرة في بيون

وفي هذا العام نفسه، وفي حوالي أيام عيد طهارة مريم المباركة، كان غاستون أوف بيرن Bearn قد جمع حشداً من أعداء الملك، وحاول بوقاحة أن يشق طريقه حتى يستولي على مدينة بيون Bayonne، وكانت بيون هذه مدينة غنية، وكانت هي الثانية من حيث الأهمية في غسكوني، وكانت تمتلك ميناء مطروحاً بكثرة من قبل السفن، وكانت مقطونة بأعداد كبيرة من الأشخاص المحاربين، وكذلك من قبل تجار الخمرة، وكان معظم سكان المدينة يكرهون الملك، بسبب الأضرار الكبيرة التي ألحقها بهم في انكلترا، وقد جرى السماح لبعض الأعداء بالدخول إلى المدينة، عندما كانت عرضة للخطر، وقد تمّ اعتقالهم من قبل أتباع الملك المخلصين، وجاء ذلك بوساطة بعض الذين كانوا من الطبقات الدنيا، الذين أحبوه، وهكذا دخل كثير منهم بشكل خياني إلى مكان العقوبات وفقاً لاستحقاقاتهم.

حول دفن جون هانسارد

في يوم عيد القديس غريغوري، الذي يقع في مثل هذه الأيام، جرى حمل جسد الفارس جون هانسارد Hansard خلال بلدة القديس ألبان على طريقه إلى الجزء الذي ولد فيه من البلاد، وكان ذلك في الشمال، حتى يدفن هناك بالتشريف اللائق، لأنه كان لتقديراته كبيرة يعدّ بين نبلاء ذلك الجزء من البلاد، وكان قد فقد حياته في المصيبة العامة، أثناء حضوره الحملة.

حول الصقيع الذي لم ينقطع

وفي اليوم نفسه أيضاً، توقفت حدة الصقيع، الذي استمر من دون انقطاع طوال الشتاء كله تقريباً، ولقد تواصل تقريباً منذ ليلة عيد الحثانة، وقت مشاهدة الظاهرة الرائعة للسفينة في السماء، أو الغيمة التي

كانت تشبه السفينة تماماً، وساد الاعتقاد في ذلك الوقت لدى مشاهدة الظاهرة، بأن ذلك علامة على قدوم مناخ عاصف، وعلاوة على ذلك، تبع هذا الصقيع مرض مميت بين الأغنام، والحيوانات البرية، إلى حد أن حظائر الحيوانات باتت فارغة من الأغنام، والغابات بلا حيوانات متوحشة، وفي الحقيقة كانت هناك قطعان كبيرة، نصفها بالكاد هو الذي بقي حياً.

حول إصلاحات البابا

وتبين في حوالي الوقت نفسه للبابا، الذي كان ما يزال في روما، بأن العلوم العقلية، قد تحولت كلياً تقريباً إلى علوم مكر وبراعة في سبيل الربح، وصار من الممكن بحق القول عن الفلسفة «بأنها بطحت نفسها مثل عاهرة تنتظر من يكتريها»، واكتشف أيضاً أن جميع العلماء قد أهملوا مبادئ النحو، وتخلوا عن دراسة المؤلفين والفلاسفة، وكانوا متعجلين لدراسة القوانين، التي كما كان واضحاً لم تكن مشمولة بين أعداد العلوم العقلية، لأن العلوم العقلية قد سعى الناس من أجلها، وطلبوا الحصول عليها من أجلها، لكن القوانين درست من أجل الحصول على الرواتب، وفي الحقيقة بات واضحاً للجميع، أن الشباب، الذين كانوا فقراء بالمعرفة، كانوا ما ان يكتسبوا القدرة على معرفة الثروة حول قليل من السفسطات في الاجتماعات الصاخبة، والاعتلاء على كراسي المعلمين، من أجل اغتصاب اسم معلم، حتى كانوا ينتفخون تيهاً، لأنهم أصبحوا في أوضاع تجعلهم يطلبون المزيد من الاحترام، من أجل الارتقاء إلى أوضاع أكثر ارتفاعاً، من دون أية أسس لدعمهم، ثم يغادرون مدارس القانون، أو الشهادات، ليطيروا إلى المراتب الوظيفية الحبرية، حيث سيكون الوضع أحسن، وأكثر منفعة، أي أن تنال الخبرة أولاً من المدارس، وبذلك ترتقي إلى المناصب ذات الأوضاع العالية، وأن يحكم عليهم من قبل الآخرين وفقاً لاستحقاقاتهم، ولذلك رغب البابا في

تقديم نصيحة صحيحة ونافعة إلى الذين يسرون على هذا الطريق، ونشر مذكرة موائمة وجديرة بالاحترام، وكتب حول القضية رسالة بليغة، بدأت كما يلي:

«من أنوسنت، الأسقف، إلخ، إلى جميع الأساقفة المعينين في ممالك فرنسا، وانكلترا، وسكوتلندا، وويلز، واسبانيا، وهنغاريا، حتى يتمعنوا في القضايا، ويتفحصوها، تحيات، مع مباركات رسولية: لقد تذكرنا بحزن» إلخ، إلخ، انظرها في كتاب Additaments.

ومجدداً عمل البابا عملاً تقوياً آخر بتلطيف الزيارات التفقدية، والمظالم التي كانت تشأ عنها، وانظر أيضاً الكتاب نفسه، عند علامة الحماية الأولى، وجاءت بداية الرسالة على النحو التالي:

«من أجل التذكير، وفي سبيل المراعاة الدائمة، وضد المظالم» إلخ.

ومن جديد عمل البابا انوسنت عملاً تقوياً آخر، تعلق بالقضايا الواردة في رسالة كتبت في الكتاب المذكور، عند علامة الحماية الثانية، وهي الرسالة التي تبدأ كما يلي:

«إلى جميع إخواننا المحترمين، والبطارقة، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة، وإلى أبنائنا المحبوبين رعاة الديرة» إلخ.

ووفق الطريقة نفسها، جرى تقديم هاتين الرسالتين، في هذا الكتاب، عند نهاية السنة الجارية، عند علامة الحماية.

حول الحلم المرعب الذي رآه البابا انوسنت الثالث

وفي أحد الأيام من هذا العام نفسه، رغب البابا وهو في حالة غضب شديد، على الرغم من معارضة جميع إخوانه الكرادلة، بأن يرمي بعظام روبرت، أسقف لنكولن، خارج الكنيسة، وأن يطوح به حتى يكون سيء السمعة إلى أبعد الحدود، ومنحطاً، من أجل أن يكون قادراً على

إعلانه كافرًا، وعاصياً متمرداً في جميع أنحاء العالم، وأمر بإعداد رسالة، ذكر فيها مقاصده هذه كلها، وأن تكتب وترسل إلى ملك انكلترا، عالماً أنه سوف يقبل وهو راغب بالتنفيس عن غضبه ضد الأسقف، وأن ينزل سخطه على الكنيسة التي كانت مفتوحة وجاهزة حتى تنهب لكن في الليلة التي أعقبت ذلك النهار، ظهر حلم للبابا عندما كان ممتدداً من دون راحة في فراشه، فقد ظهر له أسقف لنكولن المذكور، وهو لابس لثيابه الكهنوتية، واقترب منه وهو مقطب ينظر إليه شذراً، وخاطبه بصوت مرعب، ووخزه بالوقت نفسه برأس عصا الأسقفية التي حملها، وصرخ قائلاً، وتكلم و: «نه شبخ: «سينبولد Senebald: أيها البابا النذل، هل تنوي أن ترمي عظامي من الكنيسة، حتى تلحق الإهانة بي وبكنيستتي في لنكولن؟ من أين نشأ هذا العمل الطائش من قبلك؟ إن الجدير بك، وأنت الذي رفع الرب شأنك وشرفك، أن تتولى رعاية عباد الرب الغيورين، حتى وإن كانوا أمواتاً، إن المولى لن يعطيك من الآن فصاعداً أية سلطة عليّ، فلقد كتبت إليك بروح التواضع مع العاطفة، راجياً منك أن تقوم بتصحيح ذنوبك المتوالية، لكنك عاملت نصائحي الصحيحة بتجبر، واستخفيت بهم في قرارة قلبك الساخط والحاقد المليء بالسموم، الويل لك أيها المستخف، ألن تكون أنت عرضة للاستخفاف؟»، ومع الفراغ من هذه الكلمات، غادر الأسقف روبرت تاركاً البابا نصف ميت، ذلك أنه كان يتأوه ويتنهد بألم وأنين وكأنه قد طعن برمح في كل مرة كان يوخز بها بالعصا كما ذكرنا أعلاه، واعترت الدهشة حجابها لدى سماعهم لتأوهات وأنيته، وسألوه ماذا يريد، فأجابهم وهو مستمر بالتأوه والأنين: «إن رعب هذه الليلة قد أزعجني كثيراً، وأنا لن أعود مطلقاً إلى وضعي الصحي الماضي، آه، آه، انني أشعر بألم عظيم بجنبي، وكأنني قد طعنت برمح من قبل الشيطان»، وهو لم يأكل في ذلك اليوم ولم يشرب، متظاهراً بأنه كان يعاني من حما متوقدة، كما أن غضب الرب وانتقامه لم يتوقف عند هذا الحد.

حول هزيمة جيش البابا

وبعد هذا بأمد وجيز، واجه البابا انتكاسات في الحملات الحربية، ذلك أنه أعطى اهتمامه إلى الشؤون الدنيوية، وقليلًا من الاهتمام لالذارات الرب من خلال عبده، وكان قد اهتم بتلك الحرب اهتماماً عظيماً، وأولاهها الكثير من الجهد والنفقات، ذلك أن سعد الحرب ذهب ضده، أو بالحري ضد قائد جيشه، الذي كان قد أرسله ضد الأبوليين، مقابل نفقات عالية، تحت قيادة حفيده وليم، فلقد هزم الجيش تماماً، وتفرق جمعه، وأصيب قائده بجرح مميت، ولقد قيل بأنه قتل هناك أربعة آلاف مسيحي شجاع من الفرسان والجنود، الذين كانوا مستأجرين من قبل البابا، وقد بكت منطقة روما كلها من أجل هذا السفك الكبير للدماء المسيحية، وكان البابا في تلك الأثناء راكباً الطريق إلى نابل، مع أنه كان يعاني من الآلام والضعف في جانبه، وكأنه مصاباً بذات الجنب، أو بجرح رمح، ولم تقدم له البراعة الطبية للكاردينال ألبو Albo أية مساعدة، لأن روبرت أسقف لنكولن لم يوفر سينولد الجنوي، الذي لم يصغ إلى انتقاداته عندما كان حياً، ولقد شعر الآن بضرباته بعد موته، ولم يتمتع هذا البابا قط فيما بعد بأي يوم عبر كاملاً وهو في صحة جيدة، أو بازدهار، ولم يمر به يوم لم يكن فيه مضطرباً ومن دون راحة.

كيف جرى تثبيت انتخاب أسقف لنكولن

في الثامن والعشرين من نيسان، قام بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري بتثبيت انتخاب هنري أوف ليكسنغتون، عميد لنكولن، الذي خلف سلف نبيل جداً، وأعطى بذلك آمالاً إلى الذين كانوا من حوله شخصياً، لكن ما ان جرت ترقيته إلى السلطة والمكانة التي كان يحتلها سلفه حتى ظهر أنه أدنى منه في أعماله الإحسانية والخيرية.

موت أسقف كارلايل

وفي الشهر نفسه، أي أن تقول في الخامس عشر من أيار، مات سيلفستر أسقف كارلايل، وكان سبب موته حادث، ذلك أنه عندما كان ممتطياً ظهر حصان حرون، اصطدم الحصان بكتلة متجمعة من أعشاب الأرض، فسقط الراكب على ظهره فانخلعت أطرافه ومفاصله.

موت وليم إيرل فيرير

في الرابع والعشرين من آذار في هذا العام مات وليم فتز — وليم إيرل فيرير Ferrers، وكان رجلاً حكيماً، وجيد المعرفة بقوانين البلاد، وعاش هذا النبيل منذ سنين حياته المبكرة في ظل ضعف قدميه الذي يدعى داء المفاصل، مثلما كان حال والده قبله، فمنه ورث هذا المرض، ولوضعه هذا كان بالعادة ينقل من مكان إلى آخر على محفة أو على عربة، وعندما كان في أحد الأيام مسافراً، تسبب خدمه الذين كانوا يسوقون عربته، بسبب الإهمال، بانقلابها على جسر، ومع أنه نجا بحياته في ذلك الوقت، لم يعد قط صحيحاً بجسده بعد ذلك، ومالبث بعد هذا، أن غادر طريق الجسد كله.

وفي هذا العام أيضاً، جرى إعداد الميرون، في كنيسة القديس ألبان، من قبل رتشارد المبجل، أسقف بانغر.

وفي حوالي أيام عيد الفصح، انتخب الكهنة النظاميون، في كنيسة القديس بولص المعلم وولتر اللندني، ليكون عميدهم، عوضاً عن المعلم هنري أوف كورنهل Cornhill.

وانتخب الكهنة النظاميون في لنكولن، أسقفاً لهم المعلم هنري أوف ليكسنغتون، وهو عميد تلك الكنيسة نفسها.

حول كراهية الصقليين هنري بن فردريك

وفي هذه الآونة نفسها، كان هنري ابن فردريك وايزابيلا أخت ملك انكلترا، في مقتبل شبابه، وكان بسبب نبالته الفطرية وأصالته، يظهر عواطفه نحو الانكليز، وكان يدفع بمصالحهم ويرتقي بها، مستخدماً غاية قدرته، وقد أصبحت هذه الحقيقة معروفة لدى الصقليين والأبولوين، ولذلك قالوا فيما بينهم: «ماذا تظن أيها الشاب أنك سوف تكون؟ إنه منحدر من الدم الملكي لانكلترا، وإذا ماتابع الازدهار كما بدأ، سوف يقهرنا نحن جميعاً، وعندما سيقهرنا، سيدوس علينا بقدميه»، كما أنهم سمعوا بأن البابا قد أعطى مملكتهم، إلى الإيرل رتشارد، خال الشاب هنري، ولذلك باتوا ساخطين إلى أبعد الحدود، وامتلاؤا غضباً ضد البابا، وضد هذا الشاب البريء، وحسبما كانت عادتهم أبدعوا خطة لدس السم له، كما ذكرنا أعلاه.

الحرب المؤلمة على تخوم فلاندرز

وفي هذه الآونة نفسها، وقعت معركة هي الأكثر دموية عرفتها أبوليا، وجرى القتال على تخوم فلاندرز وبرابانت، بين الفرنسيين والفلمنكيين وحلفائهم من جانب، وكونتيسة فلاندرز وحلفائها: وليم صاحب هولاندا وملك ألمانيا، وعدد آخر من مقدمي برابانت وألمانيا من الجانب الآخر، وكانت بسبب ولدي الكونتيسة المذكورة وزوجيها، وفي هذه المعركة المؤلمة، التي يظل المرء يبكي من أجلها لأجيال، سقط أشجع المقاتلين، حيث إما قد قتلوا في المعركة، أو غرقوا في البحر أو في الأنهار، وكانت المذبحة من على الجانبين بلا حدود، حتى أنه من سكان إحدى مدن فلاندرز قد قتل عشرة آلاف، وما من واحد نجا، ليتحدث عن الفاجعة، وأخيراً، بعد سفك الكثير من الدماء آل النصر إلى جانب الملك وليم المتقدم الذكر ومعه الألمان، في حين لحقت الهزيمة بالفرنسيين، وجرحوا، وقتل الشطر الأكبر منهم، ونالوا أسوأ نتائج

القتال، وعانوا من خسائر لا يمكن تعويضها، وكذلك من العار، فغرقوا في متاهة اليأس، وعدم الثقة والدمار، وأيضاً أضيف إلى ذلك ما كان قد لحق أبناء و طنهم من قتل كبير في الأرض المقدسة، وحول هذه الهزيمة الأخيرة على أيدي جيرانهم، الذين باتوا الآن، يتمتعون بالنصر ويتصرفون ضدهم كما يريدون، أرسلوا بكل سرعة رسالة إلى ملكهم الذي كان في البلدان الأجنبية، والذي قام بناء على نصيحة الداوية والاستتارية، بجعل مدن تلك البلدان تحت وطأة ديون كبيرة، من أجل فديته، وحثوه على العودة إلى الوطن بأقصى سرعة ممكنة، لأنهم أخبروه بأن تاج فرنسا بات في مهب الرياح، من خلال جبروت امرأة، هي كونتيسة فلاندرز، التي اعتمدت على ولديها وعلى زوجها، وباتت مملكة فرنسا كلها عرضة للخطر، وأن مملكتي ألمانيا وصقلية تترنحان، وفوق كل شيء، هو أن ملك انكلترا قد أذعن لرغبة البابا، وأنه قد قوي كثيراً بالتحالف مع ملك اسبانيا، وقد ظهر على حدود نورماندي، حيث قدم نفسه، وهو مدعوم بقوة من الاسبان، وبناء عليه بات يهدد بمهاجمة فرنسا، وعندما تسلم ملك فرنسا هذه الأخبار، قام على الرغم من أسى جميع سكان الأرض المقدسة، وضد رغباته الشخصية، فعمل الاستعدادات لعودة سريعة إلى الوطن، متخذاً جميع الإجراءات الاحترازية الموائمة، لأنه كان يخاف من البيازنة والجنوبيين، الذين طردهم بطيش عند الاستيلاء على دمياط، والذين علاوة على ذلك، كان مداناً لهم بمبلغ كبير من المال، ولذلك تابع الفرنسيون إشغالهم على اليابسة، في سبيل أن يتمكن ملكهم من العودة بأمان أعظم.

سبب الحرب في فلاندرز

حتى هذا الوقت، لم تتوقف الكراهية، والغدر، والنار، والقتل عن الاستشراء بين الألمان والفــــرنسيين، والفلمنكيين، والبرابنتيين، والفريزيين، الذي استمروا يفترسون بعضهم بعضاً ويلتهمون، ليلاً

ونهاراً، وبما أن هذه الحرب كانت منتجة لكثير من سفك الدماء إلى جميع العالم المسيحي، أعتقد أنه من الموائم، أن أتولى شرح سببها الأساسي إلى قرائي، والآن كانت البذور الأولى للخلاف قد زرعت كما يلي: عندما كانت مرغريت كونتيسة فلاندرز ماتزال صبية صغيرة، ومن دون أي أمل بالوصول إلى حكم تلك المنطقة، عقدت عقد زواج بشكل سري مع بوشارد Bouchard أوف أفيسني Avesnes، وقد أنجبت منه ثلاثة أولاد هم جون أوف أفيسني مع اثنين آخرين، وتذكر بوشارد الآن نفسه أنه كان شماساً، وأن زواجه بالتالي لم يكن شرعياً وينبغي فكه، أو ربما تحرك ضميره في قرارة نفسه، فذهب إلى روما ليحصل على تثبيت للزواج من البابا، أو الضغط عليه، حتى يتغاضى عن هذه المسألة، وتم الآن اكتشاف أن أخت مرغريت المذكورة التي كانت متسلمة للكونتية كانت عاقراً، وبذلك توفرت آمال أنه مع مرور الوقت سوف يؤول الميراث إليها بنفسها، وكان هناك رجلاً آخر اسمه وليم دامبير Dampier، نبياً من أسرة فرنسية (وهو كذلك كان نائب شماس) قد تطلع نحو نيل حكم فلاندرز، لذلك عقد مقابلة سرية مع مرغريت المذكورة، وتعاقد بعد ذلك بشكل مهيب بالزواج منها، في حين كان الرجل الآخر يتابع أعماله في روما، وعندما سمع بوشارد المتقدم ذكره للمرة الأولى بهذا الخبر، عدّه بمثابة تقرير زائف، لكن بعد ذلك جعله تتابع الأخبار يقتنع بالحقيقة، ويصدق الخبر، فكتب إلى مرغريت المذكورة يلومها، ويرجوها بحرارة أن تعود إلى عقلها ومداركها، وقامت وهي متمتعة تماماً بزواجها الثاني، أكثر من زواجها الأول، فتعاملت مع مطالبه بالرفض، ولكي تتولى نقده وملامته كتبت مجيبة له بلهجة سخرية واستخفاف وقالت: «على بوشارد، أن يخدم من الآن فصاعداً الكنيسة في طائفة اللاويين، وعليه أن يمسك بالقربان، في حين تتمتع مرغريت بعناق زوجها الجديد الذي انتظرتة ورغبت به كثيراً»، وبعدما سلم بوشارد رسالتها، وادراكاً منه أنه

لا يستطيع فعل شيء، عاد إلى روما، يرجو ويعمل في سبيل عدّ أولاده من الكونتيسة أولاداً شرعيين، وولدت مرغريت من زوجها الثاني ثلاثة أولاد هم: وليم دامبير وأخويه، وعندما وصل الأولاد من الأبوين المختلفين إلى سن الرجولة، وكانت أمهم قد حصلت على كونتيتي فلاندرز وهينولت Hainault بعد وفاة أختها، بدأوا يختلفون فيما بين أنفسهم حول الميراث، وقد قالت الأم بأن أولادها من الزوج الأول كانوا أولاد زنا غير شرعيين، وأن أولادها من الزوج الثاني كانوا شرعيين، ذلك أن كراهيتها لزوجها الأول تعدته فوصلت إلى أولادها منه، وعند وفاة الأبوين، وصل الخلاف والتقاضي بين الشباب إلى أقصى الدرجات، وأعلنت الأم وكذلك الرجال الشباب دناءة وانحطاط كل طرف منها وبعضهما بعضاً، وأخيراً حملت قضية الخلاف إلى محكمة بلاط فرنسا، وأخضع الطرفان أنفسهم إلى قرار ملك تلك البلاد، وقام هو، تقديراً لقربة الجسد والدم (لأن وليم المذكور كان قريباً له) فأعطى قراره، بأن لا يكون الميراث كله عائداً إلى أي من الطرفين: الأول أو الثاني، على انفراد، بل ينبغي قسمته، وقضى — على كل حال — بأن تكون فلاندرز إلى وليم، وهينولت إلى جون، ولم يستطع جون تحمل هذا القرار، ورد على الملك قائلاً: «لقد أعطيتني يا صاحب الجلالة الذي لا يمكنك أخذه مني، وأخذت مني الذي يمكنك أن تعطيني إياه، لأن فلاندرز موجودة تحت سلطانك، وهينولت تحت سلطة الامبراطورية»، وبحكم أنه ما كان باستطاعته الحصول على أي شيء، لأنه كان مرتبطاً بتعهدات بالالتزام بالقرار الذي يتخذه الملك ويصادق عليه، غادر البلاط غاضباً، وقرر الحفاظ على انفعالات غضبه وكتمها إلى وقت مناسب، ومكان مواسم، وفي سبيل الاحتراز، ومن أجل تقوية حربه، اقترن بحفيدة الذي كان آنذاك دوق برابانت، التي كانت أخت وليم صاحب هولاندا، وقويت قضيته أكثر بوفاة وليم [دامبير] الذي كان قد قتل في إحدى مباريات المبارزة، كما أن أخا وليم

الأخير هذا، هلك وسط جيش الفرنسيين وهو الذي كان من المفترض أن يخلفه في كونتية فلاندرز.

حول المذابح الكبيرة التي تسببت بها مرغريت كونتيسة فلاندرز

ووقع الصراع الذي يتوجب أن يبكى لأجله لأجيال، على تخوم فلاندرز، في حوالي منتصف الخريف، وبذلك تمكن الشيطان من جني موسم وافر، وجمع الكثير من الأرواح لعظم أعداد الذين ماتوا، فقد هلك هناك بطرق مختلفة أكثر من عشرين ألفاً من الرجال المحاربين، الذين كانوا قد احتشدوا من مختلف مناطق المملكة الفرنسية ومقاطعاتها، وكذلك من الامبراطورية، أي أن تقول من ألمانيا التي تضم كثيراً من المقاطعات، وقد مات هؤلاء جميعاً على حساب امرأة واحدة غير خلوقة، ومثلما حدث لطرودة كلها، أو بيرغاموس Pergamus (التي مصدرها كلمتي: Per ومعناها خلال، و gamus، ومعناها زواج) حيث تحولت إلى رماد من خلال امرأة، وبلاد الاغريق التي أخلت من سكانها، بناء على إثارة فينوس، كانت هذه المأساة التي وقعت في يوم جمعة (الذي هو يوم فينوس)، وعمّ الاضطراب والفوضى والحزن جميع فرنسا، وألمانيا، وفلاندرز، وبالإضافة إلى هذا، عانت زوجات القتلى، وأولادهم، وأقربائهم، وأصدقائهم، وتألّموا مثل التألم من نوع آخر من الموت، وفي هذه الآونة، جرى إرسال جون رئيس رهبان دير نيوبري، الذي كان مستشاراً خاصاً للملك انكلترا، وقريباً منه، إرساله إلى هذه المناطق، ليقوم بترتيب بعض الأعمال الصعبة العائدة إلى مليكه، وقد جرى إخباره بهذه الوقائع من قبل النبلاء، وقد أودع التفاصيل كتابة.

حول قسوة الكونتيسة مرغريت ووحشيتها

وإنه لأمر حقيقي أن أخت مرغريت هذه الكونتيسة المتوحشة، قد حصلت بوساطة ذنوبها العظيمة على اسم قاتل الآباء من قبل كثير من

الناس، وبالقدر نفسه وللأسباب ذاتها استحققت ذلك، التي أخضعت نفسها من دون حياء إلى المعانقة المحرمة لرجلين، وتسببت بموت مثل هذه الأعداد الكبيرة، وهي بالحقيقة تستحق اسم قاتلة أولادها، لأن ابنها الكبير قد قتل من قبلها، وقد كسرت رجلي ابن آخر.

حول الذين قتلوا وأخذوا أسرى في المعركة المتقدمة الذكر

وكان بين الذين وقعوا بالأسر في هذه المعركة الدموية كونت بار، الذي كان يقاتل بحدة راغباً بالانتقام لنفسه، بسبب جراحة لحقت به في معركة ماضية أثناء الحرب، حيث فقد وقتها إحدى عينيه (لأن الحرب استمرت لقرباة ثلاثة أعوام)، وكونت غوسني Guisnes، وكونت غولدري Gueldres، وكونت جوغني Joigny في شامبين، وسيمون دي كليرمونت Claremont وجون دي غيني Giny، وروبرت دي بوسك Bosk، وهو نبيل من أعلى المراتب بين السويسريين، مع عدد كبير آخر من النبلاء، الذين لا نذكر أسماءهم، ومن المراتب الأدنى كان هناك حشد كبير جداً من الفرنسيين، وفي الحقيقة كان عدد الذين أسروا، والذين قتلوا، بما في ذلك: النبلاء، والفرسان، والخدم والأتباع، والجنود العاديين قد بلغ كما قيل مائة ألف رجل، أو أكثر من ذلك، وما كان لي أن أقحم تفاصيل هذه الأحداث في حوليات تواريخ انكلترا، لولا أنه فرض عليّ أن أفعل ذلك، بسبب هذا السفك المرعب للدماء المسيحية، وهي الدماء التي سفحت في منطقة مجاورة لانكلترا.

حول الأمراء الذين كانوا مسؤولين عن الحرب في فلاندرز

وفي هذه الأثناء، كان أعداء الرب من المسلمين مسرورين، فهذا ما يشعرون به عادة لدى سماعهم بأية خسائر كابدة منها المسيحيون، واهتزت دويلات جميع أمراء ألمانيا حتى الأعماق، وفي المقام الأول كانت

أعظم الخسائر وأقساها، هي التي عانى منها ملك فرنسا الذي كان يقاتل في سبيل الرب في الأرض المقدسة، وهو الملك الذي لم يكن هناك ملكاً آخر أقوى منه، كما تسببت هذه الخسائر بعودته من تلك البلاد، لأنه جرى استدعاءه نتيجة لوقوع هذه الكارثة، وكان هناك عدداً كبيراً من مقدمي فرنسا ممن عانى أيضاً من الخسائر، فدوق بافاريا، الذي كان يتسلم منذ زمن قديم مائة ألف مارك كولوني بمثابة دخل سنوي، بل إن هذا المبلغ قد ازداد مؤخراً، قد أنفق أمواله كلها في هذه الحرب، وكان من بين الذين عانوا، دوق غسكوني أيضاً، وقد كان صاحب مكانة عالية مثل الدوق الذي ورد اسمه أخيراً، وكان قريباً بالنسبة للملك انكلترا، وكذلك دوق برونزويك Brunswick، الذي كان قريباً للملك نفسه، ودوق برابانت ولوفين Louvain، والذي وضع نفسه دوقاً على اللورين، ودوق ليمبورغ Limbourg، ودوق سوابيا، ودوق النمسا، ودوق ليونبورغ Luneburg، ونبيلة عالية المكانة والقوة اسمها صوفيا، كانت الحاكمة لشطر كبير من ثورونجيا، ومركيزين، كان الأول بينهما مركيزاً لهذا الجانب من سكلافونيا Slavonia، وكان الثاني مركيزاً للجانب الآخر أي بوهيميا، وهو كان أيضاً ملك بوهيميا، ودوق بولاندا، الذي قتل من قبل التتار، وأيضاً اللاندغريف لثورنجيا وسينت اليزابث، ولاندغريف ثورنجيا، وابنة ملك هنغاريا، فقد كان كل واحد من هؤلاء المذكورين أعلاه قد بعث مساعدة إلى وليم صاحب هولاندا، وملك ألمانيا، ضد الجيش الفرنسي، وأسست معاملة الفريزيين الذين قدموا للالتحاق بالجيش من قبل وليم، الذي كان متكبراً، وغير مكترث بصدقتهم، وكان علاوة على ذلك قد صار غنياً بوساطة الأموال التي تسلمها من البابا، وغضب الفريزيون من هذا، وتآمروا ضده، حسبما ظهر فيما بعد، وكما سنوضح في الرواية المقبلة، وكانت أموال البابا على كل حال — هي أموال جنيت بطرائق غير صحيحة — بلا فائدة له، لابل على العكس ألحقت به ضرراً

كبيراً، وهكذا كانت أوربا كلها تقريباً في أوضاع مضطربة من أجل متعة امرأة، ومن خلال مكر الشيطان ودسائسه الذي يضحك — لسبب جيد لديه — للمآسي التي تلحق بالإنسان، وفي هذا العام أيضاً، عانى الرهبان من طائفة السسترشيان من خسائر كبيرة، بسبب دمار فلاندرز، حيث لم يستطيعوا الحصول على ماكانوا يحصلون عليه بالعادة من مادة الصوف، وأعتقد أنه يتوجب عليّ عدم حذف الخطاب الوحشي الذي ألقته هذه الكونتيسة مرغريت، التي هي ميديا Medea ثانية ولم تخجل من التفوه به.

الخطاب الوحشي للكونتيسة مرغريت

وحدث بعد ذلك على الفور، أن تمكن جون أوف أفسني، ابن الكونتيسة المتقدم ذكرها أعلاه، من أسر اثنين من اخوته لأمه، أي أولادها، بوساطة كمين نصبه، وقد فرح لحسن حظه، وأمل بالوصول إلى اتفاق سلام مع أمه، وقد بعث رسالة إليها مع رسل اعتقد أنهم سوف يكونوا مقبولين لديها، وقد كتب إليها وفق الصيغة التالية: «أمي العزيزة، إنك إذا لم تختاري الاشفاق عليّ، أشفقي على الأقل على أخوي لأمي، اللذان هما أسيرين بين يدي، ووافقي على شروط عرض السلام التي سوف تكون مفيدة لك»، وأجابته على هذا الالتماس قائلة: «إن أخويك، ولدي بين يديك وإنني لن أتحوّل عن هديّ بسببهما أو من أجلهما، وهما تحت إرادتك، وطوع رغباتك، اقتلها أيها الوغد المتوحش، وكلهما، واطبخ أولهما مع التوابل، واشو الثاني مع الثوم»، وجرى تناقل هذا الكلام من فم إلى فم بين الناس، مما ألحق العار بجميع النساء، خاصة بالأمهات، ولكن حتى لائلوث الهواء، دعونا نترك هذه القضية، وأن نستخدم قلمنا لتدوين القضايا المرتبطة بتاريخ انكلترا.

حول اجتماع نبلاء إنكلترا في لندن

ومجدداً اجتمع نبلاء إنكلترا في لندن، ومن جديد أرسل الملك رسالة إليهم، بأنه بحاجة إلى المال، وإلى قوات كبيرة لصدد هجمات عدو كبير، قادمة ضده، وختمت هذه الرسالة بالختام الملكي، وأجابوا فردياً وجماعياً، بأنه مضى عليهم وهم ينتظرون لمدة ثلاثة أسابيع من دون هدف أو محصلة، وهم ينتظرون وصول الايرل رتشارد، وبعض النبلاء الآخرين، الذين تأخر غيابهم كثيراً، وأنهم غالباً ماأرهبوا باستخراجات الملك، إلى حد أنه بات صعباً عليهم التنفس، وقالوا —على كل حال— بأنهم سوف لن يتوانوا عن الذهاب شخصياً لمساعدة الملك، إذا مااقتنعوا تماماً، حول الوصول العدواني لملك اسبانيا، الذي يهدد بالقيام بذلك، وتساءلوا قائلين، بأن ملك قشتالة نفسه لم يطالب قط بغسكوني، أيام سيمون ايرل ليستر، أي عندما كان حاكماً لغسكوني، وعندما أبقي كثيراً من العصاة تحت السيطرة، ومن هذه الحجج، وحجج أخرى كثيرة ورد ذكرها أثناء عقد البرلمان الأخير، وكذلك من معرفتهم حقيقة القضية من الايرل سيمون، الذي كان قد عاد آنذاك من القارة، لذلك احترزوا ضد دهاء الملك، وخططه الماكرة، الذي أغنى الأجانب على حساب ثروة إنكلترا، في وقت حاجتها، ويقال بأن هذه المؤامرة الماكرة قد صدرت عن النبع السام لنصائح البواتيين، وعلى هذا ظل النبلاء منزعجين كثيراً، وغادروا وهم في حالة سخط عظيم.

حول شقاء اليهود وتعاستهم

وفي حوالي الوقت نفسه فيما بين عيد الفصح وأيام الابتهاالات، قام الملك الذي كان لايعرف الاستقرار، فنفس عن غضبه ضد الرعاع اليهود التعساء إلى حد أنهم وصلوا إلى درجة كرهوا فيها حياتهم، فقد دعاهم الايرل رتشارد إلى اجتماع، وطلب منهم من أجل استخدامات الملك —الذي كان كما قال غاضباً كثيراً عليهم— مبلغاً كبيراً من المال، وذلك

تحت طائلة السجن، والموت المهين، ونتيجة لهذا عقد الياس اللندي، الذي كان الكاهن الأعظم لليهود، والذي غالباً ما دفع برضاه أو من دون رضاه مبالغ كبيرة، اجتماعاً تشاورياً مع أتباعه اليهود، ورد على المطالب قائلماً مايلى: «موالى وسادى، إنا نرى بوضوح أن الملك يريد اقتلاعنا واجتثاثنا من تحت السماء، فباسم الرب، نحن نطلب اذنه وأماناً منه لنا لنغادر ونسافر من مملكته، حتى نبحت عن مكان للاقامة في موضع آخر، في ظل أمير لديه مشاعر رحمة، وسيتولى بشكل صحيح الالتزام بالصدق والأمانة، ودعونا نغادر من هنا ولانعود مطلقاً، وأن نترك خلفنا بيوتنا والحاجيات الموجودة فيها، إذ كيف يمكن أن يحبنا نحن اليهود التعساء، أو أن يوفرننا، وهو الذي دمر رعاياه الطبيعيين؟ فهو لديه تجارا بابويين، أو بالحري تجارا خاصين به (أنا لن أسميهم مرايين) الذين يتولون جمع كميات هائلة من المال، دعو الملك يعتمد عليهم، ويسعى للحصول على منافعه من خلاهم، فهؤلاء هم الذين دمرونا وأفقرونا، وأخفى الملك معرفته بهذا، وطلب منا مالا نمتلك القدرة على إعطائه إياه، حتى لو قام باقتلاع أعيننا، أو سلخ جلودنا، وقطع أعناقنا بعد ذلك»، وبعدما تفوه بهذا الخطاب، الذي كان قد تخلله تهدياته ونحيبه، صمت، وسقط من دون حياة، وكأنه أصيب بانفجار، وعندما جرى إعلام المسؤولين عن العدالة بقرار اليهود هذا، لم يسمحوا لهم بمغادرة المملكة حيث قالوا لهم: «إلى أين ستفرون أيها الأشفياء؟ فملك فرنسا يكرهكم، وقد حكم عليكم بالنفي الدائم، فهل تودون النجاة من خطر حتى تقعوا فيها هو أخطر؟ وهكذا جرت بالقوة مصادرة ما كان قد بقي لديهم من قليل من وسائل العيش، والتي لو بقيت لهم لما كفتهم إلا للعيش بكفاف شديد.

حول المعركة بين الفرنسيين والألمان

وفي هذه الآونة نفسها، وقعت معركة بين الفرنسيين، وحلفائهم من الجانب الأول، والألمان وحلفائهم من الجانب الآخر، وذلك تحت إمرة

وليم صاحب هولاندا، وملك ألمانيا، وبالنسبة للفريزيين، الذين بقيوا على الحياد، فقد تعرضوا للهجوم من قبل وليم صاحب هولاندا، الذي أخبر بأنهم يخططون لعمل خياني ضده، وبصعوبة بالغة أنقذوا أنفسهم بالفرار.

حول تكريس الأسقف المنتخب للنكولن

وفي السابع عشر من أيار، جرى تكريس هنري أوف ليكسنغتون، الأسقف المنتخب للنكولن، أسقفاً لتلك الأسقفية، من قبل بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، وتم ذلك في القارة.

حول الغارات التي قام بها بعض

الويلزيين الذين كانوا في جيش الملك

وفي هذه الآونة نفسها قام بعض الجنود الويلزيون الذين كانوا في جيش الملك في غسكوني، تبعاً لما اعتادوا عليه، بغارات على أراضي أعداء الملك، وأطلقوا لأنفسهم العنان بالنهب، ولذلك جرى اعتقالهم من قبل إخوة الملك، وأسقف هيرفورد، وجرى معاقبتهم بشدة أكبر مما استحقوا، لأنهم كانوا في ذلك الوقت قد أحدثوا قليلاً من الأذى ولم يحدثوا شيئاً البتة، كما لم تفد الشكاوي حول هذه القضية، التي عرضت على إيرل هيرفورد، الذي كان، وما برح يمتلك منذ القدم وظيفة قسطلان جيش الملك، وبما أن غير المتشكين كانوا سيتضررون من حكم الايرل المذكور، تحدوه، ووقفوا ضد قانون الجيش وأعرافه، ونتيجة لذلك تقدم الايرل بشكوى إلى الملك، لكنه لم يقابل بأي شيء غير الإهمال، وبات الانكليز غاضبين تجاه هذا التصرف، وبصعوبة بالغة حبسوا أنفسهم عن مهاجمة البواتيين، وتمزيقهم إرباً إرباً، ذلك لأن الملك قام وهو خائف يرتجف، ويبدن مقبوضتين، فالتمس بتواضع العفو عن خطيئته، ومع ذلك حتى ذلك الوقت ضبطوا أنفسهم وغضبهم

المتصاعد، الذي لو أنه انفجر لتسبب بسفك الكثير من الدماء، وانتشر التدمير في جميع أرجاء الجيش، بأن الملك يسعى من جميع الجوانب أن يسير على خطى أبيه، وأن أتباعه قد تخلوا عنه، لأنه تصرف بشكل غير مستقيم وأمين، وأنه عائد إلى الوطن، ذلك أنهم رأوا أن الوصول إلى أي سلام دائم بعيد المنال مطلقاً، وحصل بعض نبلاء انكلترا، وكان منهم الايرل روجر بيغود، ووليم دي سي Saye، وآخرين كثرة على إذن الملك، وساروا على خطى سيمون، ايرل أوف ليستر، الذي كان قد عاد قبلهم.

حول إلغاء حكم غير عادل ضد امتيازات دير القديس ألبان

وجرى في هذا الصيف سحب وإلغاء الحكم الجائر، الذي أصدره هنري دي مير Mer، رجل العدالة المتجول، وعاقب به دير القديس ألبان بمبلغ مائة باوند، وحدث هذا عندما كانت الملكة مع الايرل رتشارد نائب المملكة، وذلك أثناء غياب الملك في غسكوني.

رسالة تتعلق بإلغاء هذا الحكم نفسه

«من هنري، الذي هو بنعمة الرب ملك انكلترا، وصاحب ايرلاندا، ودوق نورماندي وأكوتين، وكونت أنجو، إلى جميع من سيصل إليهم هذا البيان، تحيات:

بناء على ماتين لنا، من خلال العودة الفاحصة لصكوك أسلافنا من ملوك انكلترا، التي هي بين يدي راعي دير القديس ألبان، والقاضية بعدم إلزام أي من أتباع الراعي المذكور بتجاوز الامتياز الممنوح لراعي الدير المذكور، بحيث لا تجوز دعوتهم في أية مناسبة من المناسبات للظهور أمام أي من الجهات القضائية، أو التحقيق معهم، وقد حررنا راعي الدير المذكور من دفع المائة باوند التي جرى بها تغريم بلدة القديس ألبان مع امتياز الدير، لأن الذين يسكنون في ذلك

الامتياز، لم يمثلوا أمام رجلي العدالة المحبوبين من قبلنا، وهما هنري دي مير، ووليم أوف ويلتون Wilton، في تشيسترهونس Chesterhunce، الموجودة خارج الامتياز المتقدم ذكره، وذلك بهدف القيام ببحث يتعلق بعنف متبادل، ولإنزال العقوبة حول هذا العنف نفسه، وألغينا أيضاً بالنسبة لراعي الدير المذكور، ماتعلق بالسوقين ونصف السوق، الأمر الذي من أجله جرت معاقبة نيقولا السمان، والاسكندر ستولي Stoye، ووليم ساندرودي Sandruge، ورينالد صائع الذهب، وهم من أتباع راعي الدير المذكور، وقد جرت معاقبتهم وتغريمهم أمام هنري ووليم، من أجل التجاوز الذي تقدم ذكره، وشهادة على هذا لقد منحنا بأنفسنا رسائلنا هذه المعتمدة إلى راعي الدير المذكور، وشهد على ذلك أيضاً رتشارد ايرل أوف كورنول، أخونا، وكان ذلك في ويستمنستر، في هذا اليوم الثالث عشر من تشرين الأول، في العام الثامن والثلاثين من حكمنا».

تثبيت امتيازات دير القديس ألبان

وختمت هذه الرسائل التوثيقية، المتعلقة بامتيازات دير القديس ألبان بالختم الأصغر، لأن الملك كان آنذاك في القارة، وكانت المملكة تحت وصاية الايرل رتشارد والملكة، وفيما إذا كان الايرل أو الملكة قد أخذوا أية أموال مقابل منح هذه الرسائل، يكونا قد اقترفنا اثماً عظيماً ضد الشهيد ألبان، وضد مولاها الملك، لأن هذه الامتيازات، مع امتيازات أخرى قد جرى منحها منذ العصور القديمة من قبل الملوك، وجرى تثبيتها من قبل البابا، ومن المعروف أنهم بقيوا حتى هذا الوقت من دون خرق، وهذا سوف يشاهد من قبله الذي لا يخفى عليه شيء.

حول التثبيت الأمتن لهذه الامتيازات نفسها

وفي سبيل أن تكون هذه الامتيازات مضمونة بشكل أمتن، تبع الرسالة المتقدمة أعلاه رسائل أخرى، وقد جرى ايداعها في كتاب Additaments، وهي قد بدأت وفق مايلي: «قام عمدة هيرفورد بتقديم حساب بمائة باوند وباوند واحد من بلدة القديس ألبان».

حول التقارير الزائفة التي وردت في رسائل جاءت من غسكوني

وجاء بعد الرسائل التي تقدم ذكرها أعلاه، والتي وضعت في الكتاب نفسه، رسالة قصيرة من غسكوني وهي التي حوت الأخبار المزيفة والمضللة التالية: «من هنري الذي هو بنعمة الرب، إلخ:

لقد وعدنا باخلاص وصدق إيرلات مملكة انكلترا، وباروناتنا والنبلاء الآخرون، أن يكونوا في لندن بعد ثلاثة أسابيع من عيد الفصح المقبل، وهم مجهزين بالخيول والأسلحة، ومستعدين للانطلاق من دون تأخير إلى بورتموث، من أجل الالتحاق بنا في غسكوني، والوقوف معنا ضد ملك قشتالة الذي هو على وشك القيام بغارة على أراضينا في غسكوني، في الصيف المقبل» إلخ، إلخ، وأضاف حامل هذه الرسالة أيضاً، بأن ملك قشتالة المذكور، قد وصل مع آلاف كثيرة من الجنود، بلغت حداً أنه لن يخاف من قوى انكلترا، أو فرنسا، غير أنه لم يستطع الوصول إلى هناك بأية وسيلة من الوسائل، لأنه كان إذا مافكر بالزحف نحو مقاطعات غسكوني مع مثل ذلك الجيش، إنه من الضروري بالنسبة له، أن يكون على علاقات طيبة واتفاقات صديفة مع الممالك التي سوف يمر بها، من ذلك مثلاً مملكتي نافار وأرغون، ومقدمين آخرين كثر وزعماء وأعيان كبار، هم سوف يسمحون بمثل هذا الزحف، وعلاوة على ذلك، إن المسلمين الذين كانوا في حالة حرب معه، سوف يسرون خلفه، حيث سيجدون الأراضي التي أخذت منهم، معروضة أمامهم بمثابة هدية مقدمة إليهم، ومجدداً، كما

ذكرنا من قبل، هناك حقيقة ارسال الملك وراء الملكة وابنه الأسن، فهذا يظهر دهاء هذا الملك وخداعه، وكما يقال: «إن الشباك المرتية بوضوح تام من قبل الطير، تجعله يتجنبها»، ثم إنهم حزنوا في قلوبهم، من دون أمل بالمواساة، لأن مولاهم وحاكمهم سعى بذرائع كثيرة لتدمير رعاياه الطبيعيين، بوسائل سواء أكانت قانونية أم غير قانونية، ومن الذي يستطيع بسرعة أكبر أو بسهولة أعظم، تعريض السفينة إلى الخطر أكثر من القبطان، الذي هو على العكس ملتزم بالتحكم بدفة المركب؟

حول الامتياز الذي منح إلى رعاة دير ويستمنستر

عملت في هذا العام نفسه منحة من قبل الملك هنري، باسمه وباسم خلفاته، بأنه يتوجب أن يحصل رعاة دير ويستمنستر وخلفائهم، الذين من الممكن أن يظهروا أمام أي رجل عدالة تابع للملك، سواء من المتجولين أو الآخرين، يحصلوا على خلاصات عن أحكام رجال العدالة المذكورين، فيما يتعلق بالعقوبات والغرامات من جميع الأنواع، التي توقع على التابعين لهم، وأيضاً على أثاث التابعين المذكورين، الذين هم مطاردين أو مدانين، شريطة عدم تسليم الخلاصات المذكورة إلى خازننا، بل ينبغي أن تسلم باليد من رجال العدالة المذكورين إلى وكلاء رعاة الديرة المذكورين، أو إلى الدير، الذي يكون فيه الأشخاص المتقدم ذكرهم، أي الذين سوف يعاقبون أو يغرمون، وجرى تدوين صك من أجل هذه الغاية، ومنح إليهم في سنة النعمة ١٢٥٢، وفي ذلك العام نفسه، جرى أيضاً منحهم صك قضى بوجوب أن يستحوذ التجمع الرهباني على كل ماهو عائد إليه أثناء وجود شاغر، ونسخ عن هذه الصكوك من الممكن الوقوف عليها في كتاب Additaments، ومن الممكن أن يشاهد في المكان نفسه أيضاً الصكوك التي سلف أن منحت إلى راعي دير وولتهام ورهبانه، في تاريخ آخر من العام نفسه، لكنه لم يصل إلى علم كاتب هذا الكتاب في الوقت الذي رغب فيه.

كيف عملت ملكة إنكلترا الاستعدادات من أجل الذهاب إلى القارة

بما أن الملكة تستعد الآن للابحار إلى القارة، أرسل سكان يارماوث Yarmouth سفينة واسعة وجميلة، مشحونة بثلاثين من البحارة البارعين، والمسلحين بشكل جيد، حتى تكون بخدمة الأمير ادوارد، لاصطحابه مع أعوانه وخدمه عبر القنال بأمان كبير، وأعدّ شعب وينشيلسي Winchelsea بعض السفن لنقل الملكة، وعندما وجدوا بأن السفينة التي أرسلت إلى الأمير كانت أكثر اتساعاً وأعظم جمالاً من سفنهم، شعروا بالغيرة والحسد، وقاموا بشكل غادر ومفاجيء بالهجوم عليها، ودمروا السفينة وقتلوا وجرحوا بعضاً من ملاحيها، وفي سبيل التنصل من جريمتهم وطمسها، أخذوا سارية المركب المدمر، وثبتوها إلى سفينة الملكة، وكأن الذي فعلوه كان لصالحها ومنفعتهم، وبناء عليه تقدم سكان يارماوث بشكوى ثقيلة حول هذا الإجراء، ورفعوها ليس فقط إلى الملكة بل إلى الايرل رتشارد أيضاً، وكذلك إلى حكام الموانئ الخمسة، وهذا قد أثار المملكة كلها بشكل عادل للانتقام لهذه الجريمة.

كيف أبحرت الملكة إلى القارة دون أن تتقيد بأوامر الملك

أثناء وقوع هذه الاضطرابات غير المنتظرة، التي أزعجت الملكة وأقلقته، وصلت رسالة ثانية كانت مستعجلة من الملك، أمر فيها الملكة بعدم عبور القنال، وهكذا تعرضت للعناء من جانبيين، فقالت وهي تشعر بالسخط: «لقد ثارت المشاكل من كل جانب، فها هو كل شيء جاهز للاقلاع والابحار، وقد قلت وداعاً للجميع، وهبت الريح بشكل موائم، فهل سأرجع؟ لا»، ثم أنها أخفت غضبها تجاه هذه الوقائع، وأقلعت من بورتماوث في التاسع والعشرين من أيار، وكان يوم جمعة،

وذلك قبل أحد الشعانين، وأخذت ولديها معها: ادوارد، وادموند، وكان برفقتها أربعين فارساً، وحاشية من النبلاء، وكانت تحت قيادة وتوجيه عمها رئيس أساقفة كانتربري، وكتبت في الوقت نفسه إلى الايرل رتشارد حاثاً إياه على السعي بكل حكمة من أجل تسوية الخلاف وتهدئة الإثارة التي نشأت بين شعب الموانئ الخمسة، لأن ذلك مشحون بالخطر بالنسبة للمملكة، وقد جرى تنفيذ هذا فيما بعد بكل سعادة، ووصلت الملكة سالمة إلى بوردو في اليوم الأخير من أيار، وكان قد جرى تعيين وولتر دي غري، رئيس أساقفة يورك، نائباً للمملكة في مكان الملكة، لكنه لم يقيم بممارسة هذه الوظيفة، لأنه شعر بنفسه بأنه كان منهكاً بسبب المرض وتقدم السن، وكان هناك بعض النبلاء قد فضلوا السفر براً على الرغم من التأخير، على السفر مباشرة بحراً، وكان من هؤلاء — على سبيل المثال — جون وارني، وادموند دي لاسي، فقد عبرا البحر عند دوفر، ومن ثم أخذاً طريقهما مباشرة نحو بوردو، ووقعت في هذا العام واقعة غريبة بالنسبة للريح، وكانت، بأن الريح هبت بشكل متواصل من الشمال — الشرقي، أو من الشمال لمدة ثلاثة أشهر وبضعة أيام، وقد دمرت فواكه وورود الربيع، وفي حوالي الأول من تموز، وهو موعد الانقلاب الصيفي، سقطت أمطار عنيفة جداً، وكانت هناك عاصفة برد ثقیل، مثلها لم نشاهد من قبل، وقد استمرت هذه العاصفة لمدة ساعة أو أكثر، وقد اقتلعت القرميد والألواح الخشبية للأسقف، وأتلفت أغصان الأشجار.

حول وفاة هنري ابن الإمبراطور فردريك

وفي شهر أيار من هذا العام، مات هنري، أمل الانكليز ومجدهم، وكان شاباً وسيماً جداً في مظهره، وهو ابن الإمبراطور فردريك والامبراطورة ايزابيلا، اخت ملك انكلترا، وقد فقد حياته — حسبما ذكر أعداء كونراد ملك صقلية — من خلال دسائس هذا الملك نفسه،

لكن هذا الخبر مستبعد، ويبدو أنه غير جدير بالتصديق، لأن الملك المذكور قد عامل هنري بعاطفة أخوية، وقد قدم براهين على عاطفته نحوه، وذلك حسبما أفاد أيضا في إجاباته على تهم جادة أثرت ضده من قبل البابا، حيث قال بأنه قد شعر عند وفاته بأنه قد فقد جزئاً رئيسياً منه شخصياً، وكان المقترف الحقيقي لهذه الجريمة الشقي الشرير جداً، الذي عرف باسم جون الموري، فهو الذي دس السم إليه، وفيما بعد عندما كان مايزال يتنفس وفي آلام الموت، تولى خنقه، وبعد وفاة أخيه لم يظهر كونراد أنه هادئ مستقر كما كان من قبل.

حول الخلاف بين البابا وبين كونراد ملك صقلية

وفي شهر أيار من هذا العام تفجر خلاف شديد بين البابا، وبين كونراد ملك الصقليين، ذلك أنه كان هدفا للكرهية من قبل البابا، الذي لم يتقيد بمرضه، وأنه قد تعرض للنقد الشديد من قبل الأسقف روبرت، أسقف لنكولن، واهتم قليلا بالاصلاح، أو بالحري لم يهتم مطلقا، وقد اتهم كونراد بعدد كبير من الجرائم، ومنحته كراهيته لفردريك الأرضيات لتوجيه الاتهامات، لأن رماد النيران لم يكن خلوا من بقايا وقيد النار بينها، وقد رد الملك على كل واحدة من الاتهامات باعتدال، وقد أنكرهم جميعا بشكل مكشوف وثابت تماما، وقد اتهمه البابا بأنه كان مهرطقا، ومجرما قاتلا، وواحدا جاحدا لمفاتيح الكنيسة، ورجلا تسبب في ممارسة الخدمات اللاهوتية في أيام الحرمان من شراكة المؤمنين، كما أنه اتهمه بقتل واحد اسمه فردريك، بالسم، وكان حفيدا له، وأيضا بقتل أخيه هنري وذلك بوساطة جون الموري، الذي دس السم إليه أولا، ثم عندما وجد أن موته قد تأخر، تولى خنقه بوساطة منديل.

وألح البابا على هذه التهم ورددها كثيرا، في سبيل إثارة ملك انكلترا ضد كونراد، ومن الممكن الوقوف على تهم البابا، وعلى أجوبة كونراد عليهم في كتاب Additaments، عند علامة الرسالة الحمراء.

عدم إلتزام الملك بمراعاة الامتيازات التي غالباً ما أقسم يمينه واعدأ بمراعاتها

لقد كانت هناك آمال عظيمة شعر الناس بها، بأن يقوم الملك مخلصاً بمراعاة صكوك الامتيازات التي تقدم ذكرها، حيث اعتقد الجميع بأنها استقرت على أرضية ثابتة، لأن الملك الذي غالباً ما كان قد أقسم من قبل على الإلتزام بها، لأنها منحت من قبل أسلافه، هذا الملك بات الآن في عمر أكثر نضوجاً، وكان يخاف من التورط بقرار الحرمان الكنسي الذي جرى التفوه به، لكن على الرغم من ذلك، فإنه أذعن الآن إلى نصيحة الرجال الأشرار، فلم يتردد في خرقها وتجاوزها، معتقداً أنه يستطيع بوساطة مبلغ صغير من المال الحصول على التحليل من ذنوبه وتجاوزاته.

حول زواج إدوارد ابن ملك إنكلترا من أخت ملك إسبانيا

وجرى في هذه الآونة ارسال ادوارد بأهبة عظيمة، وبفخامة كبيرة، إلى ألفونسو ملك اسبانيا، الذي تولى استقباله بتشريف واحترام، واتحد في بورغوس Burgos بالزواج من إليانور الأخت الصغرى للملك، وتسلم المرتبة الشرفية للفروسية من الملك نفسه، الذي كان مسروراً تجاه المظهر الوسيم، وحسن التصرف لدى الأمير الشاب، ثم عاد ادوارد إلى أبيه مع زوجته التي كان قد تزوج منها حديثاً، واستقبل بسرور عارم، وكأنه ملاك قادم من عند الرب، وجلب جون مانسيل أيضاً معه، صكاً من ملك إسبانيا مختوم بالذهب، فيه تخلى باسمه وباسم ورثته عن الادعاء بغسكوني كلها، إلى ملك انكلترا وورثته، وبناء عليه قام ملك انكلترا عند ذلك بمنح ابنه وزوجته مقاطعة غسكوني، وايرلاندا، وويلز، وبريستول Bristol، وغراهام Graham، وبذلك أظهر نفسه ملكاً صغيراً بشكل مضاعف، ثم إنه منذ ذلك الوقت، بدأ

الملك باستعداداته لعودة سريعة إلى الوطن، بما أن المشاكل الصغيرة قد جرت تسويتها حسب رغبته، مع أنه ظهر للرجال العقلاء بأنه لم يربح شيئاً لصالح المملكة، بل بالحري جلب أضراراً كبيرة للمملكة، لأن ماهي النجدة أو ماهو العون، الذي يستطيع ملك، كان على مثل تلك المسافة البعيدة، عمله ضد ملك فرنسا، الذي منه يشتكي ملك انكلترا كثيراً؟ وفي الحقيقة كان محاطاً من جميع الجهات بأعداء داخلين تآمروا ضده، ولم يكن بإمكانه مقاومتهم بشكل جيد، وكيف يمكنه ذلك وعدد كبير جداً من البلدان والممالك تعترض سبيله وتفصله عن غسكوني، وعلاوة على ذلك كان الملك متوائماً مع أخلاق الاسبان وعاداتهم وديانتهم، وكان يعرف بأنهم حثالة بني البشر، فقد كانوا قبيحون في الوجوه، وضيعين بالسلوك، ومعمقوتين في أخلاقهم، وقد تبين فيما بعد بوساطة براهين لا يمكن دحضها، بأن الملك الانكليزي قد أنفق في حملته غير المثمرة في غسكوني، حيث لم يربح شيئاً، ماعدا الذي كان من قبل بين يديه، أنفق من دون فائدة مليونين وسبعمائة ألف باوند وزيادة، وذلك باستثناء الأراضي والموارد التي كان قد أعطاها من دون تقدير لأشخاص لا يستحقون، أشخاص كانوا على استعداد لإلحاق الأذى والضرر به وبمملكته، وكانوا أيضاً يرغبون في التهام جميع ثروات البلاد، وعلاوة على ذلك، هو أعطى إلى إخوته لأمه، البواتيين الحقيقيين بالأصل وبالأخلاق ثلاثين ألف مارك، وذلك إلى جانب الأراضي، والموارد، والوصايات، والبيوت، والجواهر الثمينة، وهكذا، هكذا بالأسف انكشف أنه أنفق في إطار عدة سنوات خلت كثيراً من الأموال على حملته إلى بواتو التي خسرها، والآن في غسكوني، التي استطاع بصعوبة كبيرة الاحتفاظ بها، وقد بذر كثيراً من المال على تربة قاحلة، وكان ذلك أكثر مما يمكن أن يدفعه أي مشتري أو مثنى أمين، ثمنا لكلا البلدين، لو أنها عرضا للبيع، وهكذا حدث أن حرمت انكلترا من الكرامة، وجردت من ثروتها من خلال فسولة ملكها، الذي

عنه روي بأن ميرلين Merlin قد قال: «يمضي الوشق نحو الأمام خارقاً كل شيء، حتى لو كان ذلك قد قصد به دمار بني جنسه»، وفي الحقيقة خرق الوشق كل شيء، حيث ليس هناك ولاحافضة نقود في انكلترا، لم يتم خرقها، ونفضت حتى أفرغت من محتوياتها، وجرى إعلامه بهذا الانفاق الهائل للمال من قبل بعض أصدقائه المقربين، وعندما سمع بذلك أصيب بالدهشة وتملكه الغضب، وأجاب وهو يتنفس بصعوبة قائلاً: «بحق رأس الرب (حتى نستخدم عبارته المعتادة) ماهذا بالنسبة له؟ لاتنشروا خبر ذلك إلى أي واحد، حتى لايسبب العجب والدهشة لعقول الناس».

كيف تطلع الملك نحو الاستحواذ على العشور التي منحت إليه

وفي الوقت نفسه، لم يكن من الممكن ضبط الملك بوساطة النصائح والملاحظات التي وجهت إليه من قبل الناس الصالحين، بل تطلع بجشع شديد إلى جباية العشور، التي وعد بها مشروطة من قبل الجماعة لمدة ثلاثة أعوام، حتى تمكنه من القيام بالحج، من أجل نجدة الأرض المقدسة، وفي الوقت نفسه لم يقيم تقديراً للوعود التي غالباً ماقطعها على نفسه بالالتزام بصكوك الامتيازات والحريات سليمة، وبعد خرقها، وهذه أمور كثيراً ماورد ذكرها من قبل.

كيف ذهب أسقف نورويك إلى

كنيسة القديس ألبان لجباية العشور

في أيام عيد نقل القديس بندكت، قام أسقف نورويك، بناء على أمر البابا، وكذلك أمر الملك، بالذهاب إلى كنيسة القديس ألبان، ليحجي عشور جميع ممتلكات تلك الكنيسة، باستثناء البارونية، وذلك من أجل استخدام الملك، وبناء عليه جمع كل قساوسة الكنائس في منطقة القديس ألبان، وكذلك جميع الخوارنة والأوصياء على الكنائس نفسها، بها في ذلك

كنيسة غوبول Gopwell أيضاً، حيث تعيش الراهبات حياة عزلة أبدية مع القليل من وسائل العيش، وكذلك كنيسة القديس يوليان وكنيسة القديسة مريم في الحقول، وكان يعيش في الكنيسة الأولى عدد قليل من الرهبان التعساء، ويعيش في الكنيسة الثانية بقايا راهبات فقيرات، يعيشن حياة تعيسة، حيث كن لا يملكن بالكاد أي شيء يكفي لإقامة أودهن، ودعي هؤلاء الناس للاجتماع مع بعضهم ليجري فرض الضرائب عليهم بكل دقة، حيث جرى تحليفهم حول الاقرار بما يمتلكون من وسائل الحياة، كما أنه جمع كل الذين يشغلون مناصب، في ظل كنيسة القديس ألبان، حتى الذين يقدمون الصدقات، وفرض عليهم ضرائب دقيقة حول ممتلكاتهم، معلناً أنه سوف يجري فيما بعد بحث وتدقيق، ليتم معرفة فيما إذا كان الإحصاء غير عادل، وقد عرض الاجازات والتفاويض التي كان يمتلكها: المأخوذة من البابا وكذلك من الملك، وأضاف قائلاً ان القيام بهذه الوظيفة جاء كثيراً ضد إرادته، وأنه تحمل هذا العبء المزعج والثقيل رغماً عنه، وأنه كان مكرهاً على التصرف هكذا بحكم فضيلة طاعته، وقد قام بتنفيذ الواجب باعتدال كبير، وبلطف، أه، ماهذه البدعة التي لم يسمع بمثلا من قبل، فإلى هذا الوقت كان العلمانيون يدفعون العشور بالعادة إلى رجال الدين، والآن بانتكاس المفاهيم وانقلاب أنظمة الأشياء، جرى ارغام رجال الدين، بالاكراه، على دفع العشور إلى العلمانيين، وقد وجدوا على كل حال تعزية واحدة أثناء معاناتهم، هي الاعتقاد —حسبنا تقدم الوعد إليهم— بأن المال الذي سوف تجري جبايته من هذه العشور، سوف يتم صرفه، في سبيل نجدة الأرض المقدسة وفي سبيل تشريف الرب ومن أجل كرامة الكنيسة، وكذلك أيضاً سوف يجري الالتزام بنود صكوك الامتيازات، وفقاً للوعد، لكن: «الأمل يتجدد، وكذلك خداع الشخص الذي يتصوره».

وعلاوة على ذلك، قبل أن يجري إخبارنا بذلك، قام الرومان ووكلاء

الملك، في سبيل تنويع خداعهم، قاموا باتفاق عام، وبشكل سري، بإضافة عامين إلى الثلاثة أعوام، وعلى هذا فإن تلك العشور التي جرى منحها والوعد بها لمدة ثلاثة أعوام، باتت الآن معطاة لمدة خمسة أعوام، على أساس شرط لم يجر الالتزام به من جانبهم.

حول الفيضان غير المعتاد للبحار الشرقية

ووصل في هذه الآونة، بعض وكلاء الملك من سوق القديس بوتولف Botulf، وقد ذكروا بأن شعوب المناطق الشرقية من أوروبا، الذين ندعوهم Estrichales و Gutlanenses، قد عانوا من الكارثة التي عانينا منها نحن أنفسنا، وجاءت معاناتهم من البحار الشرقية، التي تجاوزت حدودها المعهودة وغطت السواحل إلى مسافة بعيدة، وما كان مدهشاً أكثر، هو أنه على مسافة من الشاطئ، حيث البحر بالعادة عميق، تراجعت المياه، تاركة بقعة رملية جافة، مثل جزيرة، لم تشرق عليها أشعة الشمس قط من قبل، وبناء عليه يبدو أن الأمور غدت على عكس ما كان مشروعاً من قبل حيث نقرأ في المزمور ما يخص البحر قوله: «أنت أعطيت إليهم حداً (يعني إلى المياه) لن يتجاوزوه»، هذا وعلينا أن نقدر أن كل شيء ممكن مع الرب، وليس للإنسان أن يعرف ذلك، وكأن مثل هذه الأمور الاستثنائية قدمها الرب بمثابة انذارات لنا، لأنه يقول: «سوف تكون هناك علامات في الشمس»، إلخ.

عودة الملك الفرنسي من وراء البحر

وفي حوالي الوقت نفسه، أي أن تقول في أيام عيد نقل القديس بندكت، عاد ملك فرنسا من الأرض المقدسة، مع أن ذلك كان ضد رغبته، لأن نبلاءه كانوا قد استدعوه بإلحاح شديد، من أجل غاية خاصة هي إنهاء الشقاق الذي أثير بوقاحة امرأة، تسببت بموت أكثر

من مائة ألف رجل، فجعلت الأطفال أيتاماً، والعقيلات أرامل، وحولت البلاد الجميلة، وجعلتها بدلاً عن ذلك أشبه بصحراء، وبعدما نجا الملك الفرنسي، تحت حماية الرب، من غدر بعض أعدائه في البحر، وصل سالماً إلى أحواز مرسيليا، إلى قرب مونتبلير Montpllier (حيث تنتعش العلوم الطبية)، وبقي هناك لبعض الوقت للاستراحة، وليتعافى من متاعب رحلته البحرية، لأنه قال بأنه لم يختم حجه بعد ولم يكمله، بل إنه اكتفى بتعليقه لبعض الوقت، ولهذا السبب ارتدى شعار الصليب بشكل علني، وأعلن قائلاً بأنه قدم مسرعاً إلى مملكته، بناء على إلحاح نبلائه، لأنه بصعوبة كبيرة جداً، أمكن اقناع وليم صاحب هولاندا، وملك ألمانيا، بالقبول بهدنة قصيرة، والمحافظة عليها من دون مهاجمة الفلمنكيين والفرنسيين بألمانه المتهورين، ولدى وصول الملك الفرنسي التقي إلى مملكته، بعد الكثير من المخاطر التي كابدها في بلد أجنبي، وفي البحر، والآن في بلاده، على الرغم من كل ما عانى منه من متاعب وخسائر، جرى استقباله بتشريف لائق وباحترام، وشرع على الفور في اشغال نفسه في تقدير الطريقة التي سوف يتبناها، أي إما أن يتولى اخضاع أعدائه القريبين في الوطن بالقوة، أو أن يقوم بتهديتهم بوسيلة العدل، لكن لم يكن بإمكانه تهدئة مثل ذلك العدد الكبير من العواصف والزوابع من دون التشاور الدقيق والطويل مع مستشاريه.

وفاة هوغ أسقف إيلاي

وغادر هذه الحياة، في هذه الآونة أيضاً، هوغ الصالح، أسقف إيلاي، الذي كان من قبل راعي دير كنيسة القديس ادموند، وهو الذي قاتل بجدارة وفائدة، في سبيل الرب، في الكنيستين لمدة أربعين عاماً، وقد مات في عزبته في التاسع من آب، وقد حمل جسده بكثير من العناية والاحترام إلى إيلاي، حيث جرى دفنه في كنيسته في بيت مشيخي فخم كان قد أسسه وبناه بالرخام على حسابه الخاص، ومن بين الأعمال

التقوية الأخرى التي كان قد أنجزها، بناء قصر كبير من الحجارة، غطاه بسقف رصاصي، وكان ذلك في إيلاي، كما أنه شيد بعض الأبنية الواسعة والفخمة في أماكن أخرى، وفي الوقت نفسه تجاوز هذا كله ولم يتقيد به، حيث أعد لنفسه قصراً سهاوياً بإعطاء الصدقات، وبأعمال خيرية أخرى، وبالطريقة نفسها، مثلما أظهر تقواه عند المائدة الروحية، أي عند المذبح، وبينابيع من الدموع تدفقت من مقلتيه، كذلك فعل عند مائدة التغذية للبدن، حيث أظهر نفسه مضيافاً، وكريماً، ومشرقاً، وهادئاً، وبوفاته ماتت زهرة المعلمين والرهبان، فمثلما كان راعي الرعاة في انكلترا، مثل هذا أشرق وأشع فكان أسقف الأساقفة.

رعد وبرق غير اعتيادي

في عشية عيد صعود مريم المباركة، في هذا العام، وفي حوالي الساعة السادسة، وفي وسط سقوط ثقل غير اعتيادي للمطر، سمع زئير رعد، وشوهد برق، ترافق معه، وقد وقع على برج كنيسة القديس بطرس في سينت ألبان، فخرق الجزء الأعلى منه بضربة ساحقة مرعبة قتل بها المواد السنديانية، وكأنها كانت مجرد شبكة، ومن المدهش القول، سحقها، وحوّلها إلى شظايا صغيرة، وخلفت النار وراءها رائحة ننتة من الدخان لاحتتمل في جميع أرجاء البرج.

انتخاب توماس أولدبرج لأسقفية كارلايل

وفي حوالي الوقت نفسه، انتخب الكهنة النظاميون في كارلايل المعلم توماس أولدبرج Oldbridge بمثابة أسقف لهم، وراعياً لأرواحهم، مع أن الملك استخدم أكثر الالتماسات إلحاحاً مع المطالب الملكية إلى الهيئة الكهنوتية العامة، لانتخاب واحد آخر، إذا كانوا يقدرون منفعة كنيستهم، وكان هذا الآخر هو رئيس رهبان نيوبيري، وكان كاهناً نظامياً أيضاً، ومستشاراً خاصاً به، ورجلاً عاقلاً وحكيماً.

وصول نبلاء اغريق إلى بلاط روما

قدم في صيف هذا العام بعض النبلاء والأشخاص ذوي المراتب العليا، من الامبراطورية الاغريقية، وهم يرتدون ثياباً ثمينة، ويمتطون خيولاً جميلة، وقد أحاط بهم حاشية مجهزة بشكل جيد، مع حوالي الخمسين من خيول التحميل، ومثل هؤلاء الأشخاص أمام البابا، واتهموه بعبارات قاسية باقتراف ذنوب كثيرة في العقيدة، وبسلوكه جعل جميع اللاتين يفعلون الشيء نفسه، لأن اللاتين يقولون بأن الروح القدس قد جاء من الأب والابن وصدر عنهما، في حين كان الموقف المعتمد من قبل الاغريق، أنهم أثبتوا أنه صدر عن الأب فقط، وهذا الذنب القديم للاغريق، والذي رفضه اللاتين وشجبوه، قد ثبت برأيهم بوساطة بينات دينية وتقاليد قوية ومنطقية، مملة حتى نذكرها، وكان الموضوع الآخر للخلاف فيما بينهم يتعلق فيما إذا كان اصطلاحي «انبثاق» و«رسالة» لهما المعنى نفسه، أم يختلفان في معناهما، ونحن ندع هذا للمناقشة من قبل الجدلين.

وقالوا أيضاً بأن «السيمونية» و«الربا» متأصلان في البلاط الروماني، وهذا مايمكن أن يبرهنوا على صحته بأوضح البراهين والأمثلة، وحول هذا انتشر تقرير في الخارج، من الصعب القول أنه جانب الحقيقة، أو على الأقل ابتعد عن الإيمان الإنساني، وعلى كل إنه من دوافع التقوى الاعتقاد بأن مثل هذه الأعمال التي اقترفت بناء على نصيحة الأشرار، ينبغي التغاضي عنها وعدم إلغائها بقرار بابوي، ولدى فحصهم حول قواعد إيمانهم وقداستهم، أعطوا أجوبة مقنعة ومرضية، وعندما كانوا في موضع الشك، تقبل بعضهم طواعية التوجيهات، وقدم البابا إليهم هدايا ملابس قمرزية ثمينة، لها حواشي بفراء ثمين، وأحزمة حريرية مرصعة بالذهب والفضة، ولها أبازيم غالية، وبذلك كان يمكنهم أن يكونوا فخورين بذلك.

كيف منح البابا مملكة صقلية إلى ملك إنكلترا

وفي هذه الآونة، عاد المعلم ألبيرت إلى بلاط روما، حاملاً رسالة إلى البابا، بأنه لم يستطع ولا بطريقة من الطرق التأثير على الايرل رتشارد، حتى يقبل مملكة صقلية وأبوليا، التي منحت له، أو أن يعرض نفسه وجميع مقتنياته للمخاطرة، ما لم يقدم البابا أولاً رهائن جيدين من أسرته بمثابة ضمان على الاخلاص والصدق، وعلاوة على ذلك، أن يساعده بمبلغ محدد من المال، وذلك حتى ينطلق بالحملة، وأن يسلمه أيضاً بعض القلاع، التي بين يدي البابا، وهم على الحدود، حتى يمتلك أماكن آمنة للتراجع، ورأى البابا من الصعب عليه العمل في ظل تلك الشروط الصعبة، فلم يوافق عليها وقال: «إننا لن نخضع لمثل هذه الشروط الكثيرة»، ثم أضاف المعلم ألبيرت قائلاً: «لقد أخبرني الايرل، بأنك إذا لم تفعل وفق الشروط المعروضة أعلاه، سوف يكون كما لو أن واحداً قال له: إنني أعطيك — أو أبيعك — القمر، تسلق إليه وخذه»، فوجد البابا أن مبادرته مع الايرل لم يكن لها نتيجة، لذلك أضاف قائلاً: «نحن لسنا مهتمين بشأن الدخول بأية معاهدة معه، أو أن تكون لنا أية مصلحة عامة معه»، وكان قانعاً بما عمله حتى الآن، «حيث رمى شبكته أمام الطيور من دون فائدة»، فأرسل رسلاً سريين إلى ملك إنكلترا، سعيّاً منه لاستغلال بساطته (لأنه عرف بأنه كان سهل التصديق، نزاع نحو خسارته الذاتية)، وعرض عليه مملكة صقلية وأبوليا، وأن يعطيه مساعدة كبيرة للحصول عليها وتمكّلها، بحيث يمكنه تنفيذ ذلك من دون إلحاق أي ضرر به نفسه، أي أنه لتحقيق تلك الغاية، هو سوف يحول جميع الصليبيين عن هدفهم الأساسي بالابحار إلى الأرض المقدسة، وسوف يقنعهم باتباعه — ملك إنكلترا — ومساعدته في الحصول على امتلاك صقلية وأبوليا، وعندما سمع الداوية والاستبارية، وبطريك القدس، وجميع الأساقفة، وسكان الأرض

المقدسة، الذين كانوا واقفين في وجه أعداء المسيح، بهذه الإجراءات حزنوا في قلوبهم، لأنهم سئموا من زيف الخبر الروماني، وخافوا من وقوع الأسوأ، وابتهج الملك — على كل حال — كثيراً تجاه الوعد الفارغ للبابا، وانتفخ قلبه كثيراً بسرور فارغ، وأظهر فرحة نفسه في صوته، وفي حركته، وفي ضحكته، وبشكل مكشوف أطلق على ابنه ادموند لقب «ملك صقلية»، ودعاه كذلك، معتقداً أن الاستحواذ على تلك المملكة بات حقيقة ناجزة، وهمس رسول البابا باذنه، بأن لا ييوح بهذا السر، خشية أن يصل إلى علم أصدقائه، الذين كانوا على دراية بمكر البلاط الروماني، فبذلك يجعلونه يحذر ويتخذ احتياطاته، وعند ذلك أرسل الملك إلى البابا جميع الأموال التي كان يمكنه سحبها من خزانته، أو من المسؤول عن أمواله، وكذلك كل ما كان بإمكانه أخذه من اليهود، أو استخراجهم بوساطة رجال عدالته المتجولين، وذلك من أجل شن الحرب ضد كونراد، واخضاع الصقليين والأبوليين، وبالنسبة لكونراد، فقد حزن لأن ملك انكلترا وقع في شباك البلاط الروماني، وشكر الايرل رتشارد لعدم السماح لنفسه بالوقوع بالشباك، وأعطاه في الوقت نفسه الانطباع، بأنه تصرف بشكل حكيم، بعدم الوثوق بوعود البابا، وبعدم الاقبال على انفاق أمواله، لأن كونراد كان قد ألح، أنه حيث كان للايرل القدرة على انفاق قطعة من الفضة، فإنه سوف ينفق قطعة من الذهب، وكان البابا معتمداً على ثرواته الكبيرة جداً، ولذلك ارتقى إلى درجة الوثوق بالذات، ولهذا حشد جيشاً كبيراً من المرتزقة، هو تولى الدفع له، وعهد بقيادته إلى الكاردينال أوكتافيان، ووزع بكرم المال بين الجنود، وأرسل رسالة إلى ملك انكلترا، عندما نقصت لديه الأموال، وأطاع هذا الملك محرضات الشيطان ونهمه، فكتب إلى البابا رسائل تعهد مختومة بالختم الملكي، مخولاً إياه أن يستدين مافيه الكفاية من الأموال، وبكميات وافرة، من التجار الايطاليين، وأوصاه أن لا يكون خائفاً حول كمية المال المطلوبة، أو حول الفائدة العالية، لأنه سوف

يسدد عنه جميع ديونه، وتعهده بنفسه بفعل ذلك، تحت طائلة عقوبة فقدانه لميراثه وحرمانه منه، ووافق البابا على هذا كله، وقبل بأوامره وقال: «إنه إذا عمل جيداً، فإنه يترك ذلك إلى الرب —الذي هو قاضي القضاة جميعاً، والذي يتولى العناية بالجميع— ليقدره، وإنه ليس لي الحكم على أعمال البابا، وبناء عليه أمر بعمل إعلان عام، وكأن ذلك بموجب مذكرة امبراطورية أو ملكية، ووجه بذلك الدعوة إلى كل من أراد الحصول على دفع جيد، للالتحاق بالجيش البابوي، لأن لديه الآن مبلغاً كبيراً جداً من المال، حيث كان قد استدانه من المرابين الايطاليين، وبناء عليه تدفق حشد كبير من الناس وتجمعوا مع بعضهم، من أجل الدفع البابوي، وتشكل من الايطاليين المنحطين والجهلة، والعاطلين عن العمل؛ ومن المخلوقات غير المؤهلين للحرب، والخالين من الصدق والوفاء، الذين لم يتطلعوا نحو منفعة ملك انكلترا أو البابا، بل كان همهم وشاغلهم جمع المال، فهذا ما سوف تظهره نتائج شؤون هذه القضية.

وفاة كونراد ملك صقلية

وأعد الملك المذكور، في الوقت نفسه، ذاته للتصدي للفتات المذكورة أعلاه بنشاط، ودعا واستنفر رعاياه الطبيعيين، وسكان صقلية وأبوليا، وأتباعه من الجنود الذين معه، وطلب منهم الوقوف بشجاعة وأن يقاتلوا في سبيل بلادهم، وأن لا يطيأطئوا رقابهم لنير السادة الأجانب، وقام يومياً بانقاص تعداد جيش البابا واضعافه، غير أن حب المال الانكليزي زاد حشود أعدائه، لأن البابا لم يوفر حافضة نقود الملك، بل أنفق مبالغ هائلة، في رغبته لقهر ملك صقلية، ولإبداله بملك انكلترا في حكم تلك البلاد واحلاله محله، ومع ذلك رغب في إزالة الجميع من التاج، وجعل ادموند ملكاً وحيداً، حتى يمكن أن يعمل وفقاً لإرادته، وأن ينفذ رغبته، لأنه هو الذي أوجده، وأوجد كل ما هو عائد إليه،

وأساء البابا في الوقت نفسه إلى سمعة الملك كونراد كثيراً، واتهمه باقتراف جرائم عظيمة — من ذلك على سبيل المثال قتله لأخيه هنري — من أجل أن يثير ملك انكلترا ضده، ومعه جميع الانكليز، واتهمه بالتعامل مع مفاتيح الكنيسة بالرفض والتحدي، كما اتهمه بجرائم أخرى كثيرة، ليس من الضروري أن نذكرها، حيث أنها جميعاً عرضت في كتاب Additaments، وقد سلف ذكرها من قبل في هذا الكتاب، وأثرت الأعمال العدوانية، والتهديدات واللوم على التصرفات، والتشهير بالسمعة، التي تكدست عليه من قبل البابا، كثيراً على الملك كونراد، لابل إنها تجاوزت الحدود، لذلك بدأ يتلاشى تحت ثقل الأسى، وأصيب بعلّة شديدة فقد قيل تبعاً لبعض التقارير، بأن السم دس له، وأنه أخيراً التزم فراش موته، ونفس آنذاك عن أساءه بالكلمات التالية: «وأسفاه، وأسفاه، كم أنا إنسان تعيس وشقي، لماذا ولدني أمي؟ ولماذا أنجبني والدي، حتى أكون عرضة لمثل هذا العدد الهائل من الآلام؟ والكنيسة التي توجب أن تكون أمّاً لأبي ولي، هي بالفعل زوجة أب، والامبراطورية التي ازدهرت منذ ميلاد المسيح حتى الآن قد أخذت الآن بالتلاشي، وقد قضي عليها بالزوال»، ثم إنه لعن يوم ميلاده، ومن ثم لفظ روحه التعيسة والمتألّمة.

سرور البابا العارم بوفاة الملك كونراد

وعندما تأكد البابا من موته، عقب على ذلك وهو يشعر بسرور عارم في قلبه، مع ابتسامة ظاهرة على محياه، وعلى نبرة صوته وهو يتحدث مسروراً، حيث قال: «أنا سرور إلى أقصى الحدود، وعلينا نحن جميعاً، وأبناء الكنيسة الرومانية أن نبتهج، لأن اثنين من أكبر أعداءنا قد أخذنا من بيننا، أولهما رجل كنيسة، وثانيهما علماني، فالأول هو روبرت أسقف لنكولن، والثاني هو كونراد ملك صقلية، وقد مات الملك كونراد المتقدم ذكره في شهر حزيران، وقام البابا على الفور بالزحف شخصياً إلى

المقاطعات الداخلية لأبوليا، وتمكن في مدة قصيرة من الوقت من الاستيلاء على تلك المملكة كلها تقريباً، وأخضعها لنفسه، واغتصب حكمها وسيادتها، غير أن نبلاء المنطقة، التي كانت دوقية من قبل، قد شعروا بالغضب الشديد تجاه هذا الإجراء، فوجهوا الدعوة إلى ابن طبيعي لفردريك اسمه مانفرد Manfred، واتحدوا معه، وقدموا إليه ولاءهم، وعاهدوه وبايعوه على أنه مولاهم، وبذلك أصبحت الغلطة الأخيرة أسوأ من الأولى، ونهض أعداء البابا وانبعثوا وانتعشوا.

كيف جرى إرسال اثنين من رهبان

كنيسة القديس ألبان إلى روما

وفي هذه الآونة أيضاً جرى إرسال اثنين من رهبان كنيسة القديس ألبان إلى روما، لمقاومة صلف ووقاحة بعض الأساقفة الذين كانوا يسعون للقيام بزيارات تفقدية في الكنيسة نفسها، على عكس ما قضت به بنود امتيازاتهم، وكان هذان اللذين أرسلتا بهذه المهمة هما: وليم أوف هنتنغدون Huntingdon رئيس رهبان هيثفيلد Heathfield، واللورد جون دي بوليم Bulim، اللذان انطلقا في رحلتها في اليوم التالي للاحتفال بصعود القديسة مريم، وعادا سالمين.

قحط الأرض بسبب فيضان البحر

في هذا العام نفسه، وفي أيام فصل الخريف، عندما يقطف الفلاحون — كما جرت العادة — ثمار جهودهم وأتعايبهم، قد وجدوا أن جميع الأراضي الواقعة في أحواز البحر، على الرغم من زراعتها بكل عناية، وجدوها خاوية من أي نوع من أنواع الثمار، وهي مبللة مشبعة بالملح، لأنه حدث — كما ذكرنا من قبل — أن استولى البحر، أثناء الشتاء، على الشواطئ، وعلى الأراضي المجاورة لهم، لذلك لم يكن مرئياً هناك لاقمح، لابل حتى الأشجار والبساتين، لم يشاهد عليها لأوراق،

ولأغصان، أو فواكه، ويمكن لنا أن نتصور مدى الخسائر من ضرب مثل واحد من بين أمثلة القضايا الكثيرة، هو أن رئيس رهبان سبالدنغ Spalding، لم يستطع التفاخر بأنه جنى حزمة واحدة من القمح، من كل تلك الأرض المجاورة لشاطئ البحر، أما بالنسبة للأشجار في الغابة، وكذلك أشجار الفواكه، فقد جفوا تماماً، وأصبحوا فقط موائل للقطع، وعانت فلاندرز أيضاً، وجميع المناطق البحرية، من الخسارة نفسها، وما من إنسان عجوز كان بإمكانه أن يتذكر أنه شاهد قط مثل هذا الشيء من قبل، وكانت هناك حقيقة مدهشة قد لوحظت أثناء ذلك الطوفان الاستثنائي وغير الاعتيادي، من قبل البحارة وصائدي الأسماك، أثناء ممارستهم لكثير من أعمالهم في أجزاء ومناطق كثيرة من البحر، وتمثل ذلك باكتشافهم أثناء إلقاء المراسي، أو خلال السفر، بأن البحر قد غادر قيعان تجمعته المعتادة، أو الأقنية، وترك بقايا من الرمال فقط في وسط المحيط، وذلك حيث كان الماء بالمعتاد له أعماق كبيرة، هذا وقد تقدم ذكر هذه الأمور من قبل.

أسر بعض النبلاء في بونز في بواتو

وقرر في ذلك الوقت نفسه جون دي بليست Plesssets، إيرل أوف وورويك Warwick وغيلبيرت سيغريف مع نبلاء آخرين، أنه بما أن كل شيء هادئ —حسبما بدا— في غسكوني، قرروا الحصول على إذن بالعودة إلى الوطن، وبناء عليه، حصلوا على جواز مرور للعبور بسلام خلال المناطق الخاضعة للحكم الفرنسي، وإثر ذلك ركبوا الطريق، وانطلقوا مسافرين وهم يشعرون بالأمان خلال تلك البلاد، يريدون انكلترا، وقرر الايرل، الذي كان من أصل نورماندي، أن يسافر خلال نورماندي، ولدى وصولهم إلى مدينة في بواتو اسمها بونز Pons، وهي التي كانت قبل سنوات قليلة مضت مدينة أثرية لدى الملك الانكليزي، فقد جرى استقبالهم بمظاهرة فرح من قبل

السكان، الذين اصطحبوهم إلى مساكنهم وقدموا إليهم هدايا جميلة تعبيراً عن الاحترام، وجرى إخبار الذين عسكروا عندهم بأن يستولوا في الغد على الدروع والأسلحة التي كانت مع الانكليز، وأن لا يعطوهم إياها ثانية، لكن توجب عمل ذلك بالخفاء، وغدراً، وفقاً لعادات البواتيين، وبناء عليه، عندما كان الايرل وغيلبرت سيغريف يحتفلان بكل أمان مع الذين كانوا بضيافتهم، قدم بعض سكان المدينة يركضون إليهما، وهم مرعوبين كثيراً، والكذب في أفواههم يقولون: «انظروا، انظروا، لقد أحدث أصحابكم وأتباعكم اضطراباً في المدينة، ونحن لم نستطع تهدئة الموقف والتعامل مع هذا الاضطراب، وبرفقة الايرل، وغيلبرت سيغريف، كان آنذاك مقيماً في المدينة بعض الانكليز المشاهير، من جملتهم بارونات وفرسان وأتباعهم، وكان من بينهم فيليب مارميم Marmim، ووليم مانديم Mandim، وعدد كبير آخر، كان من جملتهم حوالي الأربعين فارساً إلى جانب عدد كبير من الأتباع، مساوين في المرتبة للفرسان، وكان بإمكان هؤلاء الدفاع عن أنفسهم بشكل جيد، لو أنهم تسلموا تحذيراً من قبل، واستشرى الاضطراب، وارتفعت صرخات «إلى السلاح»، وطلب الضيفان من مضيفيهم اعطاءهما دروعهما على الفور، لكن الآخرين لم يفعلوا ذلك، بل احتفظوا بهم مخزونين بعيداً، وفجأة هجمت قوة كبيرة من السكان، كانت شاكية السلاح تماماً، وانقضت على الضيفين غير المتنبهين، وغير المسلحين، واعتقلوهم، ولم يفدهما شيئاً عرض جوازات السفر الممنوحة لهما من ملك فرنسا، من أجل السفر بسلام وأمان خلال تلك المنطقة، وكان بإمكان بعض أفراد تلك الفئة المغادرة، لكنهم لم يفعلوا ذلك، مالم يتم السماح للجماعة كلها التي قدمت برفقة الايرل بالذهاب بعد اطلاق سراحها، ولدى سماع ملك انكلترا بهذه الأحداث غضب كثيراً، لكنه لم يظهر الذي يتوجب عليه فعله، لو أنه امتلك قلب ملك حقيقي، وقام على كل حال بالكتابة لصالحهم إلى سكان بونز، الذين كانوا أصدقاءه

من قبل، وكانوا مواطنين مخلصين، لكنهم عاملوا رسالته بالرفض واحتفظوا بأسراهم في سجن مضيق عليهم، وعانى الأسرى أثناء سجنهم من المزيد من الآلام، لأن ملك انكلترا، الذي كان مولاهم الطبيعي، كان قد كدس عليهم من قبل الكثير من المنافع، وكان غيلبرت رجلاً نبلاً وغنياً، وصاحب سمات رفيعة، وعندما كان هناك معتقلاً أصيب بعلّة لم يبرأ منها بعد ذلك مطلقاً، بل عاش حياة تعيسة أمضاها حتى موته، وبهذا العمل المكشوف صار البواتيون معروفين مفهومين من قبل الجميع، من الفرنسيين ومثل ذلك من الانكليز، ووضح كم من الغدر مقيم في قلوب البواتيين.

وفاة وليم كانتلوب

وفي حوالي أيام عيد القديس ميكائيل من هذا العام نفسه، مات وليم كانتلوب Cantelupe، وكان رجلاً غنياً، وشاباً وسيماً، مما سبب الحزن لكثيرين، وكان هذا هو الثالث من أسرة كانتلوب، الذي أخذ من بيننا في اطار سنوات قليلة.

حول ولاية غير اعتيادية من الملك

وفي حوالي الوقت نفسه، أي أن تقول في عيد القديس ادوارد، صدر عن محكمة قاضي القضاة الملكية، الاجازة غير الاعتيادية التالية، التي كان من غير الممكن تعليق أي أمل عليها أو توقعه منها:

«من هنري، الذي هو بفضل الرب، إلخ: ينبغي القيام بعملية فحص دقيقة في عزب الطوائف الرهبانية، لمعرفة كم هو عدد الفدادين الموجودة فيها، والموائمة لزراعة الأرض المملوكة، وكم عدد الفدادين العادية ينبغي أن يكون هناك، وفيما إذا كان من الممكن عن طريق انقاصهم، أن يجهزوا فداناً في العام، أو أكثر أو أقل، ويتوجب مثل هذا عمل بحث بشأن الفدادين المشكوك بها، وينبغي أيضاً عمل تفتيش لإحصاء الكمية التي

تنتجها كل ملكية بنفسها كل عام، محذوف منها النفقات الضرورية التي يتم دفعها، وينبغي أيضاً إجراء تفتيش لإحصاء كمية العمل والخدمات التي يقدمها الفلاحون سنوياً إلى سادتهم، على حساب أراضيهم، وأيضاً ماذا، وكم، وأي نوع هي الموارد لكل من عزبهم سنوياً، وينبغي أن يقوم بأعمال التقصي هذه أربعة رجال مستقيمين، والذي سيكون العمدة للمكان، ينبغي اختياره من كل عزبة من بين الطوائف الرهبانية.

حول وليم أوف كيلكني الذي شغل منصب قاضي القضاة

وشغل منصب قاضي القضاة في هذه الآونة، واللقب الذي حمله، من قبل وليم كيلكني Kilkenny، وذلك باعتدال ومن دون ملامة، وكان كاهناً ومستشاراً خاصاً للملك، ورجلاً ضليع المعرفة بالقانون ووسياً. في مظهره، وفصيحاً في خطابه.

انتخاب وليم أوف كيلكني لأسقفية إيلاي

وبعد هذا بوقت قصير، أي إثر الاحتفال بعيد القديس ادوارد، انتخب رهبان إيلاي [أسقفاً لهم] المعلم وليم كيلكني، لأنه كان رجلاً مستقيماً وحكيماً، وواحدًا بارعاً في القانون، وكان في ذلك الوقت قاضي قضاة الملك، أو أنه كان يمارس واجبات قاضي القضاة.

موت ثلاثة من رعاة الديرة

وفي حوالي الوقت نفسه، أي أن تقول في إطار شهر وعدة أيام، مات ثلاثة رعاة ديرة في أراضي السبخ Marshlands، وهذه حقيقة غريبة ومدهشة، وهؤلاء هم: راعي دير كرويلاند Croyland، وراعي دير ثورني Thorney، ووليم هاشولت Hacholt، راعي الدير الصالح لرامسي، الذي مات في السابع عشر من تشرين الأول، وهو لم يشغل وظيفة حكم كنيسة رامسي إلا لسنة واحدة.

حول رعد ومطر في الشتاء

في اليوم التالي للاحتفال بعيد القديسين: كريستين Crispin وكريستين، انزعجت مسامع الناس جميعاً وقلوبهم برعد مرعب، ومع أن ذلك كان في الشتاء، فقد ترافق مع أمطار غزيرة جداً.

اضطرابات في الأنواء

وفي هذا العام أيضاً، حدث أنه من يوم الصعود حتى يوم عيد جميع القديسين، أنه بالكاد مرّ يومان أو ثلاثة أيام من دون الإثارة ببعض اضطرابات الأنواء.

حالة الأسى والقنوط لدى الملك الفرنسي

شعر الملك الفرنسي بحالة من الأسى والحزن العميق في قلبه، وظهر وكأنه يرفض كل أنواع العزاء والمواساة: وهكذا لم تعد الآلات الموسيقية تمنحه السرور، ولم تتمكن الخطابات المسلية أو كلام المواساة تنتزع الابتسامة منه، ولم يشعر بالبهجة لدى عودته لزيارة بلاده الأصلية ومملكته، ومثل ذلك تجاه تحيات الاحترام التي تلقاها، وكذلك لدى تلقيه هدايا الاعتراف التي قدمها له رعاياه بحكم أنه مولاهم، بل إنه بنظرات نفس مهانة، مع حزن عميق، وآهات متوالية، تفكر بأسره من قبل المسلمين، ومن خلال ذلك العار الذي لحق بالمسيحية بشكل عام.

وأخيراً خاطبه أسقف مستقيم ومقدس بكلمات مواساة قال فيها: «احذر يا مولاي المحبوب ومليكي من إلقاء نفسك في مثل هذه الحياة الحزينة المرهقة، فهي مناقضة لبهجة الروح، وهي الأم العقوق للنفوس، وهذا ذنب كبير ولا يغتفر، وأذى وانحطاط بالنسبة للروح القدس، أعد إلى بصيرتك صبر أيوب، وتحمل يوستاس "Eustace"، ثم قص عليه أخبار كامل تاريخ الرجلين، وكيف أن الرب كافأ كلاً من الرجلين، وعلى هذا ردّ عليه الملك، الذي كان أعظم ملوك الأرض

تقوى قائلاً: «لو أنني كنت لوحدي الذي تأملت من الاضطراب والمهانة، ولو أن ذنوبي لم تقع على الكنيسة المسكونية، لكان بإمكانني تحمل ذلك بصبر واتزان، لكن الويل لي، حيث من خلالي غلفت المسيحية كلها بالاضطراب والعار»، ولذلك جرى ترتيل قداس على شرف الروح القدس، حتى يتمكن الملك من تلقي المواساة منه، الذي هو فوق جميع الأشياء، ومنذ ذلك الحين فصاعداً، تقبل بفضل نعمة الرب الصحة، والمواساة والنصيحة.

كيف جرى تعيين رؤساء الرهبان من الطائفة

السوداء رجال عدالة بناء على مبادرة من الملك

وفي هذا الوقت نفسه، أرسل الملك رجال عدالة إلى عدة مناطق من انكلترا، لسماع القضايا، ولإعطاء كل واحد الحق العائد إليه، ولتحرير البلاد من اللصوص وقطاع الطرق، وكان واحداً من رجال العدالة هؤلاء رئيس الرهبان لمنطقة بيتربورا Peterborough، الذي التحق بهم بموجب فضيلة الطاعة، التي دان بها ليس للرب، وليس لطائفة القديس بندكت، بل للملكه الأرضي، وقد شاركهم في مرابح عزبه، ولعله لهذا السبب، جرى تعيينه بالأصل، ولم يحدث هذا في قضية رئيس الرهبان المذكور فقط، لكن ذلك حدث أيضاً مع عدد آخر من رهبان الطائفة السوداء، لإلحاق المزيد من الأذى الكبير بأحكام اختصاصهم، وكذلك بالنسبة لكنائسهم.

كيف سدّد الملك ديونه من خلال

ممتلكات رئاسات الرهبانيات الشاغرة

وفي الوقت نفسه مدّد الملك اقامته غير المثمرة في غسكوني، منفقاً مبلغاً هائلاً من المال، ليس فقط الذي كان معه، لابل الذي كان بإمكانه الحصول عليه، ولقد ورط نفسه، ومملكته، والكنيسة الانكليزية بديون

ثقيلة، ونحن نعتقد لو أن غسكوني كانت معروضة للبيع، ما كانت لتجلب مبلغاً مساوياً لهم، وعندما أخبر بوفاة رؤساء الرهبان الذين تقدم ذكرهم أعلاه، وبعض الأساقفة الذين كانوا قد توفوا قبل ذلك، منهم مثلاً أسقف إيلاي، ورئيس رهبان سيلباي Selby، مع عدد كبير آخر نحن لانتذكرهم في الوقت الحالي، أمر بتحويل ممتلكات كنائسهم إلى خزائنه، وأن تكرر لدفع الفوائد التي هو مدان بها، غير خائف من القرار الرهيب، الذي جرى التفوه به في لندن، ولم يلتزم مطلقاً بنود صكوك الامتيازات، حسبما كان قد وافق عليها.

كيف طلب الملك السماح له بالعودة إلى الوطن خلال فرنسا

واستعد الملك في هذه الآونة لعودة سريعة إلى الوطن، بعدما نجح في ترتيب شروط سلام فعالة مع ملك اسبانيا، ولأن الرحلة بالبحر كانت محاطة بمخاطرة كبيرة، قرر تفضيل السفر براً، إذا كان يمكنه ذلك من دون فرصة التعرض للخطر، لكن إذا تمكن من الحصول على الاذن من ملك فرنسا، وكانت لديه أيضاً رغبة برؤية المملكة الفرنسية، ومدنها، التي كان يعرف آنذاك أسماءها فقط، ولذلك قام بعد ذلك بإرسال رسل إلى ملك فرنسا، واختار لهذه الغاية، الذين عدّهم أهل هذه المهمة، والذين نظر إليهم نظرة عالية، وقدرهم تقديراً سامياً، وبما أنه نجح بالحصول على الاذن بالسفر كما أراد، استعد للعودة إلى الوطن من خلال مملكة فرنسا.

كيف عبرت كونتيسة كورنوول القنال لزيارة أختيها

وعندما سمعت كونتيسة كورنوول بأن ملك انكلترا على وشك العبور خلال فرنسا، مصاحباً بالملكة أختها، وأن ملكة فرنسا، وهي أخت أخرى لها، سوف تلتقي بهما، حصلت على الاذن من زوجها الايرل رتشارد، حتى تقابل أختيها، وأقلعت محاطة بحاشية كبيرة جداً

ومشهوة، من أجل أن لاتظهر أحوالها أدنى من أختيها الملكتين، وفي الحقيقة كان جميع الذين رافقوها، فرساناً مشهورين، يمتطون أفضل الخيول، مع أفضل التجهيزات، وهم يرتدون ملابس ثمينة، وكانوا محاطين بأتباع كثيرين، حتى يظهروا أنهم يستحقون الاعجاب من قبل الفرنسيين.

كيف ظلم الأسقف المنتخب لوينكستر رهبانه

كان في الوقت نفسه أخو الملك ايثيلمار، الأسقف المنتخب لوينكستر يمارس أقسى أنواع الظلم ضد رعاياه الرهبان، وإذا ما أقدم الإنسان على ذكر ذلك بالتفصيل، سوف تنهمر دموعه رحمة بهم، فقد أبقاهم محبوسين في كنيستهم صائمين لمدة ثلاثة أيام وزيادة، وكان ذلك قبل حلول عيد القديس ميكائيل، ولذلك فإن بعضهم هدهم الجوع، وآلام الروح، ومرارة النفس، ولذلك لم يعودوا مطلقاً بعد ذلك إلى أوضاعهم الصحية الصحيحة، وبناء عليه بحث رهبان الدير عن أماكن أكثر أماناً للالتجاء إليها، وذلك انتظاراً لأوقات أفضل، وتفرقوا في حالة من التعاسة، وذهب بعضهم إلى دير القديس ألبان، وبعضهم إلى ردنغ، وبعضهم الآخر إلى أبנגدون Abingdon. وذهب آخرون إلى ديرة أخرى تابعة لطائفة الرهبان السود، ذلك أنهم أرغموا على الذهاب إلى المنفى، والتسول، وأرغموا على العيش على صدقات الآخرين، ولدى افتراقهم قال أحدهم للآخر وهم ييكون: «إننا بعدل نستحق الذي نعاني الآن منه، لأننا أثناء قيامنا بالانتخاب خفنا من الإنسان، ولم نخف من الرب، وذلك بترقيتنا إنساناً غير جدير بذلك تماماً، حيث رفعناه إلى مثل ذلك المنصب العالي، ووضعناه في مكان شغله فيما مضى عدد كبير من القديسين، والأشخاص ذوي النفوذ، فلقد قبلنا إنساناً شاباً، سنوات عمره قليلة، انساناً قليل بأنه لم يمدّ يده قط إلى العصا في المدرسة، وهو لم يستمع قط إلى مبادئ العلوم الفكرية، أو حتى للقواعد، وهو رجل

نهب الأسقفية التي استولى عليها، حتى قبل أن يكون أسقفًا، وهو إنسان جاهل بلغتنا، وبالكتابات المقدسة وبالواجبات الكهنوتية، وهو إنسان لا يعرف حتى كيف يتكلم، أو كيف يتلقى الاعترافات، أو أداء أي واجب روحي نحو الرب»، وجرى استقبالهم في دير القديس ألبان وفي أماكن أخرى بلطف، ووجدوا صدر اللجوء مفتوحاً لهم، بين الرهبان، وقام الملك الذي كان قد تولى بوساطة التماساته الملكية، وبضغوطه غير الأخلاقية والقانونية، فارتقى بالأسقف المنتخب إلى المنصب الأسقفي، قام بمخاطبته لصالح الدير، وانتقده واتهمه بالعقوق، وأنه جلب على نفسه العار، مقابل التكريم الذي أضفي عليه، وأنه دفع مقابل المنافع المضاعفة، جميع أنواع الشرور، وأن هذا التصرف والسلوك مضاد لوعود الملك المقررة، ولم يصغ الأسقف المنتخب إلى أوامر الملك أو التماساته، بل كدس التهديد فوق التهديد، ووضع مكان الذين غادروه وتخلوا عنه، وعمل رهباناً من الرعاع الجهلة، وأشخاصاً غير مناسبين بالمرة، وذلك في سبيل إهانة الدين مع جميع الطوائف الرهبانية، وجرى فرض أحد الأشخاص بالقوة ليكون رئيساً للرهبان، وذلك بسبب تملقه، فتولى إحلال الفوضى وقلب مفاهيم الأشياء كلها، وحدث هذا في الوقت الذي كان فيه رئيس الرهبان الصحيح يبحث عن مكان للجوء، حيث ذهب إلى روما ليبقى حتى يهدأ غضب الأسقف المنتخب، وتمكن هناك بسبب وضوح عدالة قضيته من الحصول على كثير من الخطوة، مع أن ذلك لم يكن من دون دفع للمال، لكن كل جهوده تحولت لأن تكون من دون فعالية، بوساطة هدايا الأسقف المنتخب، (الذي منعت وكالته العدالة بشكل عام، وخاصة عدالة روما)، وجرى تبديد مقتنيات وممتلكات تلك الكنيسة الفخمة، وتلاشت الطائفة الرهبانية، ولخجلنا وعارنا يمكن القول بأن جميع الاحترام والتوقير للدين بات قليل القيمة، وكانت هذه هي الكنيسة الثالثة في انكلترا، التي أعطيت بسبب الزواج من قبل ملك انكلترا إلى أجنبية (لأن ولاية الأمير نقضت الامتياز،

وإرادته خرقت المنطق)، وهذه الكنائس هي الكنيسة الكاثدرائية الفخمة في هيرفورد، وكنيسة وينكستر التي هي أكثر فخامة، والأكثر فخامة من الجميع هي رئاسة أساقفة كانتربري، وقد عدّت هذه الكنائس الثلاث هي الأكثر شهرة في انكلترا، ومن المتوجب أن يكن تحت حكم وحماية الذين ينبغي عدّهم الأكثر جدارة وصلاً من بين السكان المحليين، لكن خشية من أن يجلب ذكر الحقيقة العدواة (الأمر الذي غالباً ما يحدث) فإن هذه الأشياء مع أنها حقيقية وواضحة، ينبغي المرور بها صامتين، لأن هذا أمر صعب في قضية كتاب التاريخ، ذلك أنهم إذا ماكتبوا الحقيقة، أثاروا الناس، وإذا ماقاموا بتدوين ماهو زائف، يكونون غير مقبولين من قبل الرب، الذي يفصل ما بين الذين يقولون الحقيقة والذين يتملقون، ويفرق بينهم.

كيف رهن الملك بطيش نفسه ومملكته للبابا

وفي هذه الآونة أيضاً، تصرف الملك وعمل بشكل غير لائق وغير نافع، فرهن نفسه ومملكته للبابا (وهو عمل أيضاً ما كان يجوز ولا ينبغي عمله) تحت طائلة عقوبة الحرمان من الميراث والتجريد من الملك، وذلك بتعهده بدفع جميع الأموال التي سوف ينفقها في حملته الحربية لصالحه — الملك — وحثه الملك أن لا يئأس من التزود بالمال، بل عليه متابعة تنفيذ ماتولى القيام به من دون تردد، وأن يردع جميع الذين يقفون ضده في تنفيذ خططه، وفي سبيل ذلك سوف يزوده بكميات وافرة من جميع الأشياء المحتاجة، من بئر انكلترا الذي لا ينضب، وبناء عليه قام البابا الذي لا يمتلك أية عاطفة نحو انكلترا، فاستدان بشكل واسع، لابل في الحقيقة بشكل تبديدي، من المرايين الايطاليين، الذين يتجولون باسم تجار، وأصبحت انكلترا الآن بوساطة استخراجات البابا، وخداع الملك وغشه، أمة مسترقة من أدنى المستويات، وقد أرغمت على دفع هذه الديون، لكن بقدر من الرب وحكمة منه، لم يجلب هذا المبلغ الهائل

من المال، الذي نهب واستخرج على هذه الصورة، أية منفعة على الإطلاق، لا إلى البابا، ولا إلى الملك، حسبما ستظهر الحكاية المقبلة بتفصيل أكبر، في وقتها المناسب، آه كم هو رأي جدير بالثناء وكم هو أكثر صلاحاً، ويستحق التصديق الرأي التالي، مع أنه صدر عن شاعر كافر ومشرك، لكنه لم يكن من دون إيمان بذاته عندما قال: «ما من نتيجة صالحة تنتج عن غنيمة قذرة تم اكتسابها بالحرام».

موت البابا أنوسنت الرابع

وفي هذه الآونة أيضاً، أي في اليوم التالي لعيد القديس نيقولا، مات البابا انوسنت الرابع في نابل، حيث أصيب بعلّة مضاعفة مزدوجة، فهو منذ أن تلقى الضربة على جنبه من عصا الراعي روبرت، أسقف لنكولن، أثناء غضبه، كما ذكرنا من قبل، أخذ يعاني من ذات جنب متعذرة الشفاء، كما أنه منذ أن هزم جيشه، وجرى تفريقه وتشتيته من قبل عدوه كونراد، لم ينعم بالصحة، لاعقلياً ولا جسدياً، ولذلك أذعن بشكل منطقي لنفوذ الموت وقبل به، وعندما تمدد وهو بين الموت والحياة، ورأى أقرباءه واقفين من حوله يبكون وينوحون، وكانوا حسبما كانت العادة هناك يولولون، ويمزقون شعورهم وثيابهم، رفع عينيه وعليها غشاوة الموت، وقال لهم: «لماذا تبكون أيتها المخلوقات التعيسة؟ ألم أترككم جميعاً أغنياء؟ ما الذي تريدونه أكثر من ذلك»، وبهذه الكلمات لفظ روحه ليمضي إلى مواجهة القضاء القاسي للرب.

حول رؤيا مرعبة تتعلق بالبابا نفسه

وحدث في الأسبوع نفسه، الذي غادر فيه انوسنت الرابع هذه الحياة، أن شوهدت رؤيا رائعة مريعة من قبل واحد من الكرادلة، الذي أخفي اسمه لأغراض احترازية، فقد ظهر له، بأنه كان في السماء، أمام جلالة المولى، الذي كان جالسا على كرسي القضاء، وقد

وقفت على يمينه أمه العذراء المباركة، في حين ظهر إلى يساره امرأة ذات شخصية نبيلة، ومظهر محترم، وكان ذراع هذه الأخيرة ممدوداً، وقد حملت بيدها اليسرى نوعاً من أنواع المعابد، كتب على واجهته بأحرف من ذهب «الكنيسة»، وسجد انوسنت الرابع أمام الجلالة اللاهوتية، ثم إنه جثا على ركبتيه، وسأل العفو، ويديه متشابكتان، ومرفوعتان، وأن لا يحاكم، وعلى كل حال، تكلمت السيدة النبيلة ضده قائلة: «آه، أيها الحكم العدل، أعط حكماً صحيحاً، لأنني أتهم هذا الرجل بثلاث نقاط: وكانت النقطة الأولى، هي أنك عندما أسست الكنيسة على الأرض، أوجدتها مع الامتيازات التي صدرت عنك نفسك، فلقد قام هذا الرجل بتحويلها إلى أذل أنواع العبيد، والنقطة الثانية هي أن الكنيسة تأسست من أجل انقاذ المذنبين، ولتكسب نفوس التعساء، لكنه جعلها مائدة صراف للمال، والنقطة الثالثة هي أن الكنيسة بُنيت على ثبات الإيمان، وعلى العدل، وعلى الصدق، لكن هذا الرجل جعل الإيمان والأخلاق يترنحان، وأزال العدالة كلياً، وغطى الصدق ووضع في الظل، وبناء عليه قدّم لي حكماً عادلاً»، ثم قال الرب: «اذهب وتسلم جزاءك وفقاً لاستحقاقك»، وهكذا حمل وأبعد، وخاف الكاردينال وارتعب من صدور هذا القرار الرهيب، ولذلك أفاق مذعوراً وهو يصرخ بصوت مرتفع مع الخوف، وأصبح مثل إنسان فقد السيطرة على نفسه، لابل بالحقيقة فكر الجميع بأنه بات مجنوناً، وعلى كل حال، عندما بدأ حزنه يخف، شرع يحكي تفاصيل رؤياه بشكل كامل، حتى أصبحت منشورة في ذلك الجزء من المنطقة، وأزعجت هذه الرؤيا (التي لا ندري فيما كانت من ابداع الخيال أم لا) وسببت رعباً عظيماً لكثير من الناس، ليجعلها الرب مؤثرة حتى يصلح الناس أنفسهم ويقوّموا سلوكهم.

كيف جرى جعل الاسكندر الرابع بابا

أما وقد جرى نقل البابا انوسنت من بيننا، جرى تعيين رجل آخر مكانه، الذي كان حسبها أفاد أحد التقارير لطيفاً ومتديناً، ومواظباً على الصلوات، ودقيقاً في تقشفه، ومن السهل التغرير به، وقيادته بعيداً بهمسات الاطراء، وكان ميالاً إلى الاصغاء إلى الاقتراحات الشريرة من الأشخاص الشرهين، وكان من قبل أسقفاً لأوستيا، وحفيداً للبابا غريغوري، الذي توفي مؤخراً، حيث كان هو الذي ارتقى به إلى أسقفيته، وقد اتخذ الآن لنفسه اسم الاسكندر الرابع، وقام فور تعيينه بالكتابة إلى جميع أساقفة الكنائس، يرجوهم بتواضع الصلاة من أجله، حتى يعطيه الرب القدرة، والنعمة والارادة، ليحكم الكنيسة بشكل موائم، من أجل منحه لقب نائب رحيم للرب، وخليفة لائق لبطرس، وأعطى بطريقة التصرف الجديدة هذه (لأن ما من واحد من خلفاء ذلك الرسول تصرف هكذا) آمالاً جديدة، وبعثها في قلوب الكثيرين، لكن هذه السذاجة سمحت على الفور للتعرض للخديعة من قبل اخوانه الكرادلة من حول شخصه، واعتماداً على إحدى الروايات تمت ممارسة عملية تزيف غير اعتيادية بوساطة ختمه للمراسيم، وقد عزي ذلك ونسب إلى سذاجة البابا، ومع ذلك أنا لأعفيه في هذه القضية، ولا أقدم له العذر، لأن البابا ينبغي أن يكون إنساناً لا يخدع ولا يمكن خداعه، لأن هاتين السمتين، غير مقبولتين في رجل يحتل مثل ذلك المنصب الرفيع، وعرضة للملامة، فبناء على نصيحة بعض الأشخاص الذين وثق بهم ثقة عمياء، وصدقهم من قلبه، وكذلك بناء على اقناع وضغوط سلفه البابا انوسنت الرابع، الذي عندما كان على وشك الموت حث الكرادلة على ذلك، قام بمتابعة الحرب بنشاط، الحرب التي سلف شنها ضد شيعة فردريك، وخاصة ضد مانفرد، الابن الطبيعي، لكن الشرعي لفردريك، ولقد كان — في الواقع — من الصعب بالنسبة للبابا

في بداية ولايته معارضة مثل هذه الوصايا، وعدّ النصائح التي قدمت إليه من قبل الرجال الدنيويين، صحيحة ومقبولة، ولا سيما وأنهم كانوا منصرفين نحو الأبهة الدنيوية، ولذلك أخبروه بشكل خاص، أنه سوف يكون أمراً متناقضاً، ومعاكساً لديانة الكنيسة، السماح ببقاء مدينة في الأراضي المسيحية مسكونة، لابل محشوة وملئية من قبل المسلمين، وهي المدينة التي كان فردريك قد أسسها، وبناء على التعليل المخادع اتخذ البابا قراره، وكذلك بناء على تعليل آخر، قال إنه من غير المنطقي، ولا يجوز إنسانياً إحباط ملك انكلترا في آماله، حيث تصور بناء على وعود الكنيسة، بأنه سوف يحصل على مملكة صقلية، ففي سبيل ذلك كان قد أنفق مبالغ لا حدود لها من المال.

رغبة الرومان بتهديم نوسيرا

منذ بعض الوقت الذي مضى، كان الامبراطور فردريك قد بنى المدينة، التي أشير إليها أعلاه، والتي سميت نوسيرا Nucera [منصورة؟]، وقد أسكنها بالمسلمين، وباتت بيتاً، وملجئاً، وموضع ثقة بالنسبة له، وقد وجهت الملامة إليه بحدة على هذا العمل، وكان يرد على منتقديه، بتقديم حجة قوية دفاعاً عن خطيئته، من أنه يؤثر أن يعرض مثل هؤلاء الناس إلى مخاطر الحروب، التي قد تتفجر في المملكة أو في الامبراطورية، على تعريض المسيحيين، لأنه بالنسبة لسفك دماء المسيحيين، عليه أن يقدم حساباً دقيقاً أمام المحكمة الرهيبة للحاكم الأعظم، وبناء عليه سمحت الكنيسة بها، وتغاضت عنها، ولكن بما أنها أصبحت في الأيام الأخيرة، موضع لجوء، ومصدر اعتماد وثقة لكونراد المتوفى أخيراً، والآن وفق الطريقة نفسها مكان لجوء ونجدة لمانفرد، صارت مثل شوكة في جنب الكنيسة الرومانية، فالناس الذين قطنوا في نوسيرا كانوا مسلمين، ولقد كان بينهم نحواً من ستين ألف جندي، جاهزين للدخول في القتال، وكانوا مخشين أكثر، لأنه كان من عادة

المسلمين في الحرب، استخدام رماح مسمومة، والنفوط، وأنواع أخرى من الأسلحة الشائنة وأدوات الحرب.

الحصار غير المثمر لنوسيرا

وبناء على موافقة الإخوة الكرادلة، وبناء على نصيحة مركز منحن وخائن، جعل من نفسه صديقاً خاصاً للكنيسة، وذلك بقدر ما أمكن بالمظهر، جمع البابا جيشاً كبيراً، وأعاد حشد وتجميع الجيش الذي كان قد هزم بشكل مهين، وتمزق، وكان تحت قيادة الكارينال وليم، حفيد البابا انوسنت الرابع، المتوفى أخيراً، الذي أنهى الرب حياته الضعيفة بموت سريع، وتمكن البابا من حشد قوة كبيرة، وجدها قد وصلت إلى ستين ألف رجل محارب، وقد أمطروهم بكميات كبيرة من المال، حيث لم يظهر الرحمة نحو خزانة ملك انكلترا، وعهد بقيادة هذا الجيش العملاق إلى الكاردينال أوكتافيان Octavian وإلى المركز المتقدم ذكره، وأرسل هذا الجيش من أجل تدمير مدينة نوسيرا، وسحق قوة مانفرد وأعوانه وحلفائه من الصقليين والأبوليين، وعندما وصل جيش البابا إلى أمام المدينة المذكورة، لم يتجرأ — على كل حال — على مهاجمته، كما أن سكان المدينة لم يتجرأوا على الخروج منها، ومهاجمة هذا الجيش، ومع أن رجال البابا عزموا على الشروع بالعمل، لم يجرؤوا أدنى تقدم، بل أضاعوا وقتهم في التأخيرات، مما سبب المزيد من النفقات والأضرار للملك انكلترا، ولقد قاموا على كل حال بتهدئته وتطمينه بوعود بأشياء عظيمة.

كيف قام ملك إنكلترا بنقل جسد

أمه في داخل الكنيسة فونتفرولت

وفي هذه الآونة أيضاً، وصل الملك إلى دير فونتفرولت Fon-tevrault النسائي الفخم، حيث قدم صلواته عند قبور أجداده

الذين كانوا مدفونين هناك، ولدى وصوله إلى قبر أمه ايزابيلا، الذي كان في المقبرة، تدبر نقل جسدها إلى داخل الكنيسة، وقد بنى فوقه ضريحاً، وقدم هناك، وكذلك في أماكن أخرى في الكنيسة نفسها، بعض الأقمشة الحريرية ذات الثمن المرتفع كثيراً، وبذلك نفذ وصية ربنا بقوله: «أكرم أباك، وأكرم أمك» إلخ.

كيف ذهب الملك إلى بونتغني لتقديم صلواته

وشعر الملك بنفسه أنه لم يكن على مايرام، ولذلك مثلما فعل من قبل، ذهب الآن إلى بونتغني، وبعدما صلى عند مزار القديس ادموند، استرد صحته، وهناك أيضاً قدم طيلسانات وبعض الهدايا الملكية الأخرى الثمينة.

كيف جرى السماح للملك بالسفر خلال فرنسا

رغب ملك انكلترا منذ زمن طويل رغبة شديدة بزيارة المملكة الفرنسية، ولزيارة عديله بالزواج ملك فرنسا، وكذلك ملكة فرنسا، التي كانت أختاً للملكة انكلترا، وأن يشاهد أيضاً مدن فرنسا وكنائسها، وأخلاق وطبائع وعادات الفرنسيين، وأن يرى أيضاً بيعة الملك المشهورة في باريس، مع الآثار المقدسة غير الاعتيادية التي تحتويها هناك فيها، وبناء عليه أرسل رسلاً خاصين إلى الملك الفرنسي، فحصل على إذن مفتوح وجواز سفر وأمان، وبناء عليه قام على الفور بحشد أهل بيته وحاشيته، ووجه طريقه نحو مدينة أورلين.

استقباله التكريمي في جميع أرجاء فرنسا

وأعطى الملك الفرنسي، صاحب القلب اللطيف، في الوقت نفسه، أوامر دقيقة إلى نبلاء البلاد، وإلى سكان المدن، التي من خلالها سوف يمر ملك انكلترا، حتى يزيلو الأوساخ، وقطع الأخشاب الحاجزة، وكل شيء مزعج ولو إلى حد بسيط، وبتزيين الشوارع بالأعلام،

وواجهات الكنائس والبيوت بالأوراق، وبأغصان الأشجار، وبجميع أنواع التزيينات الأخرى الممكنة، وباستقباله لدى وصوله بقرع النواقيس، والموسيقى، وبمظاهر الفرحة الأخرى، وأن يلبسوا ملابس الأعياد، وأن يقوموا بخدمته أثناء اقامته في أي مكان.

كيف ذهب الملك الفرنسي إلى استقباله

وعندما علم الملك الفرنسي بوصوله، ذهب لاستقباله في تشارترز Chartres، ولدى رؤية أحدهما الآخر، اندفعا نحو العناق، وضم أحدهما الآخر بين يديه، وبعد تبادل التحيات، دخلا في المحادثات، وأمر الملك الفرنسي أيضاً بكرم منه، بتقديم كميات وافرة من الامدادات الجيدة والثرينة إلى ملك انكلترا، على حسابه الخاص، وذلك طوال اقامته في مملكته، ومن جهته تقبل ملك انكلترا ذلك بلطف وشكر، وكان في حاشية الملك ألف فرس جميل، امتطاه رجال ذوي مكانة ومراتب، وذلك بالاضافة إلى العربات، وحيوانات التحميل، وكذلك عدد كبير من الخيول المتتعبة، وسبب جمال رتل موكب الملك وجدته دهشة عظيمة إلى جميع الفرنسيين، الذين تزايدت أعدادهم بشكل مدهش يومياً، مثلما تزداد مياه النهر بالروافد، لأن ملكة فرنسا قدمت مع أختيها كونتستي أنجو وبروفانس، لاستقبال اختيهم والترحيب بهما، وهما ملكتي انكلترا، وكونتسة كورنويل، اللتان كانتا مع ملك انكلترا، وكانت أمهم حاضرة لذلك اللقاء، أي الكونتسة بيترايس صاحبة بروفانس، التي كانت مثل نيوبي Niobe أخرى يمكنها أن تنظر بزهو نحو بناتها، حيث لم يكن هناك بين النساء في جميع أرجاء الدنيا، ولا أم يمكنها التفاخر بشمار رحمها، مثلما كان يمكنها أن تفعل بالنسبة لبناتها.

وصول ملك إنكلترا إلى باريس

عندما علم الباحثون في باريس، خاصة الذين كانوا من أصل انكليزي، بوصول هؤلاء الأشخاص المشهورين: الملكان، والملكتان، والنبلاء، علقوا دراساتهم ومناقشاتهم لبعض الوقت، لأن ذلك كان تماماً موسماً للاحتفال، فجهزوا شموعهم، وثياب الاحتفالات (التي تعرف بشكل عام باسم Cointinses) وجميع الأشياء المحتاجة لآظهار سرورهم، ثم حملوا أغصان أشجار وورود، ومضوا يغنون مصحوبين بأدوات موسيقية، وساروا لاستقبال الزوار القادمين، وكان تعداد الواصلين، والذين خرجوا إلى استقبالهم كبيراً جداً، ولم يشاهد قط من قبل في العصور الماضية، مثل هذا الفرح والمشاهد الاحتفالية، مثلما حدث في المناسبة الحالية، فخلال ذلك اليوم كله، والليل، واليوم التالي، كانت المدينة مزينة بشكل جميل جداً، وأمضى الباحثون وسكان المدينة الوقت، وسط تعاريف زاهية من أوراق الأشجار والورود، وانشغلوا بالغناء والفرح، مع كل أبهة هذا العالم وسروره.

كيف اتخذ ملك إنكلترا مقراً لإقامته في المعبد القديم

وعندما وصل الملكان وأتباعهما (الذين يمكن أن يعدا جيشاً كبيراً) إلى باريس، واستقبلوا بمثل هذا العدد الكبير من الشطر المتميز من المجتمع الباريسي، شعر الملك الفرنسي بسرور عارم، وشكر الكهنة لتقديم مثل ذلك التشریف العظيم، ثم إنه خاطب ملك إنكلترا قائلاً: «يا صديقي إن مدينة باريس موضوعة تحت تصرفك، فأين تود وترغب اتخاذ مكان إقامتك؟ هناك قصري في وسط المدينة، فإذا أحببت اتخذ مكان إقامتك هناك، فإذا كانت هذه رغبتك فإن رغبتك سوف تنفذ، أو إذا كنت تفضل اتخاذ مكان إقامتك في المعبد القديم، خارج المدينة، الذي هو أكثر سعة، أو في أي مكان آخر، فذلك يمكن اعداده»، واختار ملك إنكلترا، مكان إقامته في المعبد القديم، لأن

حاشيته كان عددها كبير جداً، وكان يوجد في ذلك البناء غرفاً كافية، لإقامة جيش، ففي بعض الأزمان الماضية والمناسبات كان جميع الداوية الدوليين يجتمعون هناك، في هيئة كهنوتية عامة، فكانوا يجدون وفرة من المرافق هناك، فلقد كان ضرورياً بالنسبة إليهم جميعاً الإقامة في بناء واحد، لأنهم كانوا أثناء اجتماعاتهم الكهنوتية العامة يتباحثون في قضاياهم وأعمالهم أثناء الليل، ومع أنه — على كل حال — توفر هناك أماكن كثيرة في ذلك البلاط، لقد كان عدد الذين اجتمعوا هناك كبيراً في هذه المناسبة إلى حد أن كثيرين أرغموا على النوم في الهواء الطلق، ولم تكن البيوت المجاورة، والممتدة إلى الشارع وتدعى الـ Greve، كافية لإقامتهم فيها، ووضعت الخيول في أبنية أفضل جرى تكييفها لتكون اسطبلات.

كيف أمر ملك إنكلترا بإعداد احتفال للفقراء

وبعدما اختار ملك إنكلترا، المعبد القديم ليكون مكان إقامته، أعطى أوامراً بأنه ينبغي في الصباح المقبل دعوة الفقراء للاحتفال هناك، بقدر ما يمكن للمكان أن يستوعب، ومع أن عدد الضيوف الذين قدموا كان كبيراً جداً، فإنهم جميعاً، لابل كل واحد منهم جرى تزويده بوفرة من اللحم، والسّمك، والخبز، والنبيد.

زيارة الملك للأماكن المقدسة في باريس

وفي الصباح التالي، عندما كان الفقراء يجري تزويدهم بالأطعمة، في الساعة السابعة والتاسعة، قام الملك الانكليزي بتوجيه وقيادة من الملك الفرنسي بزيارة البيعة الجميلة، في قصر الملك الفرنسي، وبعدما شاهد الآثار المقدسة المعروضة هناك وتفقدتها، أدى صلواته، وقدم بعض الهدايا الملكية، ووفق الطريقة نفسها أيضاً، زار أماكن أخرى مشهورة في المدينة، حيث صلى بتقوى صحيحة، وقدم تقديرات.

كيف اشترك الملكان مع عدد كبير جداً من النبلاء في وليمة هناك

وجرى في اليوم نفسه، حسبما كان مرتباً من قبل، أن قام الملك الفرنسي والملك الانكليزي وعدد كبير آخر من المرافقين، تألفوا من حاشية الملكين، بعمل وليمة في القصر الكبير في المعبد القديم، وكانت جميع الأجنحة في البناء مليئة بالضيوف، ذلك أنه لم يكن هناك أية بوابين أو جبهة للرسوم عند الباب الكبير، بل تركت المداخل مفتوحة للداخلين، وجرى تقديم وجبة غنية إلى جميع القادمين، وكانت هناك كميات كافية من جميع أنواع اللحوم، منحت الشعب لجميع الآكلين، وبعد تناول الطعام أرسل ملك انكلترا، إلى النبلاء الفرنسيين، في أماكن اقامتهم، كؤوساً ثمينة من الفضة، والأبازيم الذهبية، والأحزمة الحريرية، وهدايا أخرى، كانت لائحة بالتقديم من قبل مثل ذلك الملك القوي، وقد تسلمها النبلاء بالشكر.

حول فخامة الوليمة

لم يحدث قط فيما مضى من أيام، أن جرى إقامة مثل هذه الوليمة الفخمة، لافي أيام عيد الفصح، ولا في أيام آرثر، أو شارل، لأن هذه الوليمة كانت مجهزة بأنواع غنية من الأطعمة، وكميات وافرة من المشروبات اللذيذة، والخدمات الجاهزة للخدم، والتنظيم الذي شمل الضيوف، والهدايا الكبيرة والجميلة، وكان حاضراً فيها أيضاً شخصيات استحوذوا على التبجيل الأعلى والاحترام، ولم يكن أعظم منهم وأعلى ولا يمكن أن يكون هناك، ولا من يساويهم، لابل كان من الصعب أن تجد مثلهم في أنحاء العالم.

النبلاء الذين حضروا الوليمة

وقدمت الوليمة في القاعة الكبرى في المعبد، وهي التي كان معلقاً فيها —وفقاً لعادة القارة— أكبر عدد من الترسة، كان يمكن للجدران

الأربعة أن تستوعب، وكان بين الترسة المشاهدة هناك ترس رتشارد، ملك انكلترا، وحوله قال أحد الأشخاص الأذكياء الذين كانوا حاضرين لملك انكلترا:

«لماذا دعوت يامولاي الفرنسيين لتناول الطعام معك في هذا البيت؟ انظرفهناك ترس صاحب القلب النبل، الملك رتشارد، فضيوفك لن يستطيعوا الأكل دون خوف وارتجاف»، لكن لم يزد على هذا، وقد انتظم الضيوف وفق النظام التالي: فقد جلس الملك الفرنسي، الذي كان ملكاً على جميع ملوك الأرض، بسبب الميرون السهاوي الممنوح له، والذي مسح به، وأيضاً بسبب قوته، وعظمته بالفروسية، جلس في الوسط، بينما جلس ملك انكلترا على جانبه الأيمن، وملك نافار على جانبه الأيسر، وعندما حاول الملك الفرنسي وسعى لعمل ترتيبات أخرى، وأن يضع ملك انكلترا في الوسط، وعلى مقعد أكثر تميزاً، قال الأخير له: «ليس هكذا ياسيدي إنه أكثر لياقة، ومواءمة أن تجلس في الوسط، لأنك مولاي، وهكذا سيكون الأمر، والسبب واضح»، وعلى هذا رد الملك الفرنسي بصوت منخفض قائلاً: «يمكن لكل واحد أن يحصل على حقه دونما ضرر، لكن التجبر الفرنسي لن يسمح بذلك»، وعلى كل حال، يكفي ما قيل حول هذا، فقد جلس بعدهم الدوقات، وفقاً لتسلسل مراتبهم، وكان هناك آخرون، كان تعدادهم خمسة وعشرين، وقد احتل هؤلاء وشغلوا أكثر الأماكن تميزاً، حيث أنهم مزجوا مع الدوقات، وإلى جانبهم كان هناك اثني عشر أسقفاً حاضرين المأدبة، وقد نال بعضهم الأفضلية على بعض الدوقات، غير أنهم ظلوا متمازجين مع البارونات، ولم يتم تعداد مشاهير الفرسان الذين كانوا حاضرين، وكان هناك ثماني عشرة كونتيسة، ثلاث منهن كن أخوات للملكتين المتقدمتين الذكر، وكن: كونتيسة كورنول، وكونتيسة أنجو، وكونتيسة بروفانس، وكن جميعاً جديرات بالمقارنة بالملكيتين، وكانت هناك أيضاً الكونتيسة

بيترائيس، أمهن جميعاً، وبعد احتفال فخم وغني، مع أن اليوم كان مخصصاً لأكل السمك فقط، اتخذ الملك مأواه لإمضاء الليلة التالية في قصر الملك الواسع، الذي هو موجود في وسط مدينة باريس، فهكذا قرر بشكل حاسم الملك الفرنسي، الذي قال مازحاً: «ليكن ذلك على هذه الصورة، لأنه من الموائم بالنسبة لي أن أقوم بتأدية جميع واجبات اللياقة والعدل»، وأضاف يقول مبتسماً: «أنا سيد، وملك في مملكتي، ولسوف أكون سيداً في بيتي»، وبذلك قبل ملك انكلترا وأذعن.

كيف عرض ملك انكلترا نفسه على شعب باريس

وبعدما سار ملك انكلترا في الشارع الذي اسمه Greve، انتقل إلى شارع باتجاه القديس جرمين لى أوكسروي Germain L'Auxerrois وانتقل بعد ذلك إلى جسر كبير، حيث تفحص البيوت الجميلة، المعمولة في مدينة باريس من الجص أو الجبس، وتأمل البيوت التي كانت هناك التي تألفت من ثلاثة طوابق لابل حتى من أربعة طوابق، وأكثر، وعند نوافذ هذه البيوت ظهرت أعداد كبيرة من الناس من الجنسين واحتشدت أيضاً جماهير من الناس، واندفعت على شكل كتل بشرية كبيرة، وتنافس بعضهم مع بعض في مسعاهم لرؤية ملك انكلترا في باريس، فقد كانت شهرته قد وصلت إلى السماء لدى الفرنسيين، بسبب هداياه الكبيرة، وأعمال ضيافته في ذلك اليوم، وصدقاته الكريمة، ولأن ملك فرنسا كان متزوجاً لأخت، وكان هو، أي ملك انكلترا متزوجاً من الأخرى، وقد قال له ملك فرنسا التقي: «أولسنا متزوجين من أختين، وإخواننا من الأخوات الباقيات؟ إن جميع الذين سيلدون منهن، من كل من الصبيان والبنات، سوف يكونوا إخوة وأخوات، آه لو أمكن أن يكون هناك مثل هذه المصاهرات والقراية بين الفقراء، لتوفر تعاطف عظيم بينهم، وبالروابط القلبية كانوا سيتحدثون، وأنا أسف، والرب يعلم، أن مشاعر تعاطفنا لا يمكن تمتينها حول جميع

النقاط، ذلك أن عناد البارونات لن يتزعزع، وهم لن يذعنوا لي، لأنهم قالوا بأن النورمان لم يعرفوا كيف يحافظون على حدودهم، وعلى تخومهم من دون خرق، وابقائها آمنة، والبقاء بسلام، لذلك لا يمكنك أن تسترد حقوقك»، وعلى كل حال في هذا كفاية، ورافق الملك الفرنسي الملك الانكليزي وشيعه لمسافة يوم، وبعدما افترقا، تبين بعملية حساب صحيحة، بأنه بدد ألف باوند من الفضة على نفقاته في باريس، وذلك بالاضافة إلى هدايا لا يمكن تقدير ثمنها تقريباً، وقد أخرجها من خزانته، وقد أضر ذلك بها كثيراً، لكن سمعة ملك انكلترا، لابل في الحقيقة سمعة جميع الانكليز، قد ارتفعت كثيراً وارتقت.

المحادثات بين الملكين

وفي أحد الأيام، عندما كان الملكان يتحادثان، قال ملك فرنسا لملك انكلترا: «يا صديقي كم هو جميل الاصغاء إلى حديثك، دعنا نمتع نفسينا بالحديث معاً، فلربما لن نمتلك الفرصة بعد الآن للقيام بذلك»، وأضاف قائلاً: «كم كانت الآلام لروحي التي تحملتها، عندما كنت في حبي، في سبيل حبي للمسيح، وإنه ليس عملاً سهلاً اخبارك بذلك، ومع أن كل شيء استدار ضدي، أنا أعيد الشكر إليك، أنت الذي في أعلى عليين، وفي تأمل مني لقلبي، وتكرار فحصى له، إنني مبتهج ومسرور من الصبر الذي تفضل الرب فمنحه لي، أكثر مما لو أن العالم كله وضع تحت طاعتي».

افتراق الملكان

وبعدما تماشى الملكان مع بعضهما لسفر يوم، افترقا، وكانا — على كل حال — قبل افتراقهما، قد خرجا قليلاً عن الطريق، وعقدا محادثات سرية خاصة، وفق ظروف ودية، وقال الملك الفرنسي وهو يتنهّد: «لو أن النظراء الاثني عشر لفرنسا من البارونات، قد وافقوا على رغباتي،

لكننا آنذاك صديقين لا يمكن فصلهما عن بعضهما، هذا وإن خلافاتنا أعطى سبباً للسرور وللتجبر للرومان»، ثم إنها بعدما تبادلا القبل، وتعانقا، افترقا، حيث عاد ملك فرنسا إلى أراضيها، ووجه ملك انكلترا مساره نحو بلاده، ولدى وصول هذا الأخير إلى شاطئ البحر، أرغم على الانتظار طويلاً ضد ارادته، من أجل ربح طيبة (لأن البحر والرياح لم يكونا مطيعين له)، وزار أثناء اقامته هناك كنيسة القديسة أوف بولون Boulogne، لمشاهدة الآثار المقدسة هناك، ومات في ذلك المكان بطرس تشيسبور Chacepore وكان من أصل بواقي، وكان محاسباً ومستشاراً أثيراً عند الملك، وخازناً للملكة، وقد أنهى حياته بموت سعيد.

اختصار لوقائع العام

كان هذا العام، خلاله كله خصباً بالفواكه والحبوب، ولذلك نزل سعر مكيال القمح إلى شلنين، ومثل ذلك الكمية نفسها من الشوفان، وبقية أنواع الحبوب والقطاني، حيث نزلت أسعارها لصالح الفقير ومنفعته، وبالنسبة للايطاليين، والفرنسيين، والفلمنكيين، كان هذا العام عام حرب وعدوان، وعام توجس في انكلترا، فقد اضطربت البلاد من منتصف الخريف حتى الربيع بالزوابع إلى درجة أنه حدث في بدفورد Bedford أن هلك أكثر من أربعين رجلاً مع عدد كبير جداً من المواشي.

كيف بقي الملك ينتظر ريحاً طيبة

عام ١٢٥٥ لتجسيد الرب، كان الملك في بولون، بعد عودته من غسكوني، ينتظر هبوب ريح طيبة لعبور القنال إلى انكلترا، ووافق هذا العام، العام التاسع والثلاثين لحكمه، وقد قام في الوقت نفسه، وفقاً لعاداته التطوعية بزيارة الآثار المقدسة، التي كانت هناك كمية كبيرة منها

محفوظة في كنيسة القديسة مريم في بولون، ودفع الاحترام لها وتشريفها، وتولى هناك دفن جسد محاسبه الأثير، بطرس تشيسبور بشكل محترم، وأمر بإقامة قداس دفن مهيب له، وكان بطرس هذا نفسه قد عمل وصية نبيلة، أشهد عليها، قبل ثلاثة أيام من عيد الميلاد، وكان بين ما أوصى به (بين منح أخرى، اعطاء ستائة مارك، لشراء أرض في انكلترا، حيث من الأسهل الشراء، وبناء كنيسة عليها، لصالح طائفة رهبانية، تتألف من كهنة نظاميين يجري اختيارهم من دير ميرتون Merton، وذلك في سبيل عبادة الرب بشكل لائق وصحيح إلى الأبد، وأن يجري يومياً تقديم أضحيات للرب من أجل روحه، ومن أجل أرواح جميع المسيحيين، وقد غادر هذه الحياة عشية عيد ميلاد الرب، ووقع يوم الميلاد في هذا العام في اليوم السادس من الأسبوع، وقد أكل بعض الأشخاص لحماً صدوراً عن الاحترام للمسيح، وكان ذلك بسبب أن كلمة «أصبح جسداً»، جرى التفوه بها في ذلك اليوم، بمثابة ضياء للعالم، وبناء على ذلك، قد يصرخ أحدهم باعجاب قائلاً: «آه، لقد منحت الكرامة إلى الجسد».

عودة الملك إلى إنكلترا

وفي يوم الأحد الذي جاء بعد ذلك مباشرة، صار البحر والرياح صالحين، فكان أن أقلع الملك، وبعد رحلة ناجحة وصل إلى دوفر، ولدى وصوله إلى ذلك المكان استقبل بسرور من قبل أخيه الايرل رتشارد ومن قبل النبلاء الآخرين، الذين جاءوا من مسافة بعيدة، لأنهم استدعوا لهذه الغاية قبل بعض الوقت، وكانوا ينتظرون على الساحل الانكليزي بقلق كبير، ولدى وصوله، قاموا على الفور بتقديم هدايا ثمينة له، ومثلهم فعل الأساقفة أيضاً، ولاسيما رؤساء الرهبان ورعاة الديرة، لأنه كان من الضروري بالنسبة إليهم أن يدفعوا، وأن يفعلوا ذلك، لأنه عمل مطالب ملكية مستعجلة، مثل رجل كان جائعاً إلى الطعام، ولذلك قدموا إليه

أفضل الاختيارات، وهدايا ثمينة من الذهب والفضة، وأشياء أخرى يمكن أن تأسر النظر، وتعجب المتطلع إليها، وكان بإمكان الملك بهذه الهدايا جمع مبلغ كبير من المال، لكن ذلك كله لم يكن كافياً لدفع جميع ديونه التي تعاقد عليها، ولا حتى لو جرت مضاعفتها مائة مرة، لأنه قد قيل بأن ديونه كانت أكثر من ثلاثمائة ألف مارك.

تعيين هنري وينغهام حافظاً للختم الملكي

وحوالي الوقت نفسه، كان الملك قد صادق على انتخاب المعلم وليم كيلكني، الذي كان يشغل وظيفة حافظ الختم الملكي مع الثقة، وعهد بالحفاظ عليه نفسه إلى المعلم هنري أوف وينغهام Wengham الذي كان محاسباً أثيراً لديه ومستشاراً، وكان يثق باخلاصه كثيراً.

رفض الملك هدية سكان لندن

وعندما تأكد سكان لندن من وصول الملك استقبلوه بسرور، وكانوا أثناء غيابه قد قدموا صدقات وافرة، وقدموا صلوات مستمرة من أجل سلامته وازدهاره أثناء وجوده في القارة، وكانوا يرغبون بحرارة بعودته إلى انكلترا، وبعدما استقبلوه، قدموا إليه هدية مقدارها مائة باوند، ولأن هذه التقدمة جرى من قبل تكرارها مراراً، فقد عدها الملك بأنها أصبحت عادة، ولذلك نظر إليها على أساس أنها ليست هدية تهنئة، بل بالحري دفعة لما هو مستحق، ولذلك لم يمدح اخلاص السكان ولا هديتهم، ولم يرد عليهم حتى بشكر فارغ، ولأنه عرض للنقد من قبل واحد من الذين كانوا واقفين هناك لجحوده، أجاب قائلاً: «إنني لم أقدم الشكر لسكان لندن لأنهم أحضروا إليّ ما هو حق متوجب لي، وقد سدّدوا إليّ ديناً، لكن يتوجب عليهم أن يقدموا إليّ هدية فخمة بمثابة تهنئة، ولتكن هدية مشرفة ووقتها سوف أقدم إليهم الشكر بشكل منطقي».

سعي سكان لندن إلى إرضاء الملك بهدية أخرى

وعندما جرى اخبار سكان لندن بهذا، قاموا رغبة منهم بإرضاء الملك وتلبية رغبته، فاشتروا بمبلغ مائتي باوند كأساً ثميناً جداً بديع الصنعة والمادة، صدف أن كان معروضاً آنذاك للبيع في لندن، وقدموه مع احترام لائق إلى الملك بمثابة هدية امتنان وعاطفة، ووقتها قدم إليهم الشكر حقيقة، لكن ليس بقدر قيمة الهدية الجميلة، وقد تسلم الهدية، لكن — على كل حال — ليس مع نظرة راضية ومسرورة.

كيف طالب الملك لسبب سكان لندن بدفع ثلاثة آلاف مارك

وبعد مرور عدة أيام، حدث أن هرب من السجن واحداً من الكهنة، قيل وفقاً لأحد التقارير كان متهماً بجريمة قتل، وكان قد وضع في السجن في لندن، ونتيجة لذلك فرض الملك إجراءات حادة ضد سكان لندن، وطالبهم (مع أن السبب كان خفيفاً وتافهاً) بدفع مبلغ ثلاثة آلاف مارك تحت عنوان ضريبة وعقوبة، لأنهم لم يحرسوا سجنهم بعناية أكبر، وكان الهارب واحداً من رجال الأدب، قد اتهم بقتل رئيس رهبان من طائفة الرهبان السود في القارة، وقد سجن في لندن في نيوغيت Newgate، وكان رئيس الرهبان المقتول قد ادعى أنه من أقرباء الملكة، لذلك غضبت من فرار القاتل، وأصرت على الانتقام، واشتكت إلى الملك، وفرّ الهارب من السجن والتجأ إلى اخوانه من طائفة الفرنسيسكان الذين فتحوا صدر الرحمة إليه، واستقبلوه فيما بينهم، وحلقوا شعره، ومنحوه الرداء الرسمي لطائفتهم الرهبانية، وبناء عليه أصبح السكان غاضبين، وأنزلوا غضبهم بالرهبان، وألحقوا بهم أضراراً بالغة، لأنهم آووا الهارب، وعندما استدعيوا بعد ذلك من قبل الملك، حول هذه القضية، أجابوه مع خوف عظيم، بأنه هو نفسه قد سلم السجين إلى أسقف لندن، الذي طالب به، بحكم أنه كان كاهناً محترفاً ومكرساً، وبما أن الأسقف لم يكن لديه مكان موائم للسجن، فقد

رجاهم بالسماح له باستخدام سجن نيوغيت، لأنه سجن قوي ومضمون، يمكن فيه إبقاء السجين آمناً حتى يمكن محاكمته، والتوصل إلى قرار حول ما ينبغي أن يعمل معه، وقد قام السكان من باب اللياقة والأدب تجاه الأسقف فاستجابوا لطلبه، وأن السجين قام بالوقت نفسه بخداع الحراس الذين عهد إليهم الأسقف بحراسته، وبناء عليه إن الملامة والمسؤولية عن نجاته ينبغي عدم إلصاقها بالسكان، ولذلك التمسوا من الملك بتواضع أن يكون رحيماً فيخفف من غضبه، الذي أنزله بهم من دون تقدير صحيح ومن دون إثارة، وأن يتذكر اخلاص السكان ومشاعرهم الطيبة نحوه، وأن لا ينسى أيضاً امتيازات المدينة، التي كان ملتزماً بالحفاظ عليها، وعدم خرقها، بوساطة أيان مكررة، وبصكوك حريات، وقرارات قضت بعقوبة الحرمان الكنسي لغير الملتزم، وتجاه هذا ازداد غضب الملك، وأصبح أكثر حدة، وأقسم يمينا رهيباً بأنه سوف يستخرج ذلك القدر، أو أكثر من سكان لندن، الذين دعاهم باسم عبيد، لابل قام بأكثر من هذا، فأمر باعتقال بعضهم وسجنهم.

موت آرنولد دو بوي

وفي اليوم السادس من شباط لهذا العام، مات النبيل آرنولد دو بوي Bois، وكان من أعلى المسؤولين عن الغابات في انكلترا، وكان رجلاً شجاعاً في الحرب، وفصيحاً بالخطاب، ومتحلياً بأفضل الصفات، وقد دفن في دير لطائفة السسترشيان في بيكليسدن Becclesden أمام المذبح العالي.

كيف جرى تجريد اليهود من أموالهم

وعندما اقترب حلول موعد الصيام الكبير، طالب الملك بإلحاح كبير وبسرعة عظيمة بأن يدفع له اليهود الذين سلف له افقارهم، على الفور ثمانية آلاف مارك، تحت طائلة الشنق في حال عدم الدفع، ولدى

مشاهدة اليهود أنه ليس أمامهم سوى الهلاك والدمار، وأن ذلك محقق بهم، قام اليهود بالاجماع بالرد عليه وعلى طلبه بالعبارات التالية: «أنت ترى يا صاحب الجلالة أنك لم توفر لأمسيحيين ولا يهود، بل إنك جعلت شغلك الشاغل بمختلف الحجج القيام بالفقرار الجميع، ولم يبق أمل لنا التنفس بصورة حرة، فقد حلّ مرابو البابا محلنا، ولذلك اسمح لنا بالمغادرة من مملكتك بموجب أمان منك، ونحن سوف نبحث عن مكان إقامة آخر، من نوع من الأنواع»، وعندما أخبر الملك بهذا الكلام صرخ بلهجة مخاصمة قائلاً: «ليس عجباً أنني أتولى جمع المال، لأنه أمر مرعب التفكير بالديون التي أنا متورط فيها، فبحق رأس الرب، إن هذه الديون تصل إلى مبلغ مائتي ألف مارك، لابل إنني عندما أقول ثلاثمائة، لا أتجاوز حدود الصدق، فلقد خدعت من كل جانب، وأنا ملك أبتز وناقص متلاشي، لابل أنا بالحقيقة، الآن مسحوق إلى قطع صغيرة، لأنني عند قيامي بحساب دقيق للموارد والنفقات، وجدت أن مورد ابني ادوارد يصل إلى أكثر من خمسة عشر ألف مارك، ولذلك أنا مضطر تحت ضغط الحاجة، إلى العيش على المال الذي تم الحصول عليه من جميع الجهات، ومن أي واحد من الناس، وبأية طريقة من الطرق مهما كانت ويمكنني بها الحصول على المال»، وهكذا أصبح تيتوس آخر أوفسبسيان، حيث باع اليهود لبضع سنوات إلى أخيه الايرل رتشارد، وذلك حتى يتمكن الايرل من تجويف أولئك الذين كان الملك قد سلخ جلودهم من قبل، وقام الايرل على كل حال، بتوفيرهم، تقديرًا منه لتناقص قدرتهم، ولفقرهم المدقع.

كيف أقرض الإيرل رتشارد الملك مبلغاً كبيراً من المال

وقام الايرل رتشارد، بناء على طلب ملح من أخيه، وعلى تقدير منه لحاجته القصوى للمال، فأقرضه مبلغاً كبيراً من المال، وتسلم على كل حال ضماناً له من الذهب.

حول التساقط المستمر للأمطار الغزيرة

وحدث في هذا العام منذ عيد القديس فالتاين، ولمدة شهر تلاه، أن الريح هبت بعنف، وقد ترافقت بتساقط أمطار غزيرة في كل من النهار والليل، مسببة هياجاً وفيضاناً ليس فقط على الأرض، ولكن أيضاً على البحر.

حول تنين بحر مدهش

وقذف البحر في الوقت نفسه في المناطق العائدة لأسقفية نورويك تنيناً بحرياً هائل الحجم، حيث أنه أزعج بوساطة الهيجان العنيف للأمواج، وقد قتل — كما هو معتقد — من الضربات والجراحات التي تلقاها، وكان هذا التنين أكبر من حوت، ولم يعد من أنواع الحيتان، وقد أغنى جسده جميع المنطقة المجاورة.

حول فيل في إنكلترا

وجرى في هذا الوقت نفسه أيضاً، ارسال فيل إلى انكلترا، من قبل الملك الفرنسي، بمثابة هدية إلى ملك انكلترا، ونحن نعتقد بأن هذا كان الفيل الوحيد، الذي شوهد قط في انكلترا، لابل حتى في البلدان الواقعة على هذا الجانب من الألب، وبناء عليه تدفق الناس مع بعضهم، وتجمعوا لرؤية هذا المشهد الجديد، وأعطت مرغريت ملكة فرنسا إلى ملك انكلترا طاووساً، أو أن تقول حوض تغسيل عجيب، كان على شكل طاووس، وقد رصع بحجارة ثمينة، تعرف بشكل عام باسم اللؤلؤ، وبالإضافة إلى هذا وجدت تزيينات أخرى عملت بشكل فني على جسد الطائر، بالذهب والفضة والزفير أيضاً، في سبيل أن يشبه طاووساً حقيقياً عندما يمد ذنبه على شكل دائرة، وكانت الجواهر المستخدمة فيه ثمينة وكثيرة، وكانت جديدة، وكان العمل رائعاً، إلى حد أنه أوجد العجب في عيون الذين شاهدوه.

كيف ذهب الملك إلى كنيسة القديس ألبان

وفي التاسع من آذار في هذا العام، وعندما كان ادوارد ابن الملك مايزال في غسكوني، ذهب الملك إلى كنيسة القديس ألبان، ومكث هناك ستة أيام، وخلال ذلك الوقت صلى ليلاً ونهاراً بخشوع وتقوى، والشموع مضاءة، وجاءت صلواته إلى القديس ألبان، بحكم كونه مقدم شهداء المملكة، وجاءت صلواته عن نفسه، وعن ابنه ادوارد، وعن آخرين من أصدقائه، وعمل أيضاً تقديرات للرب، وللشهيد المبارك، كانت عبارة عن ردائين ثمينين، مما ندعوه نحن باسم Baudkins، وكأسي قربان جميلين مزينين بالذهب، ويتوجب التبيان، أن ما من واحد من ملوك انكلترا، حتى الملك أؤفا نفسه Offa، مؤسس دير القديس ألبان، ولا أي واحد من أسلافه، لابل ليسوا معاً مجتمعين، قد قدموا مثل الذي قدمه هنري الثالث ملك انكلترا، وأعطاه لوحده من الطيلسانات لتزيين جدران تلك الكنيسة، فهذا مثبت في داخل كتاب صغير في الكنيسة نفسها، حيث فيه رواية وافية حول الطيلسانات المعطاة، والخواتم، والجواهر الثمينة.

مقتل أحد الفرسان من أجل ميراثه

خلال أسبوع الآلام من هذا العام، تسبب واحد اسمه وليم، وكان ابناً حقيراً وشريراً لفارس، بمقتل والده، حتى يحصل على ميراثه في الحال، وبعد ادانته بالجريمة، سحب إلى المشانق في لندن، وشنق، وبالنظر لبشاعة جريمته، ولأنه تجراً على اقرار جريمة قتل أبيه في أسبوع الآلام، لم يسمح لجسده بالدفن، ولم يشفق عليه من قبل أحد من الناس، فترك ليجري التهامه من قبل الكلاب والطيور الجارحة، كما أنه لم يحصل على طقوس الدفن المسيحية، وكان اسم الفارس المقتول جون، وكنيته دي سيلدفورد Seldeford، وكان عائداً إلى امتياز كنيسة القديس ألبان، وهذا يوضح القول المفرح للشاعر، عندما تكلم عن

الذين يعتنون، ويهتمون، ويغنون ورثتهم مثلهم أنفسهم، أو بالحري أكثر من أنفسهم، وهو الذي قال: «إن الذي من أجل ورثته يحرم نفسه ويضيق عليها هو شبيه بالأحق وقريب له»، وكان قد جرى مع قتل الفارس جون المتقدم ذكره، كاهن نظامي كان قسيسه.

حول المعجزات التي عملت عند

قبر القديس روبرت في لنكولن

وحدث في هذا الوقت نفسه أيضاً، أن عدداً كبيراً من مختلف المعجزات المؤكدة يقينياً والواضحة قد عملت في كنيسة لنكولن، وكان المعترفان القديمان المقدسين، الأسقفين: ريميغوس Remigius وهوغ، كانا مبتهجين مع القديس روبرت، الذي غادر مؤخراً إلى الرب، وقد تباروا بين بعضهم بعضاً في اضمفاء إحسانهم على المسيحيين، وكان من بين كثير من المعجزات، التي هي كثيرة جداً لا يمكن ذكرها، وعددها عظيم إلى حد لا يمكن فيه كتابتها، هناك عشرين معجزة واضحة، قد جرى فحصهن بكل دقة أمام أشخاص موثقين ولهم نفوذهم في الهيئة الكهنوتية لكنيسة لنكولن، (لأننا نعلم أن زيف هؤلاء في مناصبهم مكروه من قبل الرب)، وإن شهادتك وبراهينك، آه أيها الرب هي موثوقة بالحقيقة، وبات من المؤكد أنه حدث لواحد من الناس، واحد جدير بالثقة مشاهدة رؤيا في الليل (ليست مجرد إبداع من الخيال) أثناء حياة أسقف لنكولن المذكور، وذلك قبل أربع سنوات من وفاته، فقد بدا له أنه سمع صوتاً يقول بوضوح وتميز الكلمات التالية: «أحب الرب ادموند في طيب رائحة لطفه، وأحب الرب روبرت في طيب رائحة إيمانه»، وقد سمح له بمعرفة هذا بالروح، حتى يتمكن من فهم أن هذه الكلمات قد قيلت فيما يتعلق بالأسقفين المباركين: ادموند المعترف، وروبرت.

رؤيا البابا الاسكندر

أخبرنا في الصوم الكبير من هذا العام بأمر حقيقي، هو أن مناماً شوهد من قبل البابا الاسكندر، عندما كان مستلقياً في نوع عميق، وكان ذلك في إحدى الليالي بعد متاعب النهار، فقد ظهر له أنه أخذ إلى قصر كبير وواسع في الأسفل، قد جلس في مكان مرتفع رجل صاحب سلطة ومنظر مهيب، وكذلك امرأة ذات مظهر محترم وسياء مبهجة، مع عدد كبير من الخدم والأتباع من حولهم من كل جانب، وفجأة جلب إلى أمامهما نوع من أنواع النعوش، محمولاً من قبل حملة ذوي منظر قبيح، حيث ألقوا نظرة ازدراء على الجثة، ثم قامت الجثة وسجدت بنفسها أمام الذي جلس على المقعد المرتفع، الذي كان يشبه مقعداً من مقاعد الحكم، وقال بصوت متحجب: «أيها الرب الأعظم قدرة والأعلى تقوى، كن رحيماً بي»، وفي رد على هذا الدعاء، بقي القاضي صامتاً، لكن المرأة قالت: «إن زمن التوبة والرحمة قد مضى، وقد حل الآن الوقت للحكم عليك، إن دعواتك جاءت في غير وقتها وغير موثمة، الويل لك، لأنك سوف لن تجد رحمة، والحكم عليك هو ماتستحقه، فلقد قمت أثناء حياتك بازعاج كنيسة الرب، فما أن أصبحت رجلاً بجسد، حتى ازدريت المراسيم المقدسة، وألغيتها وجعلتها غير نافذة، وفعلت الشيء نفسه بالنسبة للمنافع التي جرى الانعام بها من قبل أسلافك المقدسين، الأمر الذي ألحق الأذى بهم، ولذلك جرى الحكم على أعمالك بالإلغاء والمحق»، ولدى الفراغ من هذا الكلام نظر الذي جلس قاضياً نظرة حادة، وبدا عليه الغضب، وتكلم بصوت مرعب، وقال للحاملين للنعش: «إنني بعد بعض الوقت، سوف أحكم عليه وفقاً لقوانين العدالة، لقد انتهى وقته، ووقت الحكم عليه قد حل بالنسبة له» وأضاف القاضي يقول: «اذهب وتسلم جزاء وفاقاً، تبعاً لأعمالك»، وما أن تفوه بهذا الحكم، حتى

جرى حمله بعيداً، وابعاده من حضرة القاضي إلى مكان غير متفق عليه ومقرر بالنسبة لنا، إنما كما هو متوجب أن نعتقد تقوياً، ربما جرى حمله إلى المطهرة، وعندما قام البابا الاسكندر، الذي إليه أبيحت هذه الرؤيا (سواء أكانت حقيقية أم إبداع من الخيال) بالسؤال بصوت منخفض ومرتجف، وتوجه بالسؤال إلى دليله: من كان ذلك المخلوق التعيس؟ أجيب: «إنه البابا انوسنت الذي مات مؤخراً، والذي كان يعرف من قبل باسم سينبولد، الذي غادر هذه الحياة متلاشياً من الحزن، ليس على ذنوبه، بل بسبب هزيمة جيشه وتدميره»، وبعدما سمع البابا الاسكندر هذا كله (وهو الذي كان الخليفة المباشر لأنوسنت المتقدم الذكر) أفاق من نومه (إذا كان من الممكن تسمية الذي كان به نوماً) في رعب كبير وخوف، وأصبح وكأنه قد حرم من عقله ومداركه، واحتاج إلى عدة أيام حتى استرد صحته وعاد إلى عافيته، ومنذ ذلك الحين فصاعداً، أمر هذا البابا التقي بتقديم صدقات، وإقامة قداسات لصالح انوسنت المتوفى، وألغى بعض قراراته، في سبيل الحصول على تلطيف لعقوبته، وكان إذا عرض عليه أي واحد هدايا ثمينة للحصول على أية كنيسة قد رغب بها، كان البابا الاسكندر يجيبه: «لا يا أخانا، إن بائع الكنائس ميت»، وأيضاً من ذلك الوقت طلب من الأساقفة أن يفضلوا عليه بالدعاء له، وقد كتب إلى كثير منهم كما ذكرنا من قبل، وإنه — على كل حال — من المعتقد، أنه لو لم يجر إنذاره، وتقويمه بهذه الرؤيا، لكان عرضة لمواجهة حساب أشد أمام الرب، لكن الرب اختار أن يعمل هذه الرؤيا له — كما هو معتقد — لإنذاره ولتقويمه، ولتكون مؤشراً على عواطفه الأبوية، وأصدر البابا أيضاً، على الفور مرسوماً قضى بأن أي كاهن يعتقل من أجل جريمة تتطلب عقوبة جسدية ينبغي تجريده من الامتيازات اللاهوتية، إذا لم يكن تحت أية روادع كهنوتية وقانونية.

حول الرغبة العامة لعقد تحالف مع ملك إنكلترا

ورغب في هذه الآونة نفسها وليم صاحب هولاندا بأن يملأ صناديق ماله — مثلما فعل آخرون كثير — بالمال، الذي كان الهدف الرئيسي لرغبته، فأرسل مبعوثين خاصين إلى ملك إنكلترا، يرجوه عقد تحالف معه، بسبب قرابتهما، وجاء في الوقت نفسه أيضاً جون أوف أفسني Avesnes من فلاندرز مسرعاً، مع التماس ملح جداً إلى الملك ليساعده في حربه، وأعلن الملك على كل حال بأنه كان مشغولاً بمشاغل صعبة تتعلق بمملكتي صقلية وأبوليا، ولا يريد أن يتعد بتفكيره بالتركيز على عدة قضايا في آن واحد، ولكن عندما يفرغ من القضية الأولى أولاً، وقتها سوف ينصرف إلى قضية أخرى فأخرى حسب الترتيب، وبذلك يصل بهم إلى نهاية مفيدة.

حول البرلمان العظيم الذي عقد في لندن

في أسبوعي عيد الفصح، اللذان يعرفان بشكل عام باسم Hokeday، اجتمع جميع نبلاء إنكلترا، ورجال اللاهوت وكذلك العلمانيون، في لندن، ولم يكن قط من قبل مثل هذا الحشد الكبير، ولم يشاهد مثله يجتمع مع بعضه هناك، وفي هذا الاجتماع (حتى نختصر الكثير بعدة كلمات) اشتكى الملك من أنه متورط في كثير من الديون، ولا يمكنه تخليص نفسه من دون مساعدة فعالة من نبلائه، وبناء عليه طلب بعنف وإلحاح، مساعدة مالية، مقترحاً بأنه يرغب باستلام الجزء الكامل من العشور، الذي جرى منحه من قبل من البارونات لمساعدته، وأنه ملتزم بتقديم شكر كامل وموائم مقابل ذلك، وكان من الواضح أن هذا الإجراء سوف يكون مدمراً للمملكة، لأنها عندما تجرد من أموالها سوف تكون مهجورة وعرضة لكل من يرغب بالاستيلاء عليها وتملكها، وبما أن هذا التصرف لا يمكن تحمله بأي شكل من الأشكال، قام المجتمعون بالتشاور فيما

بينهم، وقرروا بين بعضهم، بأنهم سوف يأخذون على أنفسهم القيام بحمل عبء عظيم، وهو الالتزام من ذلك الوقت فصاعداً، ومن دون أية اعتراضات تافهة، بالصك العظيم، الذي غالباً ما وعد بالالتزام به وأقسم على ذلك، وربط نفسه بأن يفعل وينفذ، وأقسم بروحه بطريقة هي الأكثر قانونية، وعلاوة على ذلك، طلبوا الاذن، في أن يختاروا لأنفسهم، بموجب الرأي العام للمملكة: رجل عدالة، وقاضي قضاة، وخازن، حسبما هي العادة من العهود الخالية، ولأن ذلك امتيازهم بشكل محق، وأنه لا يجوز عزلهم من وظائفهم ما لم يكن ذلك لجرائم واضحة، وأن يعلن عن ذلك، إثر مداوولات كافية وصحيحة، وبموافقة عامة من المملكة بشكل مطلق في مؤتمر معقود: لأنه يوجد في انكلترا كثيراً من الملوك الصغار، حتى بدا الحال وكأن العصور القديمة قد جرى تجديدها هناك، ولقد كان منظراً عاماً أن ترى الأسى منتشراً بين الناس، وفي الحقيقة لم يعرف الأساقفة والنبلاء كيف يضمّنون بروتوس Proteus الخاص بهم، أي الملك، حتى لو عملوا كل هذه التنازلات، لأنه في أعماله كلها قد تجاوز حدود الصديق، وحيث لا يوجد صدق لا يمكن وضع اعتماد ثابت أو مؤكد، وبالإضافة إلى هذا، لقد سمع المجتمعون من حجاب الملك الخاصين، بأن الملك سوف لن يمنحهم بأي شكل من الأشكال مطالبهم فيما يتعلق بقضية رجل العدالة، أو قاضي القضاة، أو الخازن، ومجدداً كان الأساقفة مقهورين بالأسى، لأنهم أرغموا، بسبب حالة العبودية المطلقة، التي هبطت إليها الكنيسة، على دفع العشر، الذي وعدوا به فقط على أساس شروط معينة، وتمزق النبلاء حتى قلوبهم بسبب الاستخراج الذي سيحقق بهم، وتوصلوا أخيراً إلى قرار جماعي، بأن يعيشوا برسالة إلى الملك، باسم الجماعة كلها، بأنه يتوجب توقيف القضية كلها وتعليقها حتى عيد القديس ميكايل، من أجل أن يروا ويتملكوا براهين على لطفه، وعلى اخلاصه وصدقه في الوقت نفسه،

وعلى ذلك إنه إذا تمكن من نيل إرادتهم الطيبة، والقيام بمكافأة صبرهم بالالتزام بشروط الصك، الذي غالباً ما وعد بذلك، وكثيراً جداً ما حث بوعوده، إنهم سوف يطيعون إرادته، بقدر ما يمتلكون من قدرة، وسوف يساعدونه في أوقات حاجته، ويقال بأن الملك لم يقبل بهذه الشروط، وأظهر بصمته أنه لم يوافق عليهم، وهكذا جرى بعد مناقشات طويلة وعقيمة، أن ارفض المؤتمر في حالة من الانزعاج واليأس، وأصبح النبلاء الآن أخساء، وعادوا إلى ديارهم.

الأنواء غير الرحيمة أثناء انعقاد البرلمان

كانت الأنواء في هذه الأيام ليست في موسمها تماماً، فقد هبت الريح الشمالية التي هي عدو كبير لبراعم الورود والأشجار، طوال الربيع كله تقريباً، ولم يتوفر قط، ولاندى مرطب، أو مانح على الأقل شيئاً من الانتعاش إلى الأرض العطشى، ولذلك صام النبلاء يوماً بعد يوم، وكانوا يحركون الهواء من دون فائدة، وأصيب كثير منهم بمختلف أنواع الأمراض والأسقام، وصار المناخ قاسياً وغدت الأجواء جافة بسبب هبات الريح الشمالية الساخنة، وأيضاً بسبب الرياح الاستوائية، فأخذت شكلاً يشبه لون الليمون، وسببت الكثير من الأمراض.

وفاة وولتر دي غري رئيس أساقفة يورك

وكان وولتر دي غري Gray رئيس أساقفة يورك، مثل البقية، قد ضغط عليه بمختلف أنواع المنغصات والاضطرابات أثناء عقد البرلمان المتقدم ذكره، وقد أصيب بمرض في مخه، من الصوم اليومي، وفي سبيل استرداد صحته، بعد المتاعب، والأعمال التي جاءت بلائها، ذهب إلى فولهام Fulham، وهي عزبة عائدة إلى أسقف لندن، وجاء ذلك بناء على طلب الأسقف المذكور، ولكن بحكم أنه قد أنهك بسبب تقدم السن، وكذلك بسبب الأحزان، ومتاعب الأعمال الأخيرة،

قد فقد قابليته للأكل تماماً، فأصبح ضعيفاً جداً، فمات في اليوم الثالث لوصوله إلى فولهام، وجاء ذلك بعد تلقيه جميع القوانين المقدسة، التي تشكل جزءاً من واجبات المسيحي، وقد أدار بشكل صحيح كنيسته في يورك لحوالي الأربعين سنة (يعني أن تقول أنه كان هناك فقط ثلاثة أشهر وثلاثة أسابيع حتى تكتمل تلك المدة)، وكان بإمكانه أيضاً أن يحكم المملكة بشكل لا يمكن انتقاده فيه، وقد غادر طريق الجسد كله في الأول من أيار.

كيف جرى حمل جسد رئيس الأساقفة

المتقدم الذكر إلى يورك ودفن هناك

بعدما جرى فحص جسده بدقة، جرى حمله بكل تشریف إلى يورك، تحت إشراف وولتر أسقف درم الذي كان نائبه، وهو الذي قام بكل واجب إنساني واحترام، وبقدر ما أمكنه، وسير أمام جسد ذلك الأسقف العالي المقام تقديم الصدقات، وتأدية مأتم يومي، وأخيراً جرى وضع الجسد في القبر بتشریف لائق، في كنيسة يورك.

حول الجفاف الكبير

عمّ في هذا الصيف نفسه جفاف، بسبب استمرار الرياح الاستوائية، التي أوقفت تماماً أنداء الصباح، وخنقت أنداء المساء، واستمرت من منتصف أيار حتى الأول من حزيران، وأصبح بإمكان الإنسان رؤية سنابل القمح مرمية في الرمل كلياً، وليست مائلة كما هو معتاد، لتزداد طولاً، ولإعطاء المزيد، وحدث أخيراً على كل حال، بفضل الذي بلطفه ينزل المطر على المستقيم وغير المستقيم، والأرض بجذورها شبه الميتة، فانتشعت البذور بأمطار موسمية وفيرة، وبالأنداء، وهكذا كان بنعمة من الرب أن تحول الجفاف إلى انتعاش إحياء، وعادت جميع الأماكن إلى الحياة، وقدمت وعداً بوفرة من الفواكه والحبوب.

المعجزات التي عملت في كنيسة لنكولن وشيكستر

وفي حوالي الوقت نفسه، أصبحت كنيسة لنكولن وشيكستر مشهورتين بوساطة المعجزات التي عملت هناك لتمجيد الرب، ولتمجيد الحبرين: روبرت، ورتشارد، وقد أشعت في كنيسة لنكولن عشرون معجزة كبرهان، لأنها فحصت، وذلك دون الحديث عن المعجزات الأخرى التي لا يمكن تعدادها، وحدث في شيكستر العدد نفسه، أو أكثر، وعملت واضحة، وقد أضيف كل يوم إلى عددهم، وكل واحد يرغب أن يرى رواية حول المعجزات التي جرى فحصها، يمكنه أن يعثر على كتابات تتعلق بهم في كنيسة القديس ألبان.

حول تعيين رئيس شمامسة لنكولن محل وليم وولف

وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، أرسل المعلم هوغ مورتايمر Mortimer، الذي كان مسؤولاً عن دير كانتربري، أوامر إلى الهيئة الكهنوتية في لنكولن، لإلغاء انتخاب وليم وولف، الذي جرى تعيينه مؤخراً رئيساً لشمامسة لنكولن، وأن يقوموا بتعيين واحد آخر محله من دون تأخير، وإذا لم يحدث هذا، فإن المعلم هوغ سوف يقوم بموجب السلطات الرسولية، وبموجب سلطات سيده رئيس أساقفة كانتربري، وسلطاته شخصياً، بمعاينة الكهنة النظاميين لعدم الطاعة، وقام الكهنة النظاميون، طاعة منهم لهذه الأوامر، فانتخبوا رئيس شمامسة جديد، ووقف المعلم وليم وصمد بشجاعة من أجل حرية الكنيسة وامتيازها، وتحمل هذا كله بصبر، وهرب للجوء إلى صدر الرحمة لدى البابا، الذي هو بالعادة مفتوح للمتضررين.

حول تحطيم جيش البابا

وفي حوالي هذا الوقت نفسه، سار البابا الاسكندر على خطى سلفه انوسنت في متابعة الأعمال المتعلقة بمملكة صقلية وأبوليا، فكان أن

أرسل الكاردينال أوكتافيان مع جيش كبير، مؤلف من ستين ألف رجل مسلح، لتدمير مدينة نوسيرا تدميراً نهائياً، مع مانفرد الذي كان متخفياً هناك، وأيضاً لتدمير جميع سكانها، وكان يوجد في المدينة أكثر من ستين ألفاً من المسلمين، كان الامبراطور فردريك قد حشدتهم من أجل تعريضهم لمخاطر تقلبات الحرب، ولهم أعطى تلك المدينة مكاناً للإقامة، وفتحت هذه المدينة صدراً للجوء لمانفرد ولبعض الآخرين من شيعة فردريك.

وبناء عليه رتب أوكتافيان قواته ونظمها، بمساعدة مركز بارع ومحِب للحرب (على نصيحته ومساعدته اعتمد الجيش البابوي كلية) ورعى هو والبابا آمالاً كبيرة بأنهما سوف يحصلان على غايتيهما، ولكن عندما صار هذا الجيش الذي لا يقهر كما اعتقد على بعد أميال قليلة من المدينة، استولى رعب مفاجئ وخوف على الطرفين، وبناء عليه لم يتجرأ سكان المدينة على الخروج ومهاجمة الغزاة، كما لم يتجرأ الغزاة على مهاجمة السكان أو المدينة، وهكذا أضاعوا لعدة أيام كثيرة وقتهم من دون فائدة، وكان الجيش البابوي كبيراً جداً ومرعباً، وكان يتلقى يومياً المدفوعات من صندوق مال ملك انكلترا، وكان يعيش وسط توقعات كبيرة، نتيجة لوعود البابا، فعلى هذه الصورة كانت أوامر وترتيبات البابا انوسنت، المتوفى أخيراً، وكل هذه الإجراءات شهدت القيام معه، وجرى تنفيذها من قبل الكرادلة، وبعد انتظار طويل، مكث فيه الطرفان من دون عمل، ذهب هذا المركز الخائن، الذي كانت لديه كتلة كبيرة من الأتباع في الجيش، إلى أوكتافيان وقال له: «لماذا نحن يامولاي واقفون هكذا من دون عمل لهذه المدة الطويلة؟ إننا نقوم بتبديد مبلغ كبير من المال، لنُدع ثلث الجيش ينصرف، لأنه لا مانفرد ولا جيشه سوف يتجرأ على الخروج من المدينة والقيام بهجوم، فهم محاصرون ومضيق عليهم، وقوة صغيرة سوف تكون كافية لإبقائهم من دون

حركة وخائفين»، ومجدداً بما أن سكان المدينة لم يقوموا بالانقضا، فعل المركيز الشيء نفسه فأنقص تعداد جيش البابا، إلى حد أن الذي بقي منه بالكاد كان تعداده عشرة آلاف أو اثني عشر ألفاً من الجنود، ثم إنه قام في إحدى الليالي، فركب فرساً سريعاً وذهب إلى مدينة نوسيرا، وتوجه بنفسه بالخطاب إلى مانفرد قائلاً: «يا صديقي العزيز، لقد أخذت انطباعاً، وفهمت بأنني قد آذيتك، ومازلت جاهزاً لفعل ذلك، وإنني أعجب كيف أنك أصغيت لمثل هذه الأقاويل الدنيئة، ولماذا صدقتهم بأي حال من الأحوال، وسموك يعرف كيف قدمت الخدمات باخلاص إلى والدك في أيام المخاطر، أعني الامبراطور فردريك، فكيف يمكن أن أعذب ابن مولاي الحبيب، ووالدك المحترم؟ ولسوف تكتشف على الفور الولاء والاخلاص وهو ما شعرت به منذ زمن طويل نحوك، لقد نقص الجيش البابوي وتبدد بوساطتي، وبالكاد بقي منه عشرة آلاف رجل مقاتل مع أوكتافيان، ومن هؤلاء جزء كبير عائد إليّ، لا تتأخر، دع جميع المخلصين لك في المدينة يسلحون أنفسهم على الفور، واللاحاق بي عن قرب، فإنك سوف تتخلص من أوكتافيان ومن أتباعه كما تراه مناسباً»، وبناء عليه خرج مانفرد من المدينة منقضاً يحيط به أتباعه، وحمل جميع سكان المدينة السلاح، وباتوا شاكين السلاح تماماً، واحتشدوا في أعداد مساوية لجيش كبير، واقتربوا من عساكر البابا بسرعة تماثل سرعة عاصفة من الريح، ولكن عندما كانوا يعيشون مع أمل أسر جميع أعدائهم، مثل طيور أمسكت في الشبكة، في ذلك الوقت بالذات جرى انذار أوكتافيان من قبل بعض الأصدقاء، وجرى اخباره بالذي كان على وشك الحدوث، فقام بالنجاة، لكن بصعوبة، في حين تعرض جيشه للقتل أو الأسر أو التمزيق، باستثناء أتباع المركيز وأصحابه، فهؤلاء جرى توفيرهم، وبعد هذا الانتصار، بدأ مانفرد يزدهر يوماً بعد يوم، مما ألحق الاضطراب والأذى بالكنيسة، وفي الوقت نفسه عاش البابا وعاشت الكنيسة الرومانية كلها بحالة من الحزن، وقد

قهرها من الأسى والكارثة التي شعرا بها من الأخبار، وخاصة بسبب أن الكنيسة قد وعدت بإعطاء مملكة صقلية وأبوليا إلى ملك انكلترا، لصالح ابنه ادموند، الذي إليه حول البابا خاتم الولاية، بوساطة أسقف بولون، وبسبب أن مستشاريه قد ألقوا بأموال انكلترا في حفرة عميقة، مما سبب دماراً لا يمكنه جبره لتلك البلاد، وعمل الأسقف المذكور الذي كان قد عبر الجبال كل سرعة للوصول إلى انكلترا، عالماً بأن عليه إرضاء الملك وافراده، ومن ثم استلام هدايا ثمينة، وكان جاهلاً تماماً بأخبار الكارثة التي تقدم ذكرها أعلاه، وكان متحمساً، مرتفع الآمال ويشعر بسرور مزيف، وبفرح فارغ.

وهكذا تتسابق القدرة اللاهوتية مع الأشياء الإنسانية

مناجاة نحيب على ظلم البلاط الروماني

كم هو عظيم نحيبك، وكم هو أعمى طموحك، آه، يابلاط روما، فبقدر ما أنت مقدس، أنت غالباً ماخذعت بآراء الأشرار، لماذا لاتضبط عنقك بلجام التعقل؟ لماذا أنت لم تتعلم بالماضي وتنصلح بكثير من المصائب؟ عجباً ألا تعلم أننا بخسارتك، نحن جميعاً نعاقب، لأننا نتألم جميعاً، ونشعر جميعاً بالفضيحة العامة وبالنقد، لقد حاولت الآن أن توجد امبراطورين في ألمانيا، بترقيتك الذي أنت مرغم على الانفاق عليه مبلغاً كبيراً جداً من المال، جرى نهبه من جميع الاتجاهات، مع أن الطرفين لم يكونا متأكدين من ذلك المنصب الرفيع، وجرى الآن في أبوليا، تدمير الجيش البابوي مرتين، بشكل مهين، الأولى تحت قيادة الكاردينال وليم، والآن تحت قيادة أو إمرة الكاردينال أوكتافيان، ولذلك تعرض جميع أبناء الكنيسة المسكونية للقهر بوساطة الخسائر، وغطاهم العار، وتقطعت قلوبهم بالأسى، ولكي نجمل الأمور ببضع كلمات: إن الكنيسة المسكونية التي من واجب البلاط الروماني الدفاع عنها، وحمايتها، تشكى من أنها تأذت كثيراً في كثير من النقاط من قبله.

حول الإعلان المتعلق بمراعاة صك الامتيازات لإنكلترا

وجرى في هذه الآونة نفسها عمل إعلان في الكونتيات، وفي المجامع الكنسية، وفي الكنائس من أن الصك العظيم، الذي جرى منحه من قبل الملك جون، والذي قام الملك الحالي بتأكيده وتثبيت منحه مرات كثيرة، تتوجب مراعاته والالتزام به من دون خرق، وجرى التفوه بقرار الحرمان الكنسي، بشكل مهيب ضد جميع الذين يقدمون على خرقه من الآن فصاعداً، وإلى هذا بقي الملك لا يبدى اهتماماً بل قام بشكل غير إنساني بتبديد ممتلكات كنيسة يورك، وأيضاً غالباً ما قال: «لماذا لا يقوم هؤلاء الأساقفة والنبلاء في مملكتي، بالالتزام بهذا الصك نحو رعاياهم، الأمر الذي عملوا حوله صراحاً كثيراً وشكاوى؟» وعلى هذا تلقى الرد المنطقي التالي: «عليك يا صاحب الجلالة أن تضرب المثل في مراعاة يمينك، وبناء عليه سوف يقلدك الجميع ويجذون حذوك، لأنه كما قال الشاعر:

حيثما يوجه الأمير خطواته

يقوم الرعاع الضعفاء باتباعها»

حول الاتهامات التي عملت ضد

روبرت روس وجون بالأويل

وعملت في هذه الآونة أيضاً اتهامات جديدة ضد روبرت روس Ross، وجون بالأويل Baliol بأنها عملاً بلا اخلاص وبلا عدالة نحو مملكة سكوتلندا، وكذلك نحو كل من الملك والمملكة لتلك البلاد، حيث كانت الوصاية عليهما قد أسندت إليهما، وكان الملك في ذلك الوقت في نوتنغهام Nottingham في المقاطعات الشمالية لإنكلترا.

كيف عمل رينالد باث الذي هو طبيب اتهاماً ضد السكوتلنديين

لقد كان هناك طبيب اسمه رينالد باث Reginald Bath، وكان بارعاً في فن الطبابة، وقد أرسل ليتولى رعاية الصحة الجسدية للملكة سكوتلندا، وذلك من قبل ملكة انكلترا، التي كانت قلقة إلى أبعد الحدود على سلامة ابنتها، وحسن أوضاعها، التي كانت ملكة سكوتلندا، وكذلك حول زوجها الملك الذي أحبته وكأنه ابن متبنى، وعندما وصل المعلم رينالد المذكور إلى قلعة دامسل Damsels، التي تعرف بشكل عام باسم أدنبره، أوضح سبب قدومه، وعرض رسائل من ملك وملكة انكلترا، فيها برهان حول الموضوع نفسه، وقد استقبل بلطف، ولدى تركه منفرداً مع الملكة، حسبما كانت العادة مع الطبيب، سأل عن سبب غيظها وشحوبها، لأنه وجدها حزينة، وقد ردت عليه قائلة: «إنه من الموائم كشف أسرار الجسد إلى الطبيب، مثلما يجري كشف أسرار القلب إلى الكاهن»، وعندما فهم المعلم رينالد أسباب اضطراباتها النفسية والجسدية، وجّه اللوم بشدة إلى خدمها والأوصياء عليها، وبعد كثير من الخصام والاتهامات المتبادلة واللوم، لابل حتى التهديدات، اتهم النبلاء والأوصياء على الملك، والملكة بالخيانة، وهددهم بالعقوبة بتهمة الخيانة، وبعد مضي عدة أيام أصيب هذا الطبيب رينالد بمرض مميت، وحمل إلى فراشه، وقد كان هناك بعض ذوي الظنون الشريرة، الذين قالوا بأنه تعرض للتسميم، وعندما رأى رينالد نفسه قد اقترب من عتبات الموت، كتب إلى الملك، وكذلك إلى الملكة، حيث ذكر بأنه قدم إلى سكوتلندا تحت طالع غير سعيد، لأنه شاهد بأن ابنتها تعامل بشكل غادر وغير إنساني، بين هؤلاء السكوتلنديين الذين لا يستحقون، ولأنه أقدم على توجيه اللوم إليهم، أقدمت هذه المخلوقات الشبالية على دس السم له، وعندما تسلم الملك هذه المعلومات، غضب غضباً عظيماً، وفكر بعمق حول الانتقام لهذه

الجريمة الكبيرة، وبعدما تقيأ هذا الطبيب سم عدم الوفاق، الذي هو أصل شرور المستقبل، والأضرار التي لا يمكن تعويضها، لفظ روحه التعيسة.

حول فقر بعض الكنائس في إنكلترا

وفي حوالي الوقت نفسه لحق كنيسة كانتربري اضطراب عظيم، وظلم شديد، وقد لحقها ذلك عن استحقاق بوساطة إجراءات أولادها، أي رهبان الكنيسة المذكورة، لأنها على الرغم من احتلالها للمكان الأول في إنكلترا، تولت رفض النبلاء والرجال المستحقين من أهالي البلاد، وقبلت أجنبياً ليكون بمثابة الوصي عليها، وبناء عليه، لم يكن من دون استحقاق، أن الذين تصرفوا على هذه الصورة قد وقعوا في حالة الفقر، الفقر الشديد في الحقيقة، إلى حد أنهم تورطوا في ديون وصلت إلى مايزيد على أربعة آلاف مارك، وعندما رأى الرهبان بأن الدمار محقق فوق كنيستهم، قاموا حتى لا يقعوا في مهاوي الاضطراب والارباك، فأعطوا ستة من أفضل عزمهم إلى واحد اسمه جون دي غيتدن Gatesden، وكان فارساً، وتخلوا عنهم وعهدوا إليه بهن، بأن يتولاهن وفق شروط مفيدة له، لكنها مؤذية جداً وظالمة لهم أنفسهم، وذلك إلى أن يتمكنوا من الخلاص من الديون، وفي الوقت نفسه كانت رئاسة رهبانية روكستر متورطة في ديون لانهاية لها، وبناء عليه عهد بها إلى جون نفسه وإلى ممولين آخرين، وألغى الرهبان علاوات الطعام واللباس العائدة إليهم، وبالكاد احتفظوا لأنفسهم بضروريات الحياة، ومجدداً كانت رئاسة رهبانية القديسة سويثن Swithin في وينكستر مثقلة بخسائر لا يمكن تعويضها، وقد ازدادت جراحاتها لأنها استحققت ذلك، ذلك أنها أثرت فضل الملك على الخوف المتوجب من الرب، وقد اختارت راعياً كان تماماً غير موائم لإدارة مثل تلك الكنيسة المهمة، لأن الأسقف المنتخب أقحم واحداً وجعله رئيساً للرهبان، وفرق الرهبان،

وقبل في الطائفة الرهبانية، بعض الجهلة، ومنح اللباس الرهباني إلى أشخاص لا يصلحون لشيء، وأحلهم محل الذين تولى طردهم، وكانوا رجالاً جديرين بالرفض وليس بالاختيار، وهو إجراء جاء لإلحاق العار بالديانة وبالحياة الرهبانية الصحيحة، وفي الحقيقة كان هناك ثلاثة عشر راهباً، كانوا لاشيء البتة، سوى مجرد ارتداء القلنسوة، وهل يتوجب عليّ ذكر فوضى واضطراب الكنيسة الديرية للقديسة مريم في يورك، والكنائس الفخمة الأخرى، أم الاكتفاء بإظهار أن غضب الرب قد ظهر نحو الناس، بسبب تراكم ذنوبهم؟

حول الخسوف غير الاعتيادي للقمر

ومجدداً في سبيل أن لا تختلف أحوال الأجساد السماوية عن أوضاع هؤلاء الذين هم بالأسفل، تعرض القمر إلى خسوف غير اعتيادي وكامل، في شهر حزيران، وكان ذلك في الليلة التي أعقبت عيد القديسة مرغريت، وبدأ الخسوف قبل ساعتين من منتصف الليل، واستمر لمدة أربع ساعات تقريباً.

وفاة وارن دي مونتشينسل

ومات في حوالي الوقت نفسه البارون النبيل وارن دي مونتشينسل Montchensil الذي كان الأكثر نبلاً وحكمة، أو على الأقل كان واحداً من الأكثر حكمة والأعظم نبلاً بين جميع نبلاء انكلترا، وكان وارن هذا نفسه محامياً غيوراً على السلام وعلى امتيازات المملكة، وعند موته ترشح أقوى أعمدة المملكة، وكان علاوة على ذلك متملكاً لمبلغ كبير من المال، وجرى تقدير ممتلكاته بأنها وصلت إلى مائتي ألف مارك وزيادة، وعهد الملك على الفور بالوصاية على وريثه وليم إلى وليم صاحب بلنسية، الذي كان أخوه لأمه، والذي كان قد تزوج من ابنة وارن المتقدم ذكره، ليصبح صهره، وبهذا، يالأسف أخذت نبالة انكلترا تتلاشى يومياً.

حول مرض جون الفرنسي

أصيب الآن جون الفرنسي، الذي كان واحداً من كهنة الملك ومستشاراً رئيسياً لديه، بشلل لا يمكن الشفاء منه، لكن هذا لم يدفع أحداً إلى البكاء شفقة وحزناً عليه، بين رهبان دير القديسة مريم في يورك وسيلباي Selby.

حول مغادرة جون دي غري للبلاط

وحدث في هذا الوقت نفسه أيضاً أن جون دي غري Gray، الذي كان فارساً ورجلاً معتدلاً ومستقيماً، وربما مهذباً قد تعلم الحكمة، حدث أنه انسحب من بين مستشاري الملك، ومن متاهة البلاط.

كيف ذهب الملك إلى سكوتلندا

حيث أثير لأن يفعل ذلك بشكاوي ابنته

وفي هذه الآونة صار الملك أكثر فأكثر انزعاجاً، واشتد ضيقه نتيجة الشكاوى اليومية للملكة سكوتلندا وخدمها وأتباعها، وبناء عليه حشد جيشاً ووجه زحفه نحو سكوتلندا، مع نية المطالبة بتقرير دقيق من روبرت روس وجون بالأويل، اللذان كانا فارسين، ورجلين صاحباً قوة كبيرة ونفوذ، لأنهما حسبما جرى اخباره — كما قال — بوساطة رسائل سرية من أصدقائه، تصرفا بشكل معاكس لوعودهما، وحكما مملكة سكوتلندا بشكل غير صحيح، وأساءا معاملة الملك والملكة، وعندما اقترب من سكوتلندا، بعث رتشارد إيرل أوف غلوستر، وجون مانسيل الذي كان محاسباً أثيراً ومستشاراً، وجعلها يسيران قبله ليكتشفا فيما إذا كان روبرت روس قد سوغ بأعماله الشكاوي التي صدرت ضده، وفيما إذا كان قد تجرأ على التمرد للدفاع عن أخطائه، والجرائم التي عزيت إليه، وعما إذا كان ينوي العمل ضده، وبناء عليه، سار الايرل وجون مقدماً، بناء على أوامر الملك، ترافقهما حراسة كبيرة ومنتخبة، وقد علما

بأن ملك ومملكة سكوتلندا كانا آنذاك مقيمان في قلعة دامسيل، لذلك توجهوا على الفور إلى هناك، دون التسبب بأي إثارة، وتركوا أتباعهما مع أوامر باتباعهما من على بعد، ولذلك تمكنا من العبور بنفسيهما بمثابة فارسين متواضعين من حاشية روبرت دي روس، وبذلك خدعا البواب وبقية الحرس، وشقوا طريقهما إلى داخل القلعة، وما لبث أن لحق بهما أتباعهما، وبذلك شكلوا قوة كبيرة، حتى إذا ما أراد الذين تركوا في القلعة لحراستها مقاتلتها، لن يشعر هذان المتسللان بالخوف، ثم ذهبت ملكة السكوتلنديين إليهما بكل ثقة، وشكت إليهما بمرارة، بأنها أقيمت بشكل غير لائق تحت الحراسة، أو بالحري مسجونة في تلك القلعة، والمكان المعزول، الذي ليس فيه هواء صحي، ومحروم من مشاهد الحقول الخضراء، لأن القلعة كانت على مقربة من البحر، وأنه لم يكن مسموحاً لها بالسفر خلال مملكتها، أو امتلاك خدم خاصين بها، أو الاحتفاظ بشابات ليكن بمثابة وصيفات لقاعاتها ليتولين خدمتها، كما أنه لم يسمح لزوجها بالاقتراب منها، أو التمتع بامتيازات الزوج، ولا نعرف عما إذا كانت هناك قضايا أخرى مزعجة أضيفت إلى هذه الشكاوى، وحاول الايرل جون، وكان رجلاً فصيحاً ومستقيماً مهذباً أن يهدئها، وأن يوقف دموعها ونحيبها، وواساها بوعداها بأن عقوبات محددة، سوف يجري انزالها من أجل هذه الجرائم، وقام على الفور بترتيب الأمور لكي ينام ملك ومملكة سكوتلندا معاً في فراش واحد، كزوج وزوجة، واستدعي روبرت دي روس للمثول بشكل خاص في محكمة بلاط انكلترا، لكي يجيب على الشكاوى التي عملت ضده، لكن لأنه كان خائفاً على نفسه، بقي بعض الوقت متوارياً، لكنه أصبح فيما بعد أكثر تواضعاً، فأطاع وذهب إلى هناك، وأصبح بعض النبلاء السكوتلنديين غاضبين فعلياً، لأن الايرل وجون، قد فعلا الذي فعلاه فجأة من دون معارضة من أي واحد، وتمكنا من الاستيلاء على قلعتهم، التي هي المدخل إلى أراضيهم، وشكلت نوعاً من أنواع الحواجز لحماية

مملكتهم كلها، وعزموا على الانتقام، فاقتربوا من القلعة مع عدد كبير جداً من الأتباع، وأحاطوا بها، لكن عندما علموا بأن الملك والملكة كانا بخير، وأنه من حماقة محاصرتها انسحبوا، وهكذا جرى تسوية كل شيء بسلام، ووعد روبرت دي روس بناء على بعض الشروط بالقدوم إلى محكمة بلاط الملك للإجابة على التهم التي رفعت ضده، لكن الملك قام بناء على نصيحة بعض الأصدقاء الذين سايروا حظه بالاستيلاء على أراضيه، ووضعهم تحت وصاية دقيقة.

حول الخلاف بين جامعة باريس والرهبان الدومينيكان

وفي تلك الآونة نفسها أيضاً نشب خلاف جاد بين جماعة الباحثين في باريس والرهبان الدومينيكان الذين كانوا يعيشون هناك، فقد أراد هؤلاء الرهبان، مراغمة للعرف القديم المؤسس للمدينة وللجامعة، ومن دون موافقة المدينة والجامعة، واستهدفوا زيادة عدد المحاضرات في اللاهوت التي كانت حتى ذلك الحين محدودة، وتمكن هؤلاء الرهبان الدومينيكان أخيراً من الحصول على النتيجة الأفضل من هذا النزاع، وذلك دون أن يعبأوا بالملك الفرنسي، وبسكان باريس الذين سعوا للحفاظ على امتيازات الجامعة، وذلك لأن هؤلاء الرهبان كانوا مكرسين أنفسهم للبابا، ولأنهم قدموا كثيراً من أنواع الخدمات لبلاط روما، لذلك تمتعوا بحظوة كاملة في أعين هذا البلاط، وبناء عليه أعطى البابا قراره لصالح الرهبان الدومينيكان والرهبان الآخرين، في أن يملكوا الحرية للمحاضرة في اللاهوت، من دون التقيد بأعداد المحاضرات، التي كانت حتى الآن منذ زمن طويل مضي، محصورة بعدد مقيد.

كيف عمل جون بالأويل سلاماً مع الملك بدفع مبلغ من المال

وفي هذه الآونة نفسها أيضاً كان جون بالأويل، الذي كان فارساً ورجلاً غنياً، (والذي كان والده رجلاً شجاعاً في الحرب، وقدم كثيراً

من الخدمات للملك جون، وغالباً ماقدم المساعدة إليه في أوقات الريبة والمصاعب) متهماً مثل روبرت بجرائم ثقيلة، ولقد تمكن ببراعة ودهاء من صنع سلام مع الملك، بتزويده في وقت حاجته بالمال، الذي امتلك منه كثيراً.

عودة الملك من سكوتلندا

أما وقد فرغ الملك من ترتيب كل شيء بسلام وذلك بما يرضيه، وبعدها تمتع هو وملكوته بأحاديث كافية مع ملك ومملكة سكوتلندا، بادر ملك انكلترا بالعودة مسرعاً إلى الأجزاء الجنوبية من انكلترا، وزار على الطريق الديرة ورئاسات الرهبانيات، وعهد بنفسه لصلوات الأساقفة، وأغنى في الوقت نفسه، ذاته بأموالهم.

كيف استولى الملك على بعض المال الذي كان مودعاً في درم

وعندما وصل الملك إلى درم، دخل إلى الكنيسة، وصلى لوقت قصير عند ضريح الأسقف المبارك، والمعتزف المجيد كوثيرت Cuthbert، وهناك علم مما ذكره له أحد المخبرين، بأنه كان هناك مبلغاً كبيراً من المال مودعاً في الكنيسة، وهو عائد إلى الأسقف نيقولا، أسقف إيلاي، ولبعض الكهنة، الذين صمدوراً عن احترامهم وثقتهم بالأسقف كوثيرت وبكنيستته، قد أودعوا ثروتهم هناك، تحت رعاية رئيس الرهبان والمجمع الرهباني، وبناء عليه أمر الملك وكلاءه اللصوص، على الرغم من معارضة الرهبان ومن عدم طلب الموافقة من أصحاب المال، أمرهم بشق طريقهم بالقوة، وبكسر جميع الأغلاق والأختام، ومن ثم الاستيلاء على أي مال سوف يجدونه في الخزائن، وفي الصناديق، عادةً أن المال لم يصادر ولم يتم الاستيلاء عليه بالقوة، بل أسلف إليه، وهكذا هو لم يخف من خرق سلام الكنيسة، كنيسة مثل ذلك القديس العظيم، وأيضاً الكنيسة المسكونية للرب، التي غالباً ما أقسم على الحفاظ عليها

سليمة، وحدث على كل حال أنه بعدما تفكر، أعاد دفع المال إلى أصحابه، وهو المال الذي استلفه بهذه الطريقة، لكن من دون ترضيتهم بالنسبة للأذى الذي لحق بهم.

تكريس وليم كيلكني أسقفاً على إيلاي

وفي تلك الآونة نفسها، أي أن تقول في يوم صعود مريم المباركة، جرى تكريس وليم كيلكني الأسقف المنتخب لإيلاي، تكريسه أسقفاً لإيلاي، وكان ذلك في بولنزا Polenza، من قبل رئيس أساقفة كانتبري، الذي كان آنذاك مقيماً في القارة، وعندما جاء الأسقف المنتخب إليه في بلاده، أعطاه رئيس الأساقفة تشريفاً له امدادات وافرة من جميع الحاجيات الضرورية، كما أنه تلقى المديح أيضاً والمعاملة بالتحريف من قبل بطرس سافوي، حتى لا يظهر أنها كانا في حالة عوز في بلادهما، لكن أساقفة انكلترا وكذلك رهبان دير كانتبري، قد حزنوا من هذا الإجراء، لأنه كان مؤذياً لهم، لأن العادة كانت قد قضت دوماً بتكريس الأساقفة في انكلترا، وعلاوة على ذلك كانوا خائفين كثيراً، من أن يتخذ رئيس الأساقفة نتيجة الإجراء الجديد عادة، وهو الإجراء الذي كان رئيس الأساقفة هذا نفسه قد عمله في قضية كنيسة لنكولن.

وصول الأسقف المنتخب لطليطة إلى لندن

في ثمانية عيد ميلاد مريم المباركة، وصل إلى لندن الأسقف المنتخب لطليطة، الذي كان اسمه سانشو، وكان عمره عشرين سنة، وكان أخاً للملك قشتالة، وجاء بصحبته أيضاً رجل صاحب نفوذ كبير في اسبانيا اسمه غارسيا مارتين Garcias Martin، ولم يكن سبب قدومهما معلوماً، لكن قد قيل من أجل زيادة مواردهما بوساطة الهدايا الثمينة التي من الممكن لهما الحصول عليها من الملك، الذي جعل من ممارساته القيام بالتوزيع من دون تمييز بين مثل هؤلاء الناس كل الذي

كان بإمكانه استخراجهم من رعاياه الطبيعيين، وكانت أخلاق وطباع، وأتباع هذا الأسقف المنتخب تختلف تماماً عما كان متوفراً وقائماً بيننا، لأنه كان شاباً يرتدي خاتماً في أصبعه الأول، ويقدم المباركات إلى الناس، وقد زين مكان إقامته الذي كان في المعبد الجديد، وشمل التزيين أرض الغرفة أيضاً، بالسجاد، والبطيخات، والستائر، ومع ذلك كان لديه أتباع وخدم متوحشين وغير عاديين، واحتفظ معه بعدد قليل من الخيول، مع أنه كان لديه عدداً كبيراً من البغال، وعندما سمع الملك بوصولهما، أعطى أوامر دقيقة، بوجوب استقبالهما بأعلى تشریف، وأن مامن شيء مزعج مهما كان، ينبغي أن يشاهدها، ولكن عندما اكتشف سكان لندن عاداتهما وأخلاقهما ضايقوهما وأهانوهما، ووصموهما بالشره والترف، وكان الملك في الوقت نفسه يشعر بالمجد بوساطة الزواج الذي جرى عقده بين أسن أولاده ادوارد، وأخت ملك قشتالة، وكأنه كان على وشك الحصول على جميع امتيازاته وممتلكاته في القارة بوساطة الزوجة الجديدة لابنه، مع أن ذلك الزواج لم يكن نافعاً له، أو لمملكته بأية طريقة من الطرق.

زواج ابن ملك فرنسا من ابنة ملك قشتالة

عندما وصلت المعلومات عن حلف الزواج الذي جرى ترتيبه بين ملك قشتالة وملك انكلترا، إلى ملك فرنسا، بدأ هذا الملك تساوره الشكوك حوله، ولذلك بعث برسول خاص إلى ملك قشتالة، فطلب ابنة الملك لتتزوج من ابنه، وسعى الرسول لإقناعه بفعل ذلك، ورجاه أن لا يجاوب بالرفض، الرغبة بالتحالف عن طريق الزواج من رجل عظيم كهذا، وقد عرض عليه شروطاً أفضل من شروط ملك انكلترا، الذي حصل على أخت الملك لأنه لتكون زوجة لابنه الأسن ادوارد، وهكذا نجح في رغباته، وهنا المعطي نفسه على الشرف الذي ناله بهذا الطلب.

الخطط المتنوعة التي كانت بلافائدة حول تبديد الأموال والتي وضعت قيد الممارسة من قبل ملك إنكلترا

وفي الوقت نفسه كانت النفقات تتم يومياً، من أجل دعم الحرب في أبوليا، وحول هذه المعركة التي تقدم ذكرها أعلاه، والتي كانت بفائدة صغيرة، أو من دون فائدة، ومن أجلها أنفق الملك مبلغاً كبيراً من المال، كما أن أسقف طليطلة قد أنفق أيضاً من عشرة إلى اثني عشر ماركاً يومياً من أموال الملك، والآن جاءت إلى الوجود طريقة جديدة لتبديد الأموال، لأن توماس، الذي كان من قبل كونت فلاندرز، وهو عم الملكة، وأخو رئيس أساقفة كانتبري، قد أثار حرباً جديدة ضد مدينتي: تورين وأستي Asti، وفي سبيل دعم هذه الحرب واستمرارها، كان الملك وكنيسة كانتبري، لابل حتى الملكة نفسها، مرغمين على الاسهام بمبلغ كبير جداً من المال، وهكذا فإن الملك الذي أنقص مؤخراً كثيراً من موارده، لإعطاء شطر منها إلى ابنه، تعرض الآن للضيق وللضغوط والقلق من كل جانب.

المشورة الشريرة التي أعطيت من قبل أسقف هيرفورد

وفي هذه الآونة نفسها ذهب بطرس ايغلانك Egeblank، أسقف هيرفورد (الذي تثير ذكره أبشع الروائح وأكثرها قذارة) إلى الملك الذي عرف حاجته إلى المال، وأنه كان متعطشاً للحصول على المال بقدر ما أوتي من قوة، وهمس في أذنه المشورة المسممة التالية قائلاً: «وافق يامولاى على خطتي، فأنا لن أفرج عن عوزك فقط، بل سوف أعطيك الوسائل للحصول على المال بكميات وافرة جداً، لأنك إذا حصلت لي — وكان القضية من أجل عمل صغير — على ثلاثة أو أربعة أختام عائدة للأساقفة ذوي النفوذ في إنكلترا إنني — كما آمل — سوف أتمكن بوساطة تفسير جديد من اقناع البابا بالقيام بإرغام كل واحد

منهم، مع جميع أساقفة انكلترا، حتى بالقوة وضد إرادتهم، على دفع مبلغ كبير من المال، وذلك مايلبي حاجتك تماماً»، وأعطى الملك لهذه الخطة موافقة قلبية، وكان الاثنان مسرورين كثيراً، ولذلك شرع الأسقف على الفور بالعمل على عبور الألب، ليتولى تنفيذ وعوده، وقد تمت مرافقته من قبل واحد اسمه روبرت ويلران Walerann، من أجل تنفيذ سحره بشكل أكثر فعالية مع البابا، ولدى وصوله إلى روما وجد البابا في حالة يأس وحزن مفرط نتيجة الكارثة التي تعرضت الكنيسة إليها مؤخراً، وكان علاوة على ذلك متورطاً بديون بلغت حداً، أن كل من سمعوا بكلماتها أصيبوا بالدهشة، وهذه الديون كلها كان ملك انكلترا ملزماً بدفعها، تحت طائلة عقوبة الحرمان من الميراث، وعلاوة على ذلك أخذ تجار عبر الألب مع المرايين يضغطون بشدة وإلحاح واستمرار مطالبين بدفع الديون المستحقة لهم، وهي الديون التي كانت تزداد كميتها يومياً بالربا، وبالعقوبات، والفائدة، ولدى تعبير البابا عن أساه حول هذه القضايا، أجابه الأسقف قائلاً: «لا تدع قداستك تنزعج حول مبلغ ديونك الكبيرة، حتى وإن كانت عظيمة، لأننا قبل أن نغادر انكلترا، جهز الملك وأنا هذا الفارس البارع طريقة سليمة ومؤكدة من أجل دفع جميع الديون من دون صعوبة، شريطة السماح لي بفضل منك وإذن، القيام بتنفيذ الخطط المشبعة بها نفسي، لأن الملك مخلص جداً إليك وإلى الكنيسة الرومانية، وهو جاهز بكرمه نحو الكنيسة واللاهوتيين فعمل كثيراً من أنواع الوظائف، وأضفى عليهم كثيراً من المنافع، على شكل منح من الحرير، وكذلك ببناء الأبنية، وإهداء الشموع، وهدايا أخرى ثمينة، لأن لديه النية الصالحة والرغبة باسداء المعروف إلى جميع البشر، ومثل هذا أنعم هو بكثير من الأعطيات على نبلائه، من الأراضي، والمصنوعات، والموارد، ولذلك تمتع بحق بالعواطف العظيمة للجميع نحوه، فهو عندما اجتاز خلال فرنسا مؤخراً، أعطى إلى الكنائس كثيراً من الكؤوس الفضية،

والطيلسانات، والعقود، وأعطى إلى النبلاء والأساقفة كثيراً جداً من الهدايا، من كؤوس، وخواتم، وأحزمة، وأبازيم، ثمينة في موادها وكذلك في صنعتها، وبذلك نال ثناء واعجاب الفرنسيين، وعلى هذا ارتفع الاسم المشهور للانكليز حتى السماء، وبناء عليه فإن الانكليز لديهم رغبة عارمة، وسوف يكونون مسرورين كثيراً بأوامركم، بصرف أنفسهم وتحميلها، وأن يربطوا أنفسهم، وكأنهم قد أرغموا بال رغبات التقوية في سبيل تحرير ملكهم المحبوب من ديونه»، ثم أظهر الرسائل، التي كتبت بمكر الثعالب، واستخرجت من بعض الأساقفة، والتي ختمت بأختامهم، وبهذا أعطى مظهر الصدق للتصريحات والافادات التي تقدم ذكرها أعلاه، وجعلت البابا أكثر استعداداً للصغاء إلى زيفه، وفي جواب على كلامه قال البابا: «صديقي المحبوب، وأخي، اعمل في هذه القضية كل الذي تراه مناسباً بالنسبة إليك، ونحن نشني كثيراً على جهودك وبراعتك».

حول خيائته غير الاعتيادية

وانضم الآن إلى أسقف هيرفورد، واحد من الكرادلة، الذي توفرت لديه حرية الوصول إلى الختم البابوي العظيم، والذي بموجب مشورته قام البابا بتنفيذ الأعمال الشريرة لسلفه، ففرض واجبات ثقيلة على أساقفة انكلترا الذين لم يكونوا على دراية تامة بخديعته، بحيث لو أن جميع المظالم الماضية جمعت مع بعضها، لعدت خفيفة بالمقارنة مع هذه النازلة، ويوجد في الرسائل التي أقحمها بعض الأدلة على التزييف، من ذلك أن كل واحد من الأساقفة، لابل هم جميعاً، كانوا ملزمين بالدفع إلى فلان وفلان من تجار سيينا Sienna أو فلورنسا مبلغاً كبيراً من المال، كانوا قد قبلوه بمثابة دين، من أجل تسوية نافعة لبعض الأعمال المتعلقة بكنائسهم، مع أن ما من واحد منهم عرف قط أي واحد منهم أو رآه، ولم يرد أي ذكر للمال، وإذا لم يدفعوا الذي فرض

عليهم خلال مدة وجيزة من الزمن، فإن هؤلاء المرابين (الذين يطلق عليهم الفرنسيون عادة اسم bougres) سوف يمتلكون السلطة الكاملة بمعاينة العبيد الأبرياء للرب، وأساقفة الكنيسة، بكل أنواع العقوبات، وبإدانتهم بدفع غرامات ثقيلة، وبظلمهم بمختلف الطرق، وذلك حسبما ستظهر الرواية المقبلة وترويهِ في الوقت المناسب والمكان الموائم.

وصول زوجة إدوارد إلى دوفر

وفي تلك الآونة من أيام عيد القديس دينس في هذا العام، عندما كان الملك عائداً من شمالي انكلترا إلى لندن، حتى يكون حاضراً للاحتفالات المهيبة المقامة تشريفاً للقديس ادوارد، وفي اسبوعي عيد القديس ميكايل، وصلت اليانور، أخت ملك اسبانيا، وزوجة ادوارد إلى دوفر وسط أبهة عظيمة ومع حاشية كبيرة جداً، إلى حد أن وصولهم بعث الشكوك في انكلترا كلها، وشعر الجميع بالخوف من أن البلاد سوف يجري الاستيلاء عليها كلها بالقوة من قبلهم، وبناء عليه أصدر الملك أوامره بوجوب استقبالها بأعظم تشريف واحترام في لندن، وكذلك في الأماكن الأخرى، لكن بشكل خاص في لندن، حيث جرى الاحتفال بوصولها، بالمسيرات، والتزيينات، وقرع الأجراس، والأغاني، وجميع الوسائل الخاصة للتعبير عن الفرح والاحتفال، وبناء عليه، عندما اقتربت من المدينة، خرج السكان لاستقبالها، وقد ارتدوا ثياب الأفراح، وامتطوا على خيول مزينة بشكل ثمين، وعندما وصلت النبيلة زوجة ابن الملك إلى المكان المعين لها للإقامة، وجدته مثل مكان إقامة الأسقف المنتخب لطليطلة، معلق على جدرانه الطيلسانات الحريرية والسجاد وذلك مثل معبد، لابل حتى الأرض كانت مغطاة بالأقمشة المزركشة، وتولى عمل هذا الاسبانيون، لأن تلك كانت عادتهم في بلادهم، لكن هذا التجبر المسرف، قد أثار ضحك وازدراء الناس، ولدى قيام

أشخاص جادين وعقلاء بالتفكر حول حوادث المستقبل، حزنوا بعمق من التقدير الكبير الذي يبيده الملك لدى حضور أية أجناب، وفي الحقيقة أثار التكريم الذي أبدى نحو الاسبان دهشة وعجب الجميع، ولاغربة في ذلك، ولذلك بكى الانكليز وانتحبوا لأنهم وضعوا في مكان أقل تقديراً من شعب أية دولة أخرى، وذلك من قبل ملكهم، وبحزن تصوروا بأن دمارهم الذي لايمكن جبره بات وشيكاً.

حول الأوضاع التعيسة لمملكة إنكلترا

علاوة على ذلك تحققت صحة بعض التقارير التي انتشرت، والتي أفادت بأن نائباً بابوياً، أو بالحري كاهناً بابوياً، مسلحاً بسلطة نائب بابوي، قد جرى إرساله معتمداً من قبل البابا، وأن وصوله بات وشيكاً، حيث أنه كان فقط ينتظر ريحاً طيبة، وكان هذا المبعوث مستعداً وراغباً في المقام الأول بمساعدة الملك ودعمه في جميع مشاريعه، وبعد ذلك أن يغل بأغلال التكفير جميع الذين يعارضون رغبة الملك، وطغيانه حسبما كان حاله، وعلاوة على ذلك صار النبلاء مرعوبين، وقد غرقوا في متاهة اليأس، لدى رؤيتهم كيف تمكن الملك بمكر لايمكن وصفه من جذب الأجانب ونشرهم من حوله بموجب درجات، وكيف أنه دفع إلى التحالف معه كثيراً من نبلاء انكلترا، لابل في الحقيقة هم جميعاً تقريباً، من ذلك على سبيل المثال ايرلات: غلستر، ووارني، ولنكولن، وديفون، وذلك بالاضافة إلى عدد كبير آخر من النبلاء الآخرين، وكيف قد جرد الآن رعاياه المحليين، وأغنى إخوته، وأقرباءه، وأهله، ولو أرادت الجماعة الانكليزية كلها بشكل عام، أو تجرأت على الوقوف ضده، لن يكون لديها القدرة أو الوسائل للردع، أو الوقوف ضد الملك وأجانبه، وكان الايرل رتشارد، الذي عدّ على أنه المقدم لجميع النبلاء، على الحياء، ومثله كان العديد من الآخرين، حيث لم يتجرأوا على التذمر، وكان رئيس أساقفة كانتربري، الذي كان من المتوجب عليه أن

يكون ترساً ضد العنف العدواني للملك، على مسافة نائية في القارة، منشغلاً في كثير من المشاكل الدنيوية المتنوعة، ويقدم اهتماماً قليلاً لرعيته في انكلترا، وكان أصحاب العقول العالية والمدافعين الغيورين عن المملكة، وأعني بذلك رئيس أساقفة يورك، وروبرت أسقف لنكولن، ووارن دي مونتشينسيل وعدد آخر من أمثالهم، قد أخذوا من بيننا، وفي الوقت نفسه حصل إخوة الملك، والبواتيون، والبروفانسيليون، والآن الاسبان والرومان على الثروة بوساطة الموارد، وهذه الثروة تزداد يوماً، وجرى غمرهم بالتشريفات إلى حد الحرمان الكامل للانكليز.

كيف جرى منح إدموند ابن ملك إنكلترا مملكة صقلية

بعد عيد القديس لوقا، اجتمع عدد كبير من النبلاء مع بعضهم، وذلك بعدما جرت دعوتهم بوساطة رخصة ملكية، لأن أسقف رومانا Romagna قد جاء إلى الملك باسم البابا، وعوضاً عن قداسته، جالباً معه خاتماً، أعطاه إلى إدموند ابن الملك، وبهذا العمل المهيب، ولاه على مملكة صقلية وأبوليا، وامتلاً الآن قلب الملك بالفخر والسرور الكامل، وكأنه قد فرغ من تلقي ولاء الصقليين والأبوليين، وقد أصبح سيد مدنها وقلاعهم، وابنه إدموند قد جرى تتويجه ملكاً، وفي الحقيقة أقدم علناً على دعوة ابنه إدموند باسم ملك صقلية، ولم يكن الأسقف المتقدم ذكره — كما هو معتقد — على دراية بأن جيش الحملة البابوية قد جرى تدميره، وأن أموال ملك إنكلترا قد تمّ انفاقها كلها، وأكثر من هذا، أنه قد أثقل بشكل مرعب بالديون، ولو أنه كان يعرف كان قد أخفى بمكر معرفته بذلك، حتى لا يخسر الهدايا التي أعدت له، والحقيقة لم يكن الملك بالفعل والنبلاء معه يعرفون، وعاد الأسقف إلى وطنه مثقلاً بالهدايا الثمينة، وحدث ذلك قبل أن تصبح الأوضاع الحقيقية للقضية معروفة في إنكلترا، وكان الملك قد قام على كل حال، بسرعة كبيرة جداً بالاقتراب من المذبح بحضور نبلائه، وأقسم بحق القديس

ادموند، وهو معتمد على مساعدة البابا وواثق منها، بأنه سوف يذهب إلى أبوليا، وشاغله فقط صعوبة معرفة كيف يمكنه السفر خلال فرنسا بأمان مع جيشه وأمواله، وشرع على الفور بالتفكير حول الذي ينبغي أن يرسله إلى الملك الفرنسي للحصول على إذن بالعبور خلال أراضيه، ثم إنه فكر وفق طريقة سلطوية ملكية، أن يطلب من الملك نفسه ممتلكاته في القارة، والسعي إلى استردادهم بالقوة إذا كان الأمر ضرورياً، لأن بين أبوليا وانكلترا هناك فرنسا التي سوف تسحق بين حجري الطاحون، وأخيراً أرسل جون مانسيل إلى هناك، وهذا أمر سوف نذكره فيما بعد في وقته الموائم.

كيف أعاق الملك انتخاب رئيس أساقفة يورك

واستخدم الملك في هذه الآونة كل الوسائل التي كان بإمكانه استخدامها لتأخير وإعاقة انتخاب رئيس أساقفة ليورك، في سبيل أنه كلما امتلك المزيد من الوقت، امتلك الحرية الأعظم لنهب ممتلكات رئاسة الأساقفة تلك، حيث قال: «لأنني لم أفرغ بعد من وضع رئاسة الأساقفة تلك في ممتلكاتي، لذلك ينبغي أن أنتبه إليها حتى لاتضيع مني بسرعة»، وبعد لأي قام الكهنة النظاميون فانتخبوا، لابل بالحري رشحوا إلى تلك الوظيفة المعلم سيول Sewal، الذي كان عميد تلك الكنيسة وكان معتدلاً، ورجلاً مقدساً، وجيد المعرفة بالقانون وبالعلوم الأخرى، ثم إنهم بعثوا المعلم روجر هولدرنس Holderness، وكان رجلاً متعلماً، وواحداً له حظوة عالية في روما، وقد جلب القضية إلى نهاية سعيدة، حسبما سنروي في الصفحات المقبلة.

المعاملة الوحشية لليهود لأنهم صلبوا صبياً

وفي هذا العام نفسه، في حوالي أيام عيد الرسولين: بطرس وبولص، سرق يهود لنكولن طفلاً عمره ثمانية أعوام، كان اسمه هوغ، وقد

حبسوه في غرفة بعيدة عن الطريق، حيث غذوه بالحليب وبأطعمة الأطفال الأخرى، وبعثوا تقريباً إلى جميع مدن انكلترا حيث عاش اليهود، واستدعوا بعضاً من طائفتهم من كل مدينة ليكونوا حضوراً لشهود تقديم القربان الذي سيجري في لنكولن، لأنهم حسبوا قالوا هناك طفل مخفي بهدف صلبه، واستجابة للدعوة قدم كثير منهم إلى لنكولن، وبعدها اجتمعوا عيّنوا على الفور واحداً يهودياً من لنكولن بمثابة قاضٍ، ليأخذ موضع بيلايطس، الذي بناء على حكمه، وبناء على موافقة الجميع، أصبح الطفل عرضة لمختلف أنواع التعذيب، فقد ضربوه حتى تدفق الدم منه، وهو ما يزال حياً تماماً، وتوجوه بالشوك، وسخروا منه، وبصقوا عليه، وعلاوة على ذلك لقد طعن من قبل كل واحد منهم بسكين من خشب، وجعلوه يشرب شراباً مرّاً، وقهروه باللوم وأرهقوه بالشتائم ودعوه مراراً باسم يسوع النبي الزائف، وفعل ذلك معذبوه الذين أحاطوا به، وهم يصرون بأسنانهم ويكشرون عن أنيابهم، وبعدها عذبوه بمختلف الطرق صلبوه، وطعنوه حتى قلبه بوساطة رمح، وبعدها قضى الطفل أنزلوه من على الصليب وجوفوه، لأي سبب لانعرف، غير أنه تأكد أنهم فعلوا ذلك بقصد ممارسة عمليات السحر والكهانة، وكانت أم الطفل تبحث عنه بحرص وحذر، واستمرت تفعل ذلك لمدة أيام بعد غياب ابنها، وبعدها جرى اخبارها من قبل بعض الجيران بأنهم رأوه مؤخراً يلعب مع بعض الأطفال اليهود من عمره، وأنه دخل إلى بيت واحد من تلك الطائفة، قامت بشق طريقها فجأة إلى ذلك البيت، فرأت جسد الطفل في بئر كان قد ألقي فيه، وجرى استدعاء نواب الملك بحذر، وتمّ العثور على جسد الطفل، وجرى سحبه واستخراجه من البئر، وعند ذلك شاهد الناس منظراً غير اعتيادي بالمرّة، وذلك في الوقت الذي كانت فيه أم الطفل تبكي بصوت مرتفع وتولول، وبذلك أثارت حزن وشفقة المواطنين الذين تدفقوا مع بعضهم إلى ذلك المكان، وكان موجوداً في ذلك المشهد

واحداً اسمه جون أوف لكسنتون Lexington، وكان رجلاً متعلماً، وحكماً، ومستقيماً، وقد خاطب الناس قائلاً: «لقد علمنا بأن اليهود لم يترددوا في محاولة اقترافهم لهذا العمل بمثابة شتيمة وسخرية برينا يسوع المسيح، الذي كان قد صلب»، ثم إنه خاطب اليهود الذين جرى اعتقالهم، والواحد الذي كان الطفل قد دخل إلى بيته عندما كان يلعب، والذي كان بذلك هدفاً لمزيد من الشكوك أكثر من الآخرين، وقال له: «أيها الرجل الشقي، ألم تعرف بأن موتاً سريعاً هو بانتظارك؟ فجميع ذهب انكلترا لن يكون كافياً لانقاذك، والحفاظ عليك، والحيلولة دون منيتك، وإنني على كل حال سوف أخبرك — مع أنك لا تستحق — كيف يمكنك الحفاظ على حياتك، والحيلولة دون تقطيع أوصالك، فهذان أنا سوف أكفلها لك، إذا ما قمت من دون خوف أو تردد، فكشفت لي، من دون أي زيف، جميع الذي وقع في هذه المناسبة»، واعتقد اليهودي الذي كان اسمه كوپين Copin، أنه وجد وسائل للنجاة فقال: «يامولاي جون إذا كانت أعمالك سوف تسدد لإفاداتي، سوف أكشف لك أشياء رائعة»، ثم جرى حثه وتشجيعه بفصاحة جون لأن يفعل ذلك، ولذلك تابع يقول: «إن الذي يقوله المسيحيون هو صحيح، ففي كل عام تقريباً يقوم اليهود بصلب طفل بمثابة إهانة لاسم المسيح، ولكن ذلك لا يجري اكتشافه في كل عام، لأنهم ينفذون هذه الإجراءات بشكل سري، وبعيداً عن الأماكن، أما بالنسبة لهذا الطفل هوغ، فقد قام يهودنا بصلبه من دون رحمة، وعندما مات، وعندما رغبوا في اخفاء جثته، قدروا بأن جسد طفل هو بلافائدة لاستخراج العرافة من خلاله (لأنهم لهذه الغاية قد جوفوه)، وهم لم يستطيعوا اخفاءه تحت الأرض كما رغبوا أن يفعلوا، لأنهم وجدوا في الصباح، عندما اعتقدوا بأنه أخفي عن الأنظار، أن الأرض قد لفظته وأخرجته، وظهر الجسد غير مدفون فوق الأرض، الواقعة التي أصابت اليهود بالرعب، وأخيراً ألقى في بئر، لكن حتى هناك لم يكن من الممكن

حجبه عن الأبصار، لأن أم الطفل، بحثت في هذه الجرائم، فاكشفت جثة الطفل وأخبرت النواب الملكيين، وبعدما سمع جون هذه الأسرار، حبس اليهودي في سجن شديد الحراسة.

وعندما وصلت أخبار هذه الواقعة إلى علم الكهنة النظاميين للكنيسة الكاثدرائية في لنكولن، طلبوا جسد الطفل، وقد أعطي إليهم، وبعدما جرى عرضه كمشهد أمام عدد كبير من الناس، جرى دفنه بتكريم في كنيسة لنكولن، وكأنه جسد شهيد ثمين، ويتوجب أن يكون معلوماً بأن اليهود قد احتفظوا بالطفل لمدة عشرة أيام، يغذونه طوال ذلك الوقت على الحليب، حتى يتمكن أثناء حياته من تحمل الكثير من أنواع العذاب.

ولدى عودة الملك من شمالي انكلترا، جرى إخباره بهذه الواقعة، فوجه اللوم إلى جون لأنه قام بتقديم الوعد إلى مثل ذلك المخلوق الشرير بالحفاظ على حياته وأطرافه، حيث لم يمتلك الحق في أن يفعل ذلك، لأن كافراً وقاتلاً مثله يستحق الموت مرات ومرات، وعندما رأى الرجل المجرم أنه لامندوحة أمامه من العقوبة، وأن العقوبة محيطة به، عند ذلك قال: «موتي بات وشيكاً، ولا يمكن لوعده جون أن ينقذني من الهلاك، وسوف أخبركم الآن بالصدق كله، فلقد وافق تقريباً جميع يهود انكلترا على ذبح هذا الطفل، الذي هم (اليهود) متهمون به، فقد جرى اختيار اليهود تقريباً من كل مدينة في انكلترا يسكن بها من طائفة اليهود، واستدعيوا ليكونوا حاضرين أثناء التضحية به، وتقديمه قرباناً في يوم عيد الحصاد»، وبعدما فرغ من التفوه بهذه الكلمات وكلمات تجديف أخرى، تم ربطه إلى ذيل حصان، وسحب إلى المشائق، حيث ترك جسده ونفسه إلى الأرواح الشريرة للهواء، أما بقية اليهود الذين كانوا شركاء في هذه الجريمة، وكان عددهم واحد وتسعين شخصاً، فقد حملوا إلى لندن في عربات، وألقي بهم في سجن محروس بدقة وشدة، ولم

ينالوا أبدأ الشفقة من أي مسيحي، كما أنهم لم يثيروا دموع الرحمة بين المرابين، المنافسين لهم.

كيف جرى جرّ ثمانية عشر يهودياً إلى المشانق وشنقوا

وجرى بعد ذلك تحقيق من قبل رجال العدالة الملكيين، وبناء عليه تمّ الاكتشاف وتقرر أن يهود انكلترا، قد وافقوا جميعاً على صلب وقتل طفل بريء، بعدما جلدوه لعدة أيام، هذا وبالنسبة لهذا العدوان المجرم، وبناء على شكوى أم الطفل المتقدم الذكر، وتقديمها التماس إلى الملك حول جريمة القتل المذكورة، قام الرب، إله الانتقام فأنزل بهم عقوبات تتوافق مع الذي يستحقونه، لأنه في يوم عيد القديس كليمنت، تم جر ثمانية عشر من أغنى يهود مدينة لنكولن وأعلاهم مكانة، إلى المشانق الحديدية التي أقيمت خصيصاً لهذه الغاية، وجرى شنقهم، ومنحوا إلى الرياح، وأبقي أكثر من ثمانين آخرين أيضاً في سجن مضيق عليهم، وتحت حراسة شديدة في برج لندن، بانتظار مصير مشابه ومماثل.

وصول المعلم روستاند إلى إنكلترا بمهمة من البابا

وفي حوالي هذا الوقت نفسه، أرسل البابا الاسكندر معاون شماسه، المحامي المعلم روستاند Rustand، وكان غسكوني المولد، أرسله إلى انكلترا، معطياً إليه السلطات، وأرسل أيضاً رئيس أساقفة كانتربري، وأسقف هيرفورد، لجباية العشور من انكلترا، وسكوتلندا، وإيرلندا، لصالحه (البابا) ولاستخداماته، أو لصالح الملك واستخداماته من دون تمييز، وقضى بأوامره «بعدم التقيّد بأية رسالة أو غفران أو إعفاء تقدم منه وإرساله، في أي شكل من الأشكال جرت صياغته وتوجيهه، ومهما كان السبب الذي من أجله تمّ الحصول عليه، أو أي عائق يمكن أن يفهم حول ذلك»، ومنح البابا إلى الفئة نفسها سلطة تحليل ملك انكلترا من أي تعهد قطعه على نفسه من أجل الحملة الصليبية والذهاب إلى

القدس، من أجل أن يتمكن من القيام بحملة إلى أبوليا، لشن الحرب ضد مانفرد، ابن الامبراطور الراحل فردريك، الذي كان عدواً قوياً لكنيسة روما، وفي الحقيقة كان البابا قد تسلم وعداً مقروناً يمين من ملك انكلترا، بأنه سوف يفعل ذلك، وجاء هذا من خلال أسقف بولون، الذي كان قد أرسل من قبل قداسته خصيصاً لهذه الغاية، وأيضاً لتولية ادموند مملكة صقلية، حسبما تقدم الذكر أعلاه.

البارلمان الذي عقد إثر مهمة روستاند

في عيد القديس ادوارد في هذا العام، اجتمع تقريباً جميع نبلاء انكلترا في ويستمنستر، وظهر الملك بينهم، وخاطب أخاه أولاً، ملتمساً بحرارة تقديم مساعدة مالية إليه، وكان البابا قد أرسل أيضاً رسائل التماس إلى الايرل المذكور رجاء فيها تقديم المساعدة إلى أخيه بقرض مقداره أربعين ألف [مارك]، وقد أبقي حقيقة أنه قرض سرية، من أجل أنه بقيام المذكور بتقديم أعطيته، سوف يضرب مثلاً إلى الآخرين، لكن الايرل لم يصنع لا إلى التماسات الملك أو البابا، وبشكل خاص بسبب أن الملك كان مسحوراً بالإثارات الخفية من مستشاريه الذين هم من عبر الألب، وأنه تولى القيام بالحملة إلى أبوليا من دون طلب نصيحته، أو موافقته (الايرل) أو موافقة ونصيحة البارونات، ولدى عرض طلب المساعدة أمام الآخرين، أجابوا، أنهم لم يجمعوا كلهم في ذلك الوقت بما يتماشى مع بنود الصك العظيم، وأنهم بذلك من دون نظرائهم، الذين كانوا غائبين، لا يمكنهم اعطاء جواب، أو منح مساعدة، ولذلك لجأ الملك إلى حججه الماكرة المعتادة، ليرغم النبلاء على الموافقة على رغباته، وأخر الأعمال التي من أجلها انعقد البارلمان لعدة أيام، وبذلك تأخرت القضايا التي كانت قيد المناقشة بحجج مختلفة زائفة لمدة شهر، وأخيراً بعدما أفرغوا محافظ نقودهم في مدينة لندن، حرضهم، —وبالحري لم يستدعهم— للاجتماع وعقد مؤتمر في مكان آخر، هذا وقام الايرل

رتشارد، وكان رجلاً حذراً وحكيماً، فوجه الملامة بحدّة — وهو محق بذلك — إلى أسقف هيرفورد وصاحبه روبرت ويلران بفتنهم الملك وتسبب الخبل إليه على هذه الصورة، مما سيؤدي إلى الدمار الكامل للمملكة، وبذلك عاد جميع النبلاء إلى مواطنهم وهم في حالة ضيق وارباك، ومن دون أن يفعلوا شيئاً، وينبغي أيضاً أن يكون معلوماً أنه عندما عاد الملك من غسكوني، كان متورطاً بديون وصلت إلى مبلغ ثلاثمائة ألف وخمسين ألف من الماركات، وهو على كل حال، على الرغم من هذا المبلغ لم يتوقف عن الاصغاء إلى النصائح السيئة، وعن تبديد الأموال يومياً بين الأجانب، وهي الأموال التي كانت لديه، وكذلك كل الذي اعتقد أنه يمكنه استخراجها من انكلترا، التي عدها بئراً لا ينضب، فهو قد أعطى إلى الأسقف المنتخب لطليطلة دخلاً ومبلغاً كبيراً من المال، وكذلك فعل بالنسبة لأسقف بولون، وأيضاً إلى روستاند، وذلك إلى جانب بعض الهدايا الثمينة جداً، وأعطاه أيضاً وقفاً غنياً في كنيسة يورك.

كيف أمر المعلم روستاند بالدعوة إلى حرب صليبية ضد مانفرد

وفي هذا الوقت أيضاً، أصدر المعلم روستاند أوامراً إلى جميع المؤيدين الغيورين للكنيسة المقدسة، للتبشير بصورة علنية من أجل حملة صليبية، أولاً في لندن، وبعد ذلك في أماكن أخرى، وتوجيه ذلك ضد مانفرد بن فردريك، الامبراطور الأخير الراحل للامبراطورية الرومانية، بحكم كونه عدو الرب، وعدو كنيسة روما، وعدو ملك انكلترا، وحليفاً للمسلمين، ومحرضاً لهم على اقتراف الشرور، وحامياً، وأيضاً لأنه محتل غير شرعي لمملكة واحد آخر، أما الذين سوف يلتحقون بتلك الحملة، فقد وعدوا بالحصول على غفران كامل لذنوبهم، وكأنهم قد ذهبوا للحج إلى الأرض المقدسة، وعندما سمع المسيحيون الحقيقيون بهذا الإعلان، اعترتهم الدهشة لأنهم سلف ووعدوا بالشيء نفسه من أجل

سفك دماء المسلمين، والآن وعدوا بالشيء ذاته من أجل سفك دماء
المسيحيين، وقد أثارت كلمات المبشرين الضحك والسخرية، وفي أحد
الأماكن عندما كان المعلم روستاند يقوم بالوعظ، أضاف في نهاية قداسه
يقول: «كونوا أبناء الطاعة، واعهدوا بأنفسكم إلى كذا وكذا من التجار،
من أجل كذا من مبالغ المال»، وحدث هذا بين رهبان كانوا مجتمعين في
هيئتهم الرهبانية حيث لم يكونوا قد سمعوا من قبل بمثل هذا الإجراء،
ولا انزعجوا بمثله.

حول الهدنة التي عملت في الأرض المقدسة

ووجد سكان الأرض المقدسة أن البابا مهتم قليلاً، بتحرير الأرض
المقدسة، التي كرسها الرب نفسه بحضوره، وأخيراً بدمه، ولذلك
عقدوا هدنة مع سلطان مصر، الذي كان في حالة حرب مع سلطان
دمشق، وأطالوا تلك الهدنة فجعلوها لمدة عشر سنوات.

كيف تعرض رئيس الأساقفة المنتخب

ليورك للمضايقة من قبل الملك

بات الآن المعلم سيول عميد يورك، الذي جرى مؤخراً انتخابه
بشكل صحيح رئيساً لأساقفة تلك الكنيسة، حزيناً إلى أبعد الحدود،
وبشكل لا يقبل المواساة، وذلك لأنه رأى مقتنيات تلك الكنيسة تنهب،
وتدمر، ويجرى تبديدها، وعلاوة على ذلك قام الملك بسبب أن العميد
المذكور لم يلد من خلال زواج شرعي، بالسعي، اعتماداً على بعض
الحجج التافهة، إلى إعاقة ترشيحه وانتخابه إلى رئاسة الأساقفة.

انسحاب جون دي غري من البلاط

وحدث في هذا الوقت أيضاً، أن قام جون دي غري، وكان فارساً
صاحب أخلاق حميدة، وعظيم الشجاعة، ومستشاراً أثيراً لدى الملك،

قام بالانسحاب من البلاط، ولعل ذلك كان بسبب أن مشاعره الداخلية وضميره قد انزعج تجاه مهام البلاط، والقلق الذي كان خاضعاً إليه، وأيضاً بسبب تقدمه بالسن، الذي جعل شعر رأسه أبيض اللون، ويبدو - كما هو معتقد - قد أخذ حذره ضد حوادث المستقبل، لأنه كان خائفاً من أن مستشاري الملك لا بد من أن يكونوا في يوم من الأيام عرضة للوم الشديد بسبب أخطائهم المتوالية.

رسالة البابا التي حصل عليها أسقف هيرفورد

بدأ الآن أسقف هيرفورد، بالتعاون مع حليفه روستاند، بالتنفيس عن غضبه بإنزاله على أساقفة انكلترا، خاصة على الطوائف الرهبانية، وكان مدعوماً بقوة، واقعياً بالسلطات الرسولية، وبالرسالة التالية: «من الأسكندر، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى أسقف هيرفورد، إلخ: بنا أننا نعلم بأنك بحاجة كبيرة لتحمل نفقات كبيرة من أجل فائدة ومنفعة رئيس رهبان، ورهبان دير القديس ودير القديس الأمر الذي من أجله جئت إلى الكرسي الرسولي، وفي سبيل أن لا تكون شؤونهم عرضة للاهمال، بسبب الحاجة إلى الوسائل التي تكفل الانفاق عليهم، نقوم نحن بموجب فضيلة هذه العروض، بمنحك يا أخانا، سلطة كاملة، بإبرام عقود دين من أجل هذه الغاية، تصل إلى مبلغ خمسمائة، أو ستمائة، أو سبعمائة، أو أكثر، من الماركات الاستيرلينية، باسم رئيس الرهبان المتقدم ذكره، والرهبان والدير، وأن ترهنهم: رئيس الرهبان، والرهبان، وخلفائهم، والمقتنيات العائدة للدير المذكور، للمقرضين، وبالتخلي عن مبدأ الإعلان لمدة يومين الذي تقرر في المجمع العام، وعن منفعة إعادة التأسيس كاملة، وعن الرسائل الرسولية، وعن الغفرانات التي تم الحصول عليها، أو سوف يتم، وكذلك عن استدعاء القضاة، وعن جميع الرسائل الرسولية مهما كانت محتوياتها ومقاصدها، التي قد يحدث ويتم الحصول عليها منذ الآن فصاعداً حول هذه القضية باسم

المقرضين، وهكذا سوف يكونوا هم وخلفائهم ملزمين بدفع هذا المال إلى المقرضين، وإذا لم يلتزموا بدفع المبلغ نفسه، في المدة المحددة من قبلك، يتوجب عليهم تعويض جميع الخسائر والنفقات، ودفع جميع الفوائد، وفيما يتعلق بذلك تقضي ارادتنا بأن عليك تصديق يمينهم، أو يمين أي واحد منهم، من الذين أقرضوا المال، من دون طلب أي برهان، وأيضاً بالنسبة للمقرضين المذكورين بناء على حجة أي مرسوم سواء أكان لاهوتياً أو مدنياً، أو أي امتياز، أو اعفاء، ينبغي التعبير عنه تعبيراً كاملاً في رسائلنا، وفي سبيل أن لا يكونوا هم ولا خلفائهم بعد الآن قادرين على الدفاع عن أنفسهم بأية طريقة من الطرق، لن تكون هناك حاجة لتقديم برهان بأن ذلك المال قد وضع قيد استخدام رئيس الرهبان المذكور، والرهبان، والدير. صدر، إلخ»، وفي الوقت نفسه طلب البابا منحه قرضاً من الايرل رتشارد، يصل إلى مبلغ خمسة آلاف مارك، لدفع قضية ادموند ابن أخي الايرل ورفع شأنها، وعلى هذا الطلب أجاب الايرل قائلاً: «أنا لن أقرض أي مال إلى رئيس، أنا لا يمكنني أن أرغمه على الدفع لي»، وصدرت هذه الإجراءات المقيمة وغيرها، والتي هي مهينة لنا، والمؤسف أن نقول إنها نبعت من النبع الكبريتي السام للكنيسة الرومانية.

حول المجمع الذي عقد في لندن من قبل أساقفة إنكلترا

وقام في هذه الآونة روستاند، بموجب تحويل البابا وسلطاته، بتوجيه الدعوة إلى جميع أساقفة إنكلترا للاجتماع في لندن، خلال أسبوعي عيد القديس ميكائيل، من أجل سماع رسالة من قداسته، ول مناقشة بعض القضايا الصعبة المتعلقة بالملك، وبالبابا أيضاً، وأن يقوموا بحكم كونهم أبناء الطاعة، باعطاء جواب عقلائي ومفيد على المطالب التي عملت، وأيضاً على المطالب التي سوف تعمل، وعندما اجتمعوا في الزمان والمكان المحددين، جرى أولاً قراءة وشرح الذي تعلق بصلاحيات

روستاند وسلطاته، ثم قام ذلك الشخص بإلقاء خطاب فيهم، حيث طلب مبالغ كبيرة من المال منهم جميعاً، أن نقوم بكتابة أذاها كلها وظلمها، سوف نجرح بعمق قلب الإنسان الأكثر صبراً، ولو أن هذا المال قد جرت جبايته من كنيسة انكلترا، لتحولت المملكة في الحقيقة كلها، ولنزلت إلى أدنى درجات العبودية، ولتسبب ذلك بفقر لا يمكن الخلاص منه، فلقد كان عبثاً لا يمكن حمله هو الذي فرض على الآخرين حمله، ومع ذلك كان على غير استعداد لتحريك اصبع واحد لمساعدتهم، ومن دون القيام بذكر جميع القضايا، لقد فرض على دير القديس ألبان لوحده، وجوب دفع ستمائة مارك إلى البابا، بالاضافة إلى فائدة وإلى بنود قاسية وشروط، تولى فرضها هؤلاء التجار المرابون، الذين إليهم قد جرى منح سلطات ظلم الكنائس كما يرغبون، مع إمكانية ارغام الدير المذكور، وعلاوة على ذلك سعى روستاند، وأسقف هيرفورد والمتعاونين معهما، إلى اختصار المدة الممنوحة للدفع تحت طائلة عقوبة التعليق من شراكة المؤمنين والحرمان الكنسي، وكان الموعد الذي جرى تحديده، من غير الممكن لأي من المفروض عليهم الالتزام به، وعمل هذا في سبيل إرغام هؤلاء الأساقفة على استدانة المال من أولئك التجار، حتى يكونوا خاضعين لشروط فوائدهم الربوية، وهي شروط بدت لكل واحد منهم، لابل لهم جميعاً، ليست فقط صعبة، لابل مستحيلة، وبعد مداوولات دقيقة استمرت لعدة أيام، تحدث فولك أسقف لندن بقلب مليء بالأسى، وخاطب المجتمعين قائلاً: «قبل أن أعطي موافقتي على أن تكون الكنيسة خاضعة لمثل هذه الحالة من الأذى والعبودية، سوف أقطع رأسي، وأحرر نفسي من هذا الظلم الذي لا يطاق»، ولدى سماع هذا الكلام الشجاع والحازم صرخ وولتر أسقف ووركستر بصوت مرتفع قائلاً: «أما بالنسبة لي، فقبل أن تخضع الكنيسة المقدسة لهذا الاستخراج المدمر، سوف أحكم على نفسي بالشنق»، وتشجع الأساقفة بهذه الإعلانات السليمة، ووعد الجميع بثبات بأن يسيروا خطوة خطوة، على

طريق القديس توماس الشهيد، الذي سمح بضرب رأسه في سبيل حرية الكنيسة، لكنهم كانوا مطوقين من كل جانب، وعرضة للضغوط، فالملك كان ضدهم، وكان البابا بشره إلى المال عدوهم، ولم يشعر النبلاء بالشفقة تجاه أمهم الكنيسة، وقام روستاند وكان متعلماً وقادراً على إلحاق الأذى بهم بإثارة أعدائهم ودفعهم نحو الالتزام بهذه الإجراءات، أما رئيس أساقفة كانتربري، الذي كان من المفترض الداعم للكنيسة المترنحة، وريان مركب بطرس، الذي كان تحت رحمة الأمواج العاتية، فكان متورطاً بأعمال دنيوية في مناطق نائية فيما وراء البحر، وأدار رعيته بعناية أقل مما ينبغي، وكان رئيس أساقفة يورك رجلاً عميق التفكير، وحكيماً بآرائه، لكن كان قد أذعن لمنيته، أما الأسقف المنتخب لوينكستر فكان موضعاً للريبة، وبالتالي جرى تجنبه، لأنه كان بواتياً، وأخاً للملك، الذي يتولى قمعهم، وأيضاً لأنه لم يكن أسقفاً، وفي الوقت نفسه لم يكن أسقف هيرفورد موضع ريبة فقط، بل كان يعدّ بمثابة عدو معلن، وبناء عليه قاموا بالتوجه بالدعاء إلى الروح القدس لمنحهم المواساة والسلوى، وقرروا الترافع إلى البابا — الذي يتوجب أن يكون كهف اللاجئين والحامي لكل واحد مظلوم — حول قضية الاستخراج التي لا تحتمل وكانت غير اعتيادية، وأعدوا أنفسهم للوقوف ضد استبداد، واجحاف، وتهديدات المعلم روستاند، وبناء عليه عمل إعلان على الفور، قام بتعميمه المنادي في لندن، وذلك بموجب سلطة أسقف تلك المدينة، أنه يتوجب أن لا يقوم أي إنسان بتنفيذ إجراءات المعلم روستاند، أو إطاعة ماورد في رسائله وذلك لمدة عدة أيام، وعندما وصل هذا الإجراء إلى علم روستاند، عمل شكاوي كبيرة إلى الملك، وذكر له بأن أسقف لندن قد أثار الأساقفة الآخرين وشجعهم على الوقوف ضد إرادة البابا، وضده هو أي الملك.

وغضب الملك غضباً شديداً، فكس الملامات فوق أسقف لندن،

وأعلن أنه لاهو ولاأي واحد من أسرته قد أحب الملك أبدا مع أنه ملكهم، وأنه سوف يسعى، بقدر مايمتلك من قوة، لجعل البابا يتولى ردعه ومعاقبته، وعلى هذا رد الأسقف قاتلا: «ليقم البابا والملك، اللذان أقوى مني، بانتزاع أسقفيتي، الأمر الذي لايمكنهما فعله بعدل، ودعوها يأخذان هذه القلنسوة، فالخوذة سوف تبقى»، وحدث في هذا الوقت نفسه، أن جرى التهامس من أذن إلى أخرى لكثيرين، بتقرير غير معقول (سوف يكون تناقضا وشرأ تصديقه)، وأفاد هذا التقرير وتحدث عن خداع معين، وأعمال تزييف مهينة جرت بسوء في استخدام الختم العظيم للبابا، وأنه وضع على جداول بيضاء، يمكن لكل من يرغب أن يكتب عليهم فيما بعد، هذا وقال الناس أحدهم للآخر: «لاسمح المسيح، من غير المعقول أن يقوم البابا، الذي هو بلاشك رجل هو الأكثر قداسة، بالموافقة على هذا الاثم العظيم، لأن من الواضح والجلي أنه جرت ترقيته إلى منصبه الرفيع بوساطة نفوذ لاهوتي، وعلاوة على ذلك لقد فعل مالا نذكر أي بابا أقدم على فعله، لأنه طالب بأن تقدم صلوات الكنيسة إليه، ثم كيف يمكن التصديق بعد هذا أنه يمكن أن يفعل أشياء أسوأ من أعمال سلفه؟ لاسمح الرب بذلك»، وهكذا سعى الناس وراء الحصول على مايواسي جهلهم واضطراباتهم، فبوساطة عبادة هذا النقد المنطقي عزوا هذه الأعمال الحمقاء ونسبوها إلى مزيفين».

كيف سعى أسقف هيرفورد والمتعاونين

معه إلى إثارة شقاق ديني بين الأساقفة

وفي الوقت نفسه سعى أسقف هيرفورد، وروستاند مع الآخرين من حلفائهم من ماوراء الألب، إلى إثارة شقاق ديني وتمزق بين أساقفة انكلترا، مستخدمين جميع الوسائل التي كانت تحت تصرفهم، ذلك أنهم خافوا من أنهم إذا ما وقفوا إلى جانب بعضهم بعضا باخلاص، قد يتمكنوا من توجيه البابا، وجعله يسير في طريق الصدق، وأنهم بذلك

سوف يعاقون في مشاريع نهمهم لجمع المال، وبذلك تصرفوا وعملوا وفقاً لقول الانجيل: «كل مملكة منقسمة على نفسها سوف تكون مهجورة».

عودة إدوارد من غسكوني

وفي تلك الآونة نفسها، أي عشية عيد القديس أندرو، عاد إدوارد من غسكوني، واستقبل في اليوم نفسه من قبل عدد كبير جداً من نبلاء انكلترا، ومن قبل سكان لندن، الذين تولوا تزيين مدينتهم بشكل ثري، من أجل المناسبة، وجرت مرافقته من قبلهم إلى قصر ويستمنستر، مع أبهة كبيرة، وكثير من الهتافات.

حول ترتيبات السلام فيما بين أسقف درم وجون بالأويل

وعمل في هذا العام أيضاً، سلام فيما بين وولتر أسقف درم، والفارس جون بالأويل Baliol، حول عدة قضايا خلافية قامت بينهما، ومثل هذا أعيد تأسيس السلام فيما بين رئيس رهبان دير التايناوث، وجون المذكور، وكان جون هذا نفسه شراً، وجشعاً، وعندياً، أبعد مما كان يليق به، ومما هو نافع لروحه، وقد قام لمدة طويلة بمضايقة كنيسة التايناوث وإلحاق كثير من الأذى بها، ومثل ذلك بكنيسة درم، كما أنه قام بحجج مختلفة مشكوك بها بازعاج كنائس أخرى وإلحاق الأذى بهن، وفعل الشيء نفسه بفرسان آخرين ولاهوتيين، وبجيرانه، وبذلك انطبق عليه القول:

كل قوة

أو

كل جبروت

يغار من شريكه

وبطريقة مماثلة وبسلوك مشابه، قام هذا الرجل الشره، الذي لم تكن ممتلكاته كافية لاقتناعه واشباعه بالاستيلاء على ممتلكات الآخرين، وعلم الملك بأن جون المذكور يمتلك كميات وافرة من المال، فاتخذ إجراءات قاسية ضده، وكما ذكرنا من قبل، لقد أمل في انقاص أكوام ماله عن طريق رغبته في إعادة تأسيس السلام فيما بينهم، وكان روبرت دي روس متورطاً أيضاً بإجراءات مماثلة، ولقد لحقه لذلك كثيراً من الأذى، وأصابه الفقر.

إصلاح جامعة باريس

وفي هذه الآونة أيضاً، جرى إعادة تأسيس جامعة الكهنة في باريس وإصلاحها، وكانت عرضة للخطر، بسبب تعليق المحاضرين فيها، وبسبب الخلافات، وتفرق كثير من الباحثين فيها، نتيجة الاضطراب الذي تسبب به الرهبان الدومينيكان، الذين رغبوا بتغيير العرف القديم المؤسس للجامعة، غير أن وضع هؤلاء الرهبان، الذين كانوا مؤيدين مدعومين بالصدقات وأعمال الإحسان، قد تغير نحو الأسوأ وفي الوقت نفسه إنه بسبب إهانات وملاحظات الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان، توفر كثير من الفقر وازداد، وشعر به من قبل رهبان دير السسترشيان الذين كانوا يدرسون في باريس، وهو الدير الذي سلف تأسيسه من قبل رئيس رهبان كليرفو، الذي كان انكليزياً من حيث المولد، واسمه ليكسنغتون Lexington، وكان سلوكهم المشرف والمستقيم قد أعطى السرور للرب، وإلى الأساقفة، وإلى الناس، فهم لم يتجولوا مثل عصابات الرعاع في المدن والبلدات، كما لم يكن المحيط حاجزهم وحدهم، بل إنهم مكثوا هادئين محبوسين داخل جدران بيتهم، يطيعون رئيسهم، وفقاً لأحكام القديس بندكت، التي لاشك ستنال ثناء كل واحد يختار أن يدرسها لأن القديس ميّز في مطلعها بين مختلف أنواع الرهبان، ووجه النقد إلى Sarabaitas و Gyrvagos،

وقام هؤلاء الرهبان أنفسهم — على كل حال — بالالتزام بمتابعة ممارسة أعمال التبشير، وبذلك أضعفوا سلطة المبشرين العاديين، ونالوا ثناء كثيرين وقبولهم، وذلك في الوقت الذي جعل كثير من الآخرين أنفسهم أهدافاً للنقد، لأن كثيراً منهم أخذوا بالوقاحة في جنحهم، لأنهم لم يكونوا مرغمين على الاعتراف بذنوبهم إلى كاهنهم، وهنا كان الأذى: حيث أن بعضهم رفض الاعتراف لكاهنهم الرسمي، لأنه ربما كان سكيراً، أو من أجل أسباب أخرى سرية، ولذلك لجأوا إلى القيام باعترافاتهم تحت مظلة أجنحة المواساة والتعزية، وانتشر هذا الرأي من عندهم إلى الدومينيكان والفرنسيسكان، فأى علاج وفائدة نتجت عن ذلك؟.

موت الكاردينال جايل الإسباني

ومات في هذه الآونة الكاردينال جايل الإسباني، وكان قد وصل إلى سن المائة، وبرهن هذا الرجل المدهش، الذي لم يكن له نظير، عن نفسه في بلاط روما أنه عمود الصدق والعدل، ورفض قبول الهدايا التي تحرف بالعادة الناس وتبعدهم عن الالتزام والعدل، والاستقامة.

حول غضب الإيرل مارشال ضد الملك

وأثناء المؤتمر الذي تقدم ذكره أعلاه، والذي مدّد من دون فائدة لمدة عدة أيام، تسبب روستاند، في سبيل أن يجعل الملك خاضعاً أكثر إلى إرادته، بنشر تقارير لا أساس لها، أفادت بأن جيش مانفرد قد تفرق، وأن مانفرد نفسه قد دس إليه السم، وأنه بات على عتبات الموت، وأنه نتيجة لذلك قد تواضع، ولأنه عرف أوضاعه التعيسة، بادر مسرعاً وبإلحاح إلى التماس السلام من البابا، وبناء عليه امتلأ بلاط روما كله ببهجة عظيمة وبسرور عارم، وبات أفراد هذا البلاط واثقين بأنهم سوف يحصلون على ما رغبوا به بالنسبة لقضية أبوليا، وبسبب هذه

الأخبار فرح الملك فرحاً كثيراً، وامتلاً قلبه بسرور لا أساس له، إلى حد أنه أطلق على ابنه اسم ملك، وبادر مسرعاً إلى أقرب مذبح، فأقسم عنده بأنه سوف يذهب إلى أبوليا ليتولى الاستحواذ عليها لصالح ابنه ادموند.

وفي هذا البارلمان ألقى الايرل مارشال خطبة لتسوينج روبرت دي روس والدفاع عنه (وهو الذي كان متهماً بجريمة جادة، وهي جريمة كانت تهدد حياته بالخطر) وجاء ذلك عندما كدس الملك أقوال لوم وتوبيخ مهينة على روبرت وعلى الايرل، وأعلن أمام الناس بأن الايرل هو خائن، ولدى سماع هذا التوبيخ غضب الايرل غضباً شديداً، وتوجه بنظرة حادة نحو الملك وأجابه قائلاً: «أنت تكذب، أنا لم أكن، ولن أكون خائناً»، وأضاف قائلاً: «ما الذي يمكنك فعله بالنسبة لي؟ كيف يمكنك إلحاق الأذى بي إذا حكمت بالعدل؟» وعلى هذا رد عليه الملك قائلاً: «أنا يمكنني الاستيلاء على حبوبك، وجمعها في البيادر ودرسها وبيعها، وبذلك سوف أخضعك وأذلك»، وعند ذلك قال له الايرل: «إنني سوف أقطع رؤوس الذين سيدرسون حبوبي وأرسلهم إليك»، وعند هذا بات مخشياً بأن المسائل سوف تتطور نحو الأسوأ بين الايرل والملك، لذلك تدخل أصدقاء الطرفين بينهما، وفصلوهما، ومع أن خطاباتها التهديدية قد قوطعت، هما لم يسكنا، وكان الغضب والكراهية هما نتيجة هذا الشجار، وفي هذا المؤتمر الذي كان بلائثار، والذي لم يعمل به شيء من أجل المسألة الرئيسية المعروضة، قام البارونات في اليوم الأخير لجلساته فأجابوا: «بأنهم لن يستمروا كما فعلوا حتى الآن في افقار أنفسهم من أجل منفعة الآخرين، ورفضوا مناقشة أية أمور صعبة أو سرية عائدة للمملكة، لأنهم قالوا بأنهم رأوا بأن كل شيء كان مليئاً بالريبة، وبالغدر الثعلبي، وكانت مدينة لندن مليئة حتى آخر الحدود، ليس فقط بالبواتين،

والرومان والبروفانسيين، بل والاسبان، الذين ألحقوا أذى كبيراً بالانكليز، وخاصة بسكان مدينة لندن، حيث كانوا يقتربون الزنا، والفسوق، ويهينون الناس، ويجرحونهم، لابل حتى كانوا يقتلونهم، في حين لم يقم الملك بردعهم، لابل بالحري قام بالدفاع عنهم، ولذلك فإن المؤتمر — إذا جاز أن يطلق عليه اسم مؤتمر — ارفض بحزن وأسى.

وفي يوم عيد القديسة لوسيا، غادر لوكاس Lucas رئيس أساقفة دبلن طريق الجسد، وكان هذا الرجل قد جرت ترقيته إلى رئاسة الأساقفة بوسائل الإرغام من قبل هيوبرت دي بورغ، الذي كان مسؤولاً عن العدالة من قبل، والذي كان قسيسه هو لوكاس هذا، ولكن الرب أراد أن يعذبه، وحشه على التوبة، فتفقده بأن أنزل به العمى، وظل يعاني من هذه المصيبة بتعاسة لمدة سنوات عدة.

كيف التحق بمانفرد كثير من الأعوان لأنه كان متصراً

في الوقت الذي كانت فيه هذه الأشياء تعبر في انكلترا، دار دولاب الحظ في مناطق ماوراء الألب، وأحدث تغييرات هائلة، لأن الذين كانوا قبل وقت قصير مضى مسرورين، جرى قذفهم في متاهة الفوضى والاضطراب، لأنه بعد تفرق جيوش البابا، كان الأبليون قد علموا بأن البابا كان قد أعطى بلادهم من دون موافقتهم إلى رجل انكليزي غير معروف، وأجنبي بالنسبة إليهم، ولذلك غضبوا غضباً عظيماً، وظلوا يشعرون بمزيد من الانزعاج لأن البابا كان قد حول الصليبيين عن غرضهم الأساسي، ورغب بإرسالهم ضدهم (أي الأبولين)، وكأنه مرسلهم ضد المسلمين، وذلك بهدف إبادتهم، ولذلك خضعوا لمانفرد، ووقفوا إلى جانبه، وفعل ذلك حتى الذين كانوا قد وقفوا إلى جانب البابا، وقد شكلوا الآن جيشاً كبيراً ضده.

الاجتماع الثاني للأساقفة أمام روستاند

وفي حوالي الوقت نفسه، اجتمعت كتلة أساقفة انكلترا كلها ثانية بحضور المعلم روستاند في لندن، وبعد مناقشات متنوعة يوماً بعد يوم، تقرر بالنظر لغياب رئيس أساقفة كانتربري الذي كان في القارة، ولشغور كنيسة يورك، التي كانت هي الثانية في المرتبة في المملكة، ولبغياب بعض الأساقفة، تأجيل اعطاء جواب حاسم للمطالب التي عملها البابا من خلال المعلم روستاند، حتى عيد القديسة هيلاري، فوقيتها يمكن أن يجتمعوا كلهم لإعطاء جواب حاسم ومحدد، وهكذا فإنه بعد كثير من الخسائر، والمتاعب، والنفقات، افترقوا جميعاً وعادوا إلى مواطنهم، دون أن يعرفوا المتوجب عليهم فعله، لأنه إذا جرى بصورة عادلة أو غير عادلة تعليق أي واحد منهم، أو حرمانه كنسياً من قبل المعلم روستاند، كان هناك الملك مثل أسد كامن رابض، يتطلع إلى من يمكنه افتراسه، فهو وقتها سيقوم بمصادرة كل ممتلكات جميع الفئة التي صدر قرار بحقها والاستيلاء عليها، وسوف يفعل ذلك بعد مهلة مقدارها أربعين يوماً، وكان البابا والملك مثل الراعي والذئب، وكانا متحالفين مع بعضهما في سبيل تدمير الشياه، من ذلك الوقت فصاعداً، ثم إنهم افترقوا وكانوا أشبه برجال عميان يلتمسون طريقهم بوساطة الجدار، وكل واحد منهم همّة سلامته، وذلك حسب عادة الانكليز، ولو أنهم (الأساقفة) قاموا باتفاق جماعي فأرسلوا إلى البلاط الروماني ممثلاً عنهم، أو نائباً لهم، يتحدث من أجلهم جميعاً، لكانوا تمتعوا بسلام سعيد.

مغادرة كل من الأسقف المنتخب

لطليطة وأسقف بولون لانكلترا

ومع أن الأسقف المنتخب لطليطة، وأسقف بولون، كانا متأكدين من أن قوة البابا قد ضعفت وتحطمت، وأن الملك سوف يسقط في حالة من

الفوضى الكاملة، والدمار بسبب خسائره، مع هذا كله لم يكشف له حقائق القضية، بل ما أن أصبح غنيين من خلال هداياه الثمينة، حتى قاما بالمغادرة واحداً بعد الآخر، وعادا إلى وطنيهما بصورة سرية، ومثل ذلك فعل جميع الذين أثاروه وأوهموه بوساطة وعود زائفة، وذلك باستثناء المعلم روستاند، الذي كان محتفظاً به من قبل الملك من خلال سداخته، ولكن مع ذلك عندما أخيراً تمت البرهنة للملك على أن خداع البابا وعاره كانا أمراً حقيقياً، لم يشعر بالأسى إلى أبعد الحدود ولم يحزن، لأنه لم يعرف كيف يحزن، ولم يعرف كيف يخجل، ولو عرف ذلك لشعر بعمق المرارة في قلبه، ذلك أنه لو امتلك أي قلب، لقام بعدما أثير إلى حد عظيم بالأضرار والخسائر التي لحقت به، وأصر على الانتقام المناسب، لكن لفسولته وأوهامه، استمر بعد جميع الخسائر التي عانى منها والخداع، ملتزماً بالاستماع إلى نصائح الأجانب، وأعداء المملكة، ولم يتنازل بالاستماع إلى النصائح المقنعة والصحيحة لرعاياه الطبيعيين، ومن الممكن معرفة هذه الحقيقة من الكلام المتناقض والمهين التي ألقاه روستاند عند نهاية المؤتمر المتقدم الذكر، وكان ذلك بحضور الجميع، وجاء رداً على واحد من الذين اشتكوا من الغرامات غير العادلة للبابا، حيث قال: «لولا احترامي للأساقفة الموجودين هنا، لما بقيتم من دون عقوبة، طالما يوجد شعر على رؤوسكم»، ويستدل من هذا الكلام الطائش والوقح، ويمكن الفهم بأنه أظهر مظاهر الوقاحة لثقتة بحماية الملك، وجواب مماثل جرى تقديمه من قبله إلى المعلم ليونارد Leonard الذي كان المتحدث باسم الأساقفة عندما سأله: «هل رقيت من قبل الآخرين لتتكلم كما فعلت؟ أم أنك تتكلم على مسؤوليتك الخاصة؟»، ثم أمر بتدوين خطابه كتابة، وكأنه أراد بذلك أن يذكره إلى الخبر الأعظم، وتجاه هذا أصبح ليونارد خائفاً كثيراً، مع أنه لم يتكلم شيئاً يتناقض مع المنطق والحق، وخشي من أن يفقد كل الذي امتلكه، خاصة وأن ما من واحد من الآخرين سوف يتكلم لصالحه، وقد قيل بأن المبلغ الذي كان الملك

مدان به إلى البابا قد وصل إلى مائتي ألف باوند، وذلك بالإضافة إلى خمسين ألف باوند استيرليني كان أسقف هيرفورد قد ألزم أساقفة انكلترا بدفعها، مع أن ذلك كان من دون علمهم.

الخصام بين أسقف باث ورئيس رهبان دير غلاستونبري

ونشب في هذا الوقت نفسه، خلاف جاد مابين أسقف باث، ورئيس رهبان غلاستونبري Glastonbury، ولذلك انطلق الأسقف ليقوم بعبور الألب في سبيل حسم المسألة في روما، ووقف الملك إلى جانب رئيس الرهبان، دون أن يقيم تقديراً للاضطرابات المضاعفة للأسقف والنفقات الكثيرة التي سوف يتحملها، ذلك أنه مسائرة لبعض الالتباسات توجب عليه أن يرتحل إلى اسبانيا ثم يعود منها، لابل إلى المناطق النائية من تلك المملكة.

قائمة بأسماء الذين ماتوا في هذه الآونة

ومات في هذا العام، أو خلال مدة وجيزة منه وولتردي غري، رئيس أساقفة يورك، وتوماس ويلشمان Welchman، أسقف القديس داود، وروبرت أسقف لنكولن، والمعلم وليم وولف، رئيس شمامسة لنكولن، ووليم ملك ألمانيا وكونت هولاندا، وعدد كبير آخر من المراتب العالية والمنخفضة، وهم الذين هلكوا بالسيف أو غرقاً على تخوم فلاندرز وبرابانت، وكذلك مات المعلم روبرت أوف تورتونا Tortona، وكان رئيس شمامسة في بلاط روما، وهو الذي كان مشغولاً هناك بالمحاضرة باللاهوت، وكذلك مات في البلاط نفسه جايل الاسباني، ووليم حفيد البابا انوسنت، وكان الأخيران كردنالين، ووارن دي مونتشينسيل Montchensil، وآرنولد دي بوي، وكان واحداً من أعلى المسؤولين عن الغابات في انكلترا، وكان متميزاً لأخلاقه وشجاعته في الحرب، وجون الروماني، وكان كاهناً نظامياً في يورك،

ورجلاً عجوزاً وغنياً، وشرهاً كثيراً ومخاصماً، ومات من بين الأصدقاء المقربين للملك وليم أسقف سالسبري، الذي كان من بين أعماله الدنيوية اقتراف عمل أنزل على رأسه لعنات لانهاية لها، ووليم أوف هافر هول Haverhulle وكان خازن الملك، وبطرس تشسبور Chacepore، الذي أنهى حياته بنهاية مجيدة، بعدما صنع وصية نبيلة، وروبرت باسليف Passeleve، ورتشارد رئيس طباحي الملك، وهو الذي جمع مبالغ كبيرة من المال، فقد قيل بأنه كان يمتلك عند موته خمسة آلاف مارك أو أكثر، ومات من حاشية الملكة الخاصة روبرت موسغروس Muscegros، وكان قهرمان الملكة، وولتر دي بروديل Brudel وكان خازنها والمعلم الاسكندر، وكان طبيها، ولقد كانوا ثلاثة رجال يستحقون عظيم الشناء، وكان بين هؤلاء المقدم الرئيس والزعيم هو وولتر دي غري، رئيس أساقفة يورك، الذي كانت براعته وكان اخلاصه أمران غير مشكوك بهما من قبل أي إنسان، ويكفي للبرهنة على ذلك ادارته للمملكة عندما كان الملك في القارة، ومات في هذا العام أيضاً بعض النبلاء في غسكوني، الذين كانوا يقاتلون هناك من أجل الملك، وكان من بين هؤلاء جون الفرنسي الذي كان محاسباً ومستشاراً أثيراً لدى الملك، ومضطهداً لدير القديسة مريم في يورك وسيلبي Selby، وكان سبب وفاته اصابته بالشلل.

مختصر لأخبار العام

وكان هذا العام خلاله كله مميت جداً لكنيسة روما وللبلاد البابوي، وذلك إذا أخذت تقوى الناس بعين التقدير، لأن كل تلك التقوى قد زالت، وكذلك الاخلاص الذي شعر به بالعادة الأساقفة والناس نحو أمنا كنيسة روما مع أبينا وراعينا الروحي البابا، ومع أن هذا البلاط قد قام بالغالب بقهر المسيحيين وجعلهم يشعرون بمرارة الروح، لكنه لم يقم قط بإحداث مثل الذي أحدثه من جراح أصابت كل واحد من

عباد المسيح، لابل أصابتهم جميعاً، فهذا ما فعله هذا البلاط في هذا العام، وفي العام الذي يليه، لأن الأبرياء قد دفعوا إلى الوثنية، حيث قاموا مثل المرتدين، بالتخلي عن الحقيقة والصدق، الذي هو الرب، وبالإضافة إلى هذا (الذي هو غير محتمل ومع ذلك عدوه محتملاً) لقد أرغموا على التخلي عن مقتنياتهم الدنيوية، ثم إن الإرباكات والازعاجات التي جلبت هذا العام إلى انكلترا، نعتقد أنها تستحق الوقفة معها لنأتي على ذكرها في هذا الكتاب، فقد جرى خرق امتيازات القديسين وغفراناتهم مما ألحق الضرر بهم، حيث لم يقدم التقدير لهم، وتبعاً لروبرت أسقف لنكولن امتلك البابا السلطة في القضايا التي تقود إلى البناء، وليس في الذي يقود إل الدمار، وفيما يتعلق بوعده العصور، تبدلت الثلاث سنوات فجأة وبصورة سرية إلى خمس سنوات، مع أن الوعد الذي أعطي لثلاث سنوات، كان حدثاً جديداً على الأرض، فقد كان من المعتاد دوماً حتى الآن أن يدفع العلمانيون العصور إلى الأساقفة، لكن الآن جرى ارغام الأساقفة على أن يدفعوا العصور إلى العلمانيين، وكان العشر يجري منحه لنجدة الأرض المقدسة، ولقد أرغمنا على تحويله لمساعدة أبوليا ضد المسيحيين، وكان العشر قد جرى منحه للحصول على التزام بالصك، الذي كان هنري، الملك المتقدم ذكره، ملزم بالاعتراف به والالتزام، ومع ذلك فإن بنوده لم يتم الالتزام بها، وكان العشر قد جرى منحه، ليتم انفاقه حصة حصة، ووفق شروط محددة، في مساعدة الملك، أثناء الذهاب إلى الحج، وليس أن نرغم على الدفع، كما يجري ارغامنا الآن بوساطة أكثر وسائل الارغام ظلماً، ولتتحمل أسوأ الأعباء، والكذب في طرق متنوعة ومضاعفة، لابل وصل الأمر إلى حد تجريد أنفسنا، الذي هو محرم بموجب الأوامر اللاهوتية في كل من العهدين، فنحن قد أرغمنا على تحديد تواريخ للدفع، وهي مواعيد لايمكننا بأي شكل من الأشكال الالتزام بها، وذلك من أجل أن نقع في شباك المرايين، الذين نعرف أنهم متحالفين

معهم ومتعاونين، فهناك أشخاص لا يستحقون مطلقاً قد زدودوا بالسلطة على الكنائس الفخمة، وعلى أساقفتهم الأمجاد، وقد جرى بيع الأساقفة مثل الثيران والحمير، وهي حالة أسوأ أنواع العبودية، فأولئك هم الباعة الذين ينبغي طردهم من الهيكل وجلدهم، ولكن بما أنه أكثر إهانة اقتراف الأذى بعنف بدلاً من الخضوع لواحد، يمكننا أن نعتقد ببراءة بأن الشكاوي في هذه القضية سوف ترفع إلى الرب، إله الانتقام، وكان هذا العام — أقول ليس وفقاً لما نستحقه — كله خصب الانتاج للقمح والفواكه، إلى حد أن مكيال القمح نزل بسعره إلى شلنين، ووصل سعر الكمية نفسها من الشوفان إلى اثني عشر بنساً، وفي هذا العام انبعثت الكراهية المتأصلة، بوساطة ميديا الثانية تلك، أي سيئة السمعة كونتسة فلاندرز، وقد تسبب ذلك بتراكم الشرور، وسبب ذلك حدوث مذابح بشرية هائلة، وفي الحقيقة كانت أعظم مذبححة لحقت بالمسيحيين، وهي تستحق الحزن الدائم، وقد وقعت قبل وقت قصير وأملت بالفرنسيين والألمان، وقد أثارت الذين عانوا من الجراحات إلى طلب الانتقام، وفي الواقع حكم زحل وسيطر على موقع إقامته، واسم هذا الكوكب عند أوفيد «حامل المنجل» لأنه يجتث كل ماهو مزدهر، ويسبب الموت إلى كل ماهو حي، وبالنسبة إلى الأرض المقدسة تبرهن هذا العام أنه لطيف إلى حد ما، بسبب الهدنة وشروط السلم، وهي هدنة وإن كانت مشكوك بها، فقد عملت لمدة عشرة أعوام، أما بالنسبة إلى اليهود فكان عاماً مشحوناً بسفك الدماء.

كيف احتفل الملك بعيد الميلاد في وينكستر

عام ١٢٥٦ لتجسيد الرب، وهو العام الأربعين لحكم الملك هنري الثالث، وقد أمضى الملك المذكور عيد الميلاد في وينكستر، حيث زوده أخوه الأسقف المنتخب، بجميع الحاجيات الضرورية، وذلك بالإضافة إلى تقديم هدايا ثمينة له، واستضافته على مائدته، وفي أثناء المحادثات،

تكلم الملك مع أخيه لصالح الرهبان، الذين جرى طردهم من الدير، وتفرقوا، حاثاً إياه على أن لا ينال وصمة نكران الجميل، بالنسبة إلى هؤلاء الذين ارتقوا به إلى منصبه الرفيع، وأن ذلك كان أيضاً بناءً على التماسه هو (الملك)، لكن الأسقف المنتخب أجابه قائلاً: «ألم تعلم ببراءتك العطش المحترف الذي غالباً مات بهن عليه، بالنسبة للبلاط الروماني؟ فأجابه الملك قائلاً: «أنا أعلم وأعرف أنه لن ينطفئ أبداً»، وعلى هذا عقب الأسقف المنتخب قائلاً: «كما لن يكون نبع مالي جاف أبداً، بل سوف يجري استخداماته حتى يملأ حتى التخمّة أمعاء هؤلاء الرومان التي تشبه الاسفنج والأفواه الملتهمة، وسأتابع ذلك حتى يجري تحقيق رغباتي في مسألة هؤلاء الرهبان، الذين نصبوا أنفسهم للوقوف ضدي».

وفي هذا الوقت نفسه أيضاً نشب خلاف بين وكلاء الملك لجباية الجمارك وتجار الخمر من الغسكونيين، الذين عانوا بالعادة من كثير من الخسائر والأضرار، من خلال الشراة الذين يستخدمهم الملك، ورداً على متعهدي تموين الملك قال الغسكونيون: «نحن لدينا سد جديد، منه نأمل أن ننال منافع كبيرة، ونحن نعتقد أنكم سوف تغيرون أعمالكم الشريرة بالسرقة التي تسمونها جمارك، إلى أعمال صالحة، أو على الأقل معتدلة، وقانونية، فمولانا شاب، وإنه مفيد له الاستماع إلى نصائح نافعة، وأن يعاملنا في منصبه الجديد بكل لطف وعدل، لأنه مثل غرسة صغيرة السن وغضة، يمكن أن تنمو وتطور نفسها، من أجل أن تحصل على القوة، لإعطاء ثمار جيدة»، وبما أن وكلاء الملك رفضوا الإصغاء لهم، بل قاموا كما جرت العادة بالاستيلاء على خمرهم بالقوة، من دون أن يدفعوا لهم، ذهب الغسكونيون إلى مولاها، أي إلى ادوارد، وتقدموا بشكوى ثقيلة وعرضوها عليه حول الإجراءات التي تقدم ذكرها، وأضافوا بأنهم

امتلكه ا حرية كتجار بالرسويين المسلمين، وعرض بضائعهم للبيع، التي من أجلها سوف يتسلمون أسعاراً مناسبة من دون معيقات، وبناء عليه ذهب وكلاء الملك غاضبين قائلين: «ياصاحب الجلالة هناك ملك، واحد في انكلترا يمتلك السلطة ليحكم بعدل، ذلك أن تجار الخمرة الغسكونيين قد تقدموا بالشكوى إلى واحد سواك، وذلك حول أذى قد لحق بهم، وهم قد أكدوا ذلك بشكل زائف، وهذا الإجراء هو بلا شك يسبب إلحاق الأذى بك وبالمملكة»، وبينما كان الملك شاعراً بالسخط لسماعه هذا، جاء إليه ادوارد، عارضاً شكوى ثقيلة حول الأضرار التي لحقت برعيته، معلناً أنه لن يتساهل مع مثل هذه الإجراءات والتصرفات مهما كان الأمر، ولدى سماع الملك هذا الكلام، قال له وهو يتنهد بعمق: «إن الذي هو من جسدي ودمي يهاجمني، وهما هو أيضاً أخي الايرل رتشارد قد أثر ضدي، وكذلك أول أولادي ولادة، فالآن تجدد زمان جدي هنري الثاني، الذي ثار ضده أولاده الأعزاء بوقاحة»، وتوقع كثير من الناس أنه سوف ينتج عن هذه القضية سوء كبير، وباتوا يخشون من حوادث أسوأ سوف تأتي بعد ذلك، لكن الملك أصغى إلى نصيحة حكيمة، فمر بهذه المسائل وعبر بهدوء، وأمر بإصلاح الأضرار التي وقعت، ومع ذلك زاد ادوارد من اتخاذ احتياطاته، فضاعف أعداد أتباعه المحليين، وصار يركب علناً وحوله مائتي خيال.

كسوف الشمس

أثناء متابعة الاحتفالات بعيد الميلاد، وفي اليوم السادس بعد يوم الميلاد، والثالث قبل اليوم الأول من السنة الجديدة، الذي كان عشية عيد القديس سيلفستر، تعرضت الشمس إلى كسوف جزئي، وفي طليطلة كان الكسوف كاملاً، وفي اليوم الثالث التالي، الذي كان عيد الختانة، كان القمر تبعاً للتقويم عمره يوم واحد.

خوف أساقفة إنكلترا الذين تجرأوا على التذمر ضد روستاند

وفي عيد القديسة هيلاري، قام أساقفة ورؤساء شمامسة إنكلترا، الذين استبد بهم الأسى من كل جانب، بالاجتماع في لندن لتقديم جواب إلى المعلم روستاند، كاهن البابا والملك معاً، حيث أنه كان سفير البابا، والمحامي من قبل الملك، ولدى مثول المعلم ليونارد أمامه، وهو الذي تقدم ذكره من قبل على أنه المحامي لرجال الدين والمتحدث باسم الجماعة، قام بإلقاء كلمة لصالح الأساقفة، وكان من بين الأشياء التي قالها رداً على المعلم روستاند (الذي وقف ليعارض المعلم ليونارد، وقال بأن «جميع الكنائس عائدة للبابا»)، وقد قال باعتدال كبير: «إن ذلك صحيح، لو أنه من أجل الدفاع عنهم وحمايتهم، وليس للتمتع بشمار الآخرين أو اغتصابها، وذلك مثلما نقول: كل شيء عائد إلى الأمير، فنحن نفهم من ذلك، من أجل حمايتهم وليس من أجل تدميرهم، فهذه كانت نية المؤسسين»، وعلى هذا الكلام رد المعلم بغضب قائلاً: «ليتكلم في المستقبل كل واحد عن نفسه ولأجلها، وذلك في سبيل أن يعلم البابا وكذلك الملك، الذي قاله كل واحد حول مسألة تتعلق بهما»، وعند سماع هذا التصريح، أصيب الجميع بالدهشة، إما لأنهم لم يتجرأوا، أو لم يعرفوا كيف يعبرون عن عدم رضاهم، لأنه بات الآن واضحاً وضوح النهار، أن البابا والملك كانا متحالفين متحدين من أجل ظلم الكنيسة ورجال الدين، ولذلك استأنفوا ضد المطالب التي عملت، لأن المعلم روستاند رفض تغيير حرف واحد مما أودعه كتابة، وكانت فحوى ذلك بأن الأساقفة قد أقسموا بأنهم اقترضوا مبلغاً كبيراً من المال — كما ذكر من قبل — من تجار عبر الألب، وأن تلك الأموال جرى تحويلها من أجل استخدام كنائسهم، وكان هذا واضحاً إلى الجميع أنه كان زيفاً، وبناء عليه أكدوا — ولم يكن ذلك من دون سبب — أنه أن تموت في سبيل هذه القضية سوف يكون طريقاً أكثر استقامة إلى الشهادة، مما كان في قضية

القديس توماس الشهيد، وعندما رأى المعلم روستاند أنهم جميعاً قد استبد بهم الأسف ومرارة الروح، عاد إلى طريق الإدارة والنفاق، وأصبح أكثر لطفاً، وقال بأنه يرغب بأن يعقد اجتماعاً مع البابا حول القضية، وجرى على كل حال إرسال عميد كنيسة القديس بولص في لندن مع بعض الآخرين، إلى روما، ممثلين لجماعة الكنيسة الانكليزية، وساد شعور بالخوف فوق كل شيء بأن الأساقفة سوف يذعنون وينهارون أمام نفاق وعنف مثل أولئك الخصوم الأقوياء، حسبا كان عليه حال الملك والبابا، وأن هذه العبودية المقيتة، وهذا الظلم لرجال الدين وللكنيسة سيصبح بالنتيجة عادة، مما سيسبب الأسف عبر العصور.

التدابير الاحتياطية من أجل الالتزام بصكوك الامتيازات الممنوحة، إلخ

وجرى بشكل مفيد اتخاذ تدابير احتياطية من أجل وجوب الحصول على الالتزام الدقيق بالصكوك العظيمة للملك جون، وذلك تحت طائلة عقوبة التكفير الرهيبة، وهي الصكوك التي كان برضاه وعن طواعية قد وعد بها باروناته، وهي التي قام الملك الحالي فيها بعدد، مرة ثانية الآن مؤخراً، بحرية وعن طواعية بمنحها في القاعة الكبرى لويستمنستر، وأنه أيضاً بسبب طغيان الملك، الذي لم يتوقف عن ممارسته في الكنائس الشاغرة، توجب تقديم صك آخر إلى البابا من أجل فحصه، وهو صك كان الملك جون المتقدم ذكره قد منحه إلى المملكة، وبسبب المنافع التي يمكن تحصيلها من الالتزام به من دون خرق، رأينا من الموافق اقحامه في هذا المجلد.

تشيت صك الملك جون من قبل البابا أنوسنت الثالث

«من أنوسنت الثالث، إلخ، إلى إخوانه المبجلين، وإلى أبناءه المحبوبين، وإلى جميع الأساقفة المكرسين للكنائس في جميع أنحاء

إنكلترا، تحيات ومباركات رسولية:

بحمد مناسب نحن نشني على عظمة الخالق، الذي منه بآرائه الرائعة والمهيبة قد سمح لبعض الوقت للعواصف بالهبوب على أبناء البشر، وكأنه بهذا يتبارى مع العالم أراد أن يرينا ضعفنا وعدم كفايتنا، فهو الذي بإرادته يقول للريح الشمالية «هبي» وللريح الجنوبية «لا تمنعي هبوبها»، ويأمر الرياح والبحار، ويوقف العواصف في السموات، حتى يتمكن البحارة من الوصول إلى الميناء الذي يستهدفونه ويرغبون بالوصول إليه، وبالنظر لقيام خلاف مؤسف، مصحوب بخطر عظيم وخسائر كبيرة من زمن طويل هو قائم بين الملك ورجال الدين في إنكلترا حول مايتعلق بانتخاب الأساقفة، هذا وبمعونة وإلهام منه الذي لا شيء غير ممكن بالنسبة له، والذي يجعل الرياح تهب حسبما يشاء، فقد قام ولدنا المحبوب في المسيح، جون، الملك المشهور لإنكلترا، بمطلق حريته الشخصية، ومسؤوليته الذاتية، وبناء على الموافقة العامة لبارونات، وفي سبيل خلاص روحه وأرواح أسلافه وخلفائه، فمنح بكرم منه، وأكد المنحة وثبتها برسائله، حيث قضى أنه من الآن فصاعداً، تكون انتخابات ذوي المناصب من رجال الدين من جميع الأنواع العالية والمنخفضة، حرة وإلى الأبد، وذلك بالنسبة إلى جميع الكنائس والديرة، والكاتدرائيات، والرهبانيات في جميع أرجاء إنكلترا، وبناء عليه قبلنا بهذه المنحة وصدقنا عليها بموجب فضيلة سلطاتنا الرسولية، وها نحن نثبت المنحة التي عملت لكم ونؤكد لها، ومنكم إلى كنائسكم وإلى خلفائكم، وفقاً لمحتويات الرسائل المذكورة الصادرة عن الملك كما شوهدت من قبلنا، ونحن ندعمكم بحماية رسالتنا هذه، وفي سبيل المزيد من تأكيد هذه المنحة، ولكي نجعل ذكرها دائمة من الآن فصاعداً، أدخلنا في هذا الكتاب الرسائل المتقدم ذكرها التي تتعلق بمنحة الملك في هذه المسألة، ونصها هو التالي:

صك المنحة التي عملها الملك جون

«من جون الذي هو بنعمة الرب ملك انكلترا، وسيد ايرلاندا، ودوق نورماندي وأكوتين، وكونت أنجو، إلى رؤساء الأساقفة، والأساقفة، والإيرلات، والبارونات، والفرسان، والنواب الملكيين، وإلى جميع الذين سوف تصلهم هذه الرسائل، تحيات:

بناء على ماتم بيننا وبين آبائنا المبجلين: اسطفان رئيس أساقفة كانتربري، الذي هو الأول في انكلترا كلها، وكاردينال الكنيسة المقدسة لروما، والأساقفة: وليم أسقف لندن، ويوستاس أسقف إيلاي، وجايل أسقف هيرفورد، وجوسلين، أسقف باث وغلاستونبري، وهوغ أسقف لنكولن، تم بنعمة الرب، وبالإرادة الحرة لكلا الفريقين، تأسيس السلام كاملاً حول مسألة الأضرار والخسائر التي عانوا منها، في أيام الحرمان من شراكة المؤمنين، ونحن لانرغب فقط في ارضائهم بقدر مايعيننا الرب، بل أن نعمل تدابير صحيحة ونافعة إلى كنيسة انكلترا كلها إلى الأبد، وبناء عليه، إن كل عرف مهما كان، كان حتى الآن ملتزماً به، في أيامنا وفي أيام أسلافنا في كنيسة انكلترا، وكل امتياز ادعيناه حتى الآن لأنفسنا في مسألة انتخابات أي رجل دين مهما كان، إننا نقوم بناء على التماسهم، وبناء على ارادتنا الحرة، ومن تلقاء أنفسنا، وبناء على موافقة باروناتنا، في سبيل خلاص روحنا وأرواح أسلافنا وخلفائنا في مملكة انكلترا، بناء على ذلك كله قمنا بمنح ورسم، وبوساطة الصك الحالي الصادر عنا الذي هو تأكيد للمنحة، أنه من الآن فصاعداً في كل كنيسة لابل في الكنائس جميعها، والديرة، والكاتدرائيات والرهبانيات في جميع أرجاء مملكة انكلترا، سوف يكون انتخاب أصحاب المناصب الدينية العالية والمنخفضة حراً، مبقياً لنا ولورثتنا الوصاية على الكنائس الشاغرة والديرة، عندما يكونون عائدين لنا، ونحن علاوة على ذلك نعد بأننا لن نعيق، ولن نسمح لعمالنا باعاقبة الانتخابات المذكورة، كما أننا لن نعمل

على منع الناخين في أية كنيسة، وفي جميع الكنائس والديرة — كلما كان المنصب اللاهوتي شاغراً — من أن يعينوا بشكل حر راعياً لأنفسهم، مهما يكن الذي سوف يتخبونه ويختارونه، على شرط، أن يطلبوا على كل حال سلفاً الاذن بعمل هذا منا ومن ورثتنا، وهذا سوف لن نرفض منحه، أو تأخير اعطائه، وإذا صدف (لاسمح الرب) أننا رفضنا أو أخرنا منح موافقتنا، يمكن للناخين أن لايتقيدوا بذلك، ومن ثم متابعة أعمال الانتخاب بشكل قانوني، وبعد إجراء الانتخاب، ينبغي التوجه بطلب موافقتنا عليه، ونحن لن نرفض ذلك، ما لم نقدم مستندات منطقية للرفض.

وبناء عليه تقضي إرادتنا، وأوامرنا الدقيقة، أنه بالنسبة لقضية الكنائس والديرة التي تصبح شاغرة، لايجوز لأي واحد انتهاك منحتنا هذه، ومرسومنا هذا بأية طريقة من الطرق، وإذا ما أقدم أي واحد، في أي وقت من الأوقات على مثل هذا الانتهاك سوف ينال لعنات الرب القدير ولعناتنا.

وشهد على ذلك: بطرس أسقف وينكستر، وو. W مارشال إيرل أوف بامبروك، وو. W إيرل واري، ور. R ايرل شيلستر، وس. S إيرل وينكستر، وغ. G دي مانديفيل إيرل غلوستر واسكس، وو. W إيرل فيرار، وو. W بروير Bruere، وو. W فتر—جيرالد، وو. W دي كانتلوب Canteloup، وهـ. H دي نيفيل، ور. R دي فيراند، وو. W دي هنتنغفيلد.

ونظم في المعبد الجديد في لندن، وكتب بيد ر. R دي مارش، مستشارنا، في هذا اليوم الذي هو الخامس عشر من كانون الثاني، في سنة ١٢١٦ لتجسيد الرب، وهي السنة السادسة عشرة لحكمنا، ولايجوز لأي واحد مطلقاً بناء عليه الاقدام بنفسه على تجاوز هذا المرسوم، الذي جرى

تثبيته من قبلنا، أو القيام بطيش بانتهاكه بأية طريقة من الطرق، لأن كل من يتجرأ، مهما كان فيحاول هذا الشيء، ليكون متأكداً من أنه سينال غضب الرب، ورسوليه المباركين: بطرس وبولص. صدر في اللاتيران في هذا اليوم الثالث عشر من آذار، في السنة الثامنة عشرة لحبريتنا.

تذبذب كبير في قراراتهم التقوية

مثل هذه كانت الصكوك والوثائق التي جرى إعدادها، في سبيل إرسالها إلى انكلترا، ليتم تقديرها من قبل الخبر الأعظم، لكن أي شيء جيد يمكن أن تعمل؟ ذلك أن تلك الاضافة المقيمة «دون التقيد» قد أضعفت كل شيء، لقد منع المراوغون، ومستشارو الشر، والمتملقون للرجال الكبار، كل شيء، وكل الذين تقدموا بالشكاوي، غالباً ماتلقوا من البلاط الروماني، أي من البابا ومن إخوانه رداً مثل التالي: «إننا لانرغب في هذه الأوقات أن نزعج الأمراء»، وكانوا يضيفون: «علينا أن نخفي الشيء الكثير، وأن نمر بأمور كثيرة بعين التغاضي»، (مهما كانت كمية الأذى التي يمكن أن تعمل)، وهكذا، إنه لما نأسف له، إن دقة التقيد بالعدل، عدّ بسبب خوف الناس الجبناء تذبذباً، خاصة في ذلك البلاط.

وفاة جون الروماني رئيس شمامسة ريتشموند

وفي هذا الوقت نفسه مات جون الروماني، رئيس شمامسة ريتشموند Richmond، وكان رجلاً شراً جداً، وقد امتلك مبلغاً كبيراً جداً من المال، فقد استخدم نفسه لحوالي الخمسين عاماً في جمع الثروة، ومع أنه كان واحداً من أعلى الكهنة النظاميين مرتبة في كنيسة يورك، لقد كان الأول، أو واحد مثل الأول، بمثابة جاسوس منحط، تولى كشف أسرار انكلترا، وأثار الرومان وحرصهم للاستحواذ بنهم أكبر من المعتاد، والاستيلاء بوسائل صحيحة أو

خاطئة، على موارد تلك البلاد، وبوفاته، ولشغور منصب رئاسة الشمامسة، استولى الملك على أوقافه، وعلى جميع ممتلكاته الأخرى ومقتنياته التي كان باستطاعته الاستيلاء عليها، ووزع كل الذي استولى عليه حسبما أراد ورغب.

وفاة وليم اليوركي أسقف سالسبري

وفي تلك الآونة نفسها من السنة مات وليم اليوركي، أسقف سالسبري، الذي كان منذ صباه من رجال البلاط، وبوساطة البلاط جرت ترقيته إلى أسقفيته، وكان من بين أعماله الدنيوية التي عملها واقترفها أنه أدخل إلى المملكة بمثابة قانون عرفاً كان سيئاً جداً، قضى أن يقوم كل مستأجر أو مكثري، مهما كانت القطعة المستأجر لها صغيرة، بتقديم خدمة للبلاط أو لرئيسه المتملك للأرض، مما سبب أذى كبيراً وإعاقة لهؤلاء المكثرين، مع منفعة صغيرة، أو من دون منفعة إلى الرؤساء، وبناء عليه فإن الذين لم يعملوا قط خدمات من هذا النوع، اعترتهم الدهشة، لأنهم أرغموا الآن على القيام بذلك، وعبر هذا الأسقف من بين هذه المشاغل الدنيوية والاهتمامات في الحادي والثلاثين من كانون الثاني، ليواجه المخاوف التي يواجهها الأشخاص الدنيويين وأتباع البلاط، والتي سوف يخضعون لها، لأن أعمالهم الدنيوية سوف تلحق بهم.

كيف أرهق رئيس أساقفة كانتربري كنيسة روكستر

وفي حوالي الوقت نفسه، ضغط بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري ضغطاً شديداً على كنيسة روكستر، وهاجم ممتلكاتها، وحصل بموجب هذا الإجراء على كثير من اللوم، وقد قيل بأن الكنيسة التي كان من المتوجب أن يكون المدافع عنها، قيل بأنها أرهقت من قبله، وتقدم أسقف روكستر بشكوى إلى الملك حول هذا الأذى العظيم، ذلك أن

الملك هو المنتقم لمثل هذه الأفاعيل، ومع ذلك نظر باستحياء وأجاب: «أنا لا يمكنني إرغامه على العمل بالعدل والاعتدال، خشية أن أسبب انزعاجاً أو أذى إلى أسرته، خاصة الملكة، ولأنه من أصل رفيع ونبل، وله مكانة سامية».

الفضيحة التي اقترفت من قبل الفرنسيين

وفي حوالي الوقت نفسه، كان بعض اليهود الفاسدي السمعة، الذين بلغ عددهم واحد وسبعون، قد أدينوا وحكم عليهم بالموت من قبل محلفين تألفوا من خمسة وعشرين فارساً، من أجل قتل الطفل السيء الحظ، الذي صلبوه في لنكولن، وكان هؤلاء اليهود في السجن في لندن، من أجل شنقهم، وبحكم أنهم كانوا أعداء الدولة، أرسلوا رسلاً سريين إلى الرهبان الفرنسيين، يرجونهم التدخل لصالحهم، حتى يمكن إطلاق سراحهم من السجن، وانقاذهم من الموت، مع أنهم كانوا يستحقون موتاً هو الأكثر مهانة، وبناء عليه قام الرهبان (بناء على تقارير عالمية، إذا أمكن في قضية كهذه من الممكن تصديق العالم) بالتدخل لصالح هؤلاء اليهود، لأنهم تأثروا برشاويهم، وأمكن بوساطة صلواتهم إطلاق سراحهم من السجن، وانقاذهم من الموت الذي استحقوه، هذا واعتقد أن علينا أن نؤمن بأنهم تأثروا بالمقام الأول بدافع روح التقوى، لأن كل واحد يسير في طريق الحياة في هذا العالم له الحق في رعاية موقفه، ومن الممكن انقاذه، وينبغي أن يشعر بالآمال، ولكن بالنسبة للشيطان، أو الذين أدينوا وحكم عليهم بصورة واضحة، لا يمكن أن يكون لدينا أمل من أجلهم، كما أنه لا تجوز الصلاة من أجلهم، لانعدام الأمل من أجلهم، فالموت والحكم المحدد قد غلّ هؤلاء اليهود من دون رجعة، وهذه المناقشة لا يمكنها تسويغ عمل الفرنسيين، أو منع الفضيحة من تشويه سمعتهم، مع أنهم لم يكونوا مجرمين، وأوقفت الطبقات الدنيا من الناس أعمال صدقاتها، ولم يعودوا ينعمون

بالصدقات عليهم، كما كانوا يفعلون من قبل، وهكذا فترت عواطف الناس من أهل لندن نحو الفرنسيين، وذلك وفق الطريقة نفسها التي تناقست فيها صدقات البارسيين نحو الرهبان الدومينيكان، لأنهم حاولوا انتهاك الأعراف القديمة والمقررة للمجتمع.

اعتقال الشيخ الروماني وسجنه

وقام الرومان في هذا العام أيضاً باعتقال شيخهم برانكليون وسجنه، لأنه برهن عن نفسه إلى أعيان المدينة وإلى الناس أيضاً، بأنه شديد جداً في تنفيذ العدالة، وغير متهاون في عقوبة الأخطاء، وإثر اعتقاله بادرت زوجته بالذهاب مسرعة إلى بولونا لإخبار شعب تلك المدينة، الذين كان لديهم ثلاثين من الرهائن مقابل سلامته، ولقد أخبرتهم بالذي حدث إلى الشيخ الرسولي، وبناء عليه ضيق أهالي بولونا على الرهائن الذين كانوا لديهم مقابل برانكليون، ووضعهم في سجن شديد الحراسة، وتقدم أعيان الناس في روما بشكوى ثقيلة حول هذا الإجراء إلى البابا، وبوساطة تدخل بعض الكرادلة الذين كانوا من أصل روماني، حصلوا منه على وعد، بأن سكان بولونا إذا لم يسلموا الرهائن، الذين لديهم من أجل سلامة برانكليون، سوف توضع مدينتهم تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وقد وضع هذا موضع التنفيذ، وتحمل سكان بولونا — على كل حال — نتائج هذا الحرمان، ورفضوا التخلي عن الرهائن للرومان، لأنهم عرفوا أنهم إذا فعلوا ذلك، سوف يجري على الفور إعدام برانكليون.

البرلمان العام الذي جرى عقده من قبل الملك الفرنسي

في اليوم الذي جاء بعد يوم عيد طهارة مريم المباركة، عقد الملك الفرنسي بارلماناً عاماً، إليه أرسل ملك انكلترا رسلاً خاصين، للسطابة — كما هو معتقد — بحقوقه في القارة، وفي الحقيقة لقد ظن نفسه أنه

موضع خوف في فرنسا، لكن هو لم يحصل على شيء، إلا الرفض الصريح، كما أنه أخبر أيضاً بوساطة رسله بأن جيوش البابا قد تحطمت بشكل لا يمكن جبره وأنها تمزقت وتدمرت، وأنه لا يحتاج أن يزعم نفسه، أكثر مما مضى حول صقلية وأبوليا، وعلى هذا الأساس لم يطلب رسوله — الذي كان هو جون مانسيل — الاذن من ملك فرنسا، للسماح للملك انكلترا وإلى الذين جرى تعيينهم باسمه، بالمرور بشكل حر خلال المملكة الفرنسية مع جيشه وأمواله، وذلك على طريقه إلى أبوليا، التي أعطاه إياها البابا بكرم منه، لصالح ابنه ادموند، وبناء عليه عاد الرسول دون أن ينجز شيئاً، سوى أنه جلب معه أخبار تدمير جيش البابا.

الحرب في تورين نتيجة لسجن توماس أوف سافوي

وفي هذه الآونة قام بونيفيس، رئيس أساقفة كانتبري، يرافقه فيليب الأسقف المنتخب لليون، وبطرس أسقف سافوي، ومعه كتلة كبيرة من العساكر، قام بالانطلاق إلى إيطاليا، لمحاربة مدينة تورين Turin، التي كان فيها أخوهما توماس أوف سافوي — الكونت الأخير لفلاندرز — موضوعاً في السجن، فقد برهن توماس عن نفسه أنه كان حاداً وطاغية بالنسبة لشعبه، حيث مزقهم بطريقة غير صحيحة تماماً، وبشكل معاكس لأعرافهم المعتادة وعاداتهم، ونتيجة لهذا قرر سكان تورين، وأستي، وآخرون كانوا متحالفين معهم، أن لا يتحملوا أذاه بعد ذلك الوقت، فقاوموه بشكل معلن في وجهه، ولم يعبأوا بأصله النبيل، الذي اعتمد عليه ووثق به أكثر مما هو صحيح، ومارس طغيانه على الناس الأبرياء، ولهذا — كما ذكرنا من قبل — ألقوا به في السجن، ولذلك جاء السافونيون مسرعين وعلى حنق لانقاذه، وقد واجهوا مقاومة فعالة من السكان، ولكن حشود السافونيين الكبيرة التي جاءت ضدهم، أرغمتهم على التراجع إلى مدينتهم، التي وقعت تحت حصار فعال على الفور، وكان بطرس يمتلك كميات كبيرة من المال، كان

الاييرل رتشارد قد أقرضه إياها بناء على رهن، وكان أيضاً مع الأسقف المنتخب لليون ومع رئيس أساقفة كانتبري مبلغاً كبيراً من المال المقدس، كان عائداً إلى الكنائس النبيلة التي كان لهم الرئاسة عليها، ووزعوا من هذه المصادر مبالغ كبيرة أعطيت إلى جيشهم الكبير، ومجدداً فإن ملك انكلترا والمملكة، اللذان كانا ملزمين، قاما بتحويل كميات كبيرة من المال بصورة سرية إليهم، في حين قام البابا، حتى يظهر أنه معين فعال لملك انكلترا والمملكة، ولكي لا يظهر أنه محرض بل فائدة، لكنه لم يرسل إليهم لذهب ولافضة، بل رسالة مواساة بليغة ومطمئنة، من الممكن رؤيتها في كتاب Additaments.

كيف جرى استدعاء الراهب جون أوف دارلنغتون

إلى المجلس الاستشاري للملك

وفي هذه الآونة نفسها، استدعى الملك إلى مجلسه الاستشاري الخاص الراهب جون أوف دارلنغتون Darlington، وكان واحداً من الرهبان الدومينيكان، وكان متميزاً لعلمه، ولقدرته على المحاكمة وحسن مشورته، لأن الملك قد احتاج الآن إلى نصائح حكيمة، وإلى مواساة روحية، لأنه عندما بات متأكداً من دمار البابا وجيشه، عرف بأن المملكة غدت عرضة للخطر، ولذلك كان في حالة ذهول عقلي كبيرة.

شرف الفروسية الذي أنعم به على

ملك مان من قبل ملك إنكلترا

في عيد الفصح أنعم ملك انكلترا على ملك جزيرة مان Man بشرف الفروسية، وأرفق ذلك بكثير من التشريفات والمنافع بناء على مبادرته، وكان اسم ملك مان المذكور ماغنوس Magnus.

موت وليم الهولاندي ملك ألمانيا

وفي هذا العام نفسه، حدث أن وليم الهولاندي، الذي جعله البابا ملكاً، ورفعته إلى أعلى المناصب التي نالها قط بجعله ملكاً على ألمانيا، وهو الذي شعر بتوفر الوسائل والفرصة بالحصول على الامبراطورية الرومانية، حدث الآن بعد اتفاق لانهية له من مال البابا عليه، أن توفرت له فرصة صغيرة، فشرع بشن الحرب على الفريزلانديين، وهم شعب من الناس غير متحضرين وغير مدجنين، وسكن هؤلاء الفريزلانديون في المنطقة الشمالية، وكانوا بارعين في الحروب البحرية، وكانوا يقاتلون بنشاط كبير وشجاعة فوق الجليد، وحول المناطق الباردة هؤلاء الفريزلانديين وجيرانهم السارماتيين Sarmatians، قال جوفنال Juvenal: «الأفضل للإنسان أن يهرب من هنا إلى ما وراء السارماتيين والمحيط المتجمد»، إلخ، وبناء عليه نصب الفريزلانديون كمائن على شاطئ البحر، بين الشعراء والنباتات هناك، وكذلك في جميع أرجاء البلاد التي كانت مستنقعية (وكان فصل الشتاء وشيك الحلول حوالي عيد طهارة العذراء المباركة)، وقد خرجوا لمطاردة وليم المذكور وقد تسلحوا بالحراب والنشاب، وهو ما أطلقوا عليه اسم Gaveloches، وكانوا بارعين في استخدام هذا السلاح، وتسלحوا أيضاً بالبلطات الدانماركية والرماح، وكانوا يرتدون ملابس كتانية، غطوها بدروع خفيفة، وعند وصولهم إلى أحد المستنقعات تقابلوا مع وليم، وكان على رأسه خوذة، ويرتدي دروعاً كاملة، ويمتطي حصان حرب كبير، أيضاً مغطى بالدروع، وأثناء سيره تكسر الجليد تحته، مع أن سماكته كانت أكثر من نصف قدم، وغرق حصانه إلى كفليه، وبات غير قادر على التحرك في طين المستنقع، وقام الراكب الغاضب بغرس مهبأزيه في طرفي الدابة حتى وصلا إلى جوفه، وحاول الحصان الأصيل الملهب النهوض، وبذل جهوده للقيام وتحرير نفسه،

لكن من دون نجاح، وكان مسحوقاً ومعقوراً، ولذلك غرق أعمق، وتمكن أخيراً بجهوده من رمي راحته، بين قطع الجليد القاسية، والتي تسبب الانزلاق، واندفع الفريزلانديون وقتها وانقضوا على وليم، الذي لم يكن هناك أحد يعينه في مأزقه ويخرجه مما هو فيه، لأن جميع أصحابه المسلحين كانوا قد هربوا ليتجنبوا حادثاً مماثلاً، ولقد قاتلوه من جميع الجهات بحراهم ونشابهم، وذلك على الرغم من طلبه الرحمة، وطعنوا جسده ونفذوا فيه أعمق فأعمق، وكان هذا الجسد قد تيسر بالبلل والبرد، وعرض على قتلته مبلغاً كبيراً جداً من المال، بمثابة فدية، إذا ماوفروه، وسمحوا له بالنجاة حياً، لكن هؤلاء الأشخاص اللإنسانيين لم يظهروا نحوه الرحمة، ومزقوه إرباً إرباً، وهكذا ما أن تذوق وليم طعم الامبراطورية، وهو الذي كان زهرة الفروسية، وكان ملك ألمانيا وكونت هولاندا، كما كان صنيعة البابا وتلميذه، هوى من ذروة سمو منصبه إلى أعماق القوضى والذمار، ولكن كما قال الفلاسفة: «أن تموت وفق إرادة الأعداء، هو أن تموت مرتين»، وعندما وصلت أخبار الذي حدث إلى البابا، أصابه الأسى، لأنه أسقط في أعماق الهاوية تلك المبالغ الضخمة من المال، التي جمعت من كافة الأطراف، وبمختلف الوسائل.

موت إيتيشيا كونتيسة وارني

وفي هذا العام نفسه ماتت إيتيشيا Etesia كونتيسة وارني، أخت الملك لأمه، ماتت وهي في زهرة شبابها وازدهارها، مما سبب الحزن الكبير للملك ولزوجها جون الايرل الشاب لوارني.

مهمة وليم أوف هورتون ووليم راهب كنيسة القديس

إدوارد وأحد رهبان القديس ألبان إلى روما

وفي حوالي الوقت نفسه، قام كاهن من وراء الألب اسمه جون أوف كيمزان Camezan بإلحاق الأذى وتسبب ببعض الخسائر لكنيسة

القديس ألبان، ولذلك جرى إرسال واحد من رهبان الكنيسة نفسها إلى البلاط الروماني للحصول على العدالة ضد الكاهن المذكور، ومن ثم تمت مرافقة الراهب المذكور، الذي كان اسمه وليم دي هورتون (؟)، وكان المسؤول عن المؤونة في الكنيسة المذكورة، مرافقته بالمعلم وليم أوف سينت ادوارد، وانطلقا في أحد السعف من أجل عبور الألب، وكان حاملاً لرسالة هي الأكثر بلاغة من الملك، خاطب بها البابا، وكتب كذلك إلى الكرادلة للتدخل من أجله، وبما أن الرسالة صيغت وكتبت بأفضل أسلوب وأبلغه، قام جون هذا —لأنه كان سخيلاً— بالتأكيد بأن الرسالة مزيفة، معلناً أن شخصاً له مثل هذا المنصب الرفيع، لم يتوسط قط برسالة لدى البابا، ولدى شخصيات أخرى من أصحاب النفوذ والسلطة، ولا يمكن أن يعهد برسالة خاصة جداً وودودة إلى راهب بسيط، لكن هذه التهمة رفضت فيما بعد ونقضت بشهادة الملك، وإذا ما رغب أي إنسان برؤية تلك الرسالة، يمكنه أن يجدها في كتاب Additaments.

رسالة البابا إلى رئيس رهبان دير القديس ألبان

وجرى في اليوم نفسه إرسال رسالة من قبل البابا إلى رئيس رهبان ورهبان الدير المذكور، التابع لكنيسة القديس ألبان المذكور، أمراً إياهم، أن يدفعوا خلال شهر، إلى بعض التجار، مبلغ خمسمائة مارك، كانوا مدانين بها إلى التجار أنفسهم، وجعلهم يفهمون أنهم إذا تجاوزوا موعد الوقت المحدد لدفع المال، سوف يجري تعليقهم مباشرة، فهذا كان مقصد الرسالة وغايتها، مع أنهم لم يعرفوا أنهم كانوا مرتبطين بدين إلى أي واحد، وحدث الشيء نفسه لعدد من الديرة، التي كان عليها مثل ذلك أن تتحمل مرغمة نير هؤلاء التجار المرايين، وأعلن هؤلاء المحصلون، من أجل أن يجعلوا تحصيل المال أكثر يسراً وفعالية، أن جميع المال المطلوب هو من أجل استخدام الملك، الذي كان جاهزاً للإنطلاق في حجه.

إطلاق سراح السجناء اليهود

في الخامس عشر من أيار في هذا العام، تم إطلاق سراح خمسة وثلاثين من اليهود الذين اتهموا بصلب القديس هوغ، الصبي من لنكولن، والذين حبسوا في سجون في برج لندن، فلقد أخرجوا من ذلك السجن، ونالوا حريتهم، علماً بأن هؤلاء اليهود، وجدوا مجرمين لدى محاكمتهم من قبل المحلفين، وكذلك من الإفادات التي عملت من قبل اليهود، الذين شنقوا في لنكولن، في المقام الأول.

اجتماع أساقفة إنكلترا في لندن

عندما وجد أساقفة إنكلترا أنفسهم قد أنهكوا بسبب مختلف المشاكل، اجتمعوا في لندن، خلال أسبوعي الفصح، لتقديم جواب محدد إلى روستاند على الطلبات التي تقدم بها، وكانوا في البداية غير متحدين وغير متفقين فيما بينهم، وكانوا على وشك التفرق ثانية، لكن بعد ذلك جرى تشجيعهم من قبل البارونات، ولذلك رفضوا الاسهام بأي شيء من بارونياتهم إلى الملك.

كيف جرى استدعاء رؤساء رهبان طائفة

السسترشيان للمثول أمام روستاند في ردنغ

وفي حوالي الوقت نفسه، قام المعلم روستاند، بناء على السلطات الرسولية باستدعاء جميع رؤساء رهبان طائفة السسترشيان في إنكلترا، للمثول أمامه، في يوم الأحد الرابع بعد عيد الفصح، لسماح رسالة من البابا، وعندما اجتمعوا كلهم في الوقت والمكان الذي حدده لهم روستاند في دعوته، وبعد مقدمة طويلة، طلب منهم، من أجل استخدام البابا، والملك مبلغاً كبيراً من المال، كان مقداره في الحقيقة يعادل ما تبلغه نفقات صوفهم، والعالم كله يعرف، أن جميع وسائل ربحهم، لابل حتى الذي ينفقونه على حياتهم، يعتمد على صوفهم، ولدى سماعهم هذا

الطلب، اجتمعوا للتشاور فيما بينهم، وبعدما توصلوا إلى الاجماع في قرارهم، أجابوا بثبات بأنهم لم يكن مسموحاً لهم إعطاء جواب ايجابي لمثل هذا الطلب الثقيل من دون أخذ موافقة ونصيحة الرئيس مع الهيئة الرهبانية العامة للسسترشيان، الذين كانوا بالنسبة إليهم هم الأطراف والأولاد، وهكذا عادوا إلى ديرتهم تاركين المعلم روستاند في حالة من الغضب العظيم، وتصرف ذلك الشخص مثل طفل جريح عندما يفرض للالتجاء إلى صدر أمه، فأسرع إلى الملك يشكو إليه مما جرى، وأفاد بأن رؤساء رهبان طائفة السسترشيان كانوا متحمسين بروح مبتكرة واحدة، ولذلك أجابوا بأنهم سوف لن يساعده في وقت حاجته بأية طريقة من الطرق، وغضب الملك، وأقسم وهو غاضب بأنه سوف يؤذيهم ويضطهدهم افرادياً، بحكم أنه لم يستطع ارغامهم على الاذعان بالموافقة على رغباته عندما يكونوا متحدين، ولأنهم قالوا بأنه كان الأكثر لياقة بالملك سؤال صلواتهم، لا المطالبة بأموالهم، وأقسم بأنه سوف يحصل على كل من صلواتهم، ولن يعاق عن نيل مالهم، وصدف في ذلك الوقت أن كان في البلاط رئيس رهبان بايلدواز Bildewas من طائفة السسترشيان، وأرسل الملك خلفه، ولدى وصوله قال له بلهجة ناقدة: «كيف حدث أنكم يارئس الرهبان قد رفضتم تقديم المساعدة المالية لي، في الوقت الذي أنا بحاجة إلى ذلك، وسألتكم ذلك بتواضع؟ أولست أنا ولي نعمتكم؟» وعلى هذا أجابه رئيس الرهبان قائلاً: «طالما أنت ولي نعمتنا، وأبانا والمدافع عنا، أوليس اللائق بك والجدير أن لاتؤذينا باستخراج مالنا منا، فلقد كان الحري بك أن تطلب العون بصلواتنا، وأن تحذو بذلك حذو ملك فرنسا التقي»، ووقتها أضاف الملك قائلاً: «إنني أطالب بكل من مالكم وصلواتكم»، وعلى هذا أجابه رئيس الرهبان قائلاً: «أعتقد أن هذا من غير الممكن، عليك أن تكون من دون المال أو الصلوات، لأنك إذا استخرجت مبالغ قوام عيشنا الصغيرة منا بالقوة، كيف يمكننا أن نصلي من أجلك بتقوى واخلص

في القلب؟ لأن الصلاة من دون تقوى صحيحة، سوف تكون لها فائدة قليلة لك، أو بلا فائدة»، لكن الملك، وإن كان رئيس الرهبان قد أجابه بحكمة، وضع خطة سرية ضد جميع رؤساء رهبان السسترشيان.

كيف التمس رئيس رهبان ويردون الرحمة من الملك

وكان في ذلك الوقت هناك فارس غني اسمه وليم بيوشامب. كانت له زوجة اسمها ايدا Ida، وكانت سيّدة من أسرة نبيلة. لكنها انحطت وباتت شريرة في أخلاقها، وكانت هذه المرأة مضطهدة لاتعرف التعب للرهبان من كلا الجنسين، الذين كانوا يعيشون من حولها، وقد وجدت الآن فرصة مناسبة نتيجة لغضب الملك، لإلحاق الأذى برئيس رهبان ويردون Waredon، فقد وضعت خططها بدهاء المرأة، وعملت شكوى جادة ضد رئيس الرهبان المذكور، وقدمتها إلى بلاط الملك، عارفة بأن الملك وهو في حالة غضبه سوف يدينه بعدل أو من دون عدل، وبناء على أسس تافهة، أو بالحرى من دون أسس مطلقاً، وهكذا ترك رئيس الرهبان عند رحمة الملك، وبما أن الملك كان قد أوقف جميع الطرق الأخرى للحصول على الرحمة، إلاّ بوساطة التقدم بالالتماس إليه شخصياً، كان رئيس الرهبان مرغماً على التقدم بكل تواضع بالتماس الرحمة من الملك، ولدى تقدمه بذلك، رد الملك بنظرة حادة أصحابها بقسم مرعب، وأجابه قائلاً: «كيف امتلكت يارئيس الرهبان الجرأة على طلب رحمتي؟ أولست أنت مع اخوانك من رؤساء الرهبان، قد رفضتم مؤخراً تقديم الرحمة لي في وقت حاجتي؟» ولذلك قد غرّمه مبلغاً كبيراً من المال بناء على تقدير مضطهديه وإرادتهم.

ووفق الطريقة نفسها، حدث أيضاً أن جرى ارغام رئيس رهبان روفور Rufore، وكان من طائفة السسترشيان، على دفع مبلغ كبير من المال، مع أن ذلك كان من دون عدل، وبحجة لا أساس لها،

اصلت وتطورت من قبل شخصين منحطين يدعيان «الغلامين»،
يمثل ذلك حدث ارغام رؤساء رهبان آخرين من طائفة السسترشيان
على المعاناة من خسائر مضاعفة وأضرار كبيرة.

رسالة البابا لصالح طائفة السسترشيان

نتيجة لهذه الإجراءات، جرى ارسال بعض الرجال الحكماء من طائفة
السسترشيان إلى بلاط روما، للحصول على فرج وخلاص من هذا
النوع من الظلم، وفي الوقت نفسه أرسل الملك وليم بونكوك
Boncopue، وكان فارساً بارعاً في القانون، إلى البلاط نفسه،
مثلاً له وليعمل لصالحه في الوقوف ضدهم، ولقضاء بعض الأعمال
الأخرى، وفيما يلي الرسالة التي حصل عليها السسترشيان:

«من الاسكندر، الأسقف وعبد عبيد الرب، إلى جميع أبنائه المحبوبين
من رؤساء طائفة رهبان السسترشيان ورهبان طائفة السسترشيان في
مملكة انكلترا وفي الأماكن الخاضعة لحكم المملكة المذكورة، تحيات مع
مباركات رسولية:

كلما ارتفعت مكانة الدين — الذي تحتل فيه طائفكم بنعمة الرب،
المقام الأعلى، الذي حصلت عليه بفضل سلوكها وقداستها — كلما
تعاظمت نحوها عواطف أمها، أي الكرسي الرسولي، الذي يرفع دائماً
من منافعها وفوائدها وازدهارها، ويقويها بالنعمة الروحية، ونحن بناء
عليه، الذين نرعى مشاعر عواطف عظيمة نحو الطائفة نفسها، قد
أخذنا بعين التقدير بأن ديرة الطائفة المذكورة، كانت في مملكة فرنسا
معفية من دفع العشور إلى الموارد اللاهوتية، وهي العشور التي منحت
من قبل من قبل سلفنا البابا أنوسنت صاحب الذكرى السعيدة، إلى
، لدينا المحبوب كثيراً في المسيح، الملك اللامع للفرنسيين، من أجل

نجدة الأرض المقدسة، لأن ذلك الملك عدّ بأن الصلوات الخالصة لتلك الطائفة سوف تكون أكثر منفعة من المساعدة الدنيوية، ونحن بناء عليه نرغب بتزويدكم بمواساة وتهدئة، وذلك بقدر ما نستطيع في تأدية واجبنا باستمرار نحو الرب، وأن نصنع لكم معروفاً خاصاً، وبفضل هذه العروض، نحن نمنحكم إعفاءً بعدم الدفع إلى ولدنا المحبوب كثيراً في المسيح، الملك اللامع لانكلترا، أو إلى أي شخص آخر، ونعفيكم من الارغام على أن تدفعوا له العشر من مواردكم ودخولكم، استناداً لحجة المنحة التي أعطيت إليه منذ ذلك الوقت من قبل الكرسي الرسولي، من عشور الموارد اللاهوتية في مملكته وفي الأماكن الخاضعة لسلطانه، من أجل نجدة الأرض المقدسة، ونحن على الرغم من ذلك نرسم بأنكم سوف تكونون أحراراً تماماً، ومعفين تماماً من دفع هذه العشور، ومن أي فروض أو مكوس على مقتنياتهم أو ممتلكاتهم، ونحن نلغي كلياً ونزيل جميع الاعفاءات، والرسائل، والإجراءات مهما كان نوعها، والمقررة لكم ولديرتكم، والتي جرى منحها من قبل الكرسي المذكور في هذه القضية، ونحن علاوة على ذلك نرسم بأن جميع الغفرانات والرسائل التي سوف تمنح من الآن فصاعداً، مهما كانت مقاصدها ومحتوياتها، سوف تكون بلاسلطة ضدكم، وضد ديرتكم، مالم يعملوا ذكراً خاصاً كاملاً، كلمة كلمة إلى هذا الغفران، وبناء عليه لا يجوز لأي واحد، مهما كانت الأسباب، التجرؤ على التجاوز، أو العمل بشكل مضاد لهذه الوثيقة، الحاوية لما ألغيناه ولمرسومنا، وإذا ما تجرأ أي واحد على فعل ذلك، ليكن على يقين بأنه سينال غضب الرب القدير، والرسولين المباركين: بطرس، وبولص. صدر في نابلس، في الخامس والعشرين من أيار، في السنة الأولى لحبريتنا.

إغلاق الموانئ

وفي حوالي يوم عيد القديس دنستان Dunstan، أغلق الملك الموانئ، ونحن لانعرف سبب ذلك، وذلك في سبيل منع أي أسقف، أو فارس، أو كاهن من عبور البحر، مع أن أسقفي باث وروكستر، كانا قد فعلا ذلك، وفرغا منه.

حول المبارزة التي عقدت في بلايث

وفي حوالي أحد الشعانين عقدت مبارزة عامة في بلايث Blithe، وذلك وفقاً لقوانين ومبادئ الفروسية، وقد حضرها ادوارد الابن الأكبر للملك، وهو يرتدي ثياباً كتانية، وواضعاً دروعاً خفيفة، في سبيل التدريب على قوانين الفروسية، وقد حاول كثير من النبلاء وسعوا للحصول على شهرة الفروسية ونيلها هناك، لكنهم ضربوا، وألقي بهم من على خيولهم، وسحقوا، وديس عليهم بالأقدام، وكان واحداً منهم هو وليم صاحب السيف الطويل، لم يتعاف بعد ذلك أبداً من آثار جراحاته.

رسائل وساطة لصالح طائفة السسترشيان

وفي حوالي الوقت نفسه، أرسل البابا رسالة التماس إلى الملك، لصالح طائفة السسترشيان، وبإلاضافة إلى هذا، كتب الكاردينال وايت White رسالة مخلصية كثيراً إلى الملك لصالح طائفة السسترشيان، ورجاه من أجل خاطر الرب، أن لاينهك تلك الطائفة المقدسة بمثل تلك الاستخراجات، وهكذا تمكن السسترشيان لبعض الوقت من التنفس بحرية، وتمتعوا بنوع من الهدوء والسكينة، فذلك ما كان عليه الحال.

اعتدال البابا في مطالبه

حصل الأشخاص الذين جرى إرسالهم إلى البلاط الروماني لصالح طائفة الأساقفة على تعديل للمطالب التي عملت من قبل البابا، وعلى شيء من التفريغ من شدتها التي لا تحتمل وكذلك من مظالمها الأخيرة، فهذا ما تظهره الرسالة التالية:

من الاسكندر، إلخ، إلى الأساقفة إلخ: يتوجب على المساعدة التي جرى تقديمها بوساطة بصيرتنا أنكم إذا لم تحصلوا على فائدة منها، أن لاتشعروا إلاّ بقليل من الضرر، وبما أن أئحانا المحترم أسقف هيرفورد قد قام باذن منا، قد منح إليه برسائلنا، بالاقتراض من ابنتا المحبوب بشكل خاص أوليفر روزا Rosa ومن رفاقه مواطني وتجار فلورنسا، مبلغ خمسمائة مارك استيرليني، من أجل تسوية أعمال ولدنا المحبوب كثيراً في المسيح، الملك اللامع لانكلترا، ومع أنه جرى الايضاح في هذه الرسائل، وفي الوثائق العامة، التي أعدت من أجل هذا القرض، وأودع في المحتويات، وتم تبيان أن قرض المال هذا، لم يكن من أجل المسائل المتعلقة بكم وبديركم، وهو القرض الذي قام الأسقف المذكور برهنكم مع الدير المذكور وممتلكاته إلى التجار المذكورين، نحن نرغب في ترتيب هذه القضية بشكل لاتتعرضون أنتم فيه ولاالدير المذكور لأي أذى من هذا الإجراء، ولذلك نحن نمنحكم بموجب سلطات هذه العروض إذناً مفتوحاً، أنه إذا ماعجز الملك المذكور عن دفع المال المذكور، وكان من المتوجب عليكم ارضاء التجار المتقدم ذكرهم من أجل القرض، أن تحتفظوا بين أيديكم بممتلكاتكم بشكل مطلق، وأن تحذفوا من عشور مواردكم اللاهوتية القدر نفسه من المال الذي دفع إلى الملك من أجل نجدة الأرض المقدسة، وذلك حتى يصل إلى مثل المبلغ الذي سوف تدفعونه إلى التجار المذكورين، مع الخسائر والنفقات التي سوف تتحملونها بسبب هذه القضية، دون التقييد بأية رسائل إما جرى

الحصول عليها أو سوف يتم الحصول عليها من الكرسي الرسولي، فيما يتعلق بجمع العشور المتقدم ذكرها، مهما كانت الجهة التي وجهت إليها، أو مهما يكن القضاة أو الوكلاء الذين يمكن أن يكونوا وجهوا إليهم، وعلاوة على ذلك، إنه إذا ما حدث بسبب الاحتفاظ بالعشور المذكورة وصدرت أية قرارات بالتعليق، أو بالحرمان الكنسي، أو بالحرمان من شراكة المؤمنين، وجرى إعلانه ضدكم، أو ضد أي واحد منكم، من قبل أية فئة مهما كانت، إننا نرسم بموجب قوة هذه العروض، ونقضي بأن يكونوا لاغين وفارغين، وأنكم غير ملزمين بالأخذ بهم وتطبيقهم».

الفتور العام في مشاعر الإخلاص نحو البابا

وفي حوالي الوقت نفسه سيطر فتور على مشاعر الإخلاص التي كنا نشعر بها نحو والدنا البابا، وأما الكنيسة الرومانية، لأنه منذ اللحظة الأولى لتعيينه، عندما طلب من المسيحيين تقديم صلواتهم له، نظر كثيرون إلى ذلك على أنه عمل نفاق لتغطية إجراءاته الدنيوية، لكن شكوكهم أخذت تميل إلى الهدوء لدى تذكرهم نصيحة القديس، حيث قال: «عندما تبدأ بأي عمل صالح، توجه بالدعاء بإخلاص إلى الرب ليكمله هو نفسه» إلخ، ولكن بما أن هذا الإخلاص قد تبعته أعمال ذات طبيعة مضادة، بدأت تقارير غريبة تنتشر حوله، والآمال التي عقدت من قبل على قدسية البابا، قد خمدت وانطفأت، فقد جرى التهامس في آذان الكثيرين، وتبين أن ذلك وقع حقيقة، بأن البابا قد خدع، وأن كثيراً من أعمال الزيف والخداع المضاعفة قد اقترفت بوسائل الختم العظيم، وهذه الأسباب، وإن كانت منطقية، لا تشفع للبابا ولا تسوغ عمله، ولا تعطيه العذر.

انتخاب جايل لأسقفية سالسبري

وحوالي الوقت نفسه قام الكهنة النظاميون في سالسبري، بانتخاب

المعلم جايل أوف بريديلفورد Bredelford أسقفاً لهم وراعيًا
لنفوسهم، ولدى عرضه على الملك، جرى قبوله منه، لأنه لم يجد أية
أرضية فيه لرفضه.

انتخاب رالف أوف نورويك لرئاسة أساقفة دبلن

وجرى انتخاب المعلم رالف أوف نورويك، وكان رجلاً مثقفاً
وفصيحاً، وقد تعلم منذ سني حياته المبكرة في بلاط الملك، أكثر منه في
مدارس العلوم العقلية، ليكون رئيساً لأساقفة دبلن، ولكن بسبب
معارضة هذا الانتخاب من قبل بعض الفئات، جرى تأخير تثيسته، وفي
الحقيقة جرى توجيه اللوم إلى الناضحين لقيامهم باختيار رجل دنيوي
تماماً، وكان مايزال في خدمة الملك، وتحت حكمه، حيث كان المتسلم
لجمارك إيرلاندا، وهكذا جرى إلغاء الانتخاب.

سفر رئيس رهبان ويستمنستر وروستاند

قام رئيس رهبان ويستمنستر، والمعلم روستاند، والأسقف المنتخب
لسالسبري، بالسفر بحراً، بناء على طلب من الملك، لترتيب بعض
الأعمال له، التي لانعرف طبيعتها، لكن القائمة على خطط سرية، وكان
من المؤمل أن تكون خططاً جيدة، كما أن أسقفي باث وروكستر قد
سافرا مسرعين بصورة سرية، للقيام برحلة عبر الألب، لإبادة الكثير من
البذور المضاعفة لعدم الاتفاق التي انتعشت الآن، وقام رئيس الرهبان
ورفاقه بالمغادرة في بداية شهر حزيران.

المرسوم الجديد للملك حول تقليد الفرسان

وصدر في هذا العام مرسوم ملكي، وجرى الإعلان في جميع أرجاء
انكلترا، بأن كل واحد يمتلك خمسة عشر امتيازاً من الأرض أو أكثر،
ينبغي عليهم الشروع بالتدرب على استخدام السلاح، وأن الذين
لا يرغبون بحمل شرف مرتبة الفروسية، ولا يمكنهم تحمل ذلك، عليهم

شراء اعفاءهم، وعمل هذا في سبيل تقوية فروسية انكلترا، كما هو الحال بين الايطاليين.

إقامة السلام بين الفلمنكيين والألمان والفرنسيين

أعيد إقامة السلام بين الفرنسيين، والألمان والفلمنكيين، لكن ظل ينظر إلى ذلك بريبة، لأن كثيرين جداً من على الطرفين، لابل في الحقيقة من جميع الأطراف، قد عانوا من الأذى والخسارة، حيث أن أكوام الرماد المتكاثرة لا يمكن أن تصبح باردة، بل لابد من بقاء بعض شرر الغضب، وعقد السلام بين الشعوب المتقدمة الذكر في يوم عيد القديس سيرياك Cyriac وأمه.

عاصفة ثقيلة

وفي اليوم الثالث بعد ذلك، هبت عاصفة غير اعتيادية، أو بالحري عواصف متوالية من الرياح والمطر، ترافقت مع البرد، والرعد والبرق، فأرعبت قلوب الناس، وسببت تدميراً كبيراً، وكان بإمكان الإنسان أن يشاهد دواليب الطواحين وقد انتزعت من محاورها، ونقلت بوساطة عنف الرياح إلى مسافات بعيدة، ودمرت في طريقها البيوت المجاورة، والذي فعلته المياه إلى الطواحين المائية، لم تعجز الرياح عن فعله للطواحين الهوائية، وتغطت دعائم الجسور بالحشائش وحملت أكواخ الصيادين مع شباكهم وأعمدتهم، لابل حتى الأطفال وهم في مهودهم، وقذفوا بعيداً فجأة، وهكذا بدا بأن طوفان Deucalion قد تجدد، ودون أن نذكر جميع المناطق، نشير إلى أن بدفورد التي تسقى بنهر أوسي Ouse قد عانت منه من دمار لا يمكن تقديره، مثلما كان قد فعل قبل سنوات قليلة مضت، وحدث في الحقيقة أنه في أحد الأماكن جمعت على الفور ستة بيوت مع بعضها بعضاً وحملت بعيداً بوساطة التيار السريع، وواجه سكانهم مصاعب جمّة في انقاذ أنفسهم، وتعرضت أماكن أخرى مجاورة للنهر إلى مخاطر مماثلة.

حول المرسوم الذي عمل في كنيسة القديس ألبان في ذكرى الملك أؤفا

في هذا العام، في ذكرى يوم اعدام القديس ألبان، مقدم الشهداء في انكلترا، وهو اليوم الذي اعتاد فيه جميع رؤساء رهبان الديرة المتعلقة بدير القديس ألبان، على ممارسة الاجتماع في ذلك المكان، ويومها رسم في الهيئة الرهبانية التي اجتمعت هناك، بحضور رؤساء الرهبان وحشد جميع الرهبان مع جميع رؤساء الرهبانيات، وتقرر بموافقة الجميع، أنه في نهاية كل ساعة نظامية في جوقة المرتلين، وبعد تقديم صلاة الشكر أثناء الغداء، وبعد الصلوات، وصلوات الأسرة ومزاميرها، وفي المصح، وكذلك في غرفة رئيس الرهبان، ينبغي تلاوة الكلمات التالية: «عل روح الملك أؤفا ترقد بسلام»، وينبغي أن يجري ترداد ذلك بصوت واحد مرتفع، وأن هذا ينبغي الالتزام به من دون توقف أو انتهاك إلى الأبد.

وما من أحد يتذكر بأن هذا قد عمل من قبل، وكان اهماله غير معذور مهما كان الأمر، وبذلك لم يعد بالامكان الاستمرار بتوجيه النقد إلى الدير بالعقوق، وصحيح أن هذا المرسوم جاء متأخراً، لكنه عمل الآن، لأن ذلك الملك النبيل، الذي كان ملك الميرشيان Mercians، هو المؤسس الكريم لذلك الدير، والمعبد التقني للدين، فهو وإن كان متواضعاً جداً، ومنصرفاً إلى التدين، كان قوياً جداً وشجاعاً في الحرب، وكان مثل شارلمان في فرنسا، الذي كان معاصراً لأؤفا وصديقاً كبيراً له، وهو الذي أخضع جميع الذين ثاروا ضده، ولقد تمكن أؤفا العظيم من قهر جميع الأمراء الصغار واخراجهم من انكلترا، وهم الذين كانوا فيما مضى يصبون جام غضبهم وازعاجهم هناك، لذلك كان هو وحده الذي استحوذ على جميع المملكة تقريباً، أي المملكة الانكليزية، لأنه تملك بالقوة وحافظ على تملك خمس وعشرين منطقة، دعيت من قبل الانكليز باسم Shires، وأعتقد أنه لن يكون بعيداً عن موضوعنا إذا ما قمت بايراد ذكرهم في هذا الكتاب، حتى يمكن البرهنة على قدرته

وعلى اتساع حكمه، وعلى قداسته ببنائه الدير الفخم للقديس ألبان.

المقاطعات التي كانت تحت حكم الملك أوف

هتتغدون وكيمبردج ١٥-١٦	هيرفورد وووركستر ١-٢
هارتفورد واسكس ١٧-١٨	غلوستر ووورويك ٣-٤
ميدلسكس ونورفولك ١٩-٢٠	تشيشتر وستافورد ٥-٦
ساوثامبتون وروتلاند ٢١-٢٢	شروبري وديربي ٧-٨
أونوتنغهام	
	ليستر ولنكولن ٩-١٠
	نورثامبتون واكستير ١١-١٢
	بكنغهام وبدفورد ١٣-١٤

ملحق الملك أوف بدير القديس ألبان

وعلاوة على ذلك، أسس هذا الملك أوف لدير القديس الحرية في المسائل الدنيوية، ويقدر ما يستطيع أي ملك أن يفعل بالنسبة لهذا الدير كان هو المؤسس النبيل له، وفي سبيل أن يجعله أيضاً حراً في المسائل الروحية، ذهب شخصياً إلى روما، وأسس هناك مدرسة من أجل الانكليز، وذلك بالإضافة لإعطاء كثير من المنافع عندما كان مسافراً، وبعده عن جدارة، استحق على هذا، هذا الملك الذكرى السرمدية، وحصل على المنفعة الروحية للصلوات من أجل الغفران لروحه، التي جري التفوه بها إلى الأبد في الدير وفي كل مكان آخر، حسبما ذكرنا أعلاه، وذلك عند نهاية كل ساعة ترتيل نظامية، وبعد صلاة الشكر عند الغداء.

الاضطرابات التي وقعت في روما بسبب اعتقال الشيخ

وتفجرت في حوالي الوقت نفسه اضطرابات في مدينة روما بين النبلاء والشعب في أعقاب اعتقال وسجن شيخهم برانكليون بسبب الاستقامة والتشدد في إدارته للعدالة (لأنه تسبب بشنق جميع الذين أدينوا بالقتل، والسرقة، وجرائم أخرى، وبالتشويه وبعقوبات مضاعفة بطرق متنوعة)، وقامت زوجة الشيخ (التي يقال لها الشيخة) بالفرار بشكل سري، ومضت بكل سرعة إلى بولونا، حيث كان يوجد ثلاثين شاباً من أعلى الطبقات في المدينة محبوسين هناك بمشابة رهائن من أجل سلامة برانكليون، وأخبرت سكان تلك المدينة بالذي اقترف، وبناء عليه احتفظوا بالرهائن تحت حراسة مشددة، وأثار بعض الكرادلة الذين كانوا من أهل روما، ومنحدرين من أسر نبيلة، غضب البابا ضد سكان بولونا، وبذلك ازدادت الاضطرابات.

المعركة التي وقعت عند سوق بوتولف

ونشب في هذا العام أيضاً خلاف عند سوق بوتولف Botulph، وقد بدأ ذلك بخلاف وانتهى بمعركة بين الناس من أتباع بطرس أوف سافوي، وأتباع روبرت تيتشيل Tateshale الذين شاركوا في استلام بعض الأجور التي كانت تستخرج من ذلك السوق، وبما أن أعداد المتصارعين قد ازداد كثيراً، وهدد بمزيد من سفك الدماء، تدخل أتباع الايرل رتشارد بحكمة وأوقفوا الهياج، وينبغي أن يكون معلوماً أن بطرس عندما كان على وشك مغادرة انكلترا، تمكن بقوة الالتماسات والهدايا، من اقناع الايرل رتشارد لأن يصبح الحامي لمقتنياته، وهكذا كان بطرس مستفيداً أكثر بكونه غائباً من لو أنه كان حاضراً، لأن الناس قالوا بأنه كان من العيب إلحاق الأذى برجل أثناء غيابه، خاصة عندما ألهموا بتأثير العاطفة، وبالروح الكريمة، في أنه كان يقاتل لإنقاذ أخيه، وهكذا توقف الخصام لبعض الوقت.

كيف كتب البابا إلى ملك إنكلترا وملكته

وقام بالوقت نفسه بطرس أوف سافوي مع نبلاء أسرته: رئيس أساقفة كانتربري، والأسقف المنتخب لليون وسافونيين آخرين بحصار مدينة تورين بنشاط كبير، وهكذا أخذت المؤن تتناقص في المدينة، وبدا هناك أنه لا توجد فرصة بوصول نجدة إليهم عن طريق نهر البو Po، وطرده السكان من المكان جميع الذين كانوا غير قادرين على حمل السلاح، وكانوا كلما ازداد عليهم الحصار شدة وضيقاً كلما زادوا من التضيق على الكونت توماس في سجنه، من أجل أنهم (سكان المدينة) إذا ماتوا للأسر والعقوبة، تتوجب معاقبة ذلك الكونت في المقام الأول، لأنه كان السبب في مشاكلهم من الأول إلى الآخر، وقام البابا لكي يبدو أنه كان راغباً في فعل شيء جيد إلى ملك إنكلترا وملكته، في ظل تلك الظروف، فكتب رسالة لهما على شكل مواساة وتهذئة، وقد جاء نصها كما يلي:

«من الاسكندر، أسقف، إلخ، إلى ابنته المحبوبة كثيراً في المسيح، الملكة اللامعة لانكلترا، ثقيات ومباركات رسولية:

مؤلمة حقاً ومحنة الأضرار التي أنزلت على الأبناء المخلصين للكنيسة، وقلبنا منزعج كثيراً نحو الاعتداءات التي اقترفت ضد العبيد المخلصين للكرسي الرسولي، ونحن نحزن أكثر تجاه اضطرابات أولئك الذين أشع اخلاصهم وتقواهم نحو الكرسي الرسولي، بشكل واضح أكثر، لأنهم نالوا فوق الآخرين لقب الطهارة، فاستحقوا الخطوة الأعظم والتشريف الأكبر من الكرسي المذكور، لأننا نشعر بأن المظالم التي وقعت على هؤلاء الأشخاص قد وقعت علينا أنفسنا، وعندما يصابون نحن نتذوق مرارة جراحاتهم، ولقد علمنا بمرارة في القلب وانزعاج في الروح، أنه عندما ذهب سكان آستي Asti لتدمير قلعة مونتكالير Montcalier، في وقت مضى، قام ولدنا

المحبوب كثيراً، النبيل الكونت توماس أوف سافوي، الذي هو عمك، وكان وقتها يعيش في تلك القلعة، بالفرار من هناك، وحمل نفسه إلى مدينة تورين، آملاً أنه بمساعدة سكان ذلك المكان، الذي هم أتباعه، أن يتمكن من استرداد تملكه للقلعة المتقدمة الذكر، التي من المعروف أنها عائدة له، لكن سكان تورين المتقدم ذكرهم، قاموا بعدما استخفوا بكل الغضب من الرب، ومن الاهتمام بسمعتهم، فاندفعوا بطيش، وخرقوا اليمين التي كانوا مربوطين بها نحو ذلك الكونت، وأقدموا بناء على إثارة سكان آستي ومساعدتهم باعتقاله وجعله سجيناً، وبذلك جلبوا على أنفسهم وصمة الخيانة، وجرحوا هذه الأخبار المزعجة قلوبنا بحزن عميق، وهي أكثر إيلاًماً إلى عيوننا لأن السجين نفسه عزيز جداً علينا، ولذلك حزناً — وليس ذلك لسبب غير صحيح — من أجل أن ولدنا، الذي نحبه بشكل خاص من بين جميع الآخرين، بات الآن سجيناً، ونحن نشعر بالأسى — ولاعجب في ذلك — لأن مثل ذلك الشخص النبيل الرفيع، الذي يمكن الاعتماد عليه في تأدية الواجبات المخلصة، قد سقط في أيدي خونة، وهو موجود في سجن مشدد عليه، لأنه غدا أكثر قوة، نتيجة إخلاصه المستمر، وعمله المتواصل من دون ملل في سبيل رفعة شأن الكرسي الرسولي، وبما أننا نرعي مشاعر طيبة خاصة نحو الابرل المتقدم ذكره، ونحو أسرته، ولأننا شعرنا دوماً بعواطف خاصة نحو بيته بسبب إخلاصه الخاص نحونا، لهذا إننا نشعر على هذا الأساس بالألم بحدة أكبر بسبب معاناته، ونتذوق مرارة مايعانيه بقوة أعظم، وعلاوة على ذلك إن آلامه تثيرنا وتؤلنا عن قرب، لأننا نتعاطف مع آلامه التي يعاني منها، وبالطريقة نفسها نحن لايمكن أن نضرب بجلدات العدوان من دون أن نكون ذاتياً قد ضربنا على الفور مثلما ضرب هو، وفي الحقيقة، هو لديه مشاعر مماثلة نحونا، وحول أحزانه إلينا بنوع من أنواع التحويل المريرة، وعلى هذا رأينا أنه أمر صحيح، أن نلتمس برجاء وأن نحث جلالكم المخلصة بالقيام بإلقاء القبض على

الأشخاص والممتلكات العائدة للمواطنين من تورين وآستي، الذين من الممكن وجودهم يعيشون في بلادكم وخاضعين لحكمكم، وأن تحتفظوا بهم سجناء، إلى حين تتم إعادة الكونت المتقدم ذكره إلى وضعه السالف من الحرية»، وقد جرى إرسال رسالة مماثلة إلى الملك.

كيف سأل رهبان دير أبينغدون الإذن من الملك القيام

بانتخاب رئيس للرهبان عوضاً عن الحالي الذي كان يموت

أصيب في هذا العام رئيس رهبان أبينغدون Abingdon بالشلل، وأثناء تمده بلا حراك، متوقفاً الموت، ذهب رهبان ذلك الدير إلى الملك وسألوه بتواضع، بما أن رئيسهم كان يحتضر، وبات غير نافع للآخرين، أن يستحوذوا سلمياً على ديرهم، وأن يضعوه بين أيديهم، في سبيل عمل ترتيبات نافعة لتلبية حاجاتهم والتزود بها، وفي سبيل الحصول على حظوة موافقته دفعوا خمسمائة مارك، من أموالهم الوافرة، إلى الملك، وبعد عودتهم إلى موطنهم بخمسة عشر يوماً مات رئيس الرهبان المشلول، وقام الرهبان على الفور بعمل الترتيبات اللازمة وجهزوا أنفسهم لانتخاب رئيس رهبان آخر، لأنه كان مسموحاً لهم بفعل ذلك، بموجب صك حصلوا عليه مؤخراً من الملك، وكان الملك قد اعتقد بأن حياة رئيس الرهبان سوف تطول لبعض الوقت، لأن الأشخاص المشلولين يعيشون بالعادة لوقت طويل، وعندما أخبر بوفاته، دهش كثيراً، وعقب على ذلك بحزن قائلاً: «بحق رأس الرب (لنستخدم كلماته المعتادة) كم أنا خدعت وغششت! فلقد تسلمت خمسمائة مارك فقط، من ذلك الدير الغني، الذي بات شاغراً بمثل هذه السرعة، في حين لو أنني احتفظت به بين يدي لأيام قليلة فقط، لكنت قد حصلت من غاباته فقط، من دون تعويضات أخرى، ما كان قد أضاف إلى خزانتي مبلغ ألف مارك أو أكثر»، وبناء عليه بات واضحاً وضوح النهار، لكل واحد بأن تعطش الملك ونهمه قد ازداد كل يوم

أكثر فأكثر، وكان هذا حتى بعدما أقسم على المحافظة على امتياز الكنيسة وراحتها وسكونها.

كيف قدم جون دي ديا إلى انكلترا بموجب أوامر البابا

وفي حوالي هذا الوقت نفسه، قام الراهب جون دي ديفا Diva أو ديا Dia، وهو شخص جدير بالشأن، من طائفة الفرنسيين، بالقدوم إلى انكلترا، مع تفويض من البابا لتنفيذ جميع الإصلاحات المطلوبة.

تأكيد أقحام رئيس رهبان وينكستر

وجرى الآن بالنسبة لأندرو، رئيس رهبان وينكستر، الذي أقحم في ذلك المنصب من قبل الأسقف المنتخب، تثبيتته في منصبه، على الرغم من معارضة الرأي العام للجميع (مما يبرهن على القوة العظيمة للرشوة في روما)، أما ما يتعلق برئيس الرهبان القديم، الذي قد أنفق أموالاً كثيرة للحصول على حقوقه، فقد عاد الآن إلى انكلترا معاقاً غير محقق لهدفه، مع أنه كان يشعر بالأمل، من خلال بعض الوعود التي كان قد تلقاها، ليس من دون الوعد بتقديم مكافأة كبيرة مقابل ذلك، أي مقابل أن يعاد إلى وضعه رئيساً للرهبان في ديره، وذلك بمثابة طلب عادل، وجرى على كل حال تعيين بعض العزب العائدة للدير ومنحها له، حتى تتوفر له وسائل الانفاق والعيش طوال حياته، مع أن بقية حياته عبرت باضطراب وإهانة، وبرهنت هذه الواقعة عن مدى التأثير الكبير للرشوات في بلاط روما، وجرى الآن استدعاء الرهبان المتفرقين وإعادةهم، وهم قد تجلّلوا بالعار والشنار.

حول المكوس الجديدة التي فرضت على مواطني لندن

أرغم سكان لندن، الآن مرة جديدة على دفع مكس وصل إلى

خمسائة مارك، وفي سبيل اعطاء بعض اللون لأسباب هذه الاستخراجات، ذكروا في بعض الأحيان أنها جاءت من أجل استخدامات الملك، وذكروا مرة ثانية أنها لصالح الملكة، وهم الآن يتوقعون أن تفرض عليهم ضرائب لصالح ادوارد، ولذلك كانوا تماماً تحت رحمة الملك، من دون التقيد بأي امتياز، وقد تحولوا إلى حالة هي أسوأ أنواع العبودية.

حول الاستيلاء على ممتلكات روبرت دي روس

وجرى الآن أيضاً الاستيلاء بشكل غير إنساني على ممتلكات روبرت دي روس، التي تكونت من الثيران، والأغنام، والقطعان من مختلف الأنواع، وعلى جميع ما امتلكه في مملكة انكلترا، حيث جرى بيع الجميع بشروط جيدة، وفقاً لرغبات المشترين، وهو لم يحصل على أية فائدة من اللهجة المتواضعة، وعرضه تقديم التعويض، كما أنه لم ينتفع من طاعته للأوامر التي حصل عليها من الملك، بعدم السماح للملك سكوتلندا وملكتها بالنوم معاً، بسبب صغر سنهما، حتى حلول وقت محدد، قد تبرهن أنه لم يحل بعد، ثم ثابر روبرت على طلب العفو من الملك، وكان كله أمل بالحصول عليه، ولكن بما أنه لم يحصل بعد على هدفه، تهامس الناس، وتردد بين صفوفهم، بأن هذا الحرمان من الخطوة الملكية، مرده إلى الكراهية الشديدة التي شعر بها الملك نحو شعب الشمال، الذي حاول من قبل خلع أبيه من العرش، وأنه اضطهد أناساً آخرين في الشمال، مثلما فعل مع روبرت نفسه، بسبب تلك الكراهية نفسها، لأن الملك قد قام حتى الآن، باستثناء روبرت هذا وجون بالأويل (الذي كان الآن يبذل غاية جهوده حتى لا يسقط)، قام الملك بتجريد جميع نبلاء الشمال من ثرواتهم الماضية، وحوّل ممتلكاتهم إلى أجنب، أه منك أيها الملك المدهش، الذي لا يتذكر الخدمات والواجبات التي قدمت إليه، بل تعبر من ذاكرته مثل عبور غيوم الصباح، لكن صدره يخترن

الإساءات طويلاً، فما الذي عمله روبرت حتى استحق الملامة، آخذين بعين التقدير جوابه، عندما عرض الدفاع عن نفسه بجسده، غير أنه لم يستطع تبرئة نفسه من التهم التي وضعت ضده، لذلك خضع لحكم أعدائه، أو بالحري أصدقاء المناخ الطيب، الذين عندما يأخذ إنسان بالسقوط يعجلون بسقوطه، لكن كانوا يساندونه في أوقات ازدهاره.

تأسيس السلام بين رئيس رهبان القديس ألبان وويستمستر

في هذا العام أيضاً، تم بعد تقلبات كثيرة، إقامة سلام بين رئيس رهبان دير القديس ألبان، ورئيس رهبان دير ويستمستر، في قضية الخلاف المتعلقة بـ ألدينهام Aldenham، ومن الممكن الوقوف على شروط السلام في كتاب Additaments.

تكريس سيوول رئيساً لأساقفة يورك

جرى تكريس المعلم سيوول Sewal رئيساً لأساقفة يورك، وذلك بعدما أخذ من وسط تلك الكنيسة حيث كان عميدها، وكان القديس ادموند، رئيس أساقفة كانتربري، الذي كان سيوول تلميذه ورفيقه قد توقع كثيراً من الخير منه.

السلام الذي أقيم بين و. أسقف

إيلاي وهـ. رئيس رهبان رامسي

وفي حوالي الوقت نفسه أقيم سلام بين و. W أسقف إيلاي، وهوغ رئيس رهبان رامسي حول قضية السباح، وقد وقعت واقعة مدهشة، فوق هذه السباح في أيامنا، وكان ذلك في أماكن كانت منذ زمن سحيق من دن ممرات، ولا يمكن الوصول إليها، حيث لم تتوفر وسائل للسفر للناس أو للمواشي، كما لم يكن هناك سكان، بل مجرد نباتات وأعشاب، ووحل عميق، وأماكن مستنقعية، مسكونة فقط

بالطيور، دون أن نذكر الأرواح الشريرة (التي عنها قرأنا في سيرة حيا القديس غوثليس Guthlace الذي اتخذ مسكنه هناك، بناء على إرادته، لأنه مكان رعب وعزلة واسعة)، وأقول لقد تحولت هذه الأماكن الآن إلى مروج واسعة، لابل حتى إلى أرض صالحة للزراعة. وهذه الأماكن نفسها التي كانت لا تنتج قمحاً أو تبناً، تنتج كميات وافرة من الأعشاب السيفية، والحلفاء، مع مواد أخرى للحرق. لاستخدامات السكان ومنفعتهم، ولذلك نشب خلاف بين الذين سكنوا السباح منذ البداية، تتعلق بحدود هذه الأماكن، وأقسام الأرض وحصصها، وقادت هذه الخلافات إلى نزاعات ومعارك.

الفضيحة التي تأصلت في دير الثالوث المقدس في لندن

في يوم عيد القديس بطرس في الأغلال، نشب نزاع في دير الثالوث المقدس في لندن، بين اثنين من الكهنة النظاميين في ذلك الدير، اختلفا دوماً حول لاشيء تجاوز صوف الماعز، وصدر عن هذا النزاع كراهية شديدة، وهي كراهية سعت إلى القيام بالانتقام عن طريق سفك الدماء، لابل والقتل أيضاً، حيث شجع الشيطان على ذلك، ذلك أنه يزيد من الغضب ومن الكراهية الموجودة، ويوقدها بنفسه غير التقي، وقام الأول من الاثنين فاغتنم فرصة مناسبة لمحاولة اقتراف جريمة كبرى، حيث أقدم على قتل الآخر، وفي سبيل أن يظهر نفسه —القاتل— بأنه أثير ودفع على اقتراف جريمته، أقدم على جرح نفسه بشكل مرعب كما أنه شوّه نفسه، وارتفع آنذاك صراخ وولاوليل، وجرى اعتقال مقترف الجريمة، وعوقب وفقاً للأحكام الدقيقة للعدالة، وبوساطة الشيطان، الذي خطط لجميع هذه الإجراءات، وهكذا فإن الجماعة الرهبانية، التي اهتم بشكل رئيسي بتشويه سمعتها، والاساءة إليها، حصلت —لأسفنا— على الفضيحة، وعلى العار، والاضطراب، فما الذي يمكن لهذين الكاهنين

النظامين المتمردين، اللذان حصلا على خطر ورعب اللعنة والادانة، أن يقولوا أمام محكمة القاضي الأعلى، وإلى المتهم للجنس البشري؟ الويل لهما، اللذان من خلال فضيحتهما قامت الاساءة إلى سمعة الرهبان بشكل عام، ويتوجب على الرهبان الذين ينصب لهم الشيطان بشكل خاص أحاييله وشباكه، أن يكونوا واعين وحذرين، وأن يلجموا غضبهم وكراهيتهم عندما تنشب النزاعات وأعمال اللوم، لأن «الغضب ينتج الصراع، ويسبب الصراع الحروب، وتسبب الحروب الموت»، ومثل هذا الموت، كما حصل للأول، جلب الموت للثاني، وكان موتاً أبدياً.

كيف جرى الاعتراف بما انفرد ابناً شرعياً للإمبراطور فردريك

وتبين في هذه الآونة، أن مانفرد الذي ساد الاعتقاد لوقت طويل أنه كان ابناً طبيعياً لفردريك، بعد البحث عن الحقيقة في القضية، أنه لم يكن مجرد ابناً طبيعياً (أي غير شرعي)، بل ابناً شرعياً لذلك الملك، وبناء عليه نال على الفور محبة وتشريف الصقليين والأبوليين، الذين شرعوا الآن بالوقوف إلى جانب قضيته، فلقد حدث قبل عشرين سنة مضت أن أم مانفرد هذا، وقعت مريضة بشكل شديد، فقامت بمراسلة الامبراطور راجية إياه من أجل خاطر الرب أن يزورها، ويشفق عليها، لأنها اعتقدت أنها كانت على حافة الموت، واستجاب لطلبها، وعند ذهابه إلى المرأة خاطبته، ويديها مطبقتين والدموع نافرة من عينيها وقالت له: «أشفق عليّ يامولاي، وساعدني بما أنني على وشك الموت، ذلك أنني سوف أكون في خوف عظيم من المخاطر على جسدي، لابل إن خوفي هو أعظم حول ما يتعلق بروحي الذي هو خطر قريب ووشيك، فأنت لك ولد طبيعي مني اسمه مانفرد، كنت قد حملت به منك، فهل يرضيك أن تقترن بي، في سبيل أن يكون شرعياً، ومن أجل أن تتحرر روحي من الخوف»، واستجاب إلى التماساتها، وتزوج الامبراطور منها، لكن الواقعة بقيت

سرية لسنوات كثيرة، وفي هذا العام تبرهنت — على كل حال — حقيقتها إلى الصقليين والأبوليين، ولذلك وقفوا منذ ذلك الحين بثبات إلى جانبه، وانحازوا إليه ضد البابا، وضد جميع الذين عارضوه، وشرع مانفرد أيضاً يزدهر في حياته، ويحقق الانتصارات على جميع أعدائه، وكان الرب تجاه ذلك راضياً ومسروراً، وبما أنه أخذ يحصل على النتائج الطيبة في الحرب ضد البابا، بدأ هذا الأخير يسعى من أجل السلام، لأن مانفرد كان قد استولى على نابلس وبارليتا Barletta، وعلى مدن ساحلية أخرى، وعلى كابوا Capua، وعلى كثير آخر من المدن والبلدات، والذي كان أكثر فائدة له هو أنه تصالح مع النبلاء والناس وكسب قلوبهم إليه، ويالأسف، ووأسفاه، لم يكن هناك أي أسقف من أساقفة الكنيسة، كان يمكنه أن يواسي البابا ويتعاون معه، وهذا أمر لا يمكنني أن أتفوه به، أو أدونه كتابة من دون فيض من الدموع، فلقد تصرف البابا بطريقة نحو الأتباع المؤمنين للمسيح، الذين توجب عليه أن يرعاهم بعواطف أبوية، ويضمهم إلى صدر إحسانه، نعم تصرف بطريقة جعلت ما من واحد يتعاطف معه في أزmate، لابل أكثر من ذلك وعوضاً عنه، إنه إذا ما قام أي واحد باغضابه والاضرار به، مع أنه قد يكون رجلاً شريراً ومعتدياً، ومقترفاً آثماً، ترى كل واحد مسروراً تجاه نجاح المضطهد.

إطلاق سراح برانكليون من السجن

أما بالنسبة لبرانكليون، الشيخ الروماني، الذي انتشرت سمعته الطيبة في الخارج، والذي عانى من اضطهاد كبير من نبلاء روما لتمسكه بالتنفيذ الدقيق للعدل، فقد جرى إطلاق سراحه من السجن، بوساطة تدخل الناس، وهو السجن الذي كان قد رمي به فيه.

كيف قدم ملك سكوتلندا وملكتهما إلى إنكلترا

في بداية شهر آب، وبناء على ما يشبه رسالة من ملك إنكلترا

وملكتها، قدم ملك سكوتلندا وملكتها إلى انكلترا، يحيط بهما مرافقة كبيرة ومشرفة (من المعتقد أن بين عددهم كان هناك حوالي ثلاثمائة فارس) وقد جاء لزيارة ملك وملكة تلك البلاد، وأرادت ملكة سكوتلندا أن تشاهد أبيها وأمه، ملك انكلترا وملكتها، ورغب ملك سكوتلندا في رؤية ملك انكلترا الذي أحبه، وكان قد تبناه، كابن له، وأراد رؤية الملكة أيضاً، لأنها كانا متشوقين كثيراً لرؤية ملك انكلترا وملكتها، وكذلك المملكة نفسها، وكنائسها، ومدنها، وقلاعها، وأنهارها، ومروجها، وغاباتها، وحقولها، وفي الحقيقة مشاهدة جميع المشاهد الجميلة التي تبرهن وجودها في تلك المملكة فوق سواها.

كيف ذهب ملك إنكلترا لاستقبال ملك سكوتلندا وملكتها

عندما علم ملك انكلترا بوصولهما، خرج بسرور عظيم لاستقبالهما على الطريق، وبعدما عانقهما دخل معهما في أحاديث ودية، وصديقة، وبناء على أمر الملك، اجتمع عدد كبير من النبلاء في القصر، لاستقبالهما، وعندما اكتمل اجتماع الجميع، كان من الممكن تعداد عدة آلاف من الخيول، وكتلة عددها أكبر من الرجال، ولم يكن بإمكان أية مدينة، ولاحتى العزبة الملكية لوودستوك Woodstock، حيث اجتمعوا مع بعضهم، كان يمكنها أن تستوعبهم جميعاً، وأقام الفرسان، وعسكروا في سراقات نصبت في الغابات والحقول لهذه الغاية، وامتلأت مدينة اكسفورد أيضاً مع جميع القرى المحيطة بها بالضيوف، ومن اكسفورد انطلقوا نحو لندن عبر طرق متنوعة، حتى لا يكون هناك نقص بالمؤن، بسبب وجود ذلك الحشد العظيم، وكان الملك قد أصدر أوامر بتزيين مدينة لندن، بالأعلام، والأكاليل، وبوسائل زينة أخرى مضاعفة، في سبيل أن تظهر المدينة وكذلك ويستمنستر، متميزة بالبهجة، وجرى تنفيذ هذا تماماً، وبعد الاحتفال بعيد صعود العذراء المباركة بفخامة كبيرة في وودستوك Woodstock، في كل من الكنيسة

والقصر الملكي، انطلق ملك سكوتلندا وملكتها، وملك انكلترا وملكتها نحو لندن، كما ذكرنا من قبل، عبر طرق مختلفة، وذلك بسبب الأعداد الكبيرة للذين كانوا مسافرين معهم.

كيف عمل ملك إنكلترا تقديرات ثمينة في كنيسة القديس ألبان

وقام الملك، وهو على طريقه إلى لندن بالذهاب إلى كنيسة القديس ألبان، وكانت زيارته لذلك المكان غير معروفة في اليوم الذي تقدم على تاريخ وصوله، وحسبما كانت عاداته، صلى هناك باخلاص وتقوى للقديس ألبان، الذي هو رئيس الشهداء الانكليز، وعمل منحة للكنيسة مؤلفة من أربعة طيلسانات، واحد منها أعطاه إلى مذبح القديس ألبان، ليجري تعليقه على الجدار كزينة، وأعطى آخر، للغاية نفسها، ليجري وضعه عند مذبح القديس أمفيبالتوس، وثالث لمذبح القديس وولستان Wulstan، والرابع إلى مذبح القديسة مريم، حتى يجري تعليقه حيث يتم يومياً انشاد القداس.

كيف خرج إدوارد لاستقبال الملك لدى وصوله إلى لندن

وعند اقتراب الملك من لندن، خرج ابنه الأسن ادوارد مع كثير من النبلاء الآخرين لاستقباله، وكانت المدينة مزينة تكريماً للوصول المتوقع لتلك الشخصيات الكبيرة، لأنه كان هناك: ملك انكلترا وملكتها، وملك سكوتلندا وملكتها، وادوارد، وعدد كبير من النبلاء والأساقفة، وفي يوم عيد القديس أوغسطين «الأستاذ»، طلب جون مانسيل الاذن بالقيام بتضييف جميع النبلاء الضيوف في اليوم التالي، وجرت الاستجابة لهذا الطلب، وبناء عليه وجه الدعوة لحضور وليمة غداء فخمة، إلى ملكي انكلترا وسكوتلندا، وجميع الايرلات، والبارونات، والفرسان الانكليز وكذلك السكوتلنديين، وكذلك أسقف لندن، مع عدد كبير من المواطنين، وكان عدد الضيوف في الحقيقة كبيراً جداً إلى حد أن بيته في

توثول Tothall لم يكن قادراً على استيعابهم جميعاً، لذلك أمر بنصب بعض السراقات الملكية لاستقبال الضيوف، وكان الذين شاركوا في هذا الاحتفال كبيراً جداً، إلى حد أن سبعمائة صحن كانت بالكاد كافية لتخديم الحلقة الأولى من الحفل، ولم يكن معلوماً قط في أي وقت من الأوقات أن أي صاحب منصب ديني كان قادراً على تجهيز مثل ذلك الحفل الثري والوافر، لأنهم جميعاً جرى تزويدهم بكميات وافرة من كل نوع من أنواع المباحج.

وصول أخو ملك إسبانيا إلى إنكلترا الذي كان منفياً من بلاده

ووصل في الوقت نفسه بارون صاحب مرتبة عالية في اسبانيا، كان هو أخو ملك تلك البلاد، الذي قضي عليه بالنفي من بلاده، لأنه نال عن استحقاق غضب الملك، وقد أراد الآن الحصول على عيون ملك انكلترا، وجاء يلث وراء أموال الآخرين، ذلك أنه كان قد أزعج كثيراً ملك اسبانيا، وقد هرب الآن ليلتجئ إلى ملك انكلترا وإلى ادوارد، راجياً إياهما للتوسط من أجله، في سبيل أن يستعيد شروط صداقته الماضية مع أخيه الملك، ذلك أنه — أي المذنب — كان على استعداد، ولديه رغبة، في التكفير عن الأخطاء التي اقترفها، وبناء عليه قام ملك انكلترا، حسبما اعتاد أن يتصرف نحو الأجانب جميعاً، بفتح صدر المواساة له، وأمر بتزويده بكميات وافرة من الحاجيات الضرورية، كما أنه عهد بالوصاية به وبالاسبان الذين وصلوا معه وبصحبته إلى وليم بونكوك Boncoque، وكان فارساً يعرف الاسبان، وأخلاقهم وعاداتهم، لأنه قام بنقل عدة رسائل شفوية من ملك انكلترا إلى ملك اسبانيا.

منح هنتنغدون إلى ملك السكوتلنديين

وفي اليوم التالي لعيد القديس جايل، عمل ملك انكلترا منحة فأعطى هنتنغدون Huntingdon إلى ملك سكوتلندا، وأكد هذه المنحة

وثبتها بوساطة صك، معطياً السلطة للملك لتملك البلدة والاستحواذ عليها، مع التشريعات العائدة لها، والمتعلقة بها، حسبما كان بعض أسلافه قد فعلوا، وهكذا زاد الملك يومياً من ممتلكاته وافقار نفسه.

الهدايا التي عملها رئيس رهبان وينكستر المخلوع إلى مائدة البابا

قام هذا العام رئيس رهبان وينكستر المخلوع بكرم عظيم منه بزيادة نفقات مائدة البابا بمارك فضي واحد في كل يوم من أيام السنة إلى الأبد، وابتلع البابا هذه الأعطية بفكين مفتوحين، فلقد كان هناك ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً في السنة، ونتيجة لذلك اقتضى هذا استخراج مورد وصل بالماركات إلى العدد نفسه، ومع ذلك غادر هذا الرئيس للرهبان البلاط الروماني وسط الضحك والاستهزاء، دون إكمال عمله، وهو محبط تماماً في نواياه، لأن أعطيات خصمه، الأسقف المنتخب لوينكستر، قد قيل تفوقت على أعطياته بالكم وبالقيمة.

الجريمة الرهيبة التي اقترفت من قبل عمدة نورثامبتون

كان هناك في هذا الوقت، واحد من الفرسان، كان غنياً، قد امتلك كثيراً من الممتلكات بالأراضي، قيل كانت تجلب إليه مورداً مقداره مائة وخمسين باونداً، ومع أن هذا الفارس كان غنياً، لقد رغب في أن يكون أغنى، وفي سبيل ذلك اشترى تعيين نفسه عمدة لنورثامبتون، بعد الحلول محل العمدة المنصرف، وما أن حصل على منصبه، حتى استخرج المال من كل جهة من الجهات باللجوء إلى بعض الحجج التافهة حول أخطاء أو أمور أخرى، وكان هذا الرجل (الذي كان اسمه ولبي دي لاآيل Lisle) مسافراً في أحد الأيام خلال الريف، وصدف أن وصل إلى مرج جميل كانت فيه بعض المواشي السمينة والجميلة ترعى، ولدى رؤيته لهم استبدت به مشاعر الحسد والشره، فاخترع سبباً للنزاع والخصام، حيث قال للراعي: «أنت خادم من؟»، وعلى هذا رد عليه

الرجل قائلاً: «أنا خادم صديقك» وقدم اسم سيده، «وهذه المواشي له»، وكان العمدة قد كره هذا الرجل منذ وقت طويل، وفكر الآن بعمق أكبر ودرس كيف يمكن أن يضطاده، حتى يتمكن من الاستحواذ على مقتنياته، سواء بوسائل طيبة أو قذرة، لأنه كان رجلاً له مكانته في المنطقة، محترماً، وحكيماً، وغنياً، ونظر العمدة بحدة إلى الراعي ثم قال له: «أنت لص، وخادم لص، وإلا كيف كان بإمكانه الاستحواذ على مثل هذا العدد الكبير من المواشي الجميلة؟ إنك لص مواشي تسرق في الليل، وهو بلا شك المتسلم لهم بعد سرقته»، وأنكر الراعي هذا، وأعلن أنه هو وسيده كانا رجلين شريفيين، وهنا تابع العمدة كلامه وأجابه قائلاً: «أنت تكذب، لأنك أنت لص صغير، وخادم لص، وإنني معتقلك، ومستولياً على المواشي، التي هي مسروقة قد تسلمها سيدك، لأنه يتسلم الأشياء المسروقة، وهو يسمنها لبيعها»، وقام عند ذلك العمدة الغاضب، من دون أي سبب عادل، بالاستيلاء على الثيران، أو عهد بالمسؤولية عنها إلى أحد الأشخاص، وسجن الراعي، وحمله معه إلى بيته مبعداً إياه عن مكانه، وأكد يمين رهينة بأنه سوف (لنستخدم عبارته العامة والدارجة) يجعله يغني، وأثناء غنائه عن نفسه وعن سيده، سوف يجعله يعترف بالحقيقة، فيما يتعلق بالسرقات التي اقترفت، ثم إنه سجن الراعي، وعذبه بشدة وبكثير من الطرائق غير المعروفة للتعذيب، حتى أنه وصل إلى حافة الموت، وأخيراً وفي سبيل أن يوقف المعذب أعمال تعذيبه غير الرحيمة، التي ترافقت مع انذارات بالاعتراف قائلاً له: «اعترف، اعترف بأنك لص، فاعترف الرجل التعيس الذي كان شبه ميت بأنه كان لصاً، مع أنه لم يكن كذلك، ثم أمر العمدة بمثول الرجل أمامه، وخاطبه على الوجه التالي: «والآن وقد اعترفت بشكل مكشوف بأنك لص وخادم لص، وجاء ذلك مترافقاً مع سماع بعض الذين هم قادرين وراغبين بتقديم الشهادة ضدك، ولذلك سوف تدان ويحكم عليك بالشنق، فالمشقة هي الشيء الوحيد الذي بقي لك، وأنا على كل

حال لدي السلطة في أن أشنقك وفي أن أطلق سراحك وأمنحك الحرية،
ولسوف تكون حراً، إذا ما اتهمت سيدك باللصوصية وأكدت ذلك بدون
تردد أمام رجال العدالة، وقلت بأنك لص وخادم لص، وأنت أنت
كنت الوكيل، وكان هو المحرض والمتسلم، وقام الخادم المرتجف، وكله
خشية من أنه سوف يلقي به ثانية في المكان، الذي عانى فيه من العذاب،
بالموافقة على هذا كله، وبناء عليه أمر العمدة بالاحتفاظ به في السجن
لكن مع مزيد من الحرية أكثر من ذي قبل، وذلك حتى وصول رجال
العدالة، وكانوا سيصلون خلال وقت قصير، وعندما وصلت هذه
الأخبار إلى سيد الراعي، الذي كان آنذاك يعاني من حمى، أرسل بعض
الرسل الجيدين، وبتواضع توجه بطلب الرحمة من العمدة، لأنه كان في
وضع حرج جداً، لأنه كان معرضاً للضغط حتى مواجهة الموت بنوعين
من الاضطرابات، وأخيراً، وبعد بعض المتاعب، واستخدام وسائل كثير
من الرشوة، حصل الرجل المريض على فرصة تأجيل، حتى زوال أزمته
الخطيرة وتكون اضطراباته قد عبرت، ويكون هو قد استرد صحته بعض
الشيء وتخلص من مرضه، وعندما أصبح ناهياً، تشاور بنشاط ومتابعة
مع محامين قادرين، حول سبل النجاة من الكمين الذي نصب له، وقد
تلقي تعليمات كاملة منهم، واستراح واسترد صحته، وفي الوقت نفسه
تابع العمدة تعذيبه للرجل البريء، وأصر على الاستمرار في نواياه
الشريرة التي أبدعها، مع أنه التمس مه بوسائل لطيفة وودودة، وجرى
حشه بواسطة هدايا ثمينة، على الاقلاع عن نواياه ومقاصده، وذلك في
سبيل تهدئة الفضيحة التي ثارت.

وبعدما وصل رجال العدالة، وضع العمدة الراعي أمامهم، معتقداً
بأنه كان مستعداً لاتهام سيده باللصوصية، وعندما كان الجميع هناك
ضائعين في لجة الدهشة تجاه تلك الاجراءات بين مثل تلك الشخصيات
المشهورة، جرى الاعلان عن الالتزام بالصمت، من أجل الاستماع إلى

الراعي وهو يقدم بينته، وقد فعل ذلك وفق الطريقة التالية حيث قال: «سادتي رجال العدالة، أنا في الحقيقة لست لصاً، كما أنني لست رفيق أو خادم لص، لكن هذا العمدة في سبيل التمكن من إماتة سيدي، قام بتعريضي يومياً إلى عذاب لا يحتمل، حتى أن صراخي أزعج الجوار كله، وقد أرغمت على الاعتراف بالذي رغب مني أن أعترف به، لا بل حتى بعدما اعترفت بأنني لص (مع أنني لست كذلك) قال لي: «أما وقد اعترفت بأنك لص، إن المشتقة هي كل الذي بقي لك، غير أنني سوف أطلق سراحك، إذا ما أبدلت البيئة الملكية، واتهمت سيدك بالصوصية، وإن جميع الذي وعدت به بعد ذلك، وعدت به وأنا فاقد لمشاعري من خلال أعمال تعذيبه، وإنني الآن أحتج، وأعلن، وأؤكد بأنني خادم مخلص لسيدي، وأن الأوضاع الحقيقية للقضية وتفصيلها موضوعة أمامكم، وإذا ما قام أي إنسان بمعارضتي، واتهمني أو اتهمه بالصوصية، أو بأي جريمة أخرى، فإننا سوف ندافع عن أنفسنا بشكل موائم، يتوافق مع قوانين وأعراف المملكة»، وكان مولى الراعي حاضراً، وقام بشكل مكشوف وصريح بانكار الجريمة التي عزيت إليه، ودفع رجال العدالة انتباهاً دقيقاً وتقديراً وافياً لرواية الراعي، ذلك أنها حولت العمدة إلى موضع ريبة، وكانت المنطقة كلها، لا بل حتى بعض رجال العدالة عرفوا بأن العمدة مشاكس، وشره، ومرتزق، وقام مولى الراعي أيضاً مراراً في اجتماع عام للمنطقة بمعارضة الأحكام غير العادلة، والقرارات القاسية التي أصدرها العمدة، وفعل ذلك بحكم كونه رجلاً مستقيماً وحكيماً، وعلاوة على ذلك كان الراعي نفسه وكذلك مولاه لهما سمعة جيدة غير ملوثة، ولم يتها قط بالصوصية أو بأية جريمة أخرى، وكان لجميع هذه الحقائق وزنها لدى رجال العدالة، وكانت أيضاً منطقية، لكن بما أن العمدة كان رجلاً في السلطة، وكان من أصل نبيل، وكان نائباً أعلى للملك، لم يختاروا إصدار قرار بعقوبة الإعدام ضده، مع أنه استحق ذلك، لأسباب كثيرة مضاعفة، ووصلت صرخات الشكوى

من هذه القضية إلى مسامع الملك ومسامع بلاطه، وقد أصيبوا جميعاً بالدهشة تجاه ضخامة الجريمة، ووفقاً لما كان قد كتب: «أنا سوف أذهب نحو الأسفل وأرى فيما إذا كان الصراخ مسوغاً بالاجراءات»، فأرسل الملك بعض الرجال العقلاء والمهريين، كما كانوا من ذوي المراتب، ممن لا يمكن ان يفسدوا لا من خلال الخوف، أو الالتباسات، أو الرشاوي، وكلفهم بالقيام بعملية بحث في هذه القضية، في سبيل أنه عندما يتم اكتشاف الحق، ينبغي أن يواجه المجرم العقوبة المستحقة، وبذلك يمكن انذار الآخرين بذلك، فيخافون من العمل وفق الطريقة نفسها، وكان الفريق الذي أرسل لأداء هذه المهمة هم: إيرل غلوستر، وإيرل ليستر، وهـ H. وروبرت ويلران Walerann، وفرسان، وكانوا جميعاً على معرفة جيدة بقوانين المملكة، وبعدما عمل هذا الفريق بحثاً دقيقاً وشاملاً تماماً، بوساطة فرسان المنطقة، وجدوا أثاماً أعظم جاهزة لتوجيه الاتهام بها إلى العمدة، وقد أخبروا الملك بها، وقد اعترته الدهشة تجاه الحقيقة، مثله في ذلك مثل الذين سمعوا بالاجراءات التعسفية، وبما أن موتاً مهيناً على المشنقة بات محيقاً بالعمدة، بادرت زوجته مسرعة كثيراً، وهي قلقة للغاية، إلى ملك السكوتلنديين وملكتهم، وبدموع ونحيب التمسّت منهما التوسط لدى ملك انكلترا، لمنع ذلك الشر الكبير من اللحاق بزوجهما، وعلاوة على ذلك، أشفق جون مانسيل على تعاستها الكبيرة، فتكلم لصالح المرأة الشقية، وبما أن ملك سكوتلندا وملكتها قد توسطاً من أجل العمدة، ومع أنه كان مجرمًا بكل وضوح، اختار الملك عدم اغضاب المتوسطين، الذين كانوا من ذوي المناصب والراتب العالية، فمنح المحافظة على حياة العمدة وعلى أطرافه، مع أن ذلك جاء ضد ارادته، وفعل ذلك وكأنه كان مرغماً، لأنه كان قد انزعج كثيراً، ورغب في تحقيق العدل، وهكذا حسبما قال الرسول: «بوساطة زوجة مخلص تم انقاذ زوج غير مخلص»، ولقد رأينا أنه كان أمراً مفيداً اقحام رواية كاملة حول هذه القضية في هذا الكتاب، حتى يعلم

القارء، كم هو مغضب للرب ممارسة الطغيان الشرير، والقيام بالأفاعيل الشريرة المؤذية للآخرين، لأنه كما قال الشاعر: «إنه يكفي بفعلك الشر أن تكون قادراً على فعل ذلك»، و«ولا تفعل شيئاً لا ترغب فيما بعد أن تكون لم تفعله، بل دع عقلك يفكر بحذر بالعمل قبل اقدامك على عمله».

أصل الفريضة المقيمة التي فرضت على الأساقفة

في سبيل أن يعلم كل واحد من قرائنا ويفهم بوضوح، عليه أن يعرف بأن هذه الفريضة المقيمة التي صدرت عن أسقف هيرفورد، تأصلت في المقام الأول لدى البابا، وأن الختم العظيم لم يكن زائفاً، ولقد رأينا من المفيد، ادخال الرسالة التالية في هذا الكتاب، لنعيد إلى الذاكرة حالة العبودية التي خضعت إليها الكنيسة مع الأساقفة الحديثين.

الرسالة الشائنة للبابا

«من الاسكندر، إلخ، إلى ولده المحبوب كثيراً، المعلم روستاند، إلخ: بما أننا كنا قد أمرنا من قبل بوجوب دفع ألفي أونصة Ounces ذهب إلى بيرثولد Berthold، مركيز كمبردج، الذي هو وكيلنا من أجل إدارة شؤون مملكة صقلية، وذلك بوساطة أولادنا المحبوبين كثيراً: رينالد، وريمير Reimer، وبيرفيسس Pervis، وشكوت Scott، وكريستوفر كولون Christopher Colon، ورفاقهم تجار ومواطني سينا، وبما أنه بموجب أوامرنا أيضاً، كانت بعض ديرة مملكة انكلترا ملزمة بأن تدفع إلى التجار أنفسهم مبلغ ألفي مارك استيرليني جديد، وبما أن المركيز المتقدم الذكر واخوانه، لم يتذكروا المنافع الكثيرة التي تلقوها منا ومن كنيسة روما، فاقتروا خيانة مكشوفة، ضدنا وضد الكنيسة نفسها، وضد ولدنا المحبوب كثيراً في المسيح،

الملك اللامع لانكلترا، وذلك في مملكة صقلية، ولاقترافهم لهذه الخيانة يستحقون عدلاً أن يجردوا من جميع المنافع والانعامات التي أضفيت عليهم من قبلنا، وبما أنه لم يدفع من هذا المال سوى ثلاثمائة أونصة من قبل التجار المذكورين إلى المركز واخوانه المتقدم ذكرهم، نحن نأمركم بهذه الوسائل الرسولية، وبموجب فضيلة طاعتكم، أن تقوموا بجمع المال، أو أن تدبروا الجمع بوساطة أي واحد آخر، من الدير والكنائس، وليكن هذا بوساطة ابننا المحبوب كثيراً، المعلم برنارد أوف سيينا، الذي هو قسيسنا وسفيرنا، أو بوساطة شخص آخر، يكون زميلاً له، أي جمع الألفي مارك المتقدم ذكرهم الذين جرى تعيينهم إلى التجار المتقدم ذكرهم، وأن يحدف من التجار المتقدم ذكرهم ما قيمته تساوي الثلاثمائة مارك المتقدم ذكرهم، وأن تدبر تأمين تزويدك بالبقية من قبل المحتجزين للمال، ونحن علاوة على ذلك نأمركم بردع جميع المعارضين والحاجزين لهذا المال بوساطة الروادع اللاهوتية، وأن تؤجلوا جميع الاستئنافات، وبعدم التقيد بأية رسائل رسولية، أو غفرانات جرى الحصول عليها، أو سوف يجري الحصول عليها من الآن فصاعداً، مهما كان محتسوها، حيث من الممكن أن يعاقبها دفع هذا المال، أو يجري تأخيرها، ولا تعباً مطلقاً بأن يكون الكرسي الرسولي، قد قام بوساطة أية رسائل رسولية، بمنح اعفاء أو غفران إلى أي واحد، واستثناء من أن يجري تعليقه أو حرمانه كنسياً، أو أن يوضع تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وبعدهما تكون قد جمعت أو تسلمت المال المتقدم ذكره من الحاسبين، مهما كانوا، عليك القيام بموجب السلطات الرسولية بتحليل هذه الدير والكنائس المتقدمة الذكر من الالتزامات التي كانوا مرتبطين بموجبها بدفع المال المتقدم ذكره إلى التجار المتقدم ذكرهم، ثم عليك عمل إعلان بأن الرسائل والوثائق العامة التي صدرت حول ما يتعلق بهذا الالتزام سوف تكون غير نافذة بالنسبة للمستقبل، وعليك أيضاً، تقديرًا منك لحظوتنا ودمعرتنا، أن ترسل أية مبالغ من المال قد تسلمتها

من الديرة والكنائس، ومن المعلم برنارد، ومن التجار المتقدم ذكرهم،
ومن المحتجزين الآخرين، مهما كانوا، إلى ولدنا المحبوبين كاربوكو
Carbuco وجيمس دي لاست Last، أو أي واحد منهما،
ومن ثم إلى ج. ل. ريمير Remeir، وغيلبرت أوف
كريمونا، وإلى التجار الفلورنسيين، الذين أقرضونا بكرم مبلغ ألفي
مارك استيرليني في سبيل تحصين المدن والقلاع، والأماكن الأخرى في
مملكة صقلية، ومن أجل سداد بعض المدفوعات التي نحن وكنيسة
روما ملزمين أنفسنا بها، ولاتتقيد أيضاً، بالرسائل الأخرى التي كنا قد
أرسلناها لكم والمتعلقة بدفع مبالغ محددة من المال، وكذلك هذه المبالغ
المذكورة، واسهامات أخرى سوف تعمل بشكل عام، وعليك أن تخبرنا
برسائلك الموثقة عن مبالغ المال التي رأيت من الموائم تعيينها إليهم،
وعندما يكون هذا المبلغ من المال قد دفع باسمنا، وباسم كنيسة روما،
إلى كاربوكو المذكور وجيمس، أو إلى واحد منهما، نحن وقتها سنوف
نعتقد بأن ترضية كاملة قد أعطيت إلينا، وإلى الكنيسة المتقدمة الذكر،
وعليك علاوة على هذا أن تسعى إلى تنفيذ أمرنا، أي أن كاربوكو
المذكور وجيمس، سوف لن يكونا مرغمين على اللجوء إلينا ثانية،
وعليك أيضاً أن تخبر الملك بأن هذا كله قد صدر عن نوايانا الطيبة
نحوه، أما بالنسبة لرؤساء الرهبان، ورؤساء الرهبانيات، ورهبان الديرة
والكنائس التي وضعت تحت الالتزام في هذه القضية جعلنا معلوماً
لديهم في هذه العروض كمية المال، المتوجب على كل واحد من هذه
الديرة، وعلى كل واحدة من هذه الكنائس، دفعه بموجب هذا الالتزام،
والمفروض على رئيس رهبان درم والدير فيها دفع خمسمائة مارك، وذلك
بموجب سلطات الكرسي الرسولي، أما المفروض على باث فهو أربعمائة
مارك، وعلى رئيس رهبان ورهبان دير ثورني مبلغ أربعمائة مارك، وعلى
رئيس رهبان ورهبان دير كرويلاند Croyland أربعمائة مارك،
وعلى رئيس رهبان ورهبان دير غيسبورن Gisburne من طائفة

القديس أوغسطين ثلاثمائة مارك. صدر في أغنانو Agnano في الثاني والعشرين من حزيران، في السنة الثانية لحبريتنا».

حول رفض رئيسي رهبان ورهبان ديرى درم

وغيسبورن الخضوع إلى الإلزام المتقدم ذكره

وعندما سمع أساقفة انكلترا بأن البابا والملك، كانا متحالفين، حسبما ذكرنا أعلاه، من أجل اخضاع الكنيسة الانكليزية، الأمر الذي من الممكن فهمه من الرسالة المذكورة أعلاه، باتوا في حالة من الحيرة، وظهروا وكأنهم قد سحقوا بين حجري رحا، وأصبحوا مثل رجال عميان لا يعرفون الذي عليهم عمله، وعلى كل حال رفض رئيس رهبان درم والتجمع الرهباني لدرم، ورئيس رهبان غيسبورن ورهبان الدير، إعطاء الموافقة، ولا بأي شكل من الأشكال، ورفضوا اخضاع كنائسهم لمثل هذا النوع من العبودية، وجاء ذلك على الرغم من أن جميع الآخرين تقريباً قد انحنوا أمام بعل، وجثوا على ركبهم أمامه، وقد بقيوا على كل حال واقفين بثبات، يقاتلون في سبيل حرية كنيستهم، وعلى استعداد بشجاعة لتحمل تعليق طويل مع تنكيل البلاط الروماني، وكذلك الاهانات، والملامات، والتهديدات الصادرة عن التجار، أو بالبحري المرابين، هذا ولم يكن لهم أي صديق في ذلك الصراع، وقد حزنوا لذلك، وخاف البابا وحزبه من أن يقوم آخرون بتقديم المساعدة إليهم في وضعهم المضطرب، وذلك صدوراً عن الشفقة، وأن يقوموا بروح عدوانية مماثلة بالتعاون مع إخوانهم، لكن هؤلاء خافوا وارتعبوا، وحنوا رقابهم إلى النير، وديس عليهم بأقدام أعدائهم، وهكذا لم يكن هناك من واساهم، أو قدم النجدة إليهم، بل انقسموا، وتأرجحوا إلى هنا وهناك وكأن الريح كانت تحركهم، وفقدوا الإحسان، فدافعت كل فئة عن الذي كان عائد إليها، وسقطوا في دفاعهم، وكان هذا سبب رفع جباه أعدائهم وشموخهم.

كيف هدد ملك قشتالة بغزو غسكوني

وفي هذه الآونة، أخذ الملك الذي كان من دون مال، وبحاجة إلى المال، في جشعه إلى المال، بالاستيلاء على خمر الغسكونيين، دون أن يدفع إليهم أي مال، ولذلك عاد تجار الخمرة مع آخرين إلى ملك قشتالة، الذي كان وسيطاً وصانعاً للسلام بينهم وبين ملك انكلترا، وهو الذي أمر بتدوين بنود السلام وكتابتهم في صك، من الممكن الوقوف عليه في كتاب Additaments، عند علامة السيفين المتصالبين (؟)، وعندما سمع ملك قشتالة بهذه الإجراءات غضب غضباً شديداً، وأثير، لذلك انفجر في التوبيخ وقال: «أنا أسف لأنني دخلت بتحالف مع ملك انكلترا، الذي لا يحافظ على عهده، ولا على صكوكه من دون خرق، والذي لا ينجل من الحنث بيمينه، كما أنه لا يخاف من الحصول على حكم قانوني بالحرمان الكنسي يجري إعلانه، وعلى كل حال، أنا مسموح لي، وموائم بالنسبة لي عدم الالتزام بالشروط (التي أبرمتها أنا مع واحد لا يحافظ شخصياً على عهده)، ومع قسم رهيب هدد بالقيام بغزو غسكوني، لوضعها تحت حكمه، وعلاوة على ذلك أعلن ملك فرنسا، لأن الهدنة قد انتهت، عن نية لم تكن أقل خطراً، وارتعب ملك انكلترا تجاه هذه الشرور التي أحاقت به، ولم يكن هذا أمراً ليس مسوغاً، فأرسل جون غيتدين Gatesden الذي كان فارساً مع بعض الآخرين، رسلاً خاصين إلى ملك قشتالة، لإطفاء غضب ذلك الملك، وكان بين العبارات البليغة والمعتدلة، التي تفوه بها السفير الحكيم والمتعلم، حسياً روي هي الكلمات التالية: «مولاي الكريم، هل هناك كرم أعظم، أو لطف أكبر مما أظهره الرب القدير لبني البشر، من أنه قدم ابنه لتخليص وانقاذ كل واحد؟»، وعلى هذا أجابه الملك قائلاً: «أنا لا أعرف، أنه يوجد، لأن ذلك هو الأعظم بين جميع المنافع»، ثم أضاف جون: «إن هذا ما فعله ملك انكلترا نحوك، لأنه أعطاك ابنه الأكبر، وهو شاب وسيم في

شكله وشخصه، وهو الوريث لجميع الممتلكات، لذلك ينبغي أن لا تكون
يا صاحب الجلالة غاضباً من مثل هذا الصديق، الذي يقدرك تقديره لأخ
له»، وبذلك انطفأ غضب ذلك الملك، لكن غاستون وبعض الخونة
الآخرين للملك انكلترا، قاموا معتمدين على حماية ملك قشتالة، برفع
رؤوسهم، وحافظوا على مواقفهم الراضية التي كانوا متورطين فيها.

احتلال مخادع لعمادة يورك

وفي حوالي الوقت نفسه، قدم أشخاص غير معروفين إلى كنيسة
يورك، ودخلوا إليها بشكل سري، عندما كان الناس جالسين إلى المائدة
منشغلين بتناول طعامهم، وسألوا واحداً كان يصلي هناك، عن المقعد
الذي كان العميد يجلس عليه، وبعدما تلقوا الجواب، وأرشدوا إلى مقعد
العميد، اقتاد اثنان منهم رجلاً ثالثاً إلى ذلك المقعد، وقالوا له: «أيها الأخ،
إننا بسوء حظ سلطان البابا نتولى تنصيبك»، وعندما بلغ هذا إلى مسامع
رئيس الأساقفة المعين حديثاً، أي سيوول، الذي كان من قبل عميداً
لتلك الكنيسة، قهره الحزن، تجاه اقتراف مثل هذا العمل المخادع،
واستخدم كل الوسائل التي توفرت إليه وكانت بقدرته للحيلولة دون
هذا التنصيب، لكن وكلاء هذا الإجراء ومقترفوه، ذهبوا إلى بلاط روما،
حيث عاودوا من هناك، وقد تمكنوا من تدبير المسائل، حتى أنهم تمكنوا
من وضع هذا الرجل الصالح واللطيف تحت الحرمان من شراكة
المؤمنين، وجعلوه يتحمل خسائر كبيرة ونفقات، وقد تحمل رجل الدين
هذا كله بهمس، في سبيل أن يظهر وهو يعاني، وهي المعاناة التي كان
معلمه وصديقه، ورفيقه القديم، القديس ادموند، قد أخبره مسبقاً بأنها
سوف تقع له، وأدهشت عملية الوقاحة هذه باقتراف الخديعة جميع
الكهنة النظاميين، إلى حد أنهم جميعاً لم يعرفوا الذي عليهم القيام به، لأنه
بدا لهم أمراً متناقضاً، وبعيداً عن المنطق، لابل في الحقيقة، أمراً مقبلاً
السماح لمثل ذلك المنصب الكنسي النبيل، الذي هو منصب له أهميته

القصوى، بأن ينعم به على شخص مخادع وغير معروف، الذي أقحم نفسه ونصبها بطريقة عدوانية، ومن ثم السماح بأن يستحوذ على ذلك المقام في تلك الكنيسة الفخمة، وهو المقام الذي يعد الثاني بعد رئاسة الأساقفة، غير أنهم كانوا في رعب عظيم وويل من طغيان سلطة البابا، التي إليها أذعن الملك، أو بالحري إذا أردنا قول الحقيقة: جثا على ركبته.

كيف جرى ارغام الرهبان السسترشيان على دفع ضريبة

أصدر الملك أوامر بوجوب عدم ابداء المراعاة نحو السسترشيان، بل يتوجب على عمد المناطق وبقية الوكلاء الملكيين إنهاكهم، وفقط العدالة ينبغي اظهارها نحوهم، ولأنه كان غاضباً تجاههم بسبب حصولهم على وسيط لصالحهم، أعطى إذنه بوجوب فرض ضريبة الجمارك عليهم، وهي الضريبة التي تعرف عادة باسم ضريبة المرور، وأن تستخرج منهم لدى عودتهم من الاجتماع العام لهيئتهم الكهنوتية، وكان هذا إجراء جاء مضاداً بشكل مباشر لامتيازاتهم، ولأعرافهم القديمة المصادق عليها، ونتيجة لهذا فإن كثيرين منهم الذين لم يندروا من قبل أرغموا على بيع قلائسهم وثيابهم، ومعاطفهم.

موت بعض الأساقفة

في هذا العام نفسه، وقع رئيس أساقفة بوردو، الذي كان عجوزاً وضعيفاً، مريضاً مرضاً مميتاً وعندما خيل للناس أنه مات، مع أنه كان مايزال شبه حي، حصل أسقف هيرفورد (الذي كان متشوقاً كثيراً إلى رئاسة الأساقفة تلك) على رسالة من الملك، الذي وافقه على مشاريعه، لأنه كان جابي ضرائبه [وانطلق من أجل الحصول على رئاسة الأساقفة تلك]، ولكن عندما تبرهنت حقيقة أن رئيس الأساقفة مايزال حياً، فقد جهده وأمواله، وخضع بالاضافة إلى ذلك للسخرية، وقد قيل بأن القضية نفسها قد وقعت مع المعلم لامبين Lambin، الذي نظم

بحقه بيتان من الشعر، وهما وإن كانا بعيدين قليلاً عن موضوعي، سوف أدخلهما هنا: «بوساطة دفع مبلغ كبير من المال، تطلع لامبين نحو الأسقفية، مع أن الراعي لم يكن قد دفن بعد»، وفي حوالي الوقت نفسه مات أسقف لانداف Llandaff، وجرى تعيين آخر محله، وفي بداية شهر تشرين الأول من العام نفسه، أخذ المعلم توماس، أسقف كارلايل، الذي كان مثل أسقف آيل قد شغل أسقفيته لعام واحد، من بيننا، وبموته ظهر واضحاً كيفية الانتقال من الأجداد المتأرجحة للمناصب الدنيوية، وأذعن وليم أسقف إيلاي لمنيته في بلد أجنبي، حيث كان مسافراً في طريقه إلى اسبانيا، وفي الوقت الذي كان يقوم بتنفيذ إرادة ملكه الأرضي، وقد سحب للمثول أمام محكمة الملك الأعظم، وقد جلب قلبه إلى كنيسة إيلاي ليدفن هناك بكل مهابة، وفي يوم عيد جميع القديسين، حدث أيضاً أن تخلى المعلم روجر دي ويستهام Westham، أسقف شيلستر عن أسقفيته، طواعية وبخياره الشخصي، ومات في الوقت نفسه أيضاً جون الكاهن النظامي، ورئيس رهبان دير نيوبوري Newbury، الذي كان مثلما كان عليه وليم أسقف إيلاي، الذي تحدثنا عنه أعلاه، صديقاً مقرباً، ومستشاراً خاصاً للملك.

الطلب الذي عمله الملك عندما كان النبلاء جالسين في بيت المال

في اليوم الرابع الذي حلّ قبل عيد القديس ادوارد في هذا العام، ذهب الملك إلى بيت المال، عندما كان البارونات جالسين هناك، وأعلن بضمه بأن كل عمدة سوف لا يظهر في ثمانية عيد القديس ميكايل من كل عام وفي كل عام، ويقدم للملك المال المجبي من الضمانات، والغرامات، ومن المصادر الأخرى، ينبغي تغريمه لعدم ظهوره، في اليوم الأول خمسة ماركات، وفي اليوم الثاني عشرة، وفي اليوم الثالث خمسة عشر، وإذا ما غاب في اليوم الرابع، ينبغي أن يفدي

نفسه، وعُمل إعلان مماثل من قبل الملك ضد المدن التي تقدم حسابا إلى بيت المال بوساطة وكلائهم الملكيين، وقضى هذا الاعلان أنهم سوف يفقدن امتيازاتهن في اليوم الرابع، وفق الطريقة نفسها، التي يتوجب فيها على العمد الظهور، وينبغي أن يكون معلوما أيضا، أنه جرى في اليوم نفسه تغريم جميع عمد انكلترا، كل واحد منهم بمبلغ خمسة ماركات، لأنهم لم يقوموا بإرغام كل رجل في مناطقهم، بين يديه عشرة امتيازات من الأرض، لأن يصبح فارساً، أو يسأل التأجيل من الملك، بحكم أنه فرض عليهم ذلك برسائله الملكية التي وجهها إلى العمد.

انتخاب نائب رئيس رهبان إيلاي للأسقفية

ورغب الملك في رفع شأن هنري أوف وينغهام Wengham وتأييد قضيته، وهو الذي كان الحافظ لختمه، ولذلك أرسل رسلا خاصين، ورسائل التماس إلى رهبان دير إيلاي، يرجوهم بحرارة لانتخاب هنري المذكور ليكون أسقفا لهم، وراعيا لنفوسهم، لكن الرهبان أخذوا بعين التقدير معرفتهم بنائب رئيس الرهبان لديهم، وتوافقا مع المبدأ الكافر: «لا تفضل شخصا غير معروف لديك، على الذين معروفين لديك»، فانتخبوا نائب رئيس الرهبان المذكور هوغو دي بيليسيل Belesale، أسقفا لهم، وغضب الملك لرفض طلبه، ولذلك رفض قبول الأسقف المنتخب، وجاء رفضه اعتادا على حمج تافهة، وقام إما بإصدار الأمر، أو رضي وتغاضى عن الذي عمله جون ويلران، الذي عهد إليه بالوصاية على تلك الأسقفية، فأسقط الأشجار، واستباح جميع المقتنيات، ونهب كل ما هو عائد لها، وجرى تنفيذ هذا بصورة فعالة أكثر مما أذن — أو سمح — وبلغ ذلك حدا أنه أبكى حتى أعداء تلك الأسقفية، وأثار القديس ايثلرد Ethelred ودفعه إلى الانتقام.

كيف وضعت كنيسة القديس ألبان تحت الحرمان من شراكة المؤمنين

وفي حوالي يوم عيد القديسين سمعان وجود في هذا العام، وبسبب قسوة الاستخراجات البابوية، وضعت كنيسة القديس ألبان تحت الحرمان من شراكة المؤمنين لمدة خمسة عشر يوماً، ولم يكن ذلك لأنها جردت من امتيازاتها الشرفية، بل بسبب تلك العبارة المقيتة المضافة «دون التقيد»، فهي قد أضعفت المنح التقوية، وألغت سلطات الآباء المهندسين، واختارت الجماعة الرهبانية — بناء عليه — تنفيذ هذا الحكم غير العادل والعنيف، بكل احترام موائم، وآثرت ذلك على عدم الاقدام بطيش على رفضه، وذلك خشية من أن يجلب عمل التحدي، الاضطراب إليهم، ولذلك توقفوا عن قرع الأجراس، وعن إقامة القداسات اللاهوتية، وقاموا أثناء أيام الحرمان بتنفيذ قداسات الساعات النظامية والساعات المسائية، بصوت منخفض، وكانوا قد تلقوا التشجيع — على كل حال — من قبل جون دي ديا، الذي كان مكلفاً آنذاك بأعمال النائب البابوي في انكلترا، ثم إنهم أقاموا القداسات اللاهوتية بالطريقة المعتادة.

الفضيحة التي انبعثت في دير غلاستونبري

ونشبت في هذا العام بعض الخلافات بين أسقف باث وبين راهب من دير غلاستونبري، وهو شخص كان قد أقحم بالقوة بموجب سلطات الملك، وضد إرادة الأسقف، في ذلك الدير، وقد بدأ على الفور بطيش ووقاحة بترتيب كل شيء حسب رغباته، وعمل ختماً مزيفاً لنفسه، وفي الوقت الذي ذهب فيه الأسقف إلى روما، لملاحقة شؤونه وليحصل على امتيازاته، حدث نهب عام لممتلكات الدير، وقام هذا الشخص المقحم، في سبيل تقوية حزبه ضد الأسقف، فحشد جميع العاطلين والرعاع وجاء

بكل الذين تمكن من جمعهم، وقام من أجل الأذى بالشرف الديري، فرسم ثمانية عشر واحداً منهم، كانوا بالفعل غير مناسبين، وفي اليوم الثالث بعد ذلك، جعلهم يصبحون رهباناً محترفين، ولم يظهر أدنى خوف، أو بالحري أية خشية من اقرار الالتم، أمام الرب إلهنا، الذي قال: «الويل للرجل الذي منه تنبعث الفضائح»، وأصبحت كنيسة وينكستر، وتعرضت للاهانة من انقسام ممائل، ومثل الأدياء الذين كان الأسقف المنتخب لوينكستر قد جمعهم وعملهم رهباناً، على الرغم من عدم موافقة رئيس الرهبان، واستخفافاً به، كان الآن أن قام الرهبان المكرسين بالمغادرة، وما من شيء آخر كان يؤمل منهم.

تثبيت رئيسي أساقفة دبلن ويورك في رئاسة أساقفيتها

وفي حوالي هذا الوقت، وبعون الرب، وبعد كثير من المضار الكبيرة التي ألمت بأبرشيتهما، جرى تثبيت المعلم فولك باسيت، رئيس أساقفة دبلن، والمعلم سيوول رئيس أساقفة يورك، بقوة، كل واحد منهما في منصبه، وهكذا تناقصت سلطة الملك — بسبب أخطائه — يوماً، ومعها أيضاً كرامة المملكة.

جباية العشور من قبل أسقف هيرفورد

ولم يقيم أسقف هيرفورد أية تقدير لمنفعة المملكة وصالحها، بل ركز اهتمامه فقط على الذين يمكن أن يقود إلى منفعة، ولذلك جبي العشور لنفسه في إيرلندا، وفي المناطق المجاورة، وكان ذلك بوساطة اذن من البابا والملك، وقد تجمع ذلك في مبلغ كبير، وهو قد أقام التقدير واهتم بالمكافأة على أعماله، وبالجائزة على خيائته، ولذلك جبي هذه العشور بشدة، الخجل يمنعنا من ذكر طرائق الجباية التي مورست، وبما أن الغش نادراً ما جرت ممارسته من دون خوف، فقد تجول وهو خائف، وقد أحاط نفسه بمرافقة مسلحة.

كيف جرى تثبيت أندرو رئيس الرهبان المقحم في وينكستر في منصبه

جرى في هذا العام تثبيت أندرو المقحم في منصب رئيس رهبان وينكستر، وذلك بفضل التوزيع السخي للهدايا في بلاط روما من قبل الأسقف المنتخب لذلك المكان، وكذلك بفضل الجوائز والأعطيات السيمونية والالتماسات التي قام بها رئيس الرهبان المقحم شخصياً، الذي دان بتنصيبه إلى الأسقف المنتخب، أما بالنسبة لرئيس الرهبان الماضي، فإنه بعدما تحمل كثيراً من المتاعب في رحلته عبر الألب، وبعدها أنفق كثيراً من المال، وشاهد الضرر الكبير الذي ألم برئاسة رهبانيته، بعد هذا كله جرى تزويده ببعض العزب لينفق على نفسه ويعيش، أما بالنسبة لرهبان الدير الذين كانوا قد تفرقوا، فقد جرت دعوتهم بأوامر سلطوية للاجتماع ثانية، وصدرت الأوامر عن الأسقف المنتخب، وترافقت مع التهديد بعقوبة التكفير، وهكذا فإن مثل هذه الانشقاقات المخزية أملت يومياً بالكنائس الديرية الفخمة في إنكلترا، وقدمت هذه الانشقاقات التي نشبت بسبب الخلافات ومطامح المجموعات المتنافسة، الطعام إلى البلاط الروماني، فبهذا الخلاف وحده، جاءت إضافة دخل سنوي، وريح مقداره مارك فضي واحد يومياً لتزويد مائدة البابا.

عودة رئيس أساقفة كانتربري إلى إنكلترا من إيطاليا

في حوالي أيام عيد القديسة كاترين، وصل رئيس أساقفة كانتربري من إيطاليا، بعد كثير من الانفاق للمال الانكليزي من دون فائدة، وبعد متاعب بلائثار، وبعد كثير من الاضطرابات، وقد حصل على قليل من المنفعة في الحرب ضد مدينة تورين، كما أن أخاه توماس، الذي كان من قبل كونت فلاندرز، لم يطلق سراحه، ولم يخرج من السجن في تلك المدينة، مع أن السافونيين بذلوا كل جهودهم لإطلاق سراحه، ولم يكن

مفيداً أيضاً أن البابا استخدم كل جهوده في سبيل إطلاق سراحه، وكتب إلى ملكة انكلترا ضد سكان تورين، وضد مصالحهم ولأذاهم، ولقد قيل بأن توماس المذكور، ألحق بظلمه، كثيراً من الأضرار بالسكان المذكورين.

كيف سعى الويلزيون وقد وجدوا أنفسهم

مظلومين إلى استرداد حرية بلادهم

وفي حوالي يوم عيد جميع القديسين، قام الويلزيون، وقد ظلموا بطرق كثيرة مضاعفة، وغالباً ما جرى بيعهم إلى الذي كان يدفع أكثر، قاموا وقد ظلموا إلى أبعد الحدود بطغيان وكيل الملك الفارس غيوفري لانغلي Langley، وثاروا بأنفسهم من أجل الدفاع عن بلادهم، وفي سبيل الالتزام بقوانينهم، وبعدما أقاموا تحالفات، قاموا بغزو مقاطعات انكلترا المجاورة وهاجموا رعية مولاهاهم ادوارد، الذي لم يكونوا آنذاك قد اعترفوا به على أنه سيدهم، وحققوا نجاحاً كبيراً في حملتهم الحربية، إلى حد أنه قيل بأنهم استقبلوا برضا السكان المجاورين، وعندما سمع ادوارد بهذا، طار ملتجئاً إلى عمه رتشارد، وذلك بحكم أن الملك بات بلائيمد وفقير، فاقترض أربعة آلاف مارك منه، وقد عزم على ضبط طيش ووقاحة الويلزيين، وأن يعاقبهم على جرأتهم، وأراد شن الحرب ضدهم إلى حد افنائهم، لكن شتاء ذلك العام كله كان ممطرا وكثير العواصف، وبما أن بلاد ويلز كلها كانت من دون طرق، وذات طبيعة مستنقعية، كانت منيعة ويتعذر الوصول إليها من قبل الانكليز، وهكذا جاءت جهود ادوارد التي بذلها، والأموال التي أنفقها من دون ثمار وبلا محصلات، ثم إن غيوفري المتقدم ذكره ندم — ولكن جاء ذلك متأخراً كثيراً — لأنه أثار الحرب، ولوحشيته في نهب الويلزيين، مثلما كان قد فعل قبل عدة سنوات مضت للشعب في شمالي انكلترا، ولقد كان هناك بعض الذين قالوا بأن غيوفري، أقدم برضاه أو بغير رضاه، على التسبب بخسارة ادوارد بقدر ما كان بإمكانه أن يفعل.

أعمال العنف التي اقترفت من قبل أتباع ادوارد

أحدث خدم ادوارد وأتباعه اضطراباً وازعاجاً لسكان المنطقة التي مروا بها، وذلك بالقيام بنهب ممتلكاتهم، وبإهانة أشخاصهم، وإنه بسماحه بمثل هذه الدرجة من العنف وإلحاق الأذى جعل الناس يقسارنون ما فعله بالذي اقترف من قبل والده الملك، فوجدوها أقسى بكثير، لأن الوحوش وقطاع الطرق الذين احتفظ بهم في بلاطه، نشروا أنفسهم بالطول وبالعرض، واستولوا بالقوة وصادروا الخيول وعربات التجار، ومؤن السكان، ونظروا لبشاعة أفاعيل الظلم التي اقترفت من قبل وكلائه، رأيت من المناسب والمفيد ذكر تفاصيل واحد منها إلى التراء، فعندما ذهب ادوارد المذكور، كما روينا من قبل، إلى الايرل رنشارد، وجده في وولنغفورد Wallingford، حيث استقبل هناك بلطف، وعموسل بمشابة ضيف في القلعة، وشق أتباعه بالوقت نفسه ليريقهم إلى داخل رناسة الرهبانية، ولم يطلبوا الضيافة، حسبما جرت عليه العادة، بل دفعوا من دون احترام الرهبان جانباً، واستولوا على ما كان ضروريا لتزويد ماتنتهم، وعلى الوقود، وعلى الأعلاف لخيولهم، وكسروا الأبواب، والنوافذ والمقاعد، وأهانوا خدم الرهبان، وشتموهم وضربوهم، وكانهم كانوا عبيداً، أو اقترفوا أعمال سرقة، وطردهم من أماكنهم، وبمصعوبة بالغة سمحوا للرهبان أنفسهم باستخدام قاعة الطعام، لأن قاعة الاستقبال كانت مملوءة بالذين كانوا يأكلون، ومهجع النوم كان مشغولاً من قبل الشارين، وحين رغب أصدقاء ادوارد باقتراف هذه الآثام، عزوها ليس إلى سوء الأخلاق، بل إلى طيش الشباب، غير مقدرين ماتكهن به لو كان وقاله: «إن عمر طاغية النيل موضع شك كبير، لأنه حتى يكون الإيمان الجيد ثابتاً، يتطلب ذلك نضوجاً بالسنين».

ولم يعبأ الويلزيون في الوقت نفسه، ولم يخافوا من طغيان ادوارد

وأتباعه، ولذلك شقوا طريقهم بعيداً حتى شيبستر، وتغلبوا على جميع العوائق، ونهبوا كل شيء رأوه على طريقهم، ولم يكن قطاع الطرق هؤلاء مساوين أبداً، حتى للذين جلبهم لويس مرة وأدخلهم إلى انكلترا معه.

المرسوم الجديد للملك

وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً أعطى الملك أمراً دقيقاً، أنه لا يجوز مطلقاً ختم أية مذكرة بالختم الملكي، وإصدارها من بلاط المستشار، يمكن أن تكون مسببة للأذى أو الخسارة إلى أخيه رتشارد، وإلى رتشارد إيرل غلوستر، وإلى بطرس أوف سافوي، أو إلى أي واحد من إخوته، وكان من الواضح أن هذا المرسوم معارض لجميع الحقوق، وإلى سلام المملكة.

البحث الدقيق حول المكايل

أمر الملك رجالاته في هذه الآونة القيام ببحث دقيق وتفتيش حول مكايل الخمرة والبيرة التي نسميها Flagons أو Gallons، وحول مكايل القمح التي نسميها Bushels، وحول أوزان الميازين وهكذا وجه ضرباته إلى هنا وهناك، حتى يفرض الغرامات على البريء وعلى المذنب سواء، وبذلك يضيف مالاً إلى خزانته، حتى بوساطة معاقبة المذنبين أكثر مما يستحقون، وهكذا جرى اختراع أعذار مخادعة يومياً من أجل استخراج المال، وقد حدث في كل مكان الاستيلاء على المقتنيات الصغيرة للبيع، ولم تقدم أية تعويضات على الذي جرى الاستيلاء عليه، لابل كانت الفئة المسروقة حتى مسرورة إذا ماتدبرت النجاة من دون إهانات ولكلمات، وهكذا مثلما حدث مؤخراً في قضية الفريضة الإلزامية التي تعرف بشكل عام باسم قضية السيرجاندية، نبعت الأسباب لاستخراج المال، الآن كثيراً من خدمات البلاط، من ذلك الارغام بأن يصبح بعضهم فرساناً، والتفتيش حول المكايل وحول قضايا أخرى كثيرة مخترعة، كان دافعها شراهية ذئبية،

وتزايدت أعمال السلب والنهب والاعتصاف هذه، مدمرة للمملكة، ومستعبدة للكنيسة، وقد توفر الآن في انكلترا عدد كبير من الطغاة، وكأن العصور القديمة قد تجددت، فهذا ماظهر عندما قام عدد كبير جداً من الملوك الصغار بفرض إرادتهم هناك.

ازدياد المظالم اليومية ومضاعفتها ضد الكنيسة

وأصغى الملك في حوالي الوقت نفسه إلى أسوأ النصائح، فقبل قرضاً بمبلغ كبير جداً من وكلاء البابا، من أجل ترقية ابنه ادموند إلى ملك مملكة صقلية، وبذلك تقيد بقيود أعظم حالات الفقر الكاملة، والبابا الذي ينبغي أن لا يغش وأن لا يُغش، قد آمن بتأكيدات الملك وصدقها، مع أنه كان بإمكانه أن يراها — لو أراد ذلك واختاره — بأنها كانت كلها خداع وزيف، لأن الملك، أعطى البابا في رسائله إليه الانطباع، بأن انكلترا منجماً للثروة، لا يمكن لأحد أن يستخرج كل مافيه، وأيضاً بأنه لم يكن هناك قط من قبل قد وجد ملك في انكلترا كان محبوباً مثله، أو غنياً مثلها هو، مع أنه كان بإمكان البابا أن يعرف العكس من خلال عدد من أصدقائه المقربين الذين كانوا آنذاك موجودين في روما، وكانت الفائدة المقررة على هذا المال، والعقوبات التي جناها الملك من خلال ذلك، قد وصلت إلى مبلغ مقداره أكثر من مائة باوند يومياً، وعلى هذا أحاق الدمار ومعه العزلة عن قرب رجال الدين والناس في انكلترا.

خلع ستيفن رئيس رهبان أوف كليرفو

وجرى في هذا العام، أن تعرض ستيفن، الباني لدير تشاردني Char-denay الفاخر في باريس للعزل بعدما سار خطوة خطوة على طريق سلفه القديس برنارد، وجاء خلعه في المؤتمر الأخير العام للهيئة الرهبانية لطائفة السسترشيان، لكنه كان مثل يوسف، تحمل بصبر حسد أخوته وتعذيبهم له، لأن الكراهية تهاجم بالعادة الرجال ذوي المكانة،

وقد اتهم بأنه حصل من البابا على امتياز بعدم جواز حرمانه من مكانته ورتبته، بل ينبغي أن يستمر إلى الأبد رئيسا لرهبان كليرفو، وهو ما كان مضادا لمبادئ السسترشيان، 'كن هذا الاتهام كان زائفا، حسبما تبرهن ذلك بوضوح فيما بعد، وعندما جرى اخبار البابا بحقيقة القضية أمر بإعادته إلى منصبه، وعاقب في الوقت نفسه بشدة الذين اتهموه، هذا ورأى ملك فرنسا، وإن كان صديقا متحمسا وحاميا لطائفة السسترشيان، أنه ستكون هناك فضيحة كبيرة سوف تلحق بتلك الطائفة، إذا ما جرى إلغاء قرار مثل أولئك الأشخاص المتنفذين، ومن ثم إعادة أي واحد خلعه في المؤتمر العام لهيتتهم الرهبانية، وكتب بهذا الرأي إلى البابا، وحصل على الذي طلبه، وقام ستيفن أيضا برفض إعادة التنصيب، في سبيل أن لا يتعرض نفوذ طائفته للأذى، وأعلن أنه تحرر من العبء، ولم يتعرض للاهانة، وأنه الآن أكثر حرية مما كان عليه عندما كان رئيسا على جماعته، حسبما كان من قبل، وأن هذا كان أكثر لصالحه ومنفعته، وهكذا فإنه مع أنه كان عظيما من قبل، صار الآن عن حق أكثر عظمة.

حول رفض الويلزيين الإقلاع عن الإجراءات الحربية

ومع أن الملك نفسه، وكذلك الايرل رتشارد، حاولا منع أية إعاقة لمحاولة تسوية قضايا المصاعب، ورجوا بتواضع الويلزيين للإقلاع — ولو على الأقل — لبعض الوقت، عن أعمالهم العدوانية والحربية، رفضوا البقاء بهدوء وسلام، لأنهم رأوا أن فصل الشتاء الممطر كان لصالحهم، وأن مواضع مكانهم هي سهلة الوصول إليها من قبلهم، لكنها كانت صعبة كثيرا ولا يمكن النفاذ إليها من قبل الانكليز، ولذلك تابعوا الأعمال العسكرية، وهاجموا غريفيين دي برونيت Griffin de Brunet لأنه طلب حماية الملك، وعندما هرب للاتحاق بالملك، طاردوه عن قرب، وبما أنهم لم يتمكنوا من اعتقاله، اجتاحوا أراضيه

بالنار والسيوف، وكذلك أيضاً أراضي بعض البارونات من جيرانه، وكان هناك من هؤلاء الويلزيين عشرة آلاف خيال مسلح، وعدد كبير جداً من العساكر الرجالة، الذين دخلوا في حلف، وأقسموا بجرأة واختلاص على الأناجيل بأن يقاتلوا حتى الموت في سبيل حرية بلادهم وقوانين أجدادهم، وأعلنوا أنهم يؤثرون الموت بشرف على العيش حياة غير سعيدة في ظل المهانة، وهذا الموقف الرجولي والشجاع، يحق له أن يلمحق العار بالانكليز بشكل محق، الانكليز الذين بكسل وخنوع حنوا رقابهم إلى الأجانب، وإل كل واحد داس عليهم، وكأنهم رعاع شريرون، وحشاله الجنس البشري.

وقاحة إدوارد وأتباعه

ولم يشعر إدوارد ولا بقليل من الخجل أو الأذى، من ثورة الويلزيين، وكذلك من شجاعتهم، وذلك بسبب أنه كان يدعى باسم مولى الريازيين، ومع هذا لم يستطع ضبط إجراءاتهم الثورية، وبناء عليه ذهب الابن مسرة ثانية إلى أبيه وأمه، وكذلك إلى عمه، وتقدم بالرجاء إليهم ليمنحوه مساعدة فعالة، لكن الملك كان مثقلاً بالديون، في مقاطعات ماوراء الألب، وقد أقرضه الايرل كثيراً من المال، حيث عجل له فأسلحه مبلغ أربعة آلاف مارك، وكانت الملكة قد بددت أموالها بلافائدة وأنفقتها على الحرب ضد تورين، وعلى هذا كانت موجوداتهم من المال قد نالت إلى حد أنه لم يعد بإمكانهم مساعدة إدوارد بأية طريقة من الطرق، لأن أباه الملك — حسبما عمت الأخبار بين الناس في كل مكان — كان يسعى لسحق الانكليز، قام سكان التخوم سريعاً بإبداء العاطفة نحو الويلزيين وتشاوروا معهم، وكان من الأسباب الرئيسية وراء ذلك، أن إدوارد احتفظ بخدمته برجال ألحقوا الأذى بالكنيسة والمسلحة، وبات اتيدا وحقيقيا أنه لم يكن بين أتباع لويس الذي غزا انكلترا بجرأة وقاحة قطاع الطرق، مثل الذين احتفظ بهم إدوارد

المذكور في خدمته وأبقاهم في بلاطه، ونظراً لأعمالهم الشريرة الكثيرة وأفاعيلهم، أعتقد أنه من المفيد أن نذكر في هذا الكتاب خبراً من أخبار طغيان ادوارد (وذلك بالاضافة إلى الخبر الذي سلف أن ذكرته من قبل) من أجل أن يرى قراؤنا في أية متاهة من اليأس غرقت انكلترا، فعندما كان عابراً في منطقة آمنة من البلاد، في أيام السلام، قابله شاب، فأمر ادوارد، من دون امتلاك أية حجة للقتل أو التشويه أعطاه إياها الشاب، بقطع إحدى أذنيه، وباقتلاع إحدى عينيه، الأمر الذي جرى تنفيذه، مع أن ذلك كان مضاداً لكل أحكام العدالة، وعندما شاهد كثيرون هذا، لابل عندما استعادوا إلى ذاكرتهم الأذى الهائل والدموي الذي اقترفه بحق أحد النبلاء، عندما كان أصغر سناً مما هو عليه الآن، وقتها شرعوا بمقتته، وعلقوا على ذلك متسائلين: «إذا كان هذا قد وقع عندما الشجرة خضراء، ماالذي يمكن أن نرجوه عندما تصبح عجوزاً وجافة؟»، وعلاوة على ذلك استولى أتباعه على كل شيء كان معروضاً للبيع، دون أن يدفعوا شيئاً، واستولوا بالقوة على الخيول، وعلى العربات، وعلى سائقيهم، وظلموا السكان من دون رحمة، وهكذا تكدست الشرور يومياً فوق الشرور، والخسائر فوق الخسائر.

كيف جرى إرسال وفد من جامعة باريس إلى روما

تزايدت الفضائح والبغضاء يومياً بين المعلمين الباريسيين والرهبان الدومينيكان، وبعد كثير من المداولات الكبيرة، اختاروا بعضاً من أكثر الأساتذة المحاضرين شهرة، وكان هؤلاء: المعلم وليم دي سينت أمور Amour، والمعلم أودو أوف دوي Douai، اللذان كانا عضوين في مجلس الجامعة في الآداب، وفي صياغة المراسيم البابوية، وفي اللاهوت أخيراً، والمعلم كرستيان، وكان كاهناً نظامياً من بيوفيا Beauvais، الذي عدّ عن جدارة رئيساً للفلاسفة، وذلك بعدما كان عضواً في مجلس الجامعة في الآداب، ومحاضراً في اللاهوت، والمعلم

نقولاً أوف بار— سور— أوبي Bar- Sur- Aube, الذي كان عضواً في مجلس الجامعة في الآداب، والقوانين، والمراسيم، وكان يستعد ليكون محاضراً في اللاهوت، والمعلم جون دي غيكتافيل Gectaville, وهو إنكليزي، كان يدرس علم البلاغة في الجامعة، والمعلم جون بيلين، وهو فرنسي، وكان فيلسوفاً، صاحب سمعة عالية، وعضواً في مجلس الجامعة في الآداب، ولقد جرى اختيار جميع هؤلاء الرجال، الذين كانوا من أسر مشهورة، بعد مداولات عميقة، ومشاورات كبيرة (لأن الثقة كانت قد زالت) اختيارهم للذهاب إلى روما، وللتشاور مع البابا حول الوسائل التي يمكن بها الحفاظ على سلام جامعة باريس والهدوء فيها، وحول كيفية استعادة الثقة، ولاسيما وأن هذا الشر قد هدد بأن يتطور فيصبح أكبر، وقد جرى جمع المال لتغطية نفقات رحلتهم من الجامعة، وكان الرهبان الدومينيكان—كما ذكرنا من قبل— يدرسون، ويعظون، ويعلمون بعض العقائد الجديدة والمتناقضة، كانوا قد أخذوها من كتاب رئيس الرهبان واكيم Joachim, الذي كانت كتاباته قد أدينّت من قبل البابا غريغوري، كما أنهم صنفوا أيضاً كتاباً، قرروا أن يمنحوه العنوان التالي: «هنا يبدأ الانجيل السرمدى»، وكان يحتوي على عقائد أخرى ليس من اللائق القيام بذكرها، وأرسل الرهبان الدومينيكان أيضاً رسلاً إلى روما بسرعة كبيرة للمرافعة والدفاع عن قضيتهم ضد الجامعة، وللوقوف في وجه وفد المعلمين ومعارضتهم وجاهياً، وسخر الناس منهم، وأوقفوا دفع صدقاتهم المعتادة إليهم، وأطلقوا عليهم اسم منافقين، وخلفاء المسيح الدجال، ومبشرين زائفين، ومرائين، ومستشاري سوء للملوك والأمراء، وخلفاء مقيتين للمبشرين العاديين، ومتطفلين مفضوحين على غرف نوم الملوك، ومتلقين مراوغين للاعترافات، وهم رجال تراهم متشردين في المناطق حيث كانوا غير معروفين، وحيث كانوا يقدمون التشجيع والجرأة للمذنبين، وبعدها سمع البابا الشكايات من على الجانبين، أمر بالكتاب الذي سموه «الانجيل السرمدى» بأن يحرق بشكل سري، وإذا أمكن من دون إثارة فضيحة وإلحاقها بالرهبان،

وأمر بالشيء نفسه بالنسبة للكتابات الأخرى، التي قيل بأنها صدرت عن نبع واكيم الفاسد، وتم تنفيذ هذا بحذر وهدوء وسرية، بفضل حرص ومتابعة الكاردينال هوغ، مع أسقف ميسينا، اللذان انتميا إلى طائفة الدومينيكان، وبذلك هدأ الاضطراب لبعض الوقت.

انفجار مفاجيء من تحت الأرض

وفي حوالي الوقت نفسه، بينما كان بعض العمال يحفرون في أسفل قناة لجر المياه لتنظيفها من السوحول (لأن الماء كان قد توقف عن الجريان) حدث انفجار مفاجيء صدر من تحت الأرض، وقد ترافق مع سبب مشابه لنار الجحيم، تمكن خلال طرفة عين من خلق عدد من العمال وقتل واحد منهم على الفور، وأحرق، وشوه، وعطل أعضاء آخرين، أصبوا عاجزين تماما ومن دون فائدة لأنفسهم بذلك أهداهم وقاد. كان هناك بعض الذين قالوا بأن هذا الانفجار قد حدث يوم اداة معجزة، بسبب أن هؤلاء العمال انشغلوا في عمل ممنوع في ساحة غير موانمة من المساء.

مختصر أخبار العام

وعلى هذا انتهى هذا العام، الذي كان مخصصا إلى حد ما في الفواكه والتمتع، أما بالنسبة إلى الكنيسة والأساقفة فقد جلب أسوأ ازواج اليهودية وأكثرها شرورا، وإلى الفرنسيين المسد تهيئة لترقية الايرل رتشارد، وكان عام نهب بالنسبة لانكلترا، وقبلا أو بالاري مزديا أكثر مما ينبغي للأرض المقدسة، وقد جلب الحرب إلى ويلز، والاضطراب وانعدام الهدوء إلى سكوتلندا، وكان العام ممطرا وعاصفا فوق الحدود، إلى حد بدا فيه وكأن أيام الطوفان قد تجددت، فمن يوم عيد صعود العذراء المباركة، إلى يوم عيد طهارتها، لم يتوقف المطر عن المطول بشكل غزير يوميا، مما حوّل الطرقات وجعلها غير قابلة للعبور، وجعل الحقول قاحلة، ولذلك اهترأ القمح وهو في السنابل عند نهاية الخريف.

عام ألف ومائتين وسبع وخمسين كيف جرى انتخاب الإيرل رتشارد ملكاً لألمانيا

عام ألف ومائتين وسبع وخمسين لتجسيد الرب، الذي هو العام الحادي والأربعين لحكم الملك هنري الثالث، وكان الملك في لندن أيام عيد الميلاد، وهناك كان قد احتشد الإيرل رتشارد مع عدد كبير من النبلاء، حيث كان قدم إليه عدد من مقدمي الناس في ألمانيا، وقد أعلنوا بحضور جميع المحتشدين، بأنهم قاموا بموافقة عامة بانتخاب الإيرل رتشارد، انتخاباً صحيحاً، ملكاً على ألمانيا، وهم الآن يطلبونه ليكون ملكهم ومولاهم، إذا ما وافق على رغباتهم، وكان رئيس أساقفة كولون، والمستشار الأعلى للامبراطورية المقدسة، وبعض النبلاء الآخرين من ألمانيا، قد بعثوا بوساطة هؤلاء الرسل الخاصين، رسائل موثقة، تحمل بينات حول الاجماع في الانتخاب، وتؤكد ذلك وتثبته، وتعلن أن ما من أحد جرى قط انتخابه إلى ذلك المنصب، بعفوية وبالاجماع مثله الآن، وذلك أمام القليل من العوائق، وعندما كان الجميع في حالة تردد وشك حول ما ينبغي عمله بالنسبة لهذه القضية، لأن وجود الإيرل كان ضرورياً بالنسبة لمملكة انكلترا، خاطب الملك الجميع وقال: «إنني أنصحكم وأرجوكم أن لاتدعوا الجبن يظهر، بالرفض وبعدم قبول هذا التشريف الذي منح إليكم وقدّم من قبل السماء، وبني البشر»، وفي الوقت الذي عبر فيه بعضهم عن خوفهم، على أساس أنه خلال مدة عدة سنوات قلائل، جرى انتخاب شخصين، ومن ثم جرت ترقيتهما إلى حكم ألمانيا، ثم وصلا إلى نهايتهما بوسائل بشعة، خاطب آخرون الإيرل بكلمات مطمئنة، حيث قالوا: «أيها الإيرل الأكثر عقلاً وحكمة، لماذا أنت متردد، وكأنك مرعوب من سوء حظ اللاندغريف هنري، أو من الموت البشع للكونت وليم الهولندي؟ إنه ليس البابا هو الذي يقحمك في هذا المنصب بالقوة، بوعدك بما هو ضروري من منهوبات

الكنيسة، ومن سلب الذين حملوا الصليب، الأمر الذي لن يكون مفيداً لك، لأن هذه الأموال التي حصل عليها البابا بشكل غير صحيح، قد أثارت مشاعر الناس، ليس لتقديم الرحمة، بل للغضب، فهناك مبلغ من المال، قد جمع من مملكة ألمانيا، هو محفوظ باخلاص لصالحك ولاستخدامك، كما أن لديك كميات وافرة من المال خاصة بك، وكأنك أوكتافيان آخر، كما أنك مدعوم بأصدقاء ألمان وكذلك انكليز، كما أنك محاط بأقرباء وكأنك محاط بسور، فلا تدع بلادة الرفض أو الجبن تتغلب عليك، وتجعلك كسولاً ومترخياً، بل تشجع وتمتن لخدمة الرب، ولا تكن مثل روبرت كورتهوز *Curthose* دوق نورماندي الذي تهيأت له الظروف مرة، عندما كان يقاتل في سبيل الرب في الأرض المقدسة، حيث عرض عليه بشكل عفوي وبإلهام من السماء لأن يكون ملكاً على مملكة القدس، حتى يتمكن من الحكم على ميراث المسيح، وقد رفض هذا العرض بعناد، فأحس بعد ذلك بغضب الرب الحاد، بسبب هذا الرفض، ولم يواجه قط بعد ذلك أي سعادة أو ازدهار، وقام الملك أيضاً ومعه اخوته، وبشكل خاص الأسقف المنتخب لوينكستر فأعطوه تشجيعاً حيويًا لقبول هذا العرض، وأعلن بأن هذا التشريف سوف يرفع من شأن الدولة الانكليزية إلى الأبد، وعند الفراغ من هذا الإعلان، تشجع الايرل وصار رجلاً، ولأنه حمل أمالاً عظيمة، قال بصوت متشوق: «وأنا واثق برحمة الرب، ومع أنني ضعيف وغير جدير، أنا على استعداد لأن أتولى بنفسني حمل هذا العبء»، وهذا التشريف الذي منح إليّ، وكذلك أنا أمل، بحق السماء، أن لا يقال عني متخاذلاً وجباناً»، وأضاف بعدما أدار وجهه نحو الأساقفة الذين كان واحد منهم رتشارد بانغور *Bangor* (الذي روى هذه الحقائق إلى كاتب هذا الكتاب): «وبالنسبة لي، أنني قبل أن أغادر هذه البيعة، لعلمي أتعرض للحرق بنار أبدية، وأن أموت ميتاً مجانياً، إذا كنت سأفعل هذا صدوراً عن المطمح أو الشره، أو لأي سبب آخر غير تسمين

أوضحاع تلك المملكة، الأمر الذي أرجو أن يعطيني الرب القدرة على فعله، وأن أحكم بكل عدل، واعتدال، وشرف، هؤلاء الذين قاموا بشكل عفوي باختياري لأكون سيدهم»، وأعطى هذا الخطاب الذي جعل كثيرين ييكون، أعطى السرور الأعظم للرسل الألمان، الذين كانوا حتى الآن شاكين حول قبوله، ولقد تأكدوا الآن من قبوله، ومن نواياه الطيبة نحوهم، ولذلك انطلقوا عائدين مبتهجين، وأخذوا طريقهم نحو الوطن، لا يصل الخبر حول ذلك إلى النبلاء الذين أرسلوهم، وقد تمكنوا من الوصول خلال عشرين يوماً بعد يوم عيد الميلاد.

السبب الذي دعا نبلاء ألمانيا إلى انتخاب الإيرل رتشارد

كره النبلاء الألمان (الأعظم بينهم هم الذين جرى ذكرهم في المقطع التالي) تجبر الفرنسيين، وقد أغضب أحدهم الآخر، وهكذا لم يقع اختيارهم على أي رجل فرنسي، أو أي واحد من ذلك الجنس، لأن يحكمهم، كما أنهم لم يرغبوا في اختيار أي واحد من بينهم أنفسهم، بسبب خلافاتهم الداخلية، لأن الألمان عنيفين وحادين، و«كل رجل متفاخر سوف يكون عديم الصبر في القاعة»، كما أنهم لم يختاروا ايطالي أو روماني، مبتعدين عن أصدقاء البابا بسبب نهمهم الذي لا حدود له، وبناء عليه قاموا بعد تداول دقيق وتشاور، فانتخبوا الايرل رتشارد، وأيضاً بحكم تكلمه اللغة الانكليزية، التي مشابهة بالصوت للألمانية، لأنهم يمتلكون أصلاً واحداً قديماً وحديثاً، فالأصل القديم يمكن اكتشافه من التواريخ، أما الحديث فيمكن تتبع أثره في أيامنا من أصل دوق برنويك Brunswick، ودوق سكسوني، ومن نسب الامبراطور أوتو، الذي كان ابن امرأة انكليزية، أي ابنة هنري، ملك انكلترا، وأنا أقول: إنهم اختاروا الايرل رتشارد، على أساس اخلاصه، وثباته، وحكمته، وكذلك أيضاً على أساس ثروته، ولذلك قال أحد الشعراء الهجائين «المال يصرخ ويقول من أجل خاطرة، تزوج كورنويل Cornwall من روما».

قائمة بأسماء مقدمي ألمانيا

فيما يلي أسماء مقدمي ألمانيا الذين عليهم يعتمد انتخاب ملك تلك المملكة، التي هي كما هو معروف خاضعة للامبراطورية الرومانية: رئيس أساقفة كولون، الذي لقبه هو المستشار العالي للامبراطورية الرومانية المقدسة»، ولكن هذا اللقب هو أدنى مكانة من لقب رئيس الأساقفة، ورئيس أساقفة مينس Mayence ورئيس أساقفة تريفي Treves، وملك بوهيميا، والكونت الملكي للراين، ودوق النمسا، ودوق سوابيا، وكونت بافاريا، ودوق بولاندا، ومركيز مايخ Miche، ومركيز براندنبيرغ Brandenburg، ودوق سكسوني، ودوق برونويك، ودوق كارينثيا Carinthia، ودوق ميلاي Melaye ودوق برابانت ولـوفين Louvaine، ولاندغريف ثورونجيا، ومركيز مايس Mise، وبين جميع هؤلاء النبلاء، الأكثر تميزاً والأعلى مكانة هو رئيس أساقفة كولون، الذي كان مكلفاً بموجب عرف قديم مقرر، أن يتولى تتويج ملك ألمانيا في اكس لي شايل.

كيف أرسل الإيرل رتشارد بعض الأشخاص الموثوقين إلى ألمانيا ليتعرفوا على نزعات النبلاء

وكان إيرل غلوستر وجون مانسيل رجلين حكيمين ولهما نفوذهما، ذلك أرسلهما مسبقاً باسم الإيرل، إلى ألمانيا، ليكتشفا الرغبات الصافية وغير المشوبة للنبلاء حول القضية المذكورة أعلاه، وقد وجد هذان المندوبان أن كل شيء كان مناسباً، وأن قلوب مقدمي تلك البلاد، وكذلك نزعاتهم وإخلاصهم هي للإيرل، حتى أنهم أقسموا على الفور بتقديم الولاء والإخلاص له، وجرى تسليم مفاتيح بعض المدن والقلاع إلى هذين الرسولين.

كيف وضع الفرنسيون الذين كرهوا الألمان خطأً لاعتقال الرسل

وعندما علم الفرنسيون بهذه الحقائق بدأوا يشعرون بخوف كبير، من أنه إذا مانجح الايرل رتشارد في الحصول على عرش ألمانيا، حسبما كان الطريق آنذاك مفتوحاً له، سوف يلحق الأذى بمملكته، وذلك بالمطالبة ومن ثم استرداد حقوق ملك انكلترا، ولذلك وضعوا خطأً للإيقاع بالاييرل رتشارد وبرسله واعتقالهم، وسعوا إلى اضعاف عزيمة وقرار بعض نبلاء ألمانيا، بالخضوع إلى الايرل المذكور، وبذلك خيل إليهم أنهم سوف يعيقون جزئياً أو كلياً ترقيته إل ذلك المنصب السامي، ولكن بفضل الرب، وقف الألمان بثبات أعظم إلى جانب الايرل في تلك المسألة، وذلك بسبب الكراهية التي كانت قائمة بين الفرنسيين والألمان، ولأنها كانت متجذرة، كان الذي لايرضي الفئة الأولى، كان يعتقد أنه مفيد للفئة الثانية، وعندما اكتشف الفرنسيون نتيجة محاولتهم، أخذوا وهم حزينون يواسي أحدهم الآخر.

كيف واسى الفرنسيون أحدهم الآخر

كان الامبراطور أوتو رجلاً عظيم الشجاعة في الحرب، وغنياً بوساطة أموال ملك انكلترا، وهو قد جاء من أصل مختلط انكليزي - ألماني، وعندما ارتقى إلى تسلم الامبراطورية الألمانية هدد نبلاء مملكة فرنسا، وبسبب ذلك أحيطت باريس بسور، ولذلك هو لم ينجح، ومجدداً قام فردريك الذي كان أغنى أباطرة الرومان وأكثرهم قوة، والذي كان أيضاً أكثر ملوك الأرض دهاء، بالدخول في تحالف مع ملك انكلترا، حيث أنه تزوج من أخته، وأنفق أمواله في سبيل تدمير المملكة الفرنسية، لكنه لم ينجح في محاولاته التي وعد فيها بتقديم العون للملك انكلترا، هذا ولقد كانت قدرة الايرل رتشارد أدنى كثيراً وأقل إخافة بالنسبة لنا، لأنه كان

جبانا وبليها، وعديم الخبرة في شؤون الحرب، وحتى الآن قدم الرب العون إلينا، وبفضل وساطة وعون القديسين العائدين لهذه المملكة نحن دوماً منتعشين تحت حماية جناحيه، وإذا كنا في الأرض المقدسة، حيث قاتلنا مؤخراً في سبيل الرب وفي خدمة الكنيسة، قد عانينا من الكوارث المضاعفة بسبب ذنوبنا، فإنه مع ذلك وهو في غضبه سوف يتذكرنا برحمته.

كيف قام الملك الفرنسي بجولة في نورماندي وفي المقاطعات الحدودية

اتخذ الملك الفرنسي — على كل حال — احتياطات من أجل المستقبل، وقام بجولة في نورماندي في حدود مملكته، لتشجيع قلوب الذين كانوا يرتجفون ولتقوية دفاعات المدن والبلدات وترميمها، وقد طمأن نبلاءه وشجعهم، وخاصة الذين ندعوهم النظراء الاثني عشر لفرنسا، ومثلما قدمنا أعلاه قائمة بأسماء مقدمي الناس في ألمانيا، الذين عليهم يعتمد انتخاب الملك، أعتقد أنه لن يكون غريباً على موضوع هذا الكتاب تقديم قائمة بأسماء النبلاء الفرنسيين، خاصة أولئك الذين تتعلق بهم إدارة الأمور الصعبة، المتعلقة بالمملكة الفرنسية.

النظراء اللاهوتيون لفرنسا

رئيس أساقفة الرايم، وهو الذي يتولى مسح الملك الفرنسي بالميرون المقدس (ولهذا السبب يعد الملك الفرنسي هو الأكثر عظمة بين جميع الملوك)، ولذلك هو المقدم، والأكثر تميزاً بين جميع نظراء فرنسا، وأسقف نويون Noyon، الذي هو كونت ملكي، وأسقف بوفيا Beauvais، الذي هو أيضاً كونت ملكي، وأسقف تشالون Châlons، وأسقف لانغري Langres، الذي وإن كان فقيراً يحتل مرتبة عالية، وأسقف ليون، الذي هو دوق وكونت بفضل القديس ريمي، لأن إليه نزل الميراث الشهير.

